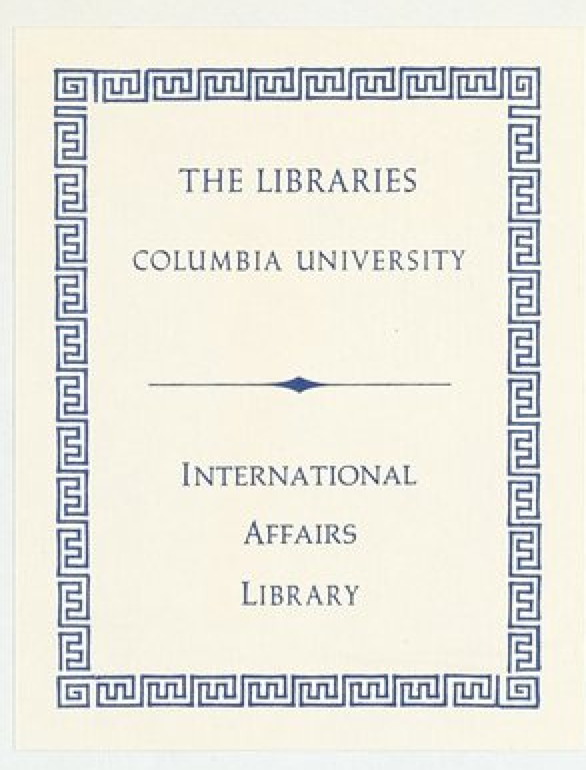


هذا الوطن العربي

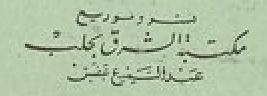
دراسات في المجتمع العربي

رصد وتحليل وتعليل

أنور العقاد

الأستاذ المحاضر في كليتي الزراعة والتجارة

بجامعة حلب



هذا الوطن العربي

دراسات في المجتمع العربي

رصد وتحليل وتعليل

انور العقاد
الأستاذ المحاضر في كليتي الزراعة والتجارة
بجامعة حلب

مكتبة الشرق
عبد السميع عفش
حلب - بناية العداس
ص.ب ٤١٥ . هاتف ١٣٧٧٣

المقدمة

هذا الكتاب وضع اصلاً بالاشتراك مع الزميل الاستاذ سهيل عثمان على عجلة من الزمن باسم الطاقة العربية، الا انه احتاج بعد مرور اكثر من ثلاث سنوات الى تعديلات جوهرية دخلت في اغلب فصوله كما احتاج الى الغاء بعضها الآخر والاستعاضة عنها بالجديد من المواضيع .

وقد اطلقنا على هذا المؤلف الجديد الذي انفردنا بتعديله بعد موافقة الزميل ، اسم « هذا الوطن العربي » ، الذي نؤمن بوحدته وحريته ونزوعه الى الخير والعدل ورسالته الانسانية .

والكتاب يعرض بعض مشاكل الوطن العربي ويحاول ان يتلمس لها الحلول بعد معرفة اسبابها وتعليلها ، وموقف العرب من الوحدة والحرية والاشتراكية وغيرها من المواضيع المطروحة على البحث في جيلنا المعاصر .

واننا اذ نعترف بأننا استقينا من الينابيع المختلفة قبل ان نشكل جدولنا هذا ، لا بد من ان نشكر كل من اسهم في اخراج هذا الكتاب بقليل او كثير .

١٩٦٣/٢/١١ المؤلف

البابُ الأوّلْ

مقدّمة عامّة

اولاً - معنى المجتمع العربي وماهيته .

ثانياً - عناصر المجتمع العربي .

ثالثاً - خصائص المجتمع العربي .

أولاً ـ معنى المجتمع العربي وماهيته

نعرف المجتمع العربي بأنه «منظومة متفاعلة من القوى الطبيعية والبشرية ربطت أجزاءها علاقات عائلية وسياسية واقتصادية وانتشرت فيها مفاهيم عقلية واخلاقية وفنية معينة ، وتقوم هذه المنظومة على أرض محدودة معلومة تدعى الوطن العربي وينتسب سكانها اجتماعياً الى الأمة العربية .

ولنوضح ماهية المجتمع العربي نلاحظ النقاط الآتية من التعريف :

أولاً ـ إننا دعونا المجتمع العربي بالمنظومة المتفاعلة لأننا ندرك تماماً تعلق العناصر جميعاً بعضها بالبعض الآخر ، واعتماد كل منها على الاخرى ، فلا يمكن أن تتطور السياسة العربية بمعزل عن الاخلاق والاقتصاد العربيين ، كما أن القوى الطبيعية تؤثر على القوى البشرية وتتأثر بها . فالمجتمع الواحد كائن عضوي متآخذ مترابط .

ثانياً ـ ان المجتمع يضم علاقات تنشأ بين أفراده أو بين مؤسساته ، وهذه العلاقات قد تتخذ شكل أنظمة كأساليب الانتاج والسلوك العائلي ، وربما سجلت الانظمة من قبل المشرعين ، فأصبحت قوانين ، وربما بقيت تقاليد غير مكتوبة والأمران لا يغيران من طبيعتها الجوهرية .

ثالثاً ـ لقد حددنا المجتمع العربي وفرقناه عما يجاوره من المجتمعات الاخرى بالأرض والسكان ، فنحن لا نستطيع أن نكتفي بالأرض وحدها

فقد يحمل المغتربون معهم الى بلاد الهجرة تقاليد مجتمعهم وقيمه وانظمته ويظلون متطلعين الى بلادهم وان بعدوا عنها .

فالسكان أو البشر أو الشعب عنصر أساسي في تعريف المجتمعات المشابهة للمجتمع العربي .

رابعاً - لقد نعتنا أفراد المجتمع العربي بأنهم منتسبون اجتماعياً الى الأمة العربية ، ونحن نلح على الانتساب الاجتماعي لأن الامة العربية لا تقوم على أساس عرقي عنصري بل على اسس اجتماعية كاللغة والتاريخ والتفاعل مع الارض العربية مما سنراه في موضعه .

ثانياً ـ عناصر المجتمع العربي

يضم المجتمع العربي الكبير أفراداً عديدين يسكنون على أرض معينة تربطهم أنظمة وعلاقات مشتركة وتسودهم مفاهيم فكرية وفنية واخلاقية تنشأ عنها مظاهر حضارية خاصة .

واليكم تفصيل هذه العناصر :

أولاً : **العنصر الاول** من عناصر المجتمع العربي هم **الناس** الذين يحيون على أرضه ويتعايشون فيه ، وهم ذوو عدد محدود يختلف حسب الأزمنة ويتوالدون ويتوفون بنسب تمكن معرفتها ، كما أنهم قد يتكاثفون في بعض الأجزاء أكثر من الأجزاء الاخرى ، وربما هاجر قسم منهم أو وفد عليهم مهاجرون من المجتمعات الاجنبية .

فمعرفة السكان من سائر النواحي الديموغرافية أساسية في فهم المجتمع العربي .

ثانياً ـ **والعنصر الثاني هو الارض** العربية ـ إذ أن مساحتها وأنهارها وأمطارها وما تطل عليه من بحار وما يرتفع فوقها من جبال وما ينخفض من وديان وما تضم من صحارى وسهول وسهوب ، وما تخبء في جوفها من معادن وكنوز ، كل هذه الامور تؤثر تأثيراً بالغ

الاهمية على المجتمع العربي وتطبعه بميزات خاصة ، تجعل وحدته امراً ضرورياً .

ثالثاً _ **أما العنصر الثالث فهو الانظمة** التي تتخذها العلاقات الناشئة بين اجزاء المجتمع ، فللأسرة العربية انظمتها ، كذلك الاقتصاد والسياسة ، فانهما يسيران في بلادنا العربية وفق قواعد رسمت خلال التاريخ العربي الطويل .

واذا اضطررنا الآن الى سرد اهم الانظمة سرداً سريعاً كأن نقول نظام الاسرة ونظام السياسة ونظام الاقتصاد فلا شك أن القارىء يدرك سلفاً سعة هذه العبارات وما تنطوي عليه من نواح متعددة وما ينشأ عنها من مناقشات تستهدف انتقاء الأفضل للمجتمع العربي في سائر الميادين .

رابعاً _ **والعنصر الرابع هو المفاهيم العقلية والاخلاقية والفنية التي تشكل** جزءاً حيوياً من المجتمع العربي ، فمستواه الثقافي وأهم العلوم التي تمكن منها في الماضي وآماله العلمية للمستقبل وما يحتاج اليه من اوجه المعرفة البشرية ثم القيم الاخلاقية التي يعتمدها اكثر من سواها في العلاقات بين الناس ونظرته الى الفضائل والرذائل والخير والشر ، وأديانه التي تعالج مصير الوجود الانساني كله ، ثم ذوقه المتجلي في الفنون الشعرية والنثرية والاغاني الشعبية والمتطورة ، والثياب وطرز البناء ،اي رأيه في الجمال والقبح والمستساغ وغير المستساغ ، كلها أمور تساهم بنصيب وافٍ في تحديد معالم المجتمع العربي .

ثالثاً ـ خصائص المجتمع العربي

يتصف المجتمع العربي بخصائص جوهرية تتجلى في سائر بقاعه وعلى مدى تاريخه .

واذا كانت الدراسات حول هذه الخصائص ما زالت محدودة ، لقرب عهدنا بالوعي القومي الحديث ، فاننا سنساهم فيهـــا ، عسى أن نضيف الى المجهودات الفكرية المبذولة في هذا السبيل جهداً متواضعاً يستهدف الحث على دراسة هذه المسألة وبحثها بحثاً وافياً .

وخصائص المجتمع العربي كما نراها هي :

اولاً ـ **إنه مجتمع قومي** ـ فنحن لم نطلق على العرب اسم مجتمع لانهم طبقة اقتصادية محدودة ، إذ أن المجتمـع العربي شامل للطبقات ، فهو أوسع منها ، وان تستطيـع طبقة واحدة منه كالاغنياء مثلاً أن تزعم أنها ممثلة المجتمع العربي ، فالمجتمع العربي أرحب منها بكثير ، وكذلك الأمر مـع المتعلمين وغير المتعلمين . ثم إنه ليس مجتمـع قارة أو منطقة جغرافية أخذت بمحض الصدفة كالمجتمـع الاوروبي او الاسيوي أو الافريقي أو مجتمـــع البحر الابيض المتوسط ، أو وادي النيل أو العاصي . وإنما هو مجتمـع تحددت معالمه بوجود الأمة العربية ، وقد يضم وادي النيل والعاصي وقسماً من سواحل المتوسط ، ولكنه لا ينحلّ الى واحد منهـا ، وهـــو ليس مجتمعاً اقليمياً محلياً كالمجتمـع العراقي أو السوري أو المصري بل هـــو منظومة كبيرة مترابطة لا يستطيـع أي قطر من أقطاره أن يدعي التفرد

يحمل خصائصه وتمثيل صفاته ، فمن أراد المجتمع العربي فليطلبه في سائر بقاع الارض العربية الواسعة وعند جميع سكانها من بدو وحضر ومتعلمين وأميين وعمال وطلاب وفلاحين وعراقيين ولبنانيين ونجديين . . .

وهذه الصفة الجوهرية للمجتمع العربي بدت بشكل عفوي منذ أقدم العصور ، فقد كان العربي في العهود القديمة وقبل أن يتبلور مفهوم القوميات ، يشعر بعروبته ويفتخر بها ، كان العربي البدوي يتحسس عروبته المشابهة لعروبة سكان المدن العربية وابن قبيلة تميم يجتمع مع سليل ذبيان في سوق عكاظ وحول الحرم ، والوثني يدرك أنه عربي كالقبائل التي دخلت المسيحية ، وهذا ما جرى أيضاً بعد الثورة العربية الاسلامية .

ثانياً - إنه مجتمع تاريخي :

فهو ليس وليد سنوات قليلة ولم يكتسب مفاهيمه وتقاليده وذوقه بمحض الصدفة او بشكل مرتجل ، وانما هو قديم ،قديم حتى ما يكاد المؤرخون يتبينون الزمن الدقيق لنشوئه ، ولذلك يعتبر من المجتمعات العريقة الضاربة في القدم ، بل يُذكر اسمه كلما ذكر أسم الفراعنة واليونان والحثيين والآشوريين وما يزال يذكر اسمه الى جانب الفرنسيين والانكليز والالمان والصينيين واليابانيين . .

إنه يمتد على احقاب طويلة وهذا الامتداد البعيد في الزمان يُكسبه ميزات خاصة ، إذ يجعله صاحب تراث في سائر النواحي ، ويجعل تطوره ملزماً بالاعتماد على قواعد تاريخية ، فما دام شعره قديماً لا تستطيع الحركات المجددة في الشعر أن تكتسب الذوق العربي ما لم تعرف كيف تتطور ابتداءً من التراث الشعري الفني للعرب وما دامت انظمة الأسرة فيه عريقة لا تقدر الانظمة الحديثة ان تتجاهل أبداً القوة التي تتمتع بها

الاسرة العربية كما تمخض عنها التاريخ . وهكذا في سائر الميادين .

ثالثاً ـ هو مجتمع أصيل :

أي أنه لا يقبل التقليد الاعمى لسواه ، وهذه خاصة بديهية للمجتمعات التاريخية العريقة ، فهو قد أعتاد أن ينشىء انظمته ومفاهيمه وقيمه انشاء ، ويفضل أن يقدم لسواه انظمة وحضارة من عنده على أن يأخذ عنها بشكل حرفي ، وحين تملي عليه ضرورات التفاعل الانساني أن يستمد من سواه فهو يتمثل ما يأخذ ويصبغ الاجنبي بصبغته الخاصة المميزة . لقد نبع المجتمع العربي فنشر الدين الاسلامي وأفاد به شعوباً عديدة على مر السنين ، ونبع فأنتج شعره المميز وعلومه التي ساعدت البشرية كافة على التقدم وحين استمد من الحضارة اليونانية جوانب من ثقافتها أضفى على هذه الجوانب طابعه ومزجها بقيمه وتفكيره الاخلاقي والديني والعقلي ، وحين جابهته الحضارة الاوروبية المعاصرة بعلمها الغزير وصناعتها المتفوقة لم يرض على فقره وقرب عهده بالنهوض أن يكون ناسخاً عنها مصعوقاً أمامها ، وما زال يطمح في أن ينبع من ذاته وما زال يتمثل كل ما يأتيه .

رابعاً ـ هو مجتمع حي :

والمجتمع العربي يصمد امام عوادي الدهر ويحافظ على وجوده ضد النكبات والكوارث ولولا صفة الحياة هذه لما بقي حتى الآن ، إن مجتمعات عديدة ظهرت وعاشت مدة من الزمن ثم مضت كما تنطفىء النجوم ، أما مجتمع العرب فقد صَمَدَ أمام غزوات الاحباش والفرس والتتار والمغول ، ومرت عليه أيام كافية للقضاء على أمم كثيرة فلم تقض عليه ، فقد عرف المجاعات والزلازل والحروب ، واضطهدته أنواع شتى من الاستعمار ، فبقي

حقيقة حية لا يستطيع أحدٌ في العالم أن ينكرها ، وهذه الخاصة تقوى الأمل في المجتمع ، وتجعلنا نؤمن بأنه سيحقق أهدافه .

والابيات التالية إنما تعبر عن جوهر أمة ومادة شعب أبي :

ورثنا المجد قد علمت معدٌ نطاعن دونه حتى يبينا
اذا ما المَلْكُ سام الناس خسفاً أبينا ان نقر الذل فينا
لنا الدنيا ومن أضحى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا

خامساً ـ هو مجتمع خصب :

فهو غني بالامكانيات ، ارضه غنية بمساحتها وزراعتها ومعادنها وحتى الصحراء فيه اصبحت اليوم من مراكز الثروة الاساسية ومما تختصم الدول على امتلاكه ، فهو خصب بامكانيات سكانه الذين استطاعوا وهم يقاسون شظف العيش البدوي ان ينظموا احسن الشعر ، ويقدموا اروع الحكم ، وحين نستعرض تاريخهم نرى قدرتهم الفائقة على الخروج بسرعة من وضع الشعب المستضعف الى حال الامة الظافرة المنتصرة المنتشرة في بقاع واسعة من الارض .

وهو خصب بلغته التي اثبتت قدرتها على استيعاب المفاهيم الحضارية المتجددة بسيرها جنباً الى جنب مع لغات نشأت حديثاً بينما نشأت اللغة العربية منذ ازمنة موغلة في القدم .

سادساً ـ هو مجتمع قيم :

والمجتمع العربي مجتمع قيم ، فهو لا يرضى ابداً ان تقوم التصرفات على مجرد الأنانية والاهواء ، سواء أكانت فردية او جماعية ، إنه يبحث على المسوغ الاخلاقي لكل عمل ، وهو يفضل أن تتأثر مصلحته على أن تبدو منه أعمال لا ترضى عنها القيم الرفيعة التي يؤمن بها ، لقد افتتح العرب بلاد غيرهم يوم أن كانت الفتوحات امراً مقبولاً فعاملوا

المغلوبين معاملة ينحني أمامها العصر الحديث ناهيك بالعصور القديمة ، حتى قال احد المستشرقين « ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب » . واستخدموا الرقيق يوم أن كان الرقيق امراً لا بدّ منه ولكنهم اعطوه حقوق البشر وصانوا حياته وسمعوا شكواه ، على حين كان الرقيق عند الآخرين ، لا يستحق الحد الادنى من المعاملة الانسانية . لقد دخل أبو لؤلؤة على عمر بن الخطاب شاكياً على المغيرة بن شعبة وهو من اركان الدولة آنذاك فلو أن أبا لؤلؤة كان عبداً عند قومه الفرس هل كان يستطيع ان يشتكي على سيده عند مختار قرية بسيطة ،وهل كان يحق له أن يري في الحلم أنه قابل كسرى انو شروان . . ، ولقد عامل العرب الاعاجم معاملة رحيمة مخالفة في حلمها ورحابة صدرها لاتجاه عصرهم كله ، حتى طمع بهم الشعوبيون وتآمروا عليهم في عقر دارهم ، فلم يتنازل العرب عن قيمهم وظلوا يخشون أن يأتوا من الاعمال ما لا توافق عليه ضمائرهم الحساسة .

وان اهتمام العرب بالقيم هو الذي يجعل قوميتهم انسانية إذ لا يريدون الخير على حساب الآخرين كالمستعمرين وانما يبغونه لأنفسهم وللناس اجمعين ويبذلون الجهد في سبيل تحقيق كرامة الآخرين .

سابعاً ـ مجتمع ذو دور حضاري :

إذ ما دام المجتمع العربي قائماً على القيم والمثل العليا ، فهو لا يستطيع أن ينعزل ويُشغل بأموره الخاصة به وحدها ، بل يحسّ دائماً بأنه مكلف بمهام جليلة في المجموعة الانسانية ، وهذا ما يتجلى خلال تاريخه المديد . انه اعطى للناس ديناً وشرحه لهم وضحى في سبيله ، وهو اليوم رغم وقوعه تحت عبء ثقيل من الضغط الاستعماري والفقر والجهل والمرض ، يتطلع الى بني الانسان جميعاً ، ويكره الظلم أنىّ وقع ، ويتحمس ويساعد الشعوب الساعية الى التحرر والتقدم ، فهو يحس بأن

وجوده على هذه الأرض ليس عبثاً وانما خلقت الامم لكي تكون اعضاء في جسم الانسانية يعمل كل منها لخير الجميع كما تفعل اعضاء الجسد الواحد.

وفي ختام بحثنا هذا لا بد من ان نعرض الى نقطتين اساسيتين :

اولاهما ـ أن الأمور الاجتماعية ليست من الدقة كحوادث الطبيعة ، وهذا ما يجعل قوانين علم الاجتماع احتمالية تنطبق على الاغلبية ولا تحيط بالمجموع كله ، واذا طبقنا هذه القاعدة على خصائص المجتمع العربي نجد افراداً من العرب يتنكرون لقيم ، وآخرين جفت اصالتهم ، وبعضاً ابتعدوا عن الاتجاه الانساني . ولكن هذه الاستثناءات لا تنفي أبداً أن الاعم الاغلب عند العرب هو احترامهم للقيم ونبعهم بأصالة وتقديرهم لمهمة مجتمعهم الانسانية . ويزداد تصديقنا لهذه الخصائص اذا قارنا نسبة وجودها بين افراد مجتمعنا الذين ما يزال بعضهم جهالاً غير واعين بنسبة وجودها في بعض المجتمعات الاخرى ولدى المتعلمين من ابنائها .

وثانيتهما ـ أننا لا ندعي ابداً تفرد المجتمع العربي بهذه الخصائص ، إذ لا يضيره أن تتصف مجتمعات اخرى بفضائل يقوم هو على تقديرها ، وإننا نشجب الآراء والنظريات المتعصبة التي تضع أمة من الامم في منزلة أعلى من سواها ، بل نعتقد أن هذه الخصائص ما دامت قد وجدت في أحد المجتمعات على الاقل فهي ممكنة التحقق بالتوجيه والوعي الحقيقي لأكثر بني الانسان ، وعلى كل حال فان دراسة خصائص المجتمعات الاخرى ليس محلها في هذا الكتاب .

البابُ الثّاني

عوامل الوحدة في الوطن العربي

تمهيد

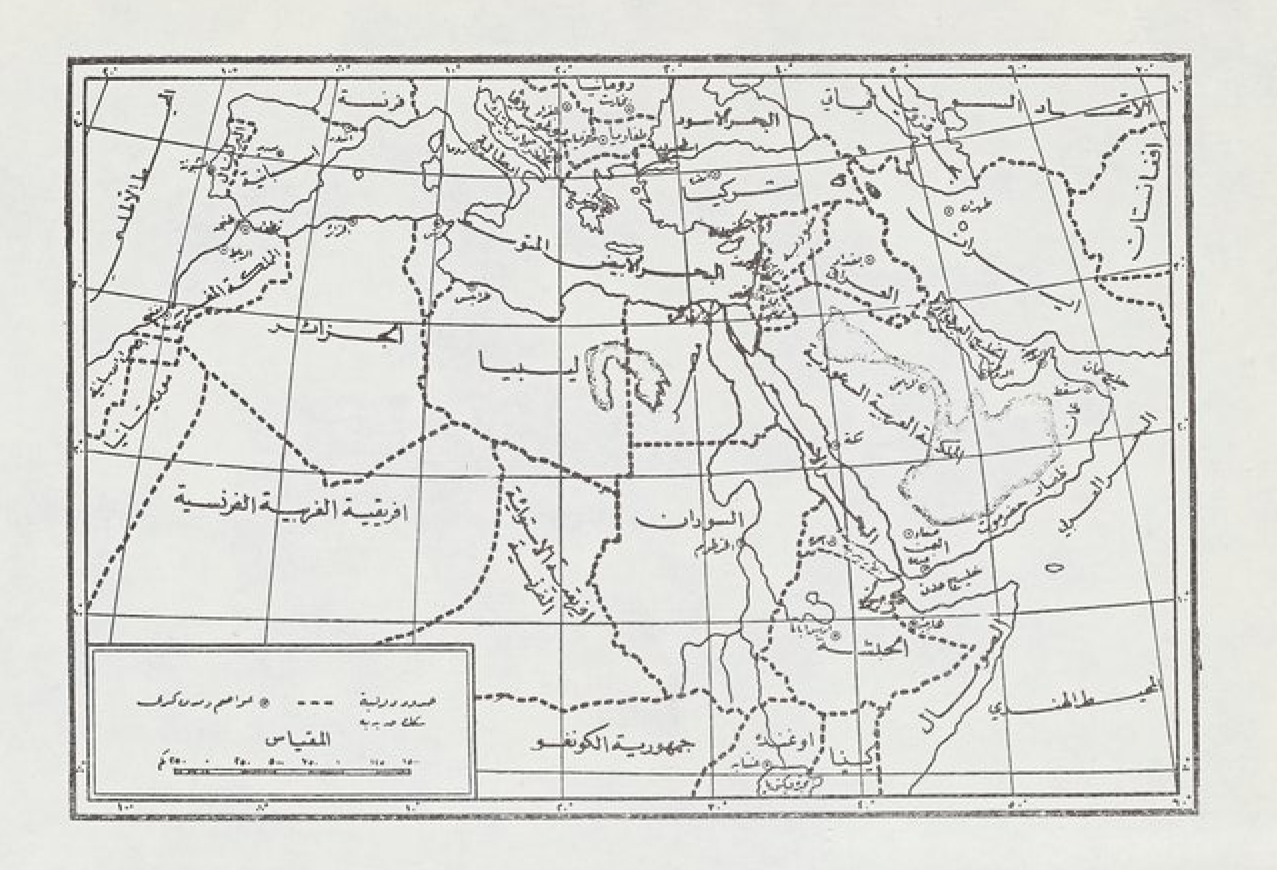
التعريف بالوطن العربي

الوطن العربي هو الارض الممتدة من المحيط الاطلسي غرباً الى الخليج العربي شرقاً ، ومن جبال طوروس وكردستان في الشمال والشرق حتى البحر العربي في الجنوب. وتبلغ مساحته ١١،٥ مليون كم^{2} ، اي انها تزيد من مساحة القارة الاوروبية وكذلك على مساحة القارة الاوسترالية .

ويتوزع الوطن العربي على قارتين : افريقيا وآسيا ، وليست القارات حدوداً للاوطان فعدد كبير من الامم يسكن على ارض موزعة بين قارتين كالاتحاد السوفياتي وتركيا ! ويضم قسمه الافريقي ابتداء من المغرب ، المغرب العربي وموريتانيا ، ثم الجزائر ، فتونس ، فليبيا ، فمصر والسودان ثم الاريتريا والصومال . بينما يضم الشطر الاسيوي كلاً من سورية ولبنان والعراق وفلسطين وشرقي الاردن والمملكة العربية السعودية ، واليمن كما يضم هذا القسم امارات عديدة موزعة على ساحلي الخليج والبحر العربيين ، وهي الكويت ، فالبحرين فقطر فعمان ، والامارات السبع على الساحل الاخضر ، ثم عدن والمحميات التي تحتلها بريطانيا .

وقد سكن العرب هذا الوطن منذ أقدم الازمنة ، فانتشرت قبائلهم في الازمنة الغابرة قبل ميلاد المسيح بآلاف السنين في سوريا وفلسطين والعراق ورحل عدد منها الى مصر والجزء العربي من افريقيا فاستوطنوه .

ولقد كان هذا الوطن في تاريخنا القريب ، قبل الاسلام وبعده يشكل وطناً واحداً للعرب والامة العربية ، وكان دولة واحدة يشعر العربي في كل صقع من اصقاعها وكأنه في بيته إذ أنه بين اخوانه حيثما حل ورحل ، على الرغم من وجود بعض الامارات المستقلة فيها أحياناً . ولم تنفصم عرا هذه الوحدة العربية ، الا عندما تدخل الاعاجم في سير التاريخ العربي ، فأستأثروا بممالك وامارات واقاموا دولاً ودويلات ، كان سببها ضعف العرب وتمزق كلمتهم ، فأستأسد الاعاجم واضحى الوطن العربي ممزقة بين أنيابهم . وحل بعد هؤلاء العثمانيون الاتراك الذين حكموا هذا الوطن باسم الدين ، وتخلوا عن أجزاء منه أمام اطماع الاجانب الغربيين ضعفاً منهم حيناً وارضاءً لهم في كثير من الاحايين . ثم تدخل الغرب المستعمر فأحتل ما كان الاتراك قد تركوه وعشنا لنرى اليوم ، هذا الوطن العربي ، مجزأ بين دول ودويلات وممالك وجمهوريات وامارات .


الاتحاد السوفياتي
افغانستان
ايران
تركيا
البحر الاسود
رومانيا
بلغاريا
فرنسا
اسبانيا
البحر الابيض المتوسط
الجزائر
ليبيا
العراق
المملكة العربية السعودية
السودان
الحبشة
افريقية الغربية الفرنسية
افريقية الاستوائية الفرنسية
جمهورية الكونغو
اوغندة
كينيا
الصومال
المحيط الهندي
بحر العرب
خليج عدن
خليج عمان
حدود دولية
عواصم ومدن كبرى
المقياس

الفصل الأول

عوامل الوحدة الطبيعية في الوطن العربي

مقدمة : البيئة الطبيعية :

يعتبر الوطن العربي اطاراً للبحر الابيض المتوسط لا تظهر مميزات هذا البحر كطريق مائي ذي اهمية كبرى دونه . وهو يمتد على (٢٧°) درجة عرضية من درجة (١٠°) شمال خط الاستواء وحتى (٣٧°) درجة شمالاً في المنطقة المعتدلة الحارة . ويقع أكبر قسم منه في افريقيا العربية (٨ ملايين كم٢) وأصغره في جنوب غرب آسيا ، ومساحته (٣٫٥ مليون كم٢) .

وتخترق هذه المنطقة منذ أقدم العصور ، الطرق والمعابر التي سلكتها البشرية منذ القديم ، وإن أهم هذه الطرق ، هي الطريق البحري البري ، الذي يمتد من خليج البصرة الى شواطيء سورية ماراً بشمالها، ثم طريق وادي النيل . وأخيراً الطرق التي تمتد من السودان الى ليبيا عبر الواحات و كذلك طريق النيجر الى بلاد الجزائر .

وعلى الرغم من تغير وسائل المواصلات في الوقت الحاضر إلا أن هذه الطرق لم تفقد قيمتها ، فهي تعتبر دوماً الوسيلة الاساسية للوصول الى أفريقيا والبلاد العربية .

ومما لا شك فيه أن معرفة التطور الجولوجي والتضاريس وكذلك

المناخ والمياه والوضع البشري ليؤكد على اتصال هذه المنطقة الطبيعية ، وعلى توثق الروابط البشرية في هذه البيئة .

أما هذه التجزئة التي تعتري مناطق الوطن العربي فهي غير اصيلة ولا تدعمها الحقائق الجغرافية او القومية .

لذلك سنعرض الى التطورات التي مر بها الوطن العربي ، لندرك هذه الصلة الوثيقة التي تربط بين مختلف اجزائه .

اولاً ـ التكوين الجؤلوجي : ـ ان الانسجام والتشابه العظيمين في تطور الحوادث التي مرت على الارض العربية تجعلها منطقة فريدة متميزة في العالم.

ففي الأزمنة الجؤلوجية الموغلة في القدم ، كانت الارض العربية قطعة من قارة الغندوانا الصلدة الفاسية ، وكانت تتألف من صخور (اركية والجونكية[1]) قديمة تعرضت لغمر بحري على اطرافها سواء في غرب الصحراء الكبرى او على سواحل افريقيا الشمالية والشمالية الشرقية، كما غمرت منطقة ما بين النهرين وشمالي الجزيرة العربية والاجزاء الشرقية والجنوبية للجزيرة المذكورة ، وقد خلف الغمر البحري نتيجة لذلك رسوبات ذات سمك كبير .

آ ـ الحقب الجؤلوجي الاول : في الحقب الاول اصيبت المنطقة بحركات ادت الى ارتفاع الرسوبات القديمة مرتين واظهرت جبال اوليـة اندثرت اليوم ، الا أن اثارها ما تزال تظهر في الصحراء الكبرى على شكل جذور جبال التوائية قديمة تكاد تمحي اليوم ، وكانت ارتفاعات الجبال الاولية هذه تمتد باتجاه شمالي جنوبي وبامتداد شرقي وغربي ، تمثلها جبال تبسي والصحارارا في الصحراء الكبرى ، وتظهر بقايا هذه الارتفاعات

---

(١) من اقدم الصخور المعروفة على سطح الارض.

على هيئة شبه سهل تظهر فيه البروزات الصخرية واضحة تدل على اتجاه الالتواء الاصلي .

ب ـ **الحقب الثاني** : لقد غمر البحر الارض العربية مجدداً ولكن الغمر في هذا الدور كان كبيراً جداً ووصل الى اقصى ما يمكن ان يصل اليه أي غمر بحري . وكان بحر تيتس هذا يطغى حيناً وينحسر احياناً اخرى ، وكانت الارض العربية وافريقيا في هذا الدور اشبه بجزيرة عائمة تطغى عليها المياه حيناً وتنحسر احياناً اخرى ، الا ان الاجزاء الوسطى من افريقيا والجزيرة العربية كانت على شكل هضاب مرتفعة فوق مستوى الغمر البحري ولذلك فقد كانت معرضة للاشكال خلال الدورين الاول والثاني من ادوار هذا الحقب .

وخلال الحقب الثاني اندفعت الصخور النارية من باطن الارض نتيجة لحركة جبال البرنه في اسبانيا فظهرت المواد النارية على شكل طبقات بركانية بازلية مندسة بين الطبقات الرسوبية في جبال لبنان الغربية ، او على شكل صخور خضراء غمرت جبال الامانوس والكرد والاقرع .

جـ ـ **الحقب الثالث** : وفي الحقب الثالث حدثت حركات اخرى شديدة اعطت الارض العربية فيما بعد صفاتها النهائية ، اذ ارتفعت في شمال الارض العربية كتلة الجبال الالبية الهيملائية ، كجبال طوروس وزاغروس ،وادت كذلك الى ارتفاع جبال الاطلس في شمال المغرب العربي والامانوس والاكراد والاقرع في القطر السوري الا ان القاعدة الغرانتية التي تؤلف الاساس الجولوجي للارض العربية بسبب قساوتها الكبيرة قاومت الالتواء الجديدمقاومة هائلة ، الا انها تكسرت نتيجة للضغط الهائل الذي احدث الالتواء، فتهدمت بعض اقسام من هذه الارض وارتفع بعضها الاخر ،كما حصل الانهدام

السوري الافريقي الكبير الذي امتد من بحيرة نياسا في قلب افريقيا عند منابع النيل الى حفرة مرعش في سفوح الجبال الطوروسية بطول ٥٠٠٠ كم . وقدخلف الانهدام ، الحفرة الانهدامية التي شطرت الهضبة العربيـــة الى شطرين وفصلت الجزيرة الاصلية عن وادي النيل فظهر خليج عدن والبحر الاحمر ،كماسبب في بلاد الشام تهدم السلسلة الجبلية السورية التي ارتفعت مع جبال الالب فأصبحت عبارة عن سلسلتين تشرفان بشكل جداري شديد الانحدار على الاخدود الكبير ، والتي تمتد من خليج العقبة حتى حفرة مرعش شمالاً . ويؤكد اكثر الجـولوجيون ان القسم الاعلى من وادي النيل قد تسبب عن هذه الحركـة ودليلهـم على ذلك هو كثرة الشلالات بين الخرطوم واسوان . وكرد فعل على الانهدام الكبـــير وانخفاض بعض الاجزاء من الارض العربية ، ارتفعت بعض الهضاب المجـاورة للاخدود كهضبة اليمن والحبشة .

ونشأعن الانهدامات والتصدعات والتكسرات التي اصابت الارض العربية ضعف الاجزاء المجاورة لها مما ادى بصورة مباشرة الى اندفاع الحمم والـــلابات البركانية من باطن الارض ، وانتشرت هذه الحمم واللابات(١) على الارض الرسوبية التي خلفتها البحار في الدور الثاني ، وكانت على شكل حرات ووعرات بركانية ، كحرة خيبر في الجزيرة العربية ووعرتي زاكية وحمص في سورية .

وزادت اللابات احياناً من ارتفاع الهضاب كما حدث في اليمن والحبشة، اذ ارتفعت الارض الى اكثر من ثلاثة الاف متر ، وحيث كان التصدع كبيراً نشأت الفوهات البركانية كالبراكين الموجودة في جبل الدروز في سورية وفي الاطلس الاعلى في المغرب الاقصى .

وكنتيجة عامة لالتواءات الحقب الثـالث والانهدامات التي اصابت الارض العربية ظهرت ميول باتجاهات مختلفة ، ففي شمال بـــلاد الشام

---

(١) الحمم – مقذوفات البراكين ـ واللابات ـ الصخور المنصهرة .

ارتفعت الارض من الشمال مع الحركة الالبية الهيملائية ، وبعد ارتفاع الحافات الجبلية للبحر الاحمر بسبب الانهدام الكبير ، ارتفعت الارض العربية من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي والتقى هدا الميل عند الفرات بالميل الشمالي ، كما مالت الهضبة الصحراوية في الغرب باتجاه المحيط .

ثانياً_السطح والتضاريس : لقدخضع السطح والتضاريس في الارض العربية لتطور واحد ، اذ يتراوح الارتفاع الوسطي للارض العربية بين ٥٠٠ـ١٠٠ م فوق سطح البحر ، وهذا السطح يتألف من احواض ينفصل بعضها عن البعض الاخر بمرتفعات بسيطة ،وتمتد هذه المنخفضات من الغرب الى الشرق ، وهي منخفضات الجوف في جنوب غرب المغرب العربي ومنخفضات الشطوط والبحيرات المالحة كشط الجريد في جنوب تونس وشط الحضنة في الجزائر ومنخفضات لبيا كواحة فزان والكفرة وكذلك المنخفضات الممتدة بين ليبيا ومصر واشهرها منخفض قطارة وواحة سيوه والمجلة .

وفي شرقي الارض العربية تظهر المنخفضات على شكل احواض كبرى مليئة بالرمال كمنخفض الجوف في صحراء النفوذ الكبرى ومنخفض الربع الخالي وكذلك منخفض ما بين النهرين .

وبعض هذه المنخفضات يقع فوق سطح البحر وبعضها تحته ، كشط الجريد ـ ٢٦ م تحت سطح الارض مثلاً ومنخفض القطارة ٨٠ م تحت سطح البحر والبحر الميت ـ ٣٩٤ م .

اما الصفة الثانية والشاملة للارض العربية فهي وجود اطار جبلي يقع على اطراف المنخفضات المذكورة سابقاً وكذلك على اطراف المناطق الساحلية ، ولذلك يشبه البعض الارض العربية بفناء محاط باطار مرتفع .

اما شواطىء الارض العربية فهي بصورة عامـــة من الشواطـىء الانكسارية ، اذ تظهر الاعماق الكبيرة مباشرة قرب السواحل ، ولهذا السبب بالذات تنعدم الخلجان الكبيرة .

ومما سبق نستطيـع ان نستنتج ان الارض العربية يمكن ان تقسم من حيث بنيتها وتركيبها الى اقسام ثلاثة :

١ ـ **قسم الي وسوبي من الحقب الثالث** يحدها من الشمال ، ويتألف على الغالب من صخور كلسية وكلسية غضارية نتجت عن الغمر البحري في الحقبين الثاني والثالث ، يضاف اليها صخور بركانية نتجت عن تكسر القاعدة فغطت بعض اجزاء القاعدة القديمة كالحرات المعروفة في الجزيرة الاصلية ، وشكل بعضها الآخر جبالاً مرتفعة كجبل الدروز وهضاب اليمن ، وكذلك حصل في جزيرة المغرب العربي ، مما أعطاها قابلية كبرى للزراعة .

٢ ـ **اما القسم الثاني** فيؤلف الجزيرة الاصليـــة والمغرب الاوسط ، حيث تظهر الصخور النارية القديمة التي يغلب عليها الغـرانيت (١) والغنايس والبورفير والميكروغرانيت ، يضاف اليها في جبال الاطلس الاعلى بعض الصخور من الحقب الاول كالصخور الفحمية (الكاربونيفير والصخور البرمية) والتي تظهر ايضاً في شبه جزيرة سيناء ، كما تظهر الصخور القديمة القاعدية في هضبة طدلة (او الميزيتا المراكشية) بين نهري ام الراية وحوض السوس في المغرب الاقصى . وفي بعض الاماكن تنتشر صخور السربنتين الخضراء والديوريت الحمراء مع بعض الرسوبات الاوليـــة كالشست في جبال الامانوس ، بسبب ارتفاع جبال الالب .

ولقد اصيبت هذه الصخور القاعدية (المستعصية) على الالتـــواء

---

(١) الغرانيت ـ نوع من الصخور النارية اما البقية فصخور متحولة واندفاعية .

بانكسارات عدة ، متعددة الاتجاه بسبب مقاومتها لارتفاع جبال الالب ، وتظهر هذه المقاومة بوضوح في اطراف البحر الاحمر ، الذي نتج عن الانكسار الذي فصل الجزء الغربي من الارض العربية عن الجزء الشرقي منها ، وكذلك فقد ارتفعت بعض الاجزاء القديمة مجدداً كما حصل في جبال الاطلس الاعلى والاوسط في المغرب العربي وكذلك الاجزاء الملتصقة بالارض العربية في شمال المشرق العربي .

٣ ـ **اما القسم الثالث** : فهو القسم المؤلف من الصخور الكلسية الرسوبية الثلاثية التي ظلت رغم ارتفاع الجبال منبسطة في اكثرها ولم تلتو الا قليلا ، فلم ترتفع الى اكثر من ١٥٠٠ م في جبال الاطلس الصحراوي في المغرب وكذلك في سلسلة تدمر (٩٠٠ م). وبسبب جفاف المناخ تحولت بعض هذه الاجزاء بالتدريج ، من مرتفعات الى مفازات وبواد على اطراف المنخفضات التي تبدأ من اقصى مغرب الارض العربية الى اقصى مشارقها .

اما الصخور الثنائية فلا تظهر بوضوح الا في سلاسل لبنان الغربية والشرقية في المشرق العربي وكذلك في الاطلس الاوسط وجبال الريف في المغرب العربي . ولهذا نستطيع ان نقسم الارض العربية الى مناطق ثلاثة :

الاولى : منطقة **السلاسل الجبلية** التي يتبعها لبنان وجبال الاردن وفلسطين ويليها الى الجنوب المرتفعات الانكسارية التي تشرف على البحر الاحمر والتي تشاهد اقسامها الاخرى على الشاطىء الاخر من البحر، أي جبال السراة التي يزيد ارتفاعها في الشمال على (٣٠٠٠ م) ، وكذلك السلاسل الثلاثة الشمالية في المغرب العربي والتي تندمج كلها في

سلسلة واحدة في تونس . أي جبال الريف والاطلس الاوسط والاعلى، حيث ايزيد الارتفاع في الاطلس الاعلى في جبل (طوبقال) اكثر من ٤٠٠٠ م . اما الاقسام الجنوبية من الجزيرتين الاصلية والمغربية ، فتنخفض فيها هذه المرتفعات لتبدو على شكل هضاب بسيطة الارتفاع كجبال الاطلس الصحراوي في المغرب (جبال اولادنائل ١٤٠٠-١٣٠٠م) كما تبدو ايضاً في هضاب حضرموت (اعلاها جبل القمر ١٣٠٠ م) ثم جبال عُمان الالتوائية التي انفصلت عن الالتواءات الايرانية . وهذه المرتفعات تشكل سواراً يحيط بالهضاب القديمة ويحصرها بينها والمؤلفة من الصخور الاولية التي يتراوح ارتفاعها بين (٥٠٠ م - ١٠٠٠ م) وهي تنحدر اما الى الشرق كما في هضبة نجد في الجزيرة الاصلية أو تنحدر باتجاه المحيط الاطلسي كما هو حال الهضاب القديمة المشرفة على الاطلسي في المغرب العربي ، كوادي الدراعة .

أما الثانية : فهي **المناطق المنخفضة** التي تسيل فيها الانهار باتجاه البحار والتي امتلأت بالرسوبات اللحقية والطمي كالمنخفض الذي يبدأ من خليج البصرة (ما بين النهرين) الى سورية فالاسكندرون ، وكذلك منخفض (تازة) الذي يصل بين الجزائر ومراكش في المغرب العربي، وكحوض النيل الذي امتلأ بالطمي ، ونهر المولوية في المغرب ايضاً .

أما الثالثة : فهي **السهول الساحلية** وكلها مؤلفة من صخور كلسية ممزوجة مع الرمال والطمي الرباعيين . وتسمى باسماء مختلفة اثناء امتدادها فهي تمتد في الجزء الاسيوي من الارض العربية من اسكندرون حتى اليمن ومن اليمن حتى عُمان ومنها الى مصب الرافدين في خليج البصرة وهي تضيق حيناً وتعرض احياناً حتى انها لتنعدم كما هو الحال في (رأس الشقعة) في لبنان ، اذ تقترب الجبال من البحر حتى تلامسه

وكذلك نجد السهول المشرفة على المحيط الاطلسي فهي عريضة احيانا وضيقة اخرى ، لاقتراب اجزاء القاعدة القديمة من شاطىء المحيط وابتعادها احياناً لتسهل وجود منطقة سهلية خصبة ، وكذلك الساحل الشمالي المشرف على المتوسط ، فالسهول قد تنعدم احياناً لبروز الجبال على شكل رؤوس كرأس (بون) في الجزائر ، وتمرض اخرى باتجاه تونس كما هو الحال عند صفاقص والمينستير .

وتنتشر الجزر امام السواحل ، كجزيرة ارواد في القطر السوري والجزر المنتشرة امام ميناء طرابلس في القطر اللبناني وكذلك جزر فرسان وقمران في جنوب البحر الاحمر وجزر قوريا موريا على ساحل حضرموت وجزر البحرين على ساحل الاحساء في شرق الجزيرة الاصلية ، كما تظهر الجزر على الساحل التونسي كجزيرة جربا وكركنه وكذلك الجزر الصغيرة المنتشرة على ساحل الجزائر .

وهذه الجزر اما ان تكون مرجانية كجزر البحر الاحمر أو أنها جزء من البر فصله الانهدام او الحت كجزيرة ارواد في الساحل السوري وجزيرة جربا في الساحل التونسي .

ثالثاً - المناخ :

يتميز الوطن العربي بصفات مناخية بارزة ، ناتجة عن وجوده في منطقة متوسطة تقريباً من نصف الكرة الشمالي . فهو يقع بين خطي العرض / ١٠-٣٧ / درجة شمال خط الاستواء حيث يسود نطاق الضغط الجوي العالي الذي يحيط بالكرة الارضية في هذه العروض .

وقد نتج عن وقوع هذا الوطن ضمن منطقة الضغط العالي ، ان اصبحت الرياح في هذه المنطقة في حالة هبوط ، وهذا الهبوط يؤدي الى

تراص الكتل الهوائيـــة وارتفاع حرارتها مما يزيد من قدرتها على التشبـع ببخار الماء ، ومما يؤدي الى جفافها ، لذا كانت الرياح التي تهب عليها غالباً رياحاً جافة لا تحمل مطراً .

ولكون الكمية الهاطلة من الامطار على هذه المنطقة لا تساوي الا القليل جداً مما يتبخر منها ، بسبب تعرضها الى فصل جفـاف طويل قد يزيد على الثمانية أشهر ، لذلك فقد انقلبت هـذه المنطقـــة بالتدريـج الى صحراء حقيقية ، حيث تسود هذه الصحراء هنـا منذ زمن سحيق جداً يرجـع الى الدور الاول الجؤلوجي . ولقد لعبت التعرية الريحية ، دوراً كبيراً جداً بسبب انعدام المياه ، فأصبحت الارض بعد أن تفتت الصخـور وانتشر هذا الفتات على مساحات واسـعة ، إما على شكل كثبان رملية يصعب اجتيازها ، ويتعذر احياناً ، او على شكل صحارى واسعة من الرمال تمتد امتداد البصر ، كالعرق الشرقي والغربي في صحراء المغرب العربي ، و كصحراء النفوذ الكبرى والدهناء والربع الخالي في الجزيرة الاصلية .

الا ان الاجزاء الشمالية والجنوبية من الوطن العربي لم تحرم من مؤثرات خارجية شمالية متوسطة ذات امطار شتوية وجنوبيـة موسمية ذات امطار صيفية كما هو الحال في اليمن.

اما ميـكانيكية المناخ في الوطن العربي فتتعلق بحركة الشمس الظاهرية ، فالمنطقة شديدة الحرارة صيفاً ، يطوقها خط الحرارة ٣٠ درجة ، بسبب تركز الاشعة الشمسية بصورة عمودية عليها في فصل الصيف .

أما في الشتاء فعلى الرغم من انتقال الشمس الى مدار الجـدي في نصف الكرة الجنوبي ، تظل درجة الحرارة مرتفعة اجمالاً وتظل الجزيرة العربية ذات حرارة تقرب من الـ ٢٠ درجة مئوية .

لذلك كان الوطن العربي حاراً أو شديد الحرارة عموماً في الصيف ، بينما يظل نصفه الجنوبي دافئاً ونصفه الشمالي معتدلاً في الشتاء .

ويتأثر النظام المطري ايضاً بحركة الشمس الظاهرية ، ففي الصيف يسيطر الضغط المنخفض على السودان وعلى أجزاء محدودة من الجزيرة العربية كعدن والخليج العربي مما يسبب اجتذاب الرياح الرطبة الاتية من المحيط الاطلسي والهندي ، فتسقط على كل من السودان واليمن وحضرموت وعُمان في أجزائها الغربية .

وتبلغ كمية الامطار الهاطلة على هضبة اليمن بين ٥٠٠ - ١٠٠٠مم وتصل في انتشارها شمالاً حتى خط العرض ١٨° او الـ ٢٠° ، ثم تقل تدريجياً حتى تصل الى الصحراء .

أما فيما وراء هذا النطاق الجوي الخفيف فيطر النطاق الجوي العالي الذي يمنع وصول الاعاصير والرياح المحملة بالامطار الى مناطق شمال افريقيا وسورية والعراق .

الا ان انتقال الضغط المنخفض الاستوائي في الشتاء الى جنوب خط الاستواء ينقل معه الضغط العالي الذي كان مسيطراً في الصيف على البحر الابيض المتوسط ، فتمر عند ذلك الاعاصير والرياح المحملة بالامطار من المحيط الاطلسي عبر المتوسط الى المناطق الشمالية الواقعة الى شمالي خط العرض /٣٠/ في الوطن العربي ، وتقل هذه الامطار ايضاً كلما تقدمنا نحو الجنوب والشرق حتى نصل الى الصحراء الحقيقية .

أما المنطقة الصحراوية فأمطارها شتوية في نصفها الشمالي أي فى نجد وشمال الصحراء الافريقية ، وصيفية في نصفها الجنوبي ، مع العلم ان الامطار قد لا تهطل طوال سنين عديدة .

وهكذا نجد بعد أن القينا نظرة سريعة على البيئة الطبيعية التي يقع فيها الوطن العربي ، أن هذه البيئة تقيم الدليل الاكيد على وحدة المظاهر الجغرافية وتشابهها ، كما ان التشابه الحاصل في المياه والنبات والحيوان نتيجة لوحدة هذه البيئة الطبيعية يدعم وحدة هذا الوطن ويقويها .

رابعاً - المياه والنبات والحيوان :

تتجلى وحدة الوطن العربي في مياهه ونباته وحيوانه . تجليها في تضاريسه وتركيب ارضه ومناخه ، فنحن اذا نظرنا اليه وجدنا السهول الساحلية الكثيرة الامطار التي تقطعها انهار قصيرة سريعة متجهة نحو البحر ، منها الدائم كنهر ام الراية وابو رقرق في المغرب العربي ، والكلب وابو علي في لبنان والكبير الشمالي في سورية ، ومنها ما هو موسمي تزداد المياه فيه ايام الامطار وتتناقص كثيراً في فصل الجفاف حتى تصل درجة الشح ، كوادي الرمل والشليف في الجزائر ، والمجردة في تونس وبعض الانهار الساحلية في سوريا ووادي بانه في لحج ووادى مسيلة في حضرموت ووادى عُدام في عُمان .

واذا انتقلنا الى الجبال التي تلي السهول الساحلية العربية ازدادت كمية الامطار بسبب الارتفاع مما يغذي الانهار والسيول والمياه الجوفية ، وتساعد الثلوج التي تتراكم على قمم هذه الجبال على ديمومة تلك التغذية .

ثم نهبط الى السهول الداخلية حيث تجري انهار قصيرة منحدرة اليها من السلاسل الجبلية ، منها ما يصب في البحر كنهر العاصي في سورية والليطاني في لبنان ، ومنها ما يصب في بحيرات داخلية او انهار

اخرى ، كنهر بردى والاعوج في سورية ونهر الشريعة او الاردن الذي يصب في البحر الميت ، وروافد دجلة في العراق وجميع الروافد التي تصب في الانهار الداخلية .

واذا اوغلنا في الداخل بعيداً عن البحر نصل الى الصحراء حيث تظهر المياه في الوديان السيلية الموسمية والآبار والواحات ، كأودية نجد والحجاز، كذى الرمة وبيشه وصهباء والخار والاودية التي تصب في نهر الفرات كوادي الشام وغيره .

ويستقبل الوطن العربي انهاراً كبرى ثلاثـــة غزيرة المياه ، طويلة المجرى تنبع من خارجه وتصب على سواحله هى النيـــل والدجلة والفرات .

إنهذا التوزع المائي بين منطقة واخرى يتكرر في سائر جهات الوطن العربي ويقوم دليلاً على وحدة بيئته الطبيعية .

ونستنتج من هذه المعلومات عن الامطار ومجاري المياه العربية أن الماء في وطننا ليس كثيراً الى درجة تسمح لنا بالاسراف فيـــه واهداره دون فائدة ، واذا كان اسلافنا قد غرسوا الجنات ونشروا الزراعـة في سائر بقاعه ووصلوا في ذلك الى مناطق هي اليوم جرداء ، فلم يتأت لهم هذا النعيم الا بتقديرهم لقيمة الماء في وطنهم وحسن تدبيرهم لأمره ، فقد انشأوا السدود والقنوات منذ اقدم الازمنة ، كسد مأرب والسواقي التي كانت تسقي مكة وغيرها من من المدن العربية ، ناهيك بالسدود المقامة على النيل ودجلة والترع الممتدة منها وتوزيع مياه نهر بردى وتوسيـع بحيرة قطينة والمشاريع المقامة على انهار المغرب العربي اليوم .

ولقد نتج عن الوضع المائي للوطن العربي انواع خاصة من النبات والحيوان في جميع بقاعه.

ففي السهول الساحلية حيث يتوفر ماء المطر وفي السهول الداخلية حيث يتوفر الماء الجاري، نجد انواعاً خاصاً من النبات اكثرها نباتات الفاكهة بالاضافة الى القمح والشعير والذرة التي هي نباتات طبيعية اصيلة في هذه المنطقة الى جانب شجرة الزيتون والكرمة.

اما في الجبال المرتفعة القريبة من البحر، فتنتشر الكرمة واشجار الصنوبر المختلفة الانواع والسنديان والبلوط وشجر الفلين كما هو الحال في جبال القبائل في الجزائر، بينما تنتشر الغابة على شكل صنوبريات، كالارز في لبنان والسنديان والبلوط في سوريا في جبال العلويين، وكذلك الغابات الموجودة في الجبل الاخضر في عُمان وفي الاطلس الاوسط والاعلى في المغرب العربي.

اما في اعالي هذه الجبال فنجد اما الثلوج التي لا تسمح بنمو النبات بسبب مكوثها فترة طويلة من الزمن على الارض، او نجد جروداً تنمو عليها بعض الاعشاب القصيرة التي يرعاها ماعز سكان الجبال.

وفي المناطق الصحراوية حيث تنعدم الامطار أو تكاد، تنمو بعض الاعشاب الشوكية والقصيرة في المناطق ذات التربة الرطبة والتي ينتقل البداة الاعراب بحثاً عنها طوال ايام السنة لتغذية مواشيهم من خيل وابل واغنام. أما في المناطق الرطبة فنجد الاغنام الى جانب الماعز والابقار والجاموس في كثير من الاحايين.

وهكذا نجد أن البيئة الطبيعية للوطن العربي قد شجعت تكاثر

انواع خاصة من النباتات والحيوانات فيه ، وحددت بالتالي انماطاً لحياة مشتركة بين بقاعه فساهمت في وحدته .

خامساً ـ انماط الحياة والنحل في الوطن العربي :

يؤلف الوطن العربي منطقة مترامية الاطراف تسودها الصحراء ، لذلك سادت فيه حرفة الرعي التي تعتمد على النظام الابوي Patrical ، والى جانبها تقوم الزراعة . الا ان اختلاف انماط حياة السكان في هذه المنطقة يعود الى درجة العرض الجغرافي الذي تقع فيه والى توفر الماء الباطني او انعدامه ، ومع هذا نجد ان الانتقال هو اساس النظام الاجتماعي والاقتصادي .

وتقوم حياة الزراعة في الواحات ، وتؤلف هذه الواحات نواة الحياة الاجتماعية والزراعية في منطقة البحر الابيض المتوسط . ولقد أعطى الحيوان والواحة منذ القديم لهذه المنطقة صفات خاصة بها ، اذ قام تنظيم الدولة اول ما قام في الواحة ذات البيئة الصحراوية ثم انتشر منها الى المناطق المجاورة .

وكذلك فقد ترعرعت الحياة الاجتماعية والدينية زمن الاسلام في الواحات ، كتلك الحركات التي قامت في افريقيا العربية وفي قلب واحاتها ، كحركة المرابطين والموحدين والسنوسيين ، التي قامت في واحات جغبوب والكفرة وفزان .

ويمكن ان نقسم الصحراء الى مناطق اربع من حيث نوع الحيوان السائد فيها ، لأن الحيوان هنا هو مدار النظام الاجتماعي . وهذه المناطق هي من الشمال الى الجنوب ، منطقة رعاة الخيل ، ثم رعاة الابل ، فرعاة الماعز ، واخيراً رعاة الابقار .

غير ان هذه المناطق لا ينفصل بعضها عن البعض الآخر بـل ان هنـاك تمازجاً احياناً بين نوعين او اكثر من هذه الحيوانات .

وتشمل منطقة رعاة الخيل صحـراء سورية وشرقي الاردن ومصر وليبيـا الشمالية وجنـــوبي تونس والجزائر والمغـــرب العربي ، أي في المناطق القريبة من الارض الرطبة التي تسقط فيها بعض الامطار وتتوفر في اوديتها بعض المياه .

وان وجود السهوب المنبسطة في هذه المنـــاطق جعلهـا من أهم منـاطق تربية الخيل ، كخيول بادية الشام وخيول البربر . وتعود أهمية الخيل هنا الى انها تستخدم في حراسة الماشية ، وفي الحصول على موارد رزق اخرى عن طريق الغزو .

أما منطقة رعاة الابل فهي تمتد الى شمال خط العرض ٣٠° درجة شمال الاستواء ، وتتميز هذه المنطقة بشدة جفافها ، وتنعدم هنا الاشجار ، الا ان فيها بعض الهضاب ، كهضبة نجد والحجاز وبادية الشام ومنطقةالعبابدة (جنوب شرق مصر)والطوارق(في قلب الصحراء الكبرى) حيث تنمو بعض الاعشاب.والجمل في منطقة المعاش هذه هو الوسيلة الاساسية والمثلى للحياة والانتقال، وتربيته هي الحرفة الوحيدة للسكان هنا ، وبواسطة رعاة الابل هـؤلاء اتصلت السنغال قديماً وحديثاً مـع المغرب الاقصى عـــبر الصحراء ، كما اتصلت مدينة تمبكتو فى افريقيا الغربية مـع واحة فزان في ليبيا ، وبنفس الشكل تتصل القـــاهرة مـع السودان واعالي النيـل ودمشق مـع نجد وبغداد .

وتتبـع هذه القوافل الآبار الموجودة في الصحراء ، لحاجتها الشديدة للماء ، أما سكان هذه المناطق فيجدون سوقاً تجارية جيدة لهم في هذه

الواحات المنتشرة في هذه الانحاء ، حيث يتموّنون بالحبوب والبلـــح والحاجات والادوات .

ولقد اوجدت القافلة والرحلة هنا تنظيماً اجتماعياً بحكم الضرورة ، اذ تتكون الوحدات الاجتماعية مثلاً في الشمال الافريقي من عـدد صغير من الخيام يطلق عليها اسم (الدُوار) والسبب في صغر هذه الوحـدات الاجتماعية هو عدم كفاية الماء في الآبار ، إذ ان بعضها لا يـكاد يكفي اكثر من / ٢٠٠ / رأساً من الجمال ، كما ان فقر البيئة الشديد يدعو السكان الى التفرق لا التجمع .

ولقد اكتسب الكثير من هؤلاء السكان صفات الرئاسة لمعرفتهم بالطرق الصحراوية ومواقع الآبار . وبسبب تغيب الرجـــل عن مسكنه بصورة دائمة تقريباً للرحلة والتنقل ، لذلك نجد ان النظام الذي يعتمد على سيطرة الأم (المرأة) هو السائد هنا ، وعلى هذا تساوي المرأة الرجل في حقوقه ان لم تفقه بحقوقها ، كما ان الفتاة لها نفس حقوق الفتى .

وفي هذه المجتمعـات توزع ثروة الام على اولادها وتسمى بالثروة المشروعة ، اما ثروة الاب فتبقى ملكاً للجماعة كلها . والحكم في هـذه البيئة هو للابن الاكبر او البنت الكبرى ، وهنا تتميز الطبقات الاجتماعية ، حيث نجد طبقة الاشراف وطبقة العبيد ، ولا يختلط الاشراف مع المستعبدين ، لذلك كان اكثر السكان هنا يتمتعون بصفاء جنسي لا بأس به . ولقد كانت بعض هذه المجتمعات تحتل بعض الواحات الكبرى وتؤلف الممالك (كمملكة الحوص والغولية في السودان) .

أما منطقة **رعاة الماعز** فهي تشبه منطقة رعاة الخيل ، وهي تقع في المنطقة

الشبه مدارية حيث تهطل الامطار وحيث لا يمكن الحصول بسهولة على الماء الباطني .

وتنتشر هذه المنطقة في اسيا العربية كصنعاء ، وفي افريقيا العربية كالسودان الغربي في منطقة الابيض ، الا ان الماعز لا يكفي الا سكان ولا يقيم أودهم لذلك فهم يعملون بجمع الصمغ العربي ، الذي يعتبر بمثابة نقود يقايض رعاة الماعز عليها .

ويلاحظ في هذه المناطق ظهور حرفة الجمع ، أما العمل فيتم ضمن وحدة يقوم بها الاطفال والنساء والشيوخ .

وان جمع الصمغ يتم في وقت معين من أيام الصيف الجافة ، حيث يترك السكان هنا ما لديهم من ماعز وحيوانات اخرى حول الآبار الهامة للقيام بعملية الجمع ، ولكنهم ينتشرون في المنطقة جميعها زمن الامطار والاعشاب .

أما رعاة الابقار فتقع منطقتهم في مناخ شبه صحراوي قريب من البحر أو من المناخ المداري الممطر ، لذلك نجد أن الرطوبة هي اكبر من تلك التي في الصحراء ، ولهذا كانت الاعشاب أغزر وأكثر رطوبة تعافها الجمال ، لذلك يختفي الجمل في هذه المناطق ليحل محله البقر الذي يستخدم في كافة الاعمال للحمل والنقل والركوب ...

والبقر هنا من النوع الهندي القليل اللبن ، لذلك يعتمد السكان اضافة اليه على صيد الاسماك واللؤلؤ للتعويض ، كما يلاحظ هذا واضحاً على شواطىء الخليج العربي وعُمان وحضرموت وقبل وجود البترول .

وهنا قامت مرافىء ومدن هامة تعمل في هذه الحرفة كالمُكلا ومسقط والقطيف ...

وحيث يقــــل العشب او ينـــــدر يقدم السمك المجفف غذاءً للحيوانات .

أما الزراعة فتقوم على السواحـل ، خاصة في اليمن وحضرموت التي كانت تعتمد على الرقيق الآتي من افريقيا الشرقية او الهند والملايو .

ومن هذه المنطقة انتقلت اقوام البقـارة القحطانيين العرب منذ أزمنة الدولة المصرية القديمة الى افريقيا وانتشرت بين خطي العرض ١٠ - ٣٠ شمالي خط الاستواء .

واليوم تنتشر قبائل البقارة العرب في السودان وحول بحـيرة تشاد قرب الصحراء الكبرى وشمالي منطقة فاداي الخ ..

ولقد خضـع الزنوج المستقرون في هذه المناطق والذين يعتمدون على الزراعة لهؤلاء البقارة فأصبحوا أحياناً عبيداً وتابعين ، في حكم اقطاعي ، مما ادى الى تمازج جنسي كبير .

أما منطقة الصحراء فتسود فيهـا مناطق مائية عاش عليهـا الرحل واشباههم وزرعوها ، ولقد اختلف العلماء في منشأ هذه النقاط المائية أو الواحات ، فبعضهم يقول انها نشأت عن الحت الريحي في طبقة صخرية لينة وآخرون يرجعونها الى نوع من الحت الكارستي (١) .

والحت في طبقـات الصخور هـذه - مهما كان منشؤه - يؤدي بالنتيجة الى تسهيـــل ظهور المياه من الطبقات الدفينة التي تمتلىء بالمـــاء

(١) نسبة الى جبال كارست في يوغوسلافيا حيث تسقط مياه الامطار وتتسرب عبر الصخور الكلسية وتحللها وتؤدي الى حصول حفر وآبار واحـواض مغلقة تسمى (Aven) .

بسبب سقوط الامطار في المناطق البعيدة في الشمال أو الجنوب ، ومن ثم تتسرب المياه ضمن الصخور المنفذة لتظهر في هذه الاحواض . ويقول بعض العلماء ان مياه صحراء ليبيا تعود في أصلها الى الامطار التي تسقط على منطقة السودان المدارية .

أما الواحة من حيث قيمتها الاقتصادية فتعتبر مركزاً اساسياً للانتقال ، دونها لا يمكن عبور الصحراء والبوادي الشاسعة ، وفيها قامت الزراعة منذ القديم .

وللزراعة هنا دعامتان اساسيتان : اولاهما شجر النخيل وثانيها الحبوب .

وتعتبر هذه المنتجات الاساس في تغذية السكان ، كما انها وسيلة المبادلات التجارية بين سكان الواحة والبداة الرحل ، الا أن الواحات قد تأثرت اضافة الى عداء الطبيعة المحيطة بها ، بعداء الرحل من مستوطني الصحاري ، لذلك قامت فيها تنظيمات اجتماعية خاصة لدرء هذا الخطر البشري وكذلك تنظيمات سياسية كفلت للواحة البقاء والحفاظ على كيانها من طغيان البُداة ، ولهذا قامت في الواحات فكرة الجماعات الدينية وقلبت الواحات الى نوع من القلاع . ومن هذا نتبين ان الواحة كانت اساس التنظيم الحضاري القديم في اسيا العربية وافريقيا .

ولسنا ندعي القول هنا أن الحضارة العربية هي حضارة صحراوية بل ان وجود مناطق اخرى انتشر فيها العرب منذ القديم قد ادى الى تنوع في الحضارة العربية ، وهذا التنوع ضمن الوحدة ، هو أولى صفات ومقومات الحضارة العربية ، وقد اعطى هذا حضارة العرب صفة الاصالة التي جعلتها تدوم ، والى جانب هذه الصفة نجد صفة ثانية للحضارة العربية الا

وهي بساطة الاسس التي قامت عليهـــا في بيئة صحراوية لم تمنـع في يوم من الايام العرب الساميون من القيام برسالات حضـارية متنوعـة انبثقت عن هذه الصحراء .

ومـع هذا نجد ان النحل الاخرى تنتشر هنا وهناك في جميـع اطراف الوطن العربي في المدن الكبرى حيث تقوم الصناعة والتجارة ، وفي القرى حيث تنتشر الزراعة ، وقد وصلت في بعض المناطق الى وضع يجعلها مشابهة لما هو عليه في المناطق المتطورة في العالم .

وسنعمد الى تفصيل لهذه النحل واشكال الحياة في أبحاث مقبلة .



الفصل الثاني

عوامل الوحدة البشرية في الوطن العربي

اولاً ـ أصل السكان

أقرت شعوب الارض تعذر الصفاء العرقي في الامم جميعاً [1] ورضيت بهذا القدر ولم تتأثر قوميتها به . فالامة الفرنسية مكونة من عروق تفوق الخمسين عدداً واصول الانكليز تتوزع بين عشرات الجدود المختلفين دموياً ، ولا يقل الالمان عنهم في هذا الشأن ، بل لقد تأكد العلماء من استحالة توفر الصفاء العرقي في العشائر البدائية نفسها ، ولذا لا يشكل العرق والنسب لدنيا اية مشكلة هامة ، وسنبحث في أصل سكان الوطن العربي هنا مع الخصائص البشرية لئلا نعود الى ذكرها بين عناصر القومية العربية ، وقد تفيدنا دراستها في التعرف على اغراض المستعمرين ونواياهم ومحاولاتهم العديدة للتفرقة بيننا بواسطة القضية العرقية التي لا يؤمنون هم بها .

فاذا افترضنا ان اصول السكان الدموية تكون عربية اذا ما ردت الى جزيرة العرب والى اقوام مشابهة لنا في اللغة والتكوين العضوي وجدنا عدة نظريات تتنافس في تعليل أصل الشعب الذي يقطن هذه البلاد ومنها النظريات التالية :

---

(١) انظر بحثنا في النظريات الكبرى في فهم القومية ـ الباب الرابع ـ

١ - النظرية الضيقة :

وهي التي تقصر النسب العربي على سكان الجزيرة العربية القدماء من يمنيين وشماليين ولا ترى لهم امتداداً قبل الاسلام في بقية انحاء وطننا العربي الا المناذرة والغساسنة والانباط وبعض القبائل الاخرى التي تشترط ان تكون مشابهة في لهجتها للهجة القرآن الكريم وتردد بين خيامها صوت شاعر او خطيب كحسان ابن ثابت ينطق العربية كما يفهمها المواطن العادي اليوم . أما بقية ارجاء الارض العربية كأعالي سورية والعراق ولبنان ومصر والشمال الافريقي فهي حتى ظهور الاسلام مأهولة في رأي هذه النظرية بشعوب غير عربية كالآراميين والآشوريين والفينيقيين والكنعانيين والفراعنة والبربر ، ولما أن تم فتح تلك المناطق الشاسعة التي لم تكن عربية اصلاً نفذ العرب بدينهم ولغتهم وسيفهم وحسن معاملتهم الى قلوب السكان وعقولهم وبيوتهم وحياتهم اليومية فكان الاندماج وساد الطابع العربي الارجاء التي نسميها اليوم بالوطن العربي .

ونحن لا نجد في هذه النظرية ولا في أضيق منها خطراً على العروبة ، فسواء أوقع الاندماج في القرن الاول الهجري أو في القرن العاشر قبل الهجرة ، فهو قد وقع على كل حال . والوعي العربي لن يتأثر بدعاوى المستعمرين والاقليميين الرامية الى التشكيك بالقومية العربية عن طريق انكار الاصل العربي لسكان هذه البقعة أو تلك من بقاع وطننا الكبير . فنحن ندرك جميعاً أن ارتباط العرب ببعضهم ارتباط اجتماعي قائم على اللغة والتاريخ والذوق والطابع الحضاري والقيم المشتركة ووحدة المصير .

وخدمة للحقيقة فقط نذكر بُعد هذه النظرية عن المعقولية فمن المستحيل على شعب قليل العدد خرج قسم منه في جيوش الفتح ان يفرض لغته وطابعه وذوقه على اراضي تكاد تكون قارة لسعتها اذا لم تكن الشعوب التي تقطنها تمت اليه بصلة القرابة المادية والمعنوية. وتزداد هذه الاستحالة يقيناً اذا ما تذكرنا أن المشائر المنضوية بجيوش الفتح كانت في تلك الايام أقل حضارة من أبناء البلاد المفتوحة، فلم يتكبر السوريون والعراقيون والمصريون عليهم، ولم يساعدوا الرومان أو الفرس على الاحتفاظ ببلادهم، ولم ينظروا الى دينهم على أنه دين بداوة وسذاجة تأباه العقول المتطورة بل دخلوا فيه أفواجاً وكأنهم قضوا مدة طويلة ينتظرون أن يبدأ الاصلاح في احدى جهات وطنهم الكبير وأن يشع النور على أحد جباله ليتهافتوا عليه.

ونحن ندرك تماماً أن أكثر المفاخر والامجاد العربية التي يذكرها شعبنا اليوم، مستمدة من القبائل المشابهة لنا في لهجاتها كالغساسنة والمناذرة وبعض اليمنيين وعرب نجد والحجاز وهي على كل حال مفاخر مجيدة وان كانت لا تشكل الا جزءاً يسيراً مما قدمه العرب.

٢ ـ النظرية المتوسطة:

وهي التي تعتقد بأن سكان الجزيرة العربية وسورية الطبيعية والعراق كانوا منذ أقدم الازمنة عرباً لا فرق في ذلك بين كلداني وآرامي، فينيقي وغساني، بابلي وتدمري، ما داموا جميعاً قد انطلقوا من الجزيرة العربية على شكل هجرات بشرية متتابعة في عصور مختلفة، وترجع هذه النظرية اختلاف لهجات بعض الاقوام العربية الى الازمنة الفاصلة بين هجرة

كل منها وهجرة الآخر مما يجعله تكتسب خلال تطورها صفات جديدة الى حد ما .

ومعنى هذا أن السامي والعربي إنسان واحد وان اختلفت الفروع في مظاهر جزئية.

وليس من عملنا اليوم أن ندخل في بحث تاريخي لتحليل الوثائق الكتابية وغير الكتابية ، الحجرية والفخارية ، والنبش على عظام الموتى قبل آلاف السنين وان كان هذا العمل جديراً بالتقدير وواجباً محتوماً علينا تمليه الروح العلمية والرغبة في معرفة كل شيء عن ماضي وطننا وتطوره ، ونحن اذا لم يقم من بيننا رجال لحمل هذا العبء ، استغل المستعمرون الفراغ ، وارسلوا مختصيهم ليدرسوا أصلنا وفصلنا وحسبنا ونسبنا ويصورها كما تريد وزارات خارجياتهم ، وفي انتظار أبحاث علمية عربية جدية حول هذا الموضوع نجد أن المحاكمة العقلية لا تعارض النظرية المتوسطة بل ترى فيها تعليلاً جيداً للتقارب الجوهري بين لهجات الاقوام السامية وصفاتها الحضارية ، والاندماج السريع الذي تم بين سكان هذه المناطق وبين الوافدين الجدد من الجزيرة العربية .

ومما هو جدير بالذكر أن النظرية المتوسطة تبعد عن الاصل العربي سكان مصر القديمة عدا الهكسوس وابناء شمال افريقيا المغربي والسودانيين القدماء .

٣ ـ النظرية الواسعة :

وهي تطابق تماماً بين العرب كأمة والعرب كعرق ، وتجد أن العرب قد سكنوا في الجزيرة العربية وسورية الطبيعية داخلاً وساحلاً والعراق ومصر والسودان وبقية نواحي افريقية العربية .

وهي تعتمد على بعض الوثائق التاريخية لاثبات وجهة نظرها . فقد ورد عند ابن الاثير [1] مثلاً ، ما يؤكد انتساب البربر الى اجداد عرب كعمليق وسبأ ، وانتساب سكان مصر القدماء الى اجداد مشابهين . وهو يضع جُرهُمَ والانباط وطسم وجديس وعاد وثمود الى جانب البربر كصنهاجة وكُتامة وسواهما ، بالاضافة الى سكان مصر القديمة وبقية القبائل العربية المعروفة في قائمة أصل واحد .

واذا كان ابن الاثير يتحدث كالمؤرخين القدماء الذين تحتاج اقوالهم الى التمحيص والتدقيق فلا شك أن إغفال المستعمرين والشعوبيين لآراء مؤرخي العرب القدماء واهتمامهم بآراء أخرى ليدل على أن قضية أصلنا لم تجد شهوداً عدولاً بعد . ولا شك أن تصفح كتبنا التاريخية القديمة سيقدم ذخيرة كبيرة من أمثال هذه الآراء تفرض نفسها على الباحث بحيث لا يجد بداً من التعرض لها باحترام .

ويذكر أنصار النظرية الواسعة أنَّ مصر وشمالي افريقيا لا بدَّ وان يكون الذين قد عمروها قديماً قد وفدوا عليها من الجزيرة العربية عن طريق باب المندب وسيناء ، إذ أن القارة الافريقية لم يعرف عنها أنها نقطة انطلاق للهجرات بل هي محل استقبال رحب لها . والهجرات عادة تتبع الطرق البرية التي لا تعترضها ممرات مائية واسعة كطريق باب المندب . وتدل بعض اللواحات المصرية القديمة على أن مصر كانت تتعرض كثيراً لغزوات تفد إليها من الشرق ، فاذا استطاع سكان الوادي ان يتغلبوا عليهم ، لم يردوهم على اعقابهم الى سيناء فالشام خوفاً من

---

(١) الكامل في التاريخ ـ الجزء الاول ص ٤٩ وما يليها .

عودتهم الى الهجوم ، بل كانوا يفتحون لهم معابر النيل وجسوره لينطلقـوا الى الشمال الافريقي الخصب الفسيـح .

ويروى أن قوماً صعدوا الى الشام من جوف الجزيرة العربيــة فتغلب عليهم ملك (اذرعات) ولعلها درعا أو ازرع اليـوم ، فآثر الا يميدهم الى جزيرتهم خوفاً منهم وجمعهم تحت رئاسة رجل اسمه افريقش ليذهب بهم الى المغرب ، فلما ان وقف فيهم افريقش خطيباً ازعجته ضوضاء احاديثهم واثاره انصرافهم عن سماع اقواله فقال لهم زاجراً (الا اصمتوا ما اكثر بربرتكم) . فدعوا بالبربر من يومهم ذاك .

ويروى ابن الاثير في كامله [1] ما يلي :

« وأما من بقي من الجبارين [2] فان افريقش بن قيس بن صيفي بن سبأ بن كعب بن زيد بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، مر بهم متوجهاً الى افريقية فاحتملهم من سواحل الشام فقدم بهـم افريقية ، فافتتحها وقتل ملكها جرجير ، واسكنهم اياها فهُم البرابرة ، واقام من حمير في البربر صنهاجة و كتامة فهم فيهم الى اليوم »

واصحاب هذه النظرية يستخدمون حسن الاستقبال الذي لقيه العرب فى مصر عند الفتـح برهاناً على القرابة بين الوافدين والقاطنين اذ لم يقاوم جيش الفتـح الا الرومان وحدهم وسارت الامور في مصر بعد جلاءهم بكل هدوء وود وانسجام ، ويرون أن ثورة البربر لم تقم نتيجة الخلافات البشرية بينهم وبين العرب بل بتأثير ظروف سياسية ودينية معينة .

---

(١) الـكامل في التاريـخ لابن الاثير ص ١٢٤

(٢) الجبارون : قبيلة من قبائل العرب

ونعود الى القول بأننا لا نعلق مصير عروبة أي قطر عربي بأصل سكانه ولكننا نؤكد ايضاً أن الثقافة الاستعمارية بذلت جهدها لكي لا تطلعنا الا على بعض الفرضيات حوله دون فرضيات أخرى ، وسمت الى اظهار ما يخالف مصالحها بمظهر السخف الذي لا يستحق مناقشة مع أن الروح العلمية استبدت بعالمين من علماء فرنسا ، ارسلتهما حكومتهما ليثبتا اختلاف البربر والعرب ، وبعد الشقة بين الاشقاء ، وبعد أن اجريا بحوثهما لم يستطيعا ان يتبينا الا التشابه والتوافق العرقي والحضاري بين العرب ومن تسميهم فرنسا بالبربر (١) .

والخلاصة إن الوطن العربي يملاؤه العرب الذين جمعتهم روابط اللغة والتاريخ والمفاهيم الاخلاقية والذوق المشترك والمصير المشترك ، ولم تعد دعوة القومية العربية جنيناً نخاف عليها من هذا الرأي أو ذاك .

واننا اذ نستحث جهود المختصين ليصلوا بنا ولو من أجل العلم فقط الى رأي حاسم البراهين في قضية الاصل ، فاننا نلفت انظار بعض الشباب المتحمس الى أن المغرضين كثيراً ما يستغلون حماسهم فيبعثون الاعتزاز بآثار الفراعنة والآشوريين والفينيقيين مثلاً على انها مصرية أو سورية ، وحين يحرجون يدعون انهم من انصار النظرية الواسعة فهم لا يعتزون الا بأمجاد عربية أما نواياهم فهي اقليمية بحتة . ونفرق هنا بين المغرض والمتحمس عندما نرى الاسم الذي يطلقه ويلح عليه لهذه الآثار والامجاد ، فمن يكتب مقالاً عن اهرام الفراعنة يقضي معظمه مفتخراً بعصر وحدها ولا يذكر العروبة الا نادراً تلبية للضرورات السياسية ، ندرك أنه اقليمي ادعى القومية العربية ادعاءاً ، ومن يلقى خطاباً عن الفينيقيين أو

---

(١) شانتر وبرثلون ــ دراسة الاقوام في افريقيا الشمالية .

البابليين أو الآراميين يملؤه بالعصبية لسورية أو العراق ويساير السامعين فيفرحهم بذكر العروبة أحياناً ، نفهم أيضاً أنه اقليمي متنكر بثياب الدعوة العربية دون ان تصلح له ويصلح لها . ومن كان جدياً في اتباعه النظرية الواسعة أو المتوسطة نراه يلح على العروبة عند روايته للامجاد السابقة ويحاول دائماً أن يتبين وجوه التشابه الجوهرية بين الاقوام العربية العديدة التي يعرفها وطننا منذ أقدم العصور .

وسنجد عند دراسة ديموغرافية سكان الوطن العربي ما يبرهن على وحدتهم .

ثانيا ـ ديموغرافية الوطن العربي

تمهيد

لدراسة السكان أهمية عظمى ، فعلى الصعيد العالمي تجد معظم الاحداث التاريخية الهامة من غزو وحروب وفتوحات تفسيراً لها في اعتبارات عددالسكان ، ويرجع معظم الفضل في قوة امتنا وفتوحاتها في عهد الخلفاء الراشدين وما بعده الى حيوية السكان في تلك الحقبة والى الميدان الرحب الذي كان يفتح امام المواهب الفذة المدعومة بالعقيدة . وفي يومنا هذا نرى ان التقدم الذي احرزته الدول الكبرى ، ما كان ليبلغ المستوى اللائق لولا وثبة سكانها .

وعلى العموم لا يخفى ما لاحصاء الثروة البشرية من اهمية في الدراسة الاجتماعية ، لا سيما في المجال التخطيطي ، ولطالما كان العدد هنا ، اوضح تعبيراً وا كثر دقة من سفر وصفي ضخم .

فنحن بحاجة الى دراسات كهذه في مجال القوات المسلحة حيث يمكن معرفة تركيب السكان وطبيعة هذا التركيب ، وحيث تطرح اسئلة كهذه : ما نسبة الشبان الذين يمكن تجنيدهم ؟ و ما نسبة من يستفاد منهم في الاحتياطي ؟ وما نسبة من يؤمل تسليحه في المستقبل ليسهم في الدفاع عن الوطن وفي تحريره ؟

وفي مجال الاقتصاد ، تيسر لنا الدراسة السكانية معرفة ماهية السكان ومستوى نموهم ، وهل معظمهم من الفتيان أم من الشيوخ ، وهل يمكن فتح مشاريع اغائية وصناعية جديدة يمكن ايجاد الايدي العاملة اللازمة لها ؟

وفي مجال الخدمات ، تطرح مشكلة تأمين المعلمين والاماكن والاثاث للملزمين ، اي لمن بلغ من الاطفال سن الدخول الى المدرسة الابتدائية ، كما تطرح مشكلة توجيه الطاقة البشرية الى مختلف فروع الدراسة بحيث تؤمن حاجات المستقبل لأمد قريب أو لأمد بعيد .

وفي مجال الصحة يقتضي التعرف على الامراض المنتشرة لمعرفة ما اذا كان السكان في حالة صحية ملائمة أو غير ملائمة والمدي الذي يمكن تأمينه في سبيل الوقاية من الامراض ومكافحتها لرفع المستوى الصحي في البلاد ، بحيث يكون الافراد فعالين منتجين .

هذا وتتطلب الدراسة العلمية للسكان معرفة الاحصاءات الحيوية التي تبحث في تعداد السكان وتوزيعهم حسب السن والجنس وتبين الاجل المتوسط وتتبع تغير السكان بالولادات والوفيات ، وتغيرهم الاصطناعي بسبب الهجرات والحروب . ولا مناص من الاستعانة باحدث الاحصاءات عن السكان الصادرة عن الدوائر الاحصائية ، أو مديريات الأحوال المدنية ، لمقارنة التطورات الحاصلة بالسكان أثناء القيام بدراسة السكان .

مصادر البيانات السكانية :

ان مجموع السكان في أي مجتمع من المجتمعات يتغير دائماً ، فحجم هذه المجتمعات يتغير وأفرادها كذلك ، وقد تكون هذه المجموعة قصيرة الأجل

وقد تعمر طويلاً ، وقد تكون كثيرة الخصوبة كما قد تكون قليلة الولادات ، وقد تتبدل بالهجرة من المجتمع الى سواه أو من المجتمعات الأخرى الى المجتمع المدروس .

وهناك ثلاث طرق مختلفة للوصول الى بيانات سكانية :

١ - طريقة سجل الاحوال المدنية :

وهو سجل تدون فيه الأحداث الحيوية وأحداث أخرى هامة ، مثل : الوفيات والمواليد والهجرة والزواج والطلاق وما شابه . . . وهذا السجل هو المورد الرئيسي للمعلومات المتعلقة بالاحداث السكانية في الكثير من المجتمعات .

٢ - طريقة التعداد :

وبواطتها نحصل على عدد السكان في زمن محدد . وقد قامت سورية بتعداد سكانها عام ١٩٦٠ لاخر مرة ، وكذلك الامر بالنسبة للجمهورية العربية المتحدة .

وتعطينا هذه الطريقة الكثير من المعلومات عن الأحوال البشرية في المجتمع كعدد السكان الاجمالي ، وتوزيع السكان حسب الجنس ، أو حسب السن أو حسب المهنة أو حسب المنشأ وهكذا ...

٣ - طريقة المسح :

والمسح طريقة في تسجيل البيانات السكانية في مجتمع من المجتمعات بواسطة أسئلة معينة ، وعقب انتقاء فئة من السكان ليجيبوا على الاسئلة المذكورة .

وأهم طرائق تحديد العينات المدروسة الطرائق التالية :

آ ـ **العينة العشوائية** : وفيها تمنح جميع وحدات المجتمع التي ينبغي تطبيق البحث عنها فرصة متكافئة للاختيار ، كأن يعطى الأفراد أرقاماً متسلسلة توضع في اناء ويمزج مزجاً كافياً ، ثم يلجأ الى سحب عدد البطاقات المطلوب على الا تنقص نسبة البطاقات المسحوبة عن ١٠٪ من مجموع الافراد .

ب ـ **العينة الطبقية** : هنا تحدد أولاً النسب المطلوب توافرها في العينة من الجنسين أو من فئات الاعمار أو من المستويات الثقافية أو الاقتصادية ،ثم يترك الباحث ليتبع الطريقة العشوائية في حدود النسب المحددة .

جـ ـ **العينـة المنتظمة** : وتتميز بانتظام الفترات بين وحدات الاختيار فبعد اعداد الكشوف باسماء الافراد وأرقامهم يختار الاول من بين التسعة الاوائل وليكن السابع ، ويضاف عشرة الى هذا الرقم ، بحيث تتكون العينة من الأفراد ذوي الارقام ٧ ـ ١٧ـ٢٧ـ٣٧ ...

١ ـ فوائد الدراسة الديموغرافية :

لا شك أن السكان يكونون أهم عنصر في البنـــاء الاجتماعي الى جانب النواحي الجغرافية وموارد الثروة الطبيعية ودرجة التقدم الاقتصادي والتقني Technique وطبيعة البنية السياسية والقومية ، وتتجلى هـــذه الاهمية في المظاهر التالية :

١ ـ فمن النـاحية العسكرية ، تحتاج الجيوش الحديثة الى الاعداد الغفيرة من القوى البشرية ، رغم التقدم التقـــني الذي ظهر مؤخراً في هذا المجـال . فالصواريـخ الموجهة مثلاً تحتاج ـ رغم آليتها ـ الى رجال يخدمونها وينقلونها ويصلحونها .

هذا بالنسبة للناحية الهجومية، أما بالنسبة للناحية الدفاعية فان ضخامة عدد السكان تعتبر رادعاً لكل عدوان، لأنه مع زيادة المدد تزداد اعداد القوات المرابطة القاهرة.

٢ - ومن الناحية الاقتصادية ، يعتبر السكان قوة تكفل المزيد من الانتاج لتوفيرها اليد العاملة اللازمة ، فكل انطلاقة في هذا المجال يجب أن ترفق بطاقة بشرية كفيلة بتسيير عجلة الصناعة والزراعة والخدمات بصورة مناسبة .

ومن الناحية الاستهلاكية ، يعتبر السكان مصدراً للقوة لما تتيحه ضخامتهم من تطوير في الانتاج ومن انتقال من انتاج صغير الى انتاج كبير ، وفي فرض سيطرة المجتمع على السوق الدولية من حيث فرض شروطه الاقتصادية الخاصة .

كما يساعد العدد الكبير من السكان على ظهور المزيد من تقسيم العمل ، مما يتيح توفر الاخصائيين في كل مجال من المجالات الاقتصادية .

٣ - ومن الناحية النفسية فان العدد الضخم من السكان يولد الثقة والاطمئنان والعزم والكرامة لدى افراد المجتمع ويشيع لدى اعدائه الفزع والهلع، كذلك فان له عظيم الاثر في المواقف الدولية .

٤ - ومن الناحية العملية والتطبيقية ، فان كل عملية تخطيط اجتماعي في المجال الاقتصادي أو الثقافي أو الصحي انما تحتاج كما رأينا الى حصر للقوى البشرية بواسطة دراسة ديموغرافية واعية .

٢ - توزع السكان في الوطن العربي :

حينما نستعرض الجداول الاحصائية لعدد السكان وكثافتهم في الاقطار العربية وبقاع تلك الاقطار ، نلاحظ ان العرب وهم قوم يزيد عددهم عن ٨٦ مليونا من الناس اليوم ، ينتشرون على ارض تزيد مساحتها على ١١ مليون كم٢ ، فيتكاثفون ويتخلخلون حسب عوامل متشابهة في سائر اقطارهم ، وأهم هذه العوامل هي :

آ ـ **البيئة الطبيعية :** وينعكس هنا التقسيم الرئيسي لأرض الوطن العربي بين ساحل ممطر وجبل وسهل داخلي وصحراء ، إذ تجتذب السواحل بمناخها المعتدل وامطارها الكثيرة وتربتها الجيدة وتجارتها الواسعة اعـــداداً اكبر من السكان ، فنرى مثلاً ان الكثافة في لبنان وهو منطقة ساحليـة تبلـغ ١٣٢ نسمة بالكم٢ وفي اللاذقية /١٠٤/ ، وفي القطر الواحد يتجمع السكان في المدن الساحلية بشكل واضح كالاسكندرية والجزائر والدار البيضاء .

أما الجبال فهي ذخيرة لغيرها اكثر منها ذات نفع لمن يسكنونها، فسكانها قلائل نسبياً لوعورتها وضيق مساحة الارض القابلة للزراعة فيها ولا تشذ عن هذه القاعدة الا جبال تدخلت في كثافة سكانها عوامل اخرى ، كالمذاهب الدينية والاصطياف .

أما السهول الداخلية فتضم اعداداً من السكان اكبر من المناطق الساحلية لا لأن كثافتهم فيها اعظم بل لانها واسعة بالنسبة للسهول الساحلية .

وأما الصحارى فمناخها وفقرها بالزراعة يجعلانها قليلة الاغراء للسكان ، وتكون نسبة الكثافة فيها منخفضة جداً ، وحين نجد ان قطراً عربياً كالجزائر، قد انخفضت فيه الكثافة بشكل ملحوظ حتى بلغت ٤ بالكم٢ فما ذلك الا لانطباق هذه القاعدة العربية عليه .

ب ـ **العوامل البشرية :**

ولا يتوزع السكان في الوطن العربي حسب البيئة الطبيعية وحدها ، بل ان للعوامل البشرية اثراً قد يبلغ احياناً مدى يفـوق ما للطبيعـة من تأثير ، إذ أن كثيراً من المذاهب الدينية قد اضطرت في فترات تاريخيـة معينة دفاعاً عن نفسها الى تجميـع كتل من السكان كبيرة في ارض ضيقة

قليلة الموارد . ومن الامثلة على ذلك ارتفاع الكثافة في جبال العلويين وجبل لبنان واليمن وبعض مناطق العراق ..

وان شعور فئة من السكان بأنها تنتسب الى عشيرة واحدة كان يدفعها الى الانطواء على نفسها والتكتل في ارض واحــدة سواء اكانت مدينة او جبلاً ، كالاشوريين في سورية على اطراف الخابور ، والاكرادو الجبل المعروف باسمهم والبربر في بعض ارجاء المغرب العربي والارمن في احياء خاصة من المدن واليهود فيما يسمى باحياء الملاحات في المغرب .

ونحن هنا لا نناقش ضرر هذا الشعور أو فائدته وحقيقته أو بطلانه ، وانما نقر واقعاً املته الظروف التاريخية التي لو مرت على سوانا لجعلت كل اسرة أمة قائمة بذاتها .

ومن العوامل البشرية ايضاً ما يأتي عن السياسة وما ينتج عنها من غزو واستعمار يقذف بالاجانب الى ارض وطننـا حيث ينطوون على انفسهم ويتجمعون في مناطق متقاربة ، كالمستعمرين في الجزائر الذين يتجاوز عددهم المليون ، والذين يتكدسون في الاراضي الزراعية الغنية ، والصهيونيين الذين تراكموا في فلسطين نتيجة المؤامرات الدولية .

جـ ـ العوامل الاقتصادية :

يجلب الازدهار الاقتصادي اعداداً من السكان متزايدة ، كما أن التأخر ينفر الناس ويمنعهم من الهجرة الى المنطقة المتخلفة . واذا كانت البيئة الطبيعيـة تتدخل في جوانب هامة من الحياة الاقتصادية وتندمج معها ، فمن الاقتصاد مع ذلك نواح لا تخضع مباشرة للطبيعة كنشوء الصناعة في المدن التي تجتذب الوافدين من الارياف والجبال، حتى اصبحت القاهرة والاسكندرية ودمشق وحلب وبغداد والجزائر من اكبر اماكن التحشدات البشرية على الارض العربية .

ونهرع السكان الى مناطق جرداء أحيـــاناً اذا ما اكتشفت فيها الثروات الطبيعية ، كأن يستخرج البترول في منطقة ما أو الفوسفات أو الحديـــد أو سواه ، دون النظر بعين الاعتبار الى قسوة المنـــاخ أو عدم توفر اسباب الحياة الرغيدة ، ولهذا تكاثف السكان في الكويت والبحرين والظهران ، والصحراء الجزائرية والمنـــاطق التعدينية فى مصر والمغرب العربي .

وإن النتائج التي نستخلصها من دراسة توزع السكان في الوطن العربي هي الآتية :

(١) تتجلى وحدة الامة العربية في توزع ابنائها وخضوعهم لعوامـــل متشابهة خلال تكاثفهم أو تخلخلهم في هذه المنطقة وتلك . ويبدو واضحاً ان الحدود السياسية لا أثر لها على انتقال العرب وتجمعهم في اجزاء وطنهم المترامي الاطراف ، فحين يستخرج البترول في الكويت يختـــرق العرب الحدود اليه ، وحين تتعاظم الصناعة في القاهرة يقصدها العـرب من سائر الانحاء . . . ويندفع ابناء الصحراء او الاراضي التي اصابها القحط في بعض السنين الى السواحل أو السهول الخصبة وينتقل البدو باغنامهم باحثين عن الكلأ والماء دون ان يحترموا ما أقام الاستعمار من حدود .

(٢) الوطن العربي قليل السكان عموماً فكثافته العامة لا تتجاوز ٨ أشخاص بالكم٢ الواحد ، كما أن اعلى كثافة فيه لا تتجاوز /٣٠٠/ في حوض النيل .

واذا كانت الصحراء تلعب دوراً كبيراً في خفض الكثافة ، فلا شك ان السكان العرب ما يزالون اقل بكثير مما تحتاجه البقاع العربية

الخصبة وتزداد هذه الحاجة بعد اكتشاف الثروات الطبيعية المعدنية المخبؤة في اعماق الارض العربية حتى الصحراوية منها .

(٣) والوطن العربي مستعرض لغزو ديموغرافي أجنبي ، فوجـــود الفرنسيين الى جانب الايطاليين والاسبان واليونان في القسم العربي الافريقي، ووجود اليهود في فلسطين والاقليات الهندية والفارسية المنتشرة في ارجاء جزيرة العرب ، ادلة على أن قلة سـكان هذا الوطن أغرت الاغراب فيه ، ولو أن اسباب ضعف الكثافة اقتصادية او طبيعية بحتة ، لما ترك الاوروبي ترف بلاده وقصد الارتزاق واللصوصية في أرضنا .

جدول بتوزع السكان في الوطن العربي (١)

الدولة	عدد السكان	المساحة بالكم٢	الكثافة السكانية بالكم٢
الجمهورية العربية المتحدة	٢٦٬٩٤١٬٠٠٠	١٠٠٠٬٠٠٠	٢٦٫٤
الجمهورية العربية السورية	٣٬٧٥٥٬٠٠٠	١٨٤٬٧٤٩	٢٠
الجمهورية اللبنانية	١٬٣٢٠٬٠٠٠	١٠٬٤٠٠	١٢٧
الجمهورية العراقية	٥٬١٠٠٬٠٠٠	٤٤٤٬٤٤٢	١١٫٥
المملكة العربية السعودية	٧٬٠٠٠٬٠٠٠	١٬٦٠٠٬٠٠٠	٤٫٤
الاردن	١٬٢٣٠٬٠٠٠	٩٦٬٥١٢	١٣٫٨
الجمهورية السودانية	٨٬٧٦٦ ٠٠٠	٢٬٥٠٥٬٧٠٠	٣٫٥
الجمهورية اليمنية	٤٬٥٠٠٬٠٠٠	١٩٥٬٠٠٠	٢٣
الجمهورية الجزائرية	٩٬١٥١٬٠٠٠	٢٬١٩١٬٢٦٤	٤٫٢
المملكة الليبية	١٬١٥٠٬٠٠٠	١٬٧٥٩٬٥٤٠	اقل من ١
الجمهورية التونسية	٣٬٦٠٠٬٠٠٠	١٥٥٬٨٣٠	٢٠٫٣
المملكة المغربية	٩٬٠٠٠٬٠٠٠	٣٩٠٬٨٠٠	٢٣
مراكش المحتلة من اسبانيا	١٬١٦٨٬٠٠٠	٤٥٬٨٦٩	٢٩
طنجه	١٧٠٬٠٠٠	٠٬٣٤٩	
عمان	٥٥٠٬٠٠٠	٢١٣٬٤٠٠	٢٫٦
قطر	٢٠٬٠٠٩	٢٢٬٠١٤	اقل من ١
دولة الكويت	٢٥٠٬٠٠٠	٢٠٬٧١٩	١٢
فلسطين المحتلة	١٬٦٧٠٬٠٠٠	٢١٬٠٠٠	٨٠
الساحل المعاهد	٨٠ ٠٠٠	١٥٬٠٠٠	٥٫٣
قطاع غزة	٢٩١٬٠٠٠	٠٬٦٠٠	٤٨٥
محمية عدن	٨٠٠٬٠٠٠	٣١٥٬٩٦٨	٢٫٨
مستعمرة عدن	١٣٠٬٠٠٠	٠٬٢٠٧	
البحرين	١١٢٬٠٠٠	٠٫٥٩٨	١٨٧
المجموع	٨٧٬١٧١٬٠٠٠	١١٬١٨٨٬٨٩٢	—

ملحوظة: يبلغ عدد اللاجئين الفلسطينيين خارج فلسطين والاردن ٢١٧ ٠٠٠ لاجيء.

(١) الدكتور عزة النص : أحوال السكان في العالم العربي ص ٣٥ .

٣ ـ زيادة السكان في الوطن العربي :

يتزايد العرب في هذه الايام بمعدل كبير يصل الى ٢٥ في الالـف سنوياً ، اي انهم يزيدون حوالي مليونين نسمة كل عام ، علماً بأننا نحصل على معدل الزيادة الطبيعية للسكان بايجاد الفرق بين معدل المواليد ومعـدل الوفيات في منتصف سنة الدراسة .

ويحسب معدل الخصوبة في أي مجتمع من المجتمعات كما يلي :

$$\text{معدل الخصوبة} = \frac{\text{عدد المواليد الاحياء خلال السنة}}{\text{عدد النساء اللواتي في سن الحمل (١٥-٥٠)}} \times ١٠٠٠$$

ويمكن تصنيف المجتمعات من حيث درجة خصوبتها كما يلي :

١ ـ مجتمعات شديدة الخصوبة : وهي التي يزيد فيها عـدد المواليد عن ١٠٠ مولود سنوياً لكل ١٠٠٠ امرأة في سن الحمل . والبلاد العربية داخلة في هذه الفئة ، وتعتبر الجمهورية العربية المتحدة اكثر مجتمعات العالم خصوبة ، فقد بلغ معدل الخصوبة فيها ١٧٨،٤ عام ١٩٤٦ .

٢ ـ مجتمعات معتدلة الخصوبة : وهي التي يتراوح عدد المواليد فيها بين ٧٠ و ١٠٠ مولود سنوياً لكل ١٠٠٠ امرأة في سن الحمل ومن أمثلة هذه المجتمعـات يوغسلافيا (٩١،٣) والولايات المتحـــدة (٨٠،٣) عام ١٩٥٠ .

٣ ـ مجتمعـات ضعيفة الخصوبة : وهي التي يصل فيها عدد المواليد عن ٧٠ مولود سنوياً لكل ١٠٠٠ امرأة في سن الحمل . ومن امثلة هذه المجتمعات : سويسرا (٦٠) والمانيا الغربية (٤٩،٨) عام ١٩٥١ .

أما دراسة تزايدهم فتنقسم الى قسمين :

اولهما معرفة العوامل التي تؤثر على الزيادة سلباً وايجاباً ، وثانيهما تتبع حركة الزيادة ونسبتها وماذا يتوقع ان يبلغ عدد العرب في السنوات المقبلة .

العوامل المؤثرة على زيادة السكان او تناقصهم:

فان بدأنا بالعوامل وجدنا تصنيفات عديدة لها ، وقد تختلف في العناوين وتتفق في المضمون ، ونحن سنرجع العوامل المؤثرة على عدد سكان الوطن العربي الى اربعة :

آ ـ العامل الفكري :

إن لمعتقدات الشعوب اثراً كبيراً على تكاثرها ، وتعتبر الاديان في طليعة المعتقدات التي أوحت الى الناس بالاقبال على الزواج والانجاب ، أو زهدتهم فيها ، والدين الاسلامي يحض على التكاثر ، فقد كان الرسول (ص) يطالب المؤمنين بالتزاوج والتكاثر ويلحّ عليهم في ذلك الحاحاً .

وبما أن غالبية السكان في الوطن العربي تتبع الدين الاسلامي نجد ان الاسرة العربية عموماً كثيرة الاولاد ، مما رفع نسبة المواليد وجعلها تتغلب على نسبة الوفيات حتى في احلك عهود الفقر وتدني المستوى الصحي والمعاشي .

وتحرم اديانُنا موانع الحمل والاجهاض المتعمد اذ تراهما قتلاً للنفس البشرية وازهاقاً لروح زكية خلقها الله وتحدياً للارادة الالهية ، مما يزيد في نسبة مواليدنا لدى غالبية السكان .

وان الفلسفات التي يعتنقها الناس واصداءها الاجتماعية ذات أثر

على عدد السكان ، فأصحاب التشاؤم كالمعري مثلاً ، لا يريدون للناس زواجاً ولا اولاداً ، واصحاب التفاؤل يرون في الطفل بسمة الأمل . ويقوى أثر الافكار في مجتمعنا يوماً بعد يوم ولا يتجلى في حركة المواليد وحدها بل في الهجرة ايضاً ، فاذا كانت الظروف الدينية قد دفعت ببعض المهاجرين من الوطن العربي أو غيرت اماكن سكناهم فيه ، فالنظريات الاجتماعية اليوم تقوم بدور فعّال ، إذ قد تبعد أصحاب نظرية من النظريات عن أحد الاقطار يأساً أو تحفزاً وقد يصيبهم اليأس فلا يتزوجون وربما استبشروا بالنصر فأقبلوا على الحياة .

ب ـ العامل الاقتصادي ومستوى المعيشة :

تقضي سنن الاشياء أن تتزايد نسبة المواليد والمهاجرين الى البلد ، تناسباً طردياً مع الازدهار الاقتصادي ، والادلة الواقعية على هذه القاعدة متوفرة ، فقد عملت الثورة الصناعية على مضاعفة عدد سكان اوروبا ، كما ان الازدهار الاقتصادي في امريكا بعد اكتشافها ، اكثر من مواليدها وزاد في عدد قاصديها .

ونلاحظ ذلك في وطننا العربي ، فنحن نزداد وفي نفس الوقت يرتفع دخلنا القومي ، وتعمر أراضينا قطعة بعد قطعة ، أما ما نلاحظه من الاثر العكسي للعوامل الاقتصادية ، إذ يقبل الفقراء على التكاثر بينما يؤثر الاغنياء قلة الاولاد فمرده الى عوامل نفسية واجتماعية لا ترتبط مباشرة بالمستوى الاقتصادي وحده وسندرسها بعد قليل .

ويدفع العامل الاقتصادي الفلاحين الى الاكثار من الاولاد لمساعدتهم على زراعة الارض وجني خيراتها وربما رغب الفقير في الاولاد علّ كثرتهم تزيد من الدخل المشترك للعائلة . ونجد اثر العوامل الاقتصادية

على تزايد السكان في المناطق التي صنعت أو اكتشفت فيها الثروات الدفينة . وقد دفع افقار الاستعمار الفرنسي لعرب الجزائر اعداداً كبيرة منهم تبلغ مئات الالوف الى الهجرة من موطنهم بحثاً عن الرزق في فرنسا وغيرها من البلدان الاوروبية .

ج - العامل الاجتماعي :

ان للتقاليد دورا هاماً في حض الناس على الزواج أو ابعادهم عنه ، فمن نشأ في مجتمع قامت مفاخر الأسر فيه على كثرتها يرغب في ان لا تقل اسرته عن سواها عدداً . ولعل عامل التقاليد هذا من اكبر الدوافع التي تجعل الفقير والجاهل مكثرين من الاولاد ، فأغلب الفقراء وكل الجهال تقريباً يسيرون في حياتهم وفق التقاليد التي توارثتها اجيال مجتمعهم ولا يخرجون عنها .

ومن العوامل الاجتماعية عدا التقاليد نلاحظ أن الاستقرار والامن هامان في اقدام الناس على الزواج أو الانصراف عنه وفي الاكثار من الاولاد أو الرغبة في قلتهم ، وفي الهجرة من الوطن أحياناً . فالمجتمعات غير المستقرة قد يتركها بعض ابنائها ، وبما أن الاستقرار والامن يرتبطان بالسياسة فانها ذات أثر كبير على حركة الزواج والمواليد والهجرة .

ونحن جميعاً نعرف أن إقبال سكان منطقة القلمون في سورية على الهجرة خارج الوطن راجعة عموماً الى فقدان الاستقرار بتأثير الظروف السياسية زمن الحكم العثماني .

ولا يهاجر الريفيون الى المدن طلباً للرزق فقط بل كثيراً ما تكون هجرتهم راجعة الى انعدام الامن في مناطقهم النائية .

وتتواضع الطبقات الاجتماعية عادة بشكل عفوي على تقاليد واعراف خاصة في مسألة كبر الاسرة أو صغرها . فالموسرون والمتعلمون عموماً يعتادون قلة الاولاد لأسباب عدة منها ما اوردناه في العامل الاقتصادي ومنها ما سنورده في العامل النفسي .

وتؤثر روح الطبقة على المتسبين الجدد اليها ، فتجعلهم يميلون الى رأيها وخاصة اذا سكنوا احياءها ، فيتركون ما اعتادوا عليه من الرغبة في الاسرة الكبيرة الى ما تعودهم هي عليه من إيثار الاسرة الصغيرة أو العكس .

وكذلك تحرك الاهداف القومية السكان فيقدمون على التوالد اثناء الحروب والنكبات أو بعدها ليعوضوا الهالكين منهم ، ويكون للحكومات هنا ، وللطلائع السياسية دور هام في التحريض على التناسل لسد الفراغ والتشجيع عليه بشتى أنواع المغريات ، وقد كان للحماس القومي في المانيا النازية أثر فعال في نقل هذه الامة من مصاف الشعوب ذات الولادات القليلة الى مستوى الشعوب ذات الولادات المتوسطة ، واذا طبقنا هذه القاعدة على الوطن العربي نجد ان اللاجئين الفلسطينين يتوالدون بنسبة مرتفعة جداً بعد نكبتهم على الرغم من الظروف المعاشية السيئة التي يحيون فيها ويصدق الامر نفسه على بقية الاجزاء العربية المبتلاة بالاستعمار .

د ـ العامل النفسي :

وندرس هنا أثر العوامل الفردية البحتة في تزايد السكان وتناقصهم . توالداً وهجرة . فالامزجة والطبائع الشخصية تختلف في نظرتها الى عدد أفراد الاسرة ، إذ لا يتحمل العصبي ضوضاء الاولاد ويؤثر الانطوائيون

البعد عن البيت الكبير ، أما أصحاب الامزجة الهادئة والانبساطية فيبتهجون بوجودهم بين العدد الكبير من الاطفال ويفرحون إذ يحاطون بهم دائماً ، وانانية الفرد قد تدفعه الى طلب العدد الكبير من الابناء تقوية لجانبه ورفعة لشأنه وقد تحمله على الانصراف عن طلبهم لئلا يصبح مجهداً تعباً في سبيلهم . وان وعي الفرد لمطاليبه وحاجاته يدفعه عادة الى الاقلال من الاولاد ، ولهذا آثر المتعلمون ولو كانوا فقراء ان يختصروا من عدد الاولاد لأنهم ادركوا ان الحاجات الاساسية للحياة السعيدة ليست هي الخبز وحده بل هي الغذاء الجيد والملبس الحسن والمسكن الصحي والتعليم الملائم والترويح عن النفس ، وشعروا أنهم عاجزون عن تأمين هذا المستوى الجيد لاولادهم اذا أصبحوا وافرين ، ويشبه الغني المثقف من هذه الناحية وان زاد عليه الرغبة في عدم توزع ثروته وهو أمر اقتصادي .

واذا كان المثقفون العرب ما يزالون قلة بالنسبة الى جمهور الاميين وبالتالي لم يظهر أثر هذا العامل النفسي بصوره حادة ولم يؤثر بعد تأثيراً بالغاً على نسبة المواليد ولم يدفع الى الاكثار من العزاب دفعاً فاحشاً ، فعلينا الا نغفل دور هذا العامل في المستقبل ما دام الأمل في زيادة المتعلمين من أفراد شعبنا قوياً ، ويدرأ الخطر على نسبة الولادات بالسعي الى رفع المستوى المعاشي لجماهير الشعب عامة التي سيتخرج المثقفون من صفوفها دون شك .

اما الانطوائيون ومحبو العزلة وعدم التكاثر ، فالمتطرفون منهم في شعبنا قلة واكثرنا متوسط بين الانطواء والانبساط مع ميل الى أحد الطرفين دون ان يبلغ نهايته القصوى .

ونختم دراستنا لعوامل زيادة السكان وتناقصهم بالتنبيه الى أن هذه العوامل متشابكة متداخلة فيما بينها ، وقد تكون لها اثار متضاربة أحياناً ، فربما دفع الوعي الفردي المثقف الى الاقلال من ولده ، وشجعه تقواه على الاكثار منهم ، وقد يطمع الغني في المدد الوفير من الابناء لنصرته وادارة اعماله ، وفي الوقت نفسه يخشى أن تتوزع ثورته وتضيع بعد موته أو خلال حياته اذا ازداد عدد اولاده .

ولسنا في مجال الدراسة النظرية لهذه العوامل وتصنيفها وارجاعها الى واحدٍ منها أو اكثر ، ولكن هدفنا عملي موجه نحو استجلاء حركة السكان في الوطن العربي .

ونلاحظ ان العامل الديني وعامل التقاليد ما زالان في طليعة المؤثرات على حجم الاسرة وعدد الاولاد في أسرنا العربية ، فلا نعجب اذا رأينا ان الزيادة هي الاتجاه الواضح لسكان هذا الوطن .

حركة السكان في الوطن العربي :

بعد أن عرفنا العوامل التي تؤثر على حركة السكان ، لنستقرىء الآن الاحصاءات ولنعرف كيف تتم هذه الحركة في بلادنا وهل يتزايدون بكثرة أم ببطء ، ومن المعلوم أو معدل زيادة السكان أو نقصهم يستنتج من اضافة عدد المواليد اليهم في كل سنة من السنوات وطرح عدد الوفيات كما يضم اليهم عدد المهاجرين الى الوطن ويطرح منه عدد المهاجرين منه ، كما يلي :

ن = مم   مو + مه

حيث تمثل ن نمو السكان و (مم) معدل المواليد و (مو) معدل

الوفيات و (مم) معدل الهجرة . وتكون (مم) عموماً صغيرة في اكثر المجتمعات بالنسبة لـ (مم) و (مو) . فبحثنا هنا منقسم الى شقين طبيعيين ، أولهما معدل الولادات والوفيات والفرق بينهما وثانيهما الهجرة وماذا قدمت للوطن العربي وما جرَّته عليه .

آ - المواليد والوفيات :

تحسب نسبة المواليد باحصاء عدد المواليد في سنةمعينة لكل ألف من السكان وتستخرج هذه النسبة بقسمة عدد المواليد في سنة معينة على عـــدد السكان مضروباً بألف .

وهذه معادلة حساب معدل المواليد :

$$م_م = \frac{م}{ق} \times ١٠٠٠$$

حيث (مم) هو معدل المواليد العام لسنة ما . (م) تمثـــل مجموع عدد المواليد لتلك السنة ، (ق) تمثل مجموع السكان في اول تموز من تلك السنة .

اما نسبة الوفيات فتحسب باحصاء عدد الوفيات في سنة معينة في مجتمع ما لكل الف من السكان ،وهذه معادلة حساب معدل الوفيات :

$$م_و = \frac{و}{ق} \times ١٠٠٠$$

حيث (مو) هو المعدل العام للوفيات لسنة ما، (و) تمثل المجموع

العام للوفيات خلال تلك السنة ، (ق) تمثل مجموع السكان .

اما وفيات الاطفال فيحسب معدلها لكل الف من الوفيات العامة ، لا من مجموع السكان ، كما هو الحال بالنسبة للوفيات العامة ، فيحسب عدد وفيات الاطفال الذين هم دون السنتين على عدد الوفيات العامة بالالف .

والشعب العربي شعب فتي خصب ، إذ أن معدل الولادات في سائر اجزائه يفوق معدل الوفيات ، بنسبة وسطية تتراوح بين ١٥ بالألف و ٢٤ بالألف . ولو توفرت الخدمات الصحية للعرب لبلغ الفرق بين مواليدهم ووفياتهم ما ينوف على الاربعين بالألف في كل عام ولكنهم يزدادون رغم انخفاض المستوى الصحي والمعاشي ، ويزداد اقتناعنا بقوة شعبنا ما تدل عليه الاحصاءات من كثرة الاطفال بالنسبة الى الشيوخ ، فالشباب منهم يتجاوزون ٤٠٪ وسطياً من سكان الوطن العربي اذا اعتبرنا سن الخامسة عشرة نهاية للطفولة ، هذا على الرغم من كثرة الوفيات بين اطفالنا ، إذ أنها تتراوح بين ١٢٠ الى ٢٥٠ بالالف في حين انها لا تزيد عن ١٨ بالألف في السويد وعن ٣٧،٨ في فرنسا .

وتؤثر فتوة الشعب العربي على اقتصادياته وتوزع الاعمال فيه إذ تحمل عدداً محدوداً من الشباب والرجال اعباء إعالة أكثر من ثلثي السكان اذا اضفنا الشيوخ والنساء الى الاطفال ، إذ يجب ألا ننسى ان أكثر نسائنا لا يشغلن خارج البيت .

وإليكم الجدول التالي الذي يبين معدل الولادات والوفيات بالالف في عدد من أقطار الوطن العربي والفرق بينها :

القطر	الولادات بالالف	الوفيات بالالف	الفرق بالالف
سوريا	٥٣	٣٤	١٩
لبنان	٤٥	٢٨	١٧
فلسطين (قبل الهجرة)	٤٨ (مسلمون)	٣٠	١٨
	٣٧ (مسيحيون)	٢٠	١٧
	٢٤ (يهود)	٦،٥	١٧،٥
الاردن	٤٣	١٩	٢٤
العراق	٥٥	٣٨	١٧
السعودية	٦٢	٥٠	١٢
الساحل المعاهد واليمن	٦٠	٤٢	١٨
عدن	٦٠	٤٠	٢٠
مصر	٤٢	٢٧	١٥
ليبيا (برقة)	٤٥	٢٥	٢٠
تونس	٤٢	٢٢(وسطياً)	٢٠
الجزائر	٣٦	٢٥	١١
المغرب العربي	٤١	٢٧،٢	١٣،٨

ب ـ الهجرة :

الهجرة تعريفاً هي انتقال الانسان من بيئة اجتماعية الى بيئة اجتماعية جديدة دون أن يكون هناك تصميم واضح على العودة الى البيئة الاولى .

ويتغير عدد السكان بسبب الهجرة اذ تزيد الهجرة الى البلد من عدد السكان ، كما ينقص عدد السكان بسبب الهجرة منه ، ونستطيع بالطبع ان نتوصل لحساب معدل الهجرة بالمعادلة التالية :

$$م = \frac{هـ}{ق} \times ١٠٠٠$$

حيث (م) تمثل المعدل العام لموضوع البحث لسنة ما ، (هـ) تبين الفرق بين المهاجرين الى البلاد ومنها ، (ق) تمثل مجموع السكان .

وللهجرة اسباب مختلفة يمكن اجمالها بما يلي :

آ ـ الاسباب الجغرافية : قد يهاجر الافراد لاسباب متعلقة بالمناخ أو بطبيعة الارض ، فالعرب يهاجرون كما هو معلوم طلباً للمرعى وانتجاعاً للماء ، كما يهاجر سكان البادية الفقيرة الى المناطق الخصبة الغنية حيث تجود الطبيعة بالخير .

ب ـ الاسباب الديموغرافية : عندما تزداد الكثافة في منطقة ما ، فان الناس يميلون الى الهجرة الى المناطق التي تكون كثافتها منخفضة والتي تحتاج بالتالي الى السكان في سبيل استغلال مواردها .

جـ ـ الاسباب الاقتصادية : عندما تتحكم الازمات الاقتصادية في مجتمع ما وتعم البطالة ، فان السكان يميلون الى الهجرة الى المناطق التي تحتاج الى اليد العاملة ، وهذا ما حدا بالسكان الى الهجرة الى الكويت للعمل في حقول النفط أو الى العالم الجديد رغبة في جمع المال ورفع مستوى حياة المهاجرين من الناحية المادية .

د ـ الاسباب السياسية : قد تتم الهجرات بسبب الاضطهاد الفكري أو المذهبي ، وقد تمت الهجرة في مستهل هـــذا القرن من المغرب العربي الى المشرق العربي بسبب الاضطهـــاد السياسي الذي استخدمه المستعمرون ضد الاحرار .

هـ ـ الاسباب النفسية : لا غروى بأن ما لدى الشباب من اندفاع لقشع المجهول ومن حب للمغـامرة ومن نشاط وفعالية ، ومن احلام لبناء مستقبل سعيد، هو الذي يدفعهم ويحفزهم الى الهجرة ، لا سيا اذا كان لبعضهم اقارب في المهجر ،وقد سافر الكثير من الشباب السوريين و اللبنانيين الى العالم الجديد وكلهم امل في الربح والمستقبل الافضل .

ولا نود أن نقف طويلاً عند بحث هجرة العرب بين اقطارهم المختلفة أو في القطر الواحد من منطقة لأخرى ، فهذه هجرة داخلية لا تزيد ولا تنقص في عـدد سكان الوطن كمجموع عـام وهي اذا وجهـت أحيت الارض الموات ومكنت من استغلال الثروات وساعدت على تعرف أبناء الارض العربية على بعضهم ، وزيادة تفاعلهم وتنمية العلاقات المختلفة فيا بينهـم كالصداقات والمصاهرة والاشتراك في الاعمال الاقتصادية .

ولكننا سنقف عند الهجرة من الوطن العربي الى خارجه الهجرة من البلاد الاجنبية اليه .

أما عن الهجرة الى خارج الوطن العربي ، فقد تعرضت لها بلادنا منذ أواخر القرن التاسـع عشر لاسباب منهـا المذهـبي ومنها السياسي ومنها الفكري والاقتصادي . وقـــد خسرت سورية ولبنـان اكثر من مليون

شخص هاجروا الى أمريكا الشمالية والجنوبية أو الشرق الاقصى أو افريقيا ، كما انطلق مئات الالوف من الجزائر الى البلاد الاوروبية بحثاً عن الرزق بعد أن تعمد الاستعمار الفرنسي افقار عرب الجزائر وأعطى أرضهم للمستعمرين الوافدين .

وهذه الهجرة لها محاسنها ومساؤها ، فمن فوائدها ان بعض المهاجرين يثرون في بلاد الغربة حيث تساعد النظم السياسية والاقتصادية على تقدم ذوي المواهب ، الذين يعيدون ثرواتهم كلها أو بعضها الى الوطن ، ومنها أن المهاجر يطلع على ثقافة الامم الاخرى ، ويشاهد عن كثب اساليبها في العلم والعمل ، فينقل المفيد الى بلاده ويساهم في تطويرها اجتماعياً .

أما السيئات فمنها ان الهجرة الخارجية تفقد وطننا كفاءات جيدة كان من الافضل ان تنصرف الى الانتاج والابداع في بلادها وإن سكان الوطن العربي قلة بالنسبة الى مساحته وامكانياته ، فتزيد الهجرة من قلة السكان وتحرمه من ايد عاملة وجهود في البناء تذهب فتعمر البلاد الاجنبية ، وبما ان المهاجرين يكونون غالبا من الشباب والرجال خاصة ، فالخسارة تكون كبيره جداً من الناحية العسكرية أيضاً ، لان الجيوش تقوم على الشباب ، ولا ننسى أن الشباب يكونون في سن الزواج عادة فيتركون زوجاتهم أو ينطلقون عزاباً ليتزوجوا في بلاد الغربة وتصبح اعداد كبيرة من الفتيات عوانس مما يؤثر على عدد السكان تأثيراً مضاعفاً إذ لا يحرم المهاجر وطنه من جهوده فحسب بل ومن اولاده الذين كان يمكن ان ينجبهم .

واذا كان بعض المهاجرين يثرون في أرض هجرتهم ، فان أغلبهم

يظلون عاديين ولا يستطيعون مد وطنهم الام بالمساعدات الاقتصادية ، بل كثيراً ما يعجزون عن تأمين تكاليف العودة . ولا يلجأ كل اغنياء المهاجرين الى تشغيل أموالهم في بلادهم الاصلية ،بل إن قسماً كبيراً منهم يندمجون في ديار الغربة ويصبحون من مواطنيها ولا يفكرون إلا لماماً بمسقط رأسهم ، وربما لم يجلب المهاجر العائد الى وطنه من بلاد غربته أحسن ما فيها من علم وصناعة ونظام فقد يستورد لها اخلاقاً وعادات لا تتلائم مع طبيعتها ولا تنسجم مع أهدافها .

ولسنا هنا في صدد سن تشريع يحرم الهجرة الى خارج الوطن العربي ولكننا نؤمن بضرورة التطور الاقتصادي الذي يفسح مجالات واسعة لابناء هذا الوطن على اختلاف كفاءاتهم وقابلياتهم ونؤمن بعدم افساح المجال للاستعمار ووكلائه في اثارة الضغينة بين المواطنين مما يحمل بعضهم على الاغتراب .

اما الهجرة الى الوطن العربي من خارجه ، فقد ظهرت بشكلها الجديد في القرن التاسع عشر أيضاً ولم تزل مستمرة الى اليوم ، إذ أخذ الفرنسيون يتحركون نحو الجزائر إثر احتلالها عام ١٨٣٠ ، وامتدت هجرتهم الى تونس والمغرب وشرع الايطاليون بالهجرة الى ليبيا بعد ان سلم العثمانيون هذه البقعة العربية لهم في أوائل القرن العشرين ، وشارك الاسبانيون وابناء بعض الشعوب الاوروبية الاخرى في هذه الهجرة حيث كانت الدول المستعمرة تعطيهم الامتيازات الممنوحة لرعاياها في البلاد المستعمرة ، وتعرضت مصر لهجرة اليونانيين والايطاليين اليها بعد احتلالها عام ١٨٨٨ من قبل بريطانيا وبدأ اليهود ينظمون هجرتهم الى فلسطين منذ

عهد السلطان عبد الحميد ، ويذكر أحد زعمائهم في مذكراته ان السلطنة العثمانية رفضت ان تسمح لهم رسمياً بانشاء المستعمرات الصهيونية ويمضي متهكما متمنياً أن يكون كل المعارضين للصهيونية شبيهين بهذه السلطنة ، إذ ما لم تقبل به عن طريق المفاوضات قبلته عن طريق الرشاوى والاتفاقيات السرية (١) .

وهكذا انشأ الصهيونيون مستعمراتهم الاولى منذ القرن التاسع عشر،(٢) ونمت هجرتهم ومستعمراتهم بعد الحرب العالمية الاولى بتأييد من بريطانيا الدولة المنتدبة على فلسطين يومذاك وبموافقة بقية دول الحلفاء كفرنسا وامريكا ، إذ لم يجد ولسون في القضاء على عروبة فلسطين وفي تدعيم الاستغلال الصهيوني لها ما يتعارض مع مبادئه الاربعة عشر (٣) وتوسعت الهجرة الصهيونية اثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها حيث ازداد تأييد الامريكيين للصهيونية الى جانب دعم بقية الدول الاستعمارية لها .

تطور عدد اليهود الاجمالي في فلسطين

السنة	العدد الاجمالي
١٩٤٥	٥٩٣،٠٠٠
١٩٠٧	٦٤١،٠٠٠
١٩٤٩	١،٠١٤،٠٠٠
١٩٥١	١،٤٠٥،٠٠٠
١٩٥٢	١،٠٤٣٠،٠٠٠

(١) حاييم وايزمن في مذكراته ..
(٢) مستعمرات (ملبس) بتاح تكفا ـ عيون قاره (ريشون ليزيون) كموش (مشارهياردن) انشئت كلها اواخر القرن (١٩) بأموال اليهودي روتشيلد .
(٣) نبيه امين فارس ـ في كتابه هذا العالم العربي .

وتتعرض البحرين والكويت لهجرة الايرانيين ، أما عدن فيسعى الاستعمار البريطاني ان يحشد فيها أشتاتاً من الناس ليفقدها وجهها العربي، وتجتذب مكة والمدينة اعداداً كبيرة من ابناء الشعوب الاسلامية نظراً لقيمتها الدينية .

ومن الملاحظ أن استيطان الاجانب في الوطن العربي مضر به أفدح الاضرار ، إذ أن المهاجرين الغرباء يصبحون ركيزة للدول الاستعمارية التي ينتسبون اليها أو يدخلون البلاد بتشجيع منها . فهم من ناحية اعداء للقومية العربية إذ يرون فيها القضاء المبرم على امتيازاتهم الخاصة ، ويشكلون طبقة مستقلة لا تعنى بمصالح الوطن العربي بل بأنانيتها وبمصلحة وطنها الام ، وتنال أخصب الاراضي واكثر المساعدات الجمركية والمالية لتحافظ على قدراتها الاستغلالية وتنتقي الاعمال المربحة وتسعى دائماً الى إبقاء النفوذ الاجنبي خدمة لارستقراطيتها ، ونحن نعاني من المستوطنين الاوروبين في الشمال الافريقي الأمرين سياسياً واجتماعياً واقتصادياً ، كما أن الاجنبي يفضل دائماً حكم دولة اجنبية للقطر الذي هاجر اليه ، ولو لم تكن هي دولته الاصلية ، لان الحكام الغرباء يؤثرون التعاون مع الغريب مثلهم اضرب الشعب صاحب البلاد .

وقد أدت الهجرة الصهيونية الى فلسطين الى قيام دولة العصابات (اسرائيل) في قلب الوطن العربي على أرض عربية شرد أهلها ، وتعتبر هذه الدولة من أهم أهدافها محاربة وحدة العرب وتحررهم وتقدمهم وقوتهم ، إذ لا يعقل ان تبقى روحها القذرة لحظات بعد وصول العرب الى القوة والمنعة ، وهي الى جانب ذلك ركن استعماري ركين في

السياسة والاقتصاد . واننا نتسامع جميعاً بأحلام حكام إيران في ضم جزر البحرين اليهم واعتبارها منطقة فارسية كما سبق ان حاول الفرنسيون إقامة دولة خاصة لهم في الجزائر قبل استقلالها .

ونحن نرى أن وفود الاجانب الى بلادنا مضر ولو تمّ بشكل هادىء وبدون ضجة ولم يلبس الثوب الاستعماري الصريح ، إذ أن وطننا في مرحلة يقظة لم تبدأ الا منذ عهد قريب ، وتكاثر الاغراب فيه يُخل بسيره نحو اهدافه ويؤخر من تماسكه السياسي والاقتصادي ويفتح ثغرات في كيانه الاجتماعي نحن في غنى عنها .

والنتيجة التي نصل اليها من دراسة هجرة الغرباء الى وطننا هي أنها وسيلة لخسارة هذا الوطن وإعاقة تحقيق اهدافه وليست غنماً يجنيه العرب .

٤ - تركيب السكان في المجتمع العربي :

سندرس هنا توزيع سكان الوطن العربي على الجنسين وعلى فئات الاعمار وعلى الفعاليات الاقتصادية وسائر هذه النواحي ذات أثر بالغ على ثروة الامة ومستقبلها ، ويجب ان تبدأ العمليات التخطيطية الاقتصادية والعسكرية والاجتماعية والسياسية بمعرفتها .

آ - توزيع السكان على الجنسين :

يتساوى عموماً عدد المواليد من الذكور مع عدد المواليد من الاناث بزيادة طفيفة جداً من مواليد الاناث على مواليد الذكور ، ويتبع التوزع حسب الجنس المعادلة التالية :

١٠١ الى ١٠٣ اناث
١٠٠ ذكر

وتدل الاحصاءات العربية على أن عدد الجنسين متقارب في الوطن العربي مع زيادة طفيفة في عدد الذكور عند الولادة ، ومن المعلوم أن وفيات الاطفال الذكور اكثر من وفيات الاناث مما يقرب العدد من التساوي حوالي السنة الخامسة من العمر . واذا كان الذكور اكثر في مجتمعنا عموماً من الاناث فقد يرجع ذلك الى خطأ في الاحصاء او الى اهمال في تسجيل المواليد من الاناث ، أو الى قلة العناية نسبياً بالبنت في طفولتها عند عدد غفير من ارباب الاسر مما يجعل وفياتهن اكثر من المعدل الطبيعي لجنسهن .

وربما ربت الاناث على الذكور بتأثير الحروب والثورات التي تستهدف الرجال قبل غيرهم (١) أو بتأثير الهجرة التي يعمد اليها الشباب عادة ، وهذا ما نراه في الجزائر التي تعرضت الى القتل الجماعي من جهة والى هجرة اعداد كبيرة من شبابها للعمل في البلاد الاجنبية ، مما أدى الى زيادة الاناث في هذا القطر العربي .

وما دمنا قد تأكدنا من تقارب الجنسين عدداً ، فلنعلم أن رب الاسرة العربي يتحمل اعباء اقتصادية كبيرة إذ يُعيل سائر نساء عائلته الى جانب اطفالها وشيوخها ، وهكذا يتحمل أحد الجنسين اعباء الجنس الاخر المعاشية في البلاد التي لم ينتشر فيها على نطاق واسع عمل المرأة خارج البيت ، ونحن من هذه البلاد .

---

(١) في علم السكان - الدكتور عبدالكريم اليافي

واذا كان عدد الجنسين متقارباً مع زيادة طفيفة لمصلحة الذكـور فلا شك أن عدد النساء والرجال الذين هم في سن الزواج متقارب ايضاً ، او متساو اذا أخذنا بمجموعهم العام في الوطن العربي كله ، نكتشف ان تعدد الزوجات الذي ما يزال منتشراً في الارياف العربية خاصة ليس مرده الى قلة عدد الذكور بالنسبة للاناث بل الى اسباب اجتماعيـــة واقتصادية وشخصية اخرى .

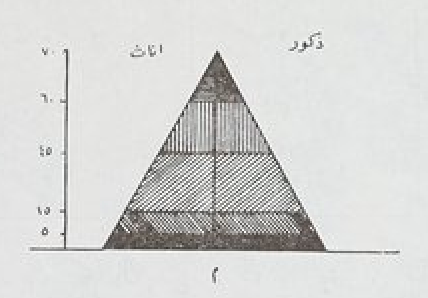
ب ـ توزيع السكان بحسب فئات الاعمار :

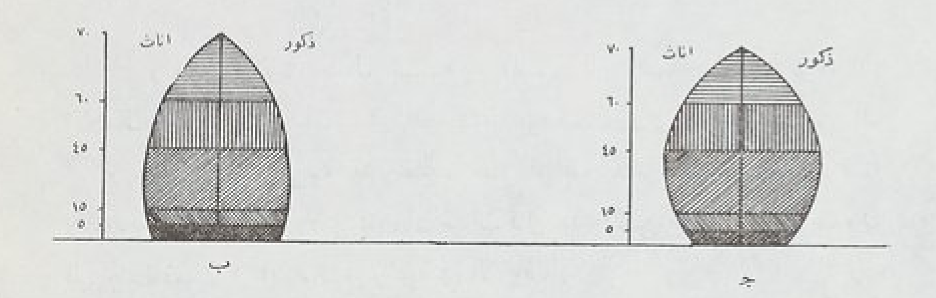
تبين الابحاث الديموغرافية ان الشعوب إما أن تكون فتيـــة أو هرمة أو متوسطة بين هاتين الفئتين ، فالفتية هي التي يزيد عدد الاطفال فيهـــا عن الشيوخ كثيراً كأن تكون النسبة شيخين الى كل ١٠ أطفال ، وأما الهرمة فهي التي يزيد مجموع شيوخها عن اطفالها وأما المتوسطة فهي تلك التي يتساوى فيها عدد الشيوخ مع عدد الاطفال ، فمضلع الاعمار للشعب الفتي تزيد قاعدته كثيراً عن الاقسام قبل الاخيرة من قمتـــه ، أما مضلع الاعمار للشعب المتوسط فتكاد القاعدة فيـــه تتعادل مع تلك الاقسام ، أما مضلع الشعب الهرم فان الاجزاء التي تقع قبيل القمة تكون اعرض من القاعدة كما يظهر في الشكل ص (٧٧) .

وتبلغ نسبة الاطفال في الشعب العربي كله حوالي ٤٠٪ من مجموع السكان اذا اعتبرنا سن الخامسة عشرة نهاية للطفولة ولا تزيد هذه النسبة في فرنسا على ٢٣٪ .

واذا كانت كثرة الاطفال تبشر بزيادة سكان الوطن العربي فانها من ناحية ثانية تحمل القادرين على العمل من الرجال اعباء اعالة ثلـــثي

السكان اذ علمنا أنهم يسعون في رزق اطفالهم العديدين الى جانب النساء والشيوخ كما ذكرنا .





ومعرفة توزيع السكان على فئات الاعمار مفيدة جداً لعمليات التخطيط والتطوير ، فمن يعلم عدد الاطفال ونسبة وفياتهم يستطيع ان يتوقع العدد التقريبي لمن سيصل منهم الى سن الدراسة الابتدائية أو الجندية أو العمل ، فيعد لهم المدارس ويدرك طاقة الوطن من العمال والجنود في أية سنة من السنوات .

وقد قدر السيد الكسندر جبب فئات السن في سورية عام ١٩٤٤ كما يلي :

اقل من ٤ سنوات	١٢٫٠٤٪
من ٥ - ١١	١٨٫٠٦٪
من ١٦ - ٢٠	١٨٫٠٦٪
من ٢١ - ٥٠	٣٤٫٠٦٪
٥٠ فما فوق	١٢٫٠٨٪

من هذا الجدول يتضح ان من هم دون العشرين يبلغون ٥٥٫٦٪ من مجموع السكان .

ونظراً لكثرة اطفال بــــلادنا بالنسبة الى مجمـوع شعبنا نرى أن الاعمال تجتذب الاحداث قبل ان يشتد عودهم ، وعلى الرغـــم من ان اكثر الحكومات العربية قد حددت سن الرابعة عشرة مبدأً للعمل ، فاننا لا نجد حانوتاً أو معملاً لا يشتغل الاحداث قبل هذه السن فيه ، كما أنهم يعملون الى جانب ذويهم في الاعمال الزراعية في الارياف .

وجدير بالذكر ان الاجل المتوسط او المرتقب لافـــراد الشعب العربي منخفض جداً فهو لا يتجاوز (٣١) سنة عموماً[1] ، واذا كنا نرى بعض المعمرين بين ظهرانينا فان ارتفاع وفيات الاطفـال تساهم في خفض نسبة العمر المرتقب لمجموع الشعب العربي ، في حين أن هذا العمر يتجاوز الـ ٦٠ عاماً في البلدان الاوروبية المتقدمـــــة ، وانخفاض الاجل المتوسط يسبب خسارة فادحة لمجتمعنا ، إذ يفهم منه أن عدداً كبيراً من الاطفال والفتيان يموتون بعد ان يكون المجتمع قد أنفق عليهم المجهودات في سبيلهم قبل ان يستطيعوا رد الجميل لامتهم وتعويض ما قدمته في سبيلهم والمساهمة في مضاعفة انتاجها وإذكاء نهضتها .

(١) العمر المرتقب في سورية هو ٤٢ سنة .

واسباب انخفاض الاجل المتوسط تعود الى سوء التغذية وقلة الخدمات الصحية أو انعدامها احياناً .

جـ - توزيع السكان من حيث الفعاليات الاقتصادية :

إن معرفة توزيع السكان على مختلف الفعاليات الاقتصادية مقدمة لا بدّ منها لدراسة الحياة الاقتصادية عامة لدى الشعوب وعن طريقها نستجلي الصورة الاولية لمستوى المجتمع المالي والمعاشي . ولا ننسى أن تغيير السكان لمهنهم لا يتم بسرعة كبيرة ودفعة واحدة ، بل يحتاج الى وقت طويل لا نستغني عن المشجعات والمغريات اذا اردنا تقصير امده ، الامر الذي يجب أن يضعه المخططون الاقتصاديون في حسبانهم .

ومن الاحصاءات القليلة المتوفرة عن بعض البلدان العربية نستطيع ان تبين الملامح التالية لتوزيع شعبنا على الفعاليات الاقتصادية :

اولاً - **قلة عدد العاملين بالنسبة لمجموع السكان** ، وهذا مرده كما بينا سابقاً فتوة الشعب العربي الذي يزيد فيه عدد الاطفال عن عدد متوسطي العمر والكهول فيه كما يرجع ايضاً الى سوء الحالة الصحية التي ترفع عدد المرضى والعاجزين عن العمل .

ثانياً - **قلة عدد النساء العاملات بالنسبة لمجموع السكان** ، والسبب في ذلك يعود الى عدم إقرار اكثر البلاد العربية واقعياً لعمل النساء ، ولو ان العاملات منهن يكثرن في القرى والمهن الزراعية ويندرن في المعامل والمكاتب .

ثالثاً - **ان اكثرية السكان تعمل في الزراعة** ، لان بلادنا ما زالت

تعتمد عليها كحرفة اساسية ، مما يؤدي الى انخفاض المستوى المعاشي والدخل القومي ، إذ لا مجال للمقارنة بين أرباح الزراعة وبين مكاسب الصناعة وخاصة اذا علمنا ان الكثير من اراضينا ما زالت تستثمر وفق الاساليب القديمة .

وقد قسم مؤتمر السكان العالمي المجتمعات الى ثلاثة فئات على اساس مدى اشتغال سكانها العاملين في الزراعة ، وكان التصنيف كما يلي :

١ ـ مجتمعات متخلفة اقتصادياً : وفيها يعمل ٦٠٪ من السكان فأكثر في الزراعة .

٢ ـ مجتمعات شبه متقدمة اقتصادياً : وفيها يشتغل ما بين ٣٥ و ٥٩٪ من السكان في الزراعة .

٣ ـ مجتمعات متقدمة : وفيها يعمل اقل من ٣٥٪ من السكان في الزراعة .

والمجتمع العربي تدخل معظم اقطاره في الفئه الاولى .

اما الذين يعملون في الصناعة فلا يتجاوزون الـ ١٠٪ من مجموع سكان الوطن العربي ، والذين يعملون في التجارة والمهن الحرة واعمال السمسرة والصيرفة وغيرها .. فنسبتهم لا تتجاوز الـ ١٢٪ من مجموع العرب واصحاب البلاد . ويدرك الاجانب ما تدره هذه الاعمال الاخيرة من أرباح فتراهم يقبلون عليها ، ويحاولون ان يسيطروا برساميلهم على النشاط الاقتصادي في الاقطار العربية التي يسكنونها ، وقد بدأ نفوذهم بالاضمحلال في الاقطار المستقلة اليوم .

واذا كنا قد اوردنا توزيع السكان بشكل عام على الفعاليات الاقتصادية، فلا ننسى أن هذا التوزيع يختلف في الريف والمدن ، إذ أن غالبية أبناء الارياف تعمل في الزراعة وفي المهن الملحقة بها مباشرة ، بينما تتجمع اكثرية الحرفيين والصناعيين والتجار والموظفين في المدن .

وقد جرت بعض المحاولات في بعض الاقطار العربية لتصنيف السكان حسب المهن التي يزاولونها ، ونورد على سبيل المثال وضع الجمهورية العربية المتحدة :

المهنة	العدد بالالف		
	ذكور	اناث	المجموع
الزراعة والصيد والقنص	٢٬٦٥٦	٥٨٩	٤٬٢٤٥
الصناعة واستثمار المناجم	٦٥٦	٥٧	٧٢٢
البناء والتشييد	١١٢	١	١١٣
النقل والمراسلات	٢٠١	٢	٢٠٣
التجارة	٥٤٥	٧٦	٦٢١
الادارة العامة والخدمات	٤٨٩	٢٦	٥١٥
الخدمات الشخصية	٢٦٧	١٢٥	٣٩٢
صناعات غير منتجة	١٢٣	٤٤٩	١٬٤٧٢

اما في الجمهورية العربية السورية ، فانه يعمل مليون وسبعمائة وخمسة وعشرون الف نسمة تقريباً في الزراعة [1] من أصل قوة عاملة تبلغ مليونين ومائة الف نسمة ، على حين ان الصناعة لا تشمل سوى مائة الف من السكان .

(١) عن كتاب مطالعات في المجتمع الريفي – منزبل وعقاد ص ١٤ .

الباب الثالث

المجتمع العربي المعاصر

ويتضمن :

الفصل الاول - الاسرة العربية ومشكلاتها

الفصل الثاني - الاوضاع الثقافية

الفصل الثالث - الاوضاع الصحية

الفصل الرابع - الاوضاع السياسية

الفصل الخامس - الاوضاع الاقتصادية

الفصل الأول

الاسرة العربية ومشكلاتها

لئن درسنا في الفصول السابقة عوامل الوحدة الطبيعية والبشرية في المجتمع العربي ، فان صورة هذا المجتمع لا تكتمل إلا اذا استعرضنا الاوضاع الباقية كالاسرة العربية والطبقات السائدة في مجتمعنا العربي . الا انه قبل ان نوغل في بحث الموضوع لا بدّ لنا من ان نعرض بايجاز لنشأة النظام الاجتماعي وتطور الاسرة عموماً لكي نتلمس عبرها الاصول الاساسية التي استقت منها اسرتنا العربية اوضاعها .

نشأة النظام الاجتماعي :

ينشأ النظام الاجتماعي عادة عن ادراك افراد المجتمع لقيمة مجتمعهم واعتقادهم بهذه القيم ومن ثم ارتباطهم بهذا النظام (١) .

واننا لنجد دوماً صفة مشتركة لجميع النظم الاجتماعية سواء منها تلك التي نشأت سابقاً أو التي يمكن ان تنشأ في المستقبل ، الا وهي

---

(١) عن كتاب الدكتور امام سليم . المجتمع الريفي ص ٤٩ .

وجود دوافع أو رغبات انسانية يحاول هذا النظام ارضاءها ، ومن ثم لا بدّ وان يكون لكل نظام اعراف وقوانين تنظم المعاملة وفقه ، فالأسرة تكونت مثلاً رغبة في ارضاء الجنس وتنظيمه في المجتمع ، الا أن هذا التنظيم يختلف مع ذلك من مجتمع لآخر ، وكذلك النظام الاقتصادي ،رغم ان اساسه كان محاولة دفع الجوع والحفاظ على البقاء .

وان كل تنظيم اجتماعي لا يلقي قبولاً من مجموع المشتركين به يتعرض للتغير السريع أو البطيء ، والتغير شيء طبيعي أما الجمود فهو غير الطبيعي الا ان ما يميز المجتمع العربي هو مقاومته لكل تغيير قد ينشأ عنه تغير سريع في المفاهيم والمعتقدات والاعراف .

هذا ولما كان لا بد لكل نظام اجتماعي من أداة أو وسيلة يتوسل بها لتحقيق اغراضه أو الهدف منه ، فالاسرة اداتها ومكان ارتباطها هو المنزل أو الخيمة والنظام التعليمي وسيلته المدرسة والمعبد .

وسنبحث فيما يلي في الاسرة العربية وأنواعها كالاسرة البدوية ثم الريفية ثم الاسرة المدنية ووظائف كل منها ثم نتعرض لاهم المشكلات التي تواجه الاسرة العربية والحلول الممكنة لها .

تطور الاسرة :

مرت الاسرة منذ نشوئها في مراحل متعددة يمكن اجمالها بما يلي :

١ ـ الاسرة الطوطمية : تضم الاسرة هنا كافة أفراد العشيرة نظراً لانهم ينحدرون من أصل واحد هو الطوطم ، وهو بمثابة رمز

مقدس ، ولذا فقد اعتبر كافة الافراد المنتسبين للطوطم أخـوة . فالقرابة هنا هي الاخوة التي تربط الفرد بأبويه وبجميـع من في العشيرة على السواء . لذا كان الزواج من أفراد هـذا النوع من الاسر محرماً ضمن العشيرة ومحللاً خارج نطاقها Ezogamie .

وعلى العموم كان الرجل يبقى في قبيلته ولا يزور زوجتـه الا خلسة في الظلام لما قد يحيق بالعشيرة من عار اذا وجد في ربوعها نهاراً، وكان الاطفال يتبعون طوطم الام (الاسرة الامية Matriarcat) وكانت صلة القرابة هي رابطـة الرحم وكان صاحب السلطة على الاولاد الخال أو من ينوب عنه .

٢ ـ الاسرة الابوية Patriarcat : تقوم القرابة في هذا النوع من الاسرة على صلة الدم ، حيث يجتمع في البيت كل من انحدر من اب اما الام فكان الاولاد ينظرون إليها نظرتهم الى ابعد فرد من اقاربهم .

وعلى الرغم مما ذكر فان الاب الحقيقي ليس له اي حـق على اولاده وعلى تربيتهم اذ يرجع هذا الى العشيرة كلها . لذا فان الاب يؤاخي ولده متى تجاوز مرحلة المراهقة ، علماً بان الملكية هنا هي ملكية جماعية للارض وللسلع .

وخير مثال لهذه الاسرة ، الاسرة الرومانية التي تتألف من الاب الاكبر وزوجته واولاده الذكور وزوجاتهم وبناته العـازبات واحفاده ومن مواليه وارقائه . والاب هنا هو عميد العائـلة Pater Familias وبيده جميـع السلطات . فهو المالك الوحيد للارض يورث من يشاء ويحرم من يشاء ويعترف بابوته لابنائهم أو يحرمهم ذلك ليتبنى سواهم . وهـو

صاحب السلطة القضائية في الاسرة يسوي الخلاف ، وله الصلاحية المطلقة في التصرف بحياة زوجته واولاده نظراً لانه صاحب السلطة القضائيـة . وكان على المرأة واجبات وليس لها أي حق ، فهي محرومة من حق التملك ومن طلب الطلاق ومن الوصاية على اولادها .

٣ ـ الاسرة الاثينية الحديثة: وهي الاسرة التي تقوم على الاب والام على السواء وتكون الصلة صلة دم ورحم معاً ، فالولد يعتز باعمـامه الذين يحملون اسمه وباخـواله أيضـاً . وله أن ينفصل عن الاسرة ليـكون لنفسه اسرة خاصة عندما يشب ، وللام فيهـا أهمية تختلف حسب التـــوازن المتبنى فيها . فاذا كانت من النوع الديكتاتوري كان الحكم فيها للاب أو للام ، واذا كانت ديموقراطية كانت الامور تتم على اساس التشاور والتعاون والمشاركة في تحمل اعباء الاسرة وفي تصريف شؤونها .

وهكذا نرى أن تطور الاسرة قادها من الواسع الى الضيـق ، وان الاصل فيهـا رابطة الاخوة فرابطة الرحم فرابطة الدم . وبعـد ان كانت الام محور الاسرة نازعها الاب في ذلك ثم تم الالتقاء بين الجانبين في الاسرة الاثينية الحديثة .

٤ ـ الاسرة العربية : كانت الاسرة قبـــل الاسلام اسرة كبيرة ، تضم الوالدين والاخوة والاعمـام . وكان مجموع العائلات يسمى فصيلة (آل العباس) ، ومجموع الفصائل يسمى الفخذ (أميـة) ، ومجموع الافخـاذ يسمى البطن (كبني منـاف) ، ومجموع البطون يسمى القبيلة (مضر وقريش) ومجموع القبائل يشكل الشعب .

وتشبه الاسرة العربية الاسرة الرومانية من حيث اتساع حقوق وسلطات الاب . ومن حيث قيام القرابة على رضاه بالحاق المواليد الجدد بالاسرة وتبني من يشاء ورفض من يشاء .

وقد احدث الاسلام تطوراً كبيراً في الاسرة العربية ، فأبطل العصبية وقصر القرابة على الدم وزاد من ضيق نطاق الاسرة وقادها نحو الاسرة الاثينية الحديثة .

أولاً ـ أنواع الاسرة العربية :

على الرغم من أن النظام العائلي واحد في أساسه عند العرب ، مستقى من تجاربهم العديدة خلال تاريخهم الطويل ، فان الاسرة العربية تتنوع بعض وجوهها ويختلف مدى تطورها بين البداة والريفيين وسكان المدن .

آ ـ الاسرة البدوية :

ينتشر البداة على أطراف المدن والقرى العربية وتجدهم في شتى اقطارنا ، وان دراستهم تلقى ضوءاً كبيراً على تطورنا الاجتماعي فهم أصل أكثر سكان الريف مباشرة ، وحتى سكان المدن كانوا في الازمنة الغابرة بدواً في غالب الاحيان ثم تحضروا وانشأوا القرى التي نمت واتسعت وتطورت فأصبحت مدناً ، ولن نخوض هنا في المناقشات الدائرة حول اولية الحياة البدوية أو الحضرية وإنما نتكلم عن صفة واقعية لمجتمعنا ، فاذا شرعنا في الحديث عن الاسرة البدوية المعاصرة عند العرب ، وبدأنا الكلام عن سعتها وعدد أفرادها وجدناها كبيرة تشمل مجموعة لا بأس بها من الافراد

فالاسرة البدوية قبيلة أو عشيرة تضم بيوتاً في كل منها يعيش أب مع أولاده وزوجته أو زوجاته احياناً ، والاسرة والقبيلة بالنسبة الى البدوي هي مجتمعه ، فعلى الرغم من أن البداة يعرفون أنهم عرب ويفتخرون بذلك بل لقد أتى على الناس حين من الدهر قصروا فيه اسم العربي على البدوي إلا أن البدوي مع ذلك قلما يكون وعيه القومي مكتملاً فهو ينظر الى كل الامور السياسية والاقتصادية من وجهة نظر عشيرته ولا يرى حرجاً في أن يكون هو عربياً وأبناء القبائل الاخرى عرباً ثم يخاصمهم وينازعهم ويحاول أن يمد سلطان عشيرته عليهم .

واذا تناولنا الاسرة البدوية من ناحية وظائفها ، نجدها مكلفة بمهام عديدة ، فالعشيرة وحدة اقتصادية قائمة بذاتها يشتغل الافراد جميعاً في سبيلها ، واذا شاهدنا بعض التخصص في الممتلكات بين أعضاء العشيرة فهذا التخصص ما زال ضعيفاً وغامضاً إذ تسود العشيرة الفكرة القائلة بأن أرضها ومواشيها ملك لها جميعاً ومشاع بين أفرادها ، ومن الناحية التربوية نلاحظ ان العشيرة هي التي تقوم بتربية اطفالها وتنمي فيهم تقاليدها وتورثهم قيمها ، والوظيفة السياسية واقعة أيضاً عند العشيرة البدوية ، فالبدوي لا يفكر في القضايا السياسية بمعزل عن عشيرته إذ تقرر هذه العشيرة عن طريق عمدائها موقفها من العشائر الاخرى ومن الدولة وتعاون بعض السياسيين وتحارب آخرين كوحدة تامة .

والعشيرة هي التي تتكفل في غالب الاحيان بامور القضاء وحل المنازعات بين اعضائها واذا ما قام صراع بين أفراد ينتمون الى عشيرتين يحل هذا الخلاف عن طريق العشيرتين بالذات وفقاً للاعراف السائدة عند

البدو ، ويسمى القاضي الملم بقوانين البادية العفوية واعرافها « بالعارفة » وإليه يحج المتنازعون من ابناء القبائل .

فاذا تركنا وظائف الاسرة البدوية وانتقلنا الى العلاقات القائمة بين أفرادها من حكم وزواج وقرابة ، نلاحظ ان الحكم في العشيرة يكون لبعض البيوت الفرعية منها ، فكل عشيرة تقريباً على الرغم من كونها وحدة شبه تامة ، تنقسم الى شعب أو بيوت فرعية ، ومن بين هذه الشعب أو الافخاذ يتفرد أحدها بالسيطرة على العشيرة وتوجيه مقدراتها ضمن حدود الاعراف البدوية وبعد استشارة الشيوخ المحنكين، وقد اخذت بعض هذه البيوت الحاكمة تستبد بأمر العشائر احياناً فتسجل أرض عشيرتها باسمها وتنعزل عنها من حيث اسلوب الحياة ، بل انها راحت تنتقل الى المدينة وتعيش فيها وتحكم عشائرها عن بعد ، هذا عن حكم العشيرة كلها ، أما عن حكم كل بيت منها على حدة فنلاحظ ان الاب هو المتصرف في شؤون النساء والاولاد ما دام قوياً وقادراً على ذلك ، فاذا عجز او شاخ تخلى عن هيمنته الى اكبر ابنائه واقدرهم ، والرأي النهائي في زواج البداة يعود الى الاب ، فهو الذي يقبل الخاطب أو يرده ويحدد المهر ويقبضه ، واكثر المهر يعتبر مالاً خاصاً به لا يقدم منه لابنته إلا ثمن قليل من المتاع ، هذا بالنسبة الى البنات ، أما الشباب فيظل الرأي الاخير لوالدهم وان كان يأخذ مشورتهم في أمر زواجهم وكثيراً ما يحترم رغباتهم وهو الذي يدفع لهم المهور ، وقد يبادل بين احدى بناته فيزوجها الى شاب من بيت آخر مقابل فتاة يتزوجها احد ابنائه الذكور .

واما عن القرابة فالطفل ينتسب الى عشيرة والده مع وجود بعض الاهمية للقرابة من ناحية الام ، فالاخوال والاعمام معترف بهم عند البدو

كأقرباء مع غلبة الاعمام ، والمرأة عند البدو تتبع زوجها وتعيش مع اسرته وان كانت لا تقطع صلة القرابة بينها وبين أهلها الاصليين ، وهي مكلفة بمهام عديدة منها خدمة زوجها والعناية بأطفالها ومنها أيضاً أعمال ذات طابع اقتصادي كالمساهمة في الرعي والعناية بالماشية والحلب ومشتقاته وغزل الصوف وصنع الثياب وحتى الخيام ، وأما الرجل فيدبر الامور ويقوم بالاعمال التي تتطلب المخاطرة والمغامرة وبذل المجهود الكبير .

وتعدد الزوجات اكثر انتشاراً عند البدو من غيرهم فهم قوم يرغبون في العدد الوفير من الاولاد ، اذا رزقوا بالشباب فقد وهبهم الله فرساناً ومساعدين ، واذا رزقوا بالبنات فقد كثرت بين ايديهم المهور ، ولا يكلف الطفل البدوي اهله جهداً كبيراً ولا مالاً وفيراً فهو طفل قنوع يلبس الخروق البالية ويأكل ما يقدم له من نتاج الماشية ولحمها ومن التمر والخبز ان وجد واذا صعبت الحياة عليه مات بهدوء .

ويسود العشيرة جو العصبية اذ ينتصر افرادها لبعضهم ظالمين أو مظلومين ويأخذون ثأر قتلاهم ولو كلفهم ذلك غالياً .

ب ـ الاسرة الريفية :

ما تزال الاسرة الريفية عندنا تحمل آثار البادية ، إذ يستطيع المدقق في اصل سكان القرى العربية ان يرجع انساب اكثرهم الى العشائر البدوية ، فأسرتنا الريفية إذاً شكل متطور من اشكال اسرتنا البدوية .

اذا نظرنا الى الاسرة الريفية العربية من حيث نطاقها وسعتها نلاحظ انها ما زالت كبيرة ، أو هي على الأقل تعتبر كثرة العدد مفخرة لها ، وتوجد بعض القرى التي ينتمي افرادها جميعاً الى عشيرة واحدة ولكن

هذا الامر ليس دائم الوقوع ، إذ عرف الريف العربي قرى تتألف من عدة اسر وهذا تطور بالغ الاهمية ، إذ بعد ان كانت الاسرة البدوية تعتبر نفسها وحدة اجتماعية قائمة بذاتها بل هي المجتمع كله ، اصبحت الاسرة الريفية تعترف بوجود جماعات اخرى تعيش معها في قرية واحدة وتتفق واياها على المصلحة العامة لهذه القرية ، وهذا التطور تقتضيه طبيعة التحضر .

ووظائف الاسرة الريفية واسعة ايضاً ، فكل اسرة في الريف تعتبر نفسها كياناً اقتصادياً له ارضه المشتركة وغلاته الخاصة ، والافراد يعملون في سبيل هذا الكيان ، إلا أن الامر يختلف هنا قليلاً عن حال الاقتصاد البدوي إذ اصبح التخصص في الممتلكات بين افراد الاسرة اكثر وضوحا وتزايد عدد الافراد الذين يتمسكون بقطعة من الارض وقطيع من الماشية ويعتبرونه ملكاً لهم ولاولادهم من بعدهم لا للعشيرة أو الاسرة الكبيرة كلها ، والوظيفة السياسية للاسرة الريفية نامية ايضا ، فما زال شيوخها يقررون معاداة الاسر الاخرى او الاتفاق معها ومتى قرروا التزم افراد اسرتهم بتعليماتهم ، وشيوخ الاسر الريفية هم الذين يعلنون انضمام اسرتهم الى هذا الجانب او ذاك في المعارك الانتخابية والمنازعات السياسية وفي امر اختيار المختار وان يكن امرهم في هذا الميدان اهون من امر شيوخ الاسرة بدوية بقليل .

ومن الناحية التربوية نلاحظ أن الاسرة الريفية ما زالت مكلفة الى حد كبير بتلقين ابنائها عاداتها وتقاليدها والقواعد الاخلاقية المؤمنة بها وتعليمهم الى جانب محبة اسرتهم الاعتداد بقريتهم ايضا . وقد بدأت المدارس تنافس الاسر الريفية على الوظيفة التربوية في الريف منافسة واضحة لا نجد لها شبهاً عند البدو .

وأما السلطة في الاسرة الريفية فتتوزع بين ثلاث قوى ، أولاها شيوخ الاسرة أو أعضاء البيت البارز فيها ، وثانيها سلطة وجهاء القرية ككل ، واهمهم المختار وهيئته الاستشارية ، وثالثها سلطة الدولة التي تتمثل في موظفي الدولة العديدين من رجال ادارة وأمن وقضاء ، وهكذا نلاحظ ان الاسرة الريفية قد تخلت عن جانب كبير من سلطانها الى جماعة القرية والدولة واصبح الريفيون اكثر اطلاعاً على شؤون وطنهم وامتهم من البدو ، وشعروا بأن ما يطرأ على مجموع الامة من ظفر بعض التيارات السياسية ومن نصر أو هزيمة يصيبهم بالنفع أو الضرر ، ولذلك ازدادت مساهمتهم في القضايا العامة ، واذا كانت العصبية باقية في الاسرة الريفية فلا شك أنها اخف منها عند البدو إذ تعود الريفيون أن يشكوا من يعتدون عليهم ومن يقتلون اقاربهم الى الجهات الحكومية في كثير من الاحيان .

ولا يزال الاب في الاسرة الريفية صاحب سلطان كبير على النساء والاولاد ، فهو الذي يشرف على شؤون حياتهم ويكلفهم بأعمالهم وهو الذي يقرر زواج بناته ويأخذ المهر مالاً حلالاً له ، ويدفع قسماً محدوداً منه لابنته ، وهو الذي يفصل ايضاً في امر زواج ابنائه مع احترام رغبتهم الى حد ما كالاب البدوي ، والقرابة في الاسرة الريفية تتبع الطرفين ايضاً والابن قريب لاهل ابيه وامه مع غلبة الجانب الابوي ، والاب يرغب في كثرة الابناء ،وقد يتزوج عدة نساء ابتغاء معونتهن واستكثاراً من الذرية ، والمرأة الريفية مكلفة الى جانب الامور البيتية بأعمال ذات صبغة اقتصادية ايضاً كالعناية بالدواجن والحلب وصنع مشتقات

الحليب واعداد الثياب ، كما تساهم في بعض اعمال الحقل وبناء البيوت ، وهي تابعة لزوجها ملزمة بطاعته ، والطلاق عند الريفيين قليل الحدوث كما هو الحال عند البداة .

والطفل الريفي بدأ في الاختلاف عن الطفـــل البدوي إذ شرع الآباء ويدركون اهميـــة العناية الصحية بأبنائهم ويهتمون بتعليمهـم في بعض الآحايين .

جـ - الاسرة المدنية :

سنقـــوم بدراسة الاسرة المدنية في وطننا بعـــد تقسيمها الى فرعين ، يشتمل الفرع الاول منهـما على الاسر الموجـــودة في الاحياء القديمة او الشعبية من المدن ويضم الفرع الثاني الاسر الموجودة في الاحياء الجديدة .

فأما الاسر المدنية الـــتي تعيش في الاحياء الشعبية فهـي نسخة متطورة عن الاسرة الريفيـــة ، إذ ما تزال كثيرة الافراد ، ينتمي اليها عدد كبير منهم ويتفاخرون بضخامة عائلتهم ، غير أنها تعترف بأن المجتمع أوسـع منها وبأنه يضم عائلات اخرى ضمن المدينة والدولة والوطن ، واذا نظرنا اليها من ناحية الوظائف نجد أن ثروتها لم تعد مشاعـاً وظهر التخصص واضحاً قوياً في الممتلـكات والمكاسب ، فكل بيت من بيوتها يضم فرعـا صغيراً مؤلفا من أب وام واولادهما ، ويعتبر نفسه مالكا لثروة خاصـة لا تستطيع اسرته الكبيرة ان تنتزعها منه وان كان التعاون والتـكافل مطلوبين من سائر الاسرة الواحدة الكبيرة .

ومن الناحية السياسية حافظ عمداء الاسرة على بقايا من هيمنة وسلطان ،

فهم ما ينفكون يعقدون الاتفاقات في الانتخابات ويعلنون باسم اسرهم معارضتهم او موافقتهم لبعض الحكومات والمشروعات ، ولكن هذه الهيمنة اخذت في الضعف لاسباب عديده منها تزايد عدد المثقفين في الاسرة ، ومن عادة المثقف الا يسير الا حسب قناعته ، مما يضطر عمداء اسرته الى تدليله أو اعلان نقمتهم عليه ، ومنها أن تعقد الحياة المدنية وتشابك المصالح فيها جعل الافراد اكثر اهتماما بمصالحهم الخاصة من مصلحة اسرتهم ، بل ظهر عدد من غير المتعلمين استناروا بثقافة اقتصادية وسياسية واجتماعية عامة دعتهم الى مناقشة الامور والي اعتبار المصلحة العامة فوق مصلحة اسرهم ؛ أو الى عدم الاقتناع بقرارات العمداء .

ومن الناحية التربوية لم تعد الاسرة الكبيرة هي التي تقوم بمهام التربية ، بل اصبح الابوان وهم فرع صغير منها يقومان بتربية الاطفال الى حين دخولهم المدرسة التي اصبحت منافساً خطيراً للاسرة في شؤون التربية .

ومن ناحية السلطة خفت الى حد كبير هيمنة شيوخ الاسرة على مختلف الافراد وتوزع سلطانهم بين ارباب البيوت الفرعية من العائلة واصبحت الخصومات والمنازعات تحل اكثرها على يد موظفي الدولة ، ونما شعور الافراد بالمصلحة العامة وبارتباط اجزاء الوطن بعضها البعض وضرورة المساهمة بالامور العامة .

والاب في الاحياء الشعبية هو الذي يقرر تزويج بناته أو رد الخاطبين ، ولكنه يستشير زوجته ويعتني برأي ابنته ذاتها اكثر من زميله الريفي ويعتبر المهر ملكاً لابنته ، يشتري لها به ثياباً وحلياً واثاثاً ، ورغبة ابنائه الذكور محترمة فيما يتعلق بزواجهم وفي غالب الاحيان يقف

منهم موقف الحاكم الدستوري فينصحهم بالزواج من ابنة هذه العائلة أو تلك ولكن لا يفرض رأيه عليهم دائماً وخاصة اذا لم يخالفوا التقاليد في زواجهم . والمرأة في الاحياء الشعبية لا تشتغل عادة الا داخل بيتها ، فهي على عكس زميلتيها البدوية والريفية ليست مكلفة باعمال ذات صبغة اقتصادية الا عند الضرورة القصوى ، وتفضل العائلات في هذه الاحياء ان تنصرف الام الى العناية بشؤون زوجها وبيتها واطفالها . وربما وضعت المرأة في الاحياء الشعبية الحجاب الذي لا نجده في الريف او في المناطق البدوية ، وقد كان لانتشار العلم اخيراً بين الفتيات أن اقبل بعضهن على التوظف في دوائر التعليم والتمريض خاصة ، ويقبل الاهل احياناً هذه الوظائف بحماس محدود .

والقرابة في هذه الاسرة تقوم على الطرفين معاً ، أي أن الابن قريب لاسرة ابيه وامه في وقت واحد ، وهو مكلف بزيارتهم وخاصة في المناسبات الاجتماعية والاعياد واثناء مرضهم أو وقوع مصيبة بهم ، بل انه مدعو حينذاك الى مد يد المعونة لهم ، ولكن الارجحية في العادة تظل للقرابة الابوية ، فالابن يحمل رسمياً اسم عائلة ابيه والوراثة من ناحية الاب اكثر من الوراثة من ناحية الام في الامور المالية .

وقد اصبح الطفل في المدينة يكلف اهله غالياً ، فأغلب الآباء يرغبون في تعليم اولادهم والمدارس متوفرة في المدينة اكثر من الريف ولذلك يتأخر سن العمل عند ابناء المدينة كما ان المدن تتطلب نفقات أكثر على الثياب والترويح لا نجد لها مثيلا في القرية .

وأما الاسرة المدنية في الاحياء المحدثة ، فنلاحظ انها تستمد

عاداتها وانظمتها من منبعين ، اولهما النظام العائلي السائد في الاحياء الشعبية والتي ليست هي الا صورة متطورة عنه وثانيهما العادات الاوربية التي بدأ يتأثر بهـا عندنا بعض المتعلمين والاثرياء ، ولا شك ان الأحياء الحديثـة في المدن إما ان تضم المترفين او المتعلمين ، ونلاحظ ان نطـــاق الاسرة قد ضاق هنا الى درجة كبيرة فأصبـح كل بيت يعتبر نفسه وحدة عائلية قائمة بذاتها ، لا يرتبط بأسرته الكبيرة وأقاربه الأبعدين الا ارتباطـــاً رسمياً او مصلحياً احياناً . وهكذا نجد ان الاسرة في احيائنا الحديثة بدأت تقترب من الاسرة الزوجية السائدة اليوم في اوروبا والـتي تتألف من الزوجين واولادهما فقط ، ولم يعد يهتم ابن هذه الاحياء بذكـــر ضخامة اسرته والافتخار بكبرها بل بدأنا نشاهد المفتخرين بصغر اسرهم وبقلة اولادهم .

والوظيفة السياسية لهذا النوع من الاسرة ضمرت الى حد كبـير فأصبح كل فرد واعٍ راشد سواء أكان ابا او ابناً يتصرف بموقفـه السياسي كما يريـــد ، واذا بقي للآباء شيء من التأثـــير على اولادهم فان عمـداء الاسرة الكبيرة ينتهون هنا أو يتضاءل اثرهم حتى يـكاد ينعدم .

والوظيفة الاقتصادية سحبت هنا تماماً من الاسرة الكبيرة واستقل البيت بثروته بل ان كثيراً من البيوت لم تعد ترى نفسها مكلفة بمعونـة اقاربها وتدعي ان كل انسان مسؤول عن نفسه فحسب ، ونشـاهد في العدد الجم من بيوت الاحياء الحديثة ان الزوج له ثروته التي يتمسك بها وتنافسه الزوجة على هذا الاستقلال في الثروة فتتمسك بممتلكاتها او براتبها وحين يكبر الاولاد يستقل كل منهم بثروته الخاصة .

والوظيفة التربوية تركت للمدرسة منذ ان يبلغ الطفل سن التعليم بل قد تلجأ هذه الاسر الى وضع اطفالها الصغار في رياض الاطفال التي اخذت في الانتشار ، وقد اندفعت بعض العائلات في هذه الطريق الى آخرها فراحت ترسل اولادها الرضع الى رياض للاطفال اختصت بالعناية بهم وبتغذيتهم وتنظيفهم على حين يتفرغ الوالدان لعملهما او لمشاغلهما الاخرى ، ومن لا يرسل طفله الى احدى الروضات يسعى الى تأمين مربية له تساهم في اعمال البيت وتعتني بالصغار في آنٍ واحد .

واما السلطة وحل المنازعات بين الافراد فلم يعودا هنا مناطين بالاسرة ، بل تركا للدولة واصبحت علاقة الفرد مع امته ووطنه مباشرة الى حد كبير لا تحتاج الى توسط العائلة بينهما ، ولكن يبقى مع ذلك للتوجيه القومي والاخلاقي الذي يتلقاه الولد في طفولته اثر كبير على آرائه في المستقبل .

ولم يعد الاب منفرداً في حكم اسرته بل ان الزوجة تشاركه سلطانه وكثيراً ما تتساوى آراؤهما في القيمة ، وحين يرشد الطفل يغدو حراً في تفكيره لا سلطان عليه لوالديه الا عن طريق النصيحة التي قد يقبلها او يرفضها .

وطبيعي ان يصبح امر اختيار شريكة الحياة عائداً الى الابن نفسه وان كان مكلفاً باستشارة والديه ، اما القرار فيتخذه هو بنفسه ، والفتاة غدا لها رأي مسموع في امر زواجها ولكن بدرجة اقل مما هو عند الشاب ، فقد نجد بعض البيوت تعطيها الحرية التامة في أمر زواجها وبعضها الآخر تحتفظ للوالدين بحق التقرير النهائي مع الاهتمام باقناع الفتاة وسماع رأيها وقبول المناقشة منها .

والقرابة في هذه الاسرة تعتمد على الوالدين معاً ويكاد الاعمام والاخوال يتساوون وان ظلت اللوائح الرسمية توحي باعتبار القرابة من جهة الاب أهم من القرابة من جهة الام .

والمرأة في هذه الاحياء سافرة في أغلب الاحيان ، ولا تقوم باعمال البيت فقط بل يسمح لها بالعمل خارج المنزل ولا تقتصر اعمالها على دوائر التعليم والتمريض بل تمتد حتى تشمل اكثر الاعمال التي كان يختص بها الرجل ، فابنة هذه الاحياء ، قد تكون محامية أو طبيبة او مهندسة أو كاتبة . . . وربما هجرت أعمال المنزل وانصرفت الى المشاغل ذات الصبغة الاقتصادية .

وما دام الاطفال في الاحياء الحديثة يرسلون الى المدارس ويرغب أهلوهم في اكمال تحصيلهم ويعرفون رياض الاطفال وتبذل الجهود لجعلهم في أحسن مستوى صحي ، فهم يكلفون الآباء كثيراً من النفقات لا فرق في ذلك بين ذكور وأناث .

ثانياً - مشاكل الاسرة العربية :

تتعرض الاسرة العربية المعاصرة الى مشكلات عديدة بسبب تطورها من ناحية وتأثير العوامل الاقتصادية والوضع الثقافي عليها من ناحية ثانية ، والصفة التي تغلب على اسرتنا اليوم هي القلق والصراع بين المحافظة على الاحوال السائدة وبين الدعوة الى التجديد ، وكل من انصار هذين الطرفين يخشى على الاسرة اذا هي ركنت لآراء الطرف الآخر ، فالمحافظون يخافون ان تضيع الاسرة العربية - وهي خلية المجتمع الاولى - اصالتها

وطبيعتها المتميزة وتذوب في تيار العادات الغربية اذا هي أخذت بنصيحة المجددين ، ويخشى المجددون ان تفقد اسرتنا حيويتها وتظل جامـدة عن التلاؤم مـع متطلبات الحياة الحديثة اذا هي ركنت لنصائح المحافظين .

وسنهتم نحن بالمشكلات ذات الطبيعة الاجتماعية البحتة ، تاركين المسائل المتعلقة بالاقتصاد والثقافة الى الميادين الخاصة بها ، وسنتعرض لثلاث مشكلات هامة هي مشكلة المرأة العربية ومشكلة الطلاق ومشكلة تعدد الزوجات .

آ ـ مشكلة المرأة العربية :

يجابه المهتمون باوضاع المجتمع العربي مسألة خطيرة يسعون الى علاجها على تباين الآراء فيما بينهم ، فالمرأة العربية حالياً وان تطورت حالها عما كانت عليه في القرن التاسع عشر ما تزال دون الرجل في المقام الاجتماعي ، ومهما قيل من ان الرجل عندنا يعتبر المرأة مساوية له لا يقتنع المتعمقون باقواله كثيراً اذا نظروا الى الامور من الناحية العملية ، ففي التعليم ينقص عدد الطالبات عن الطلاب نقصاً فاحشاً حتى لا تصل نسبتهن الى النصف في اكثر البلاد العربية تطوراً (١٢ / ٣٠) ، وثمة اقطار عربية لم تعرف فيها البنات المدارس بعد ، ومن الناحية السياسية نشاهد ان اكثر الاقطار العربية لم تعط المرأة حق الانتخاب والترشيح ولم تسمح لها بالمساهمة في ادارة الامور الوطنية ، كما سمحت بعضها المرأة بأن تنتخب وترشح نفسها ضمن شروط لا تطالب من الرجل ، ومن الناحية الاقتصادية نلاحظ ان المرأة العربية في بعض اقطارنا لا يسمح لها بالعمل خارج المنزل ولا تستطيع تحصيل ثروة لنفسها بل لا يطلب لها ان تكسب المال لعائلتها فهي موقوفة على الامور البيتية الداخلية ، وفي اقطار اخرى بدأت المرأة تعرف الاعمال خارج المنزل ولكنها اعمال محدودة ، اذ لم

تمتد يدها الى سائر مهن الرجل كما لم تستهلك الاعمال نسبة من النساء تقارب الرجال بعد .

ومن حيث السلطة يمارس الرجل في اغلب مناطقنا حكم بيته ، وقد يكون رفيقاً بزوجته أو قاسياً عليها ، وهو الذي يبحث عن الخطيبة التي تنتظره عادة في بيت اهلها ، وقد تساوي المرأة بعلها من ناحية الهيمنة على البيت في الاحياء المحدثة من المدن ولكن هذه المساواة ما تزال محدودة الانتشار وما تزال اعداد غفيرة من نسائنا تحت الحجاب ويعتبرن تبعاً لازواجهن المكلفين باعالتهن والمسؤولين عن اخلاقهن وتدبير شؤونهن .

وينقسم المفكرون الاجتماعيون عندنا حول هذا الموضوع الى قسمين : اولهما يرى الخير في لزوم المرأة بيتها وطاعتها زوجها وابتعادها جهد الامكان عن الاختلاط والتدخل في القضايا العامة ، وثانيهما يطالب بانطلاق المرأة وعدم قصر نشاطها على البيت وحده ويدعو الى اشتراكها مع الرجل في تحمل كافة المسؤوليات واعطائها حق التصرف التام بمصيرها والمساهمة على قدم المساواة مع الرجل في تهيئة مصير ابنائها ووطنها .

ويعتمد انصار الرأي الاول على حجج عديدة ، منها ان المرأة بحكم تكوينها الجسمي والعقلي مؤهلة للحمل والولادة والرضاعة ورعاية الاطفال فقط ولم تمدها الطبيعة لتحمل الحياة السياسية والاقتصادية والفكرية وما فيها من منافسات ومزاحمات لا يقدر عليها إلا الرجل .

ومن براهينهم ايضاً ان المرأة اذا خاضت غمار الحياة العملية فانها لا تضطر الى بذل مجهودات جسمية ونفسية تفوق طاقتها او تختلف عما اعدت له فقط ، وانما قد تضيع اخلاقها ، فالمجتمع مليء بالذئاب

والمراوغين الذين يسهل عليهم خداع المرأة وتضليلها واخضاعها لرغائبهم . واذا اردنا المحافظة على قيمنا الاخلاقيـــة المتعلقة بالشرف فلتبق المرأة في بيتها وتحت انظار ابيها او زوجها ولنبتعد عن القائها في الخضم الاجتماعي المتلاطم بامواج المطامع والشهوات ...

ومن ادلتهم ايضاً ان سائر الشرائع السماوية التي احترمت المرأة وأظهرت انسانيتها تعتبر الرجل قواماً عليها ولم تكلفها باعالة ذويها بل القت التكاليف على الرجل وحده .

ثم ينبهنا اصحاب هذا الاتجاه الى ان المرأة نفسها راغبة في البقاء تحت كنف الرجل وتفضل ان يكون لها زوج قادر على الانفاق وادارة اسرته ولو كانت متعلمة ، بل انها كثيراً ما تهجر العـــلم والوظيفة اذا دعاها داعي الزواج ووثقت من امكانيات بعلها ، وهم يضيفون الى ذلك ما يرونه من ان اول الدعاة لحرية المرأة وانطلاقها الى المجال العملي كانوا رجالاً كقاسم امين ، وقد استقبلت النساء انفسهن دعوتهم بالاستنكار في اول الامر على الاقل .

ويضيف المعتدلون ممن يذهبون هذا المذهب ألا خوف على المساواة بين الجنسين اذا اقتصر عمل المرأة على بيتها اذ تعتبر حينئذٍ مختصة بجانب من الحياة ويختص الرجل بجانب آخر وهو مكلف باحترامها وأخذ رأيها واعتبار مهمتها سامية وجليلة لا تقل من الناحية الاجتماعية والانسانيـة عن مهامه هو .

واما انصار الرأي الثاني ، دعاة المساواة التامة وتحرر المرأة من قيادة الرجل وانطلاقها الى الميدان العملي فلهم ادلتهم ايضاً ، ومنها ان العلم الحديث اثبت قدرة المرأة على العلم والتعلم فهي ليست دون الرجل في

مقاييس الذكاء ، واذا أخذنا الطلاب كمجموع عام والطالبات كمجموع عام ايضاً نلاحظ ان الطالبات لا ينخفض مستوي نجاحهن عن مستوى نجاح الطلاب اذا لم يفقه بتأثير بعض الظروف ، وليس صحيحاً في نظر هؤلاء ان جسم المرأة عاجز عن بذل المجهود الذي تتطلبه الاعمال السياسية والاقتصادية ، بل ان عجزها الظاهري راجع الى تعودها الاقامة في البيت وترددها في النزول الى الحياة الاجتماعية الواسعة بتأثير التقاليد ، وقد اصبحت الاعمال اليوم اسهل مما كانت عليه سابقاً نتيجة للمخترعات الآلية الحديثة فما يشق على امرأة تغسل الثياب والاواني في بيتها اثناء البرد القارس ان تقف امام آلة حاسبة لا تحتاج إلا الى حركات بسيطة من الاصابع ، وهم يروون ان المرأة البدوية والريفية تمارس اعمالاً متعبة وتقوم بها خير قيام ، والنساء البدويات والريفيات في بلادنا هن غالبية النساء ، فلماذا لا ننظر اليهن ونقصر ملاحظاتنا على عدد محدود من نساء المدن اللواتي شلتهن التقاليد ؟

وهم يردون على مخاوف المحافظين حول الاخلاق بقولهم ، إن الاخلاق التي لا تأتي نتيجة التجربة الشخصية والحرية الفردية انما هي اخلاق سطحية ناقصة وان الفضائل التي يكتسبها الانسان عن طريق التلقين والاوامر الصارمة فقط ، انما هي فضائل مزعزعة الاركان ، إذ لا يلمس صاحبها بنفسه مدى اهميتها وقيمتها ويمكن ان يخرج عنها لأقل تغرير او عند انشغال مراقبيه ، ثم ما هي ثقتنا بأنفسنا وتربيتنا وامهاتنا واخواتنا اذا كنا نخاف على اخلاقهن عند لقائهن بأول رجل في الطريق أو في محل العمل ، ولماذا لا نجعل المرأة تستنير وتكتسب خبرة اجتماعية واسعة حتى تعرف بنفسها من اين تأتيها الاخطار وكيف تجابهها ؟

الا يعلم الرجل ان الظروف لا تتيح له دوماً ان يكون على مقربة من زوجته أو ابنته او اخته ، فقد يذهب الى الحروب وقد تذهب به الحرب وقد تبعده اعماله عن بيته مدة من الزمن وربما مرض .. فاذا لم تكن المرأة خبيرة عملياً بأمور الحياة الاجتماعية انهارت وضاعت ، فالمرأة المهددة بان تخضع لمطامع الوحوش المفترسة هي التي لم تكتشف العالم الواسع خارج بيتها ، ثم لماذا نفترض ان الشر في نفوس الرجال والنساء اكثر من الخير ؟ ولماذا نزعم ان البائع بمجرد ان تشتري منه امرأة يفكر في صيدها ، وان المريض كلما اقتربت منه ممرضة او طبيبة نسي مرضه وحلم في التغرير بها وان المشتري متى شاهد في الحانوت او الصيدلية امرأة سعى الى الايقاع بها ، ان الناس لديهم مشاغلهم فالبائع والمريض ومشتري الحاجة او الدواء ليسوا طاقة جنسية فقط تمشي على الارض ، وانما هم بشر لهم آمالهم واسرهم ، منهم من يفكر في الربح ومنهم من يسعى وراء صحته ومنهم من ينتظره اولاده ليحضر لهم الطعام ومنهم المتلهف لاخذ الدواء الى صديقه أو قريبه ، ولعمري ان العمل وجوه الجدي ابعد عن افساد الاخلاق من الفراغ . وقد اشتغلت بعض نسائنا فلم ينزلقن الى مهاوي الفساد الاخلاقي ، وان من يتعمق في امور المجتمعات يدرك ان هذا الفساد موجود بين النساء اللواتي اذ انتهين من امور بيوتهن لا يعرفن الا تبادل الاحاديث عن الناس وترقب المفاجئات لتخرجن من حياتهن الرتيبة اكثر من وجوده بين النساء العاملات المعتادات تحمل المسؤولية .

والشرائع السماوية لم تمنع المرأة من العمل والتعلم بل جعل الاسلام مثلاً طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، واحترم رأي المرأة في الشؤون الدينية والسياسية ، وعرف صدر الاسلام نساء محاربات وفقيهات ، مجادلات ، وعاملات وتاجرات .

ونحن مع تأييدنا لانطلاق المرأة وتحررها الا اننا نؤيد رأي السيدة سهير القلماوي في احاديثها عن عمل المرأة ، فالبيت يحتاج الى رعاية كما يحتاج العمل خارجه الى جهد وجد ، وان العناية بالأسرة تفوق في اهميتها كل عمل خارج

البيت ، ولو انه ليس من مانع ان تعمل المرأة اذا اضطرت للعمل ، كأن تعمل اذا فقدت المعيل او اضطرت لاعالة غيرها ونضيف الى ذلك ان الاعمال المروضة للرجال في وطننا العربي ما تزال حتى اليوم اقل بكثير من الايدي العاملة المتوفرة وان عمل المرأة في شتى الميادين يخلق منافسة لا ضرورة لها حالياً بين الجنسين ، لذلك نرى انه في حالة اضطرار المرأة الى العمل ان يتاح لها مجاله في الاعمال الاكثر لصوقاً بطبيعتها كأم .

ومن الطبيعي ان نجد بين الرجال من يطالب بحقوق المرأة فكلمة الحق يجب ان يهتف بها كل واعٍ من الجنسين ، وليس غريباً ان تتردد جمهرة النساء في اول الامر وان تخشى المجتمع الواسع فهكذا عودتهن التقاليد خلال عدة قرون من الجهل اثر ذهاب العصور العربية الذهبية الاولى ، وان ما تبديه بعض النساء من تخوف سببه قلة الوعي الناتج عن ضآلة التعليم والتنور ، وهكذا تجر العبودية الى العبودية ...

ب ـ قيود الزواج :

لم تعد المجتمعات بعد تطورها تبيح العلاقات الجنسية الحرة الناجمة عن الغريزة لذا فقد بادرت الى وضع القيود والنظم التي يجب التقيد بها عندما يقدم الافراد على التزاوج ، ويمكن اجمال هذه القيود بما يلي :

١ ـ قيود القرابة :

وهي قيود معروفة منذ الجاهلية لدى الاسرة العربية ، وعندما جاء الاسلام اباح للرجل الزواج من جميع قريباته عدا :

آ ـ اصوله مهما علوا : فالزواج من الام والجدة للاب والام محرم .

ب ـ فروعه مهما نزلوا : فالزواج من البنات وبنات الاولاد محرم .

ح ـ فروع أبويه مهما نزلوا : فالزواج من الاخت وبناتها وبنات الاخ محرم .

د ـ الفروع المباشرة لاجداده : فالزواج من العمة والخالة وعمة الاب وعمة الجد والجدة محرم .

اما الفروع غير المباشرة للاجداد ، كبنات العم والعمة والخال والخالة وفروعها ، فالزواج منها غير محرم ، وقد درجت الاعراب في الجاهلية على تفضيل بنات العم على غيرهن رغم ما ينجم عن ذلك من نتائج صحية كشف عنها علم الوراثة الحديث .

٢ - قيود المصاهرة :

ان الاسرة التي يتزوج منها الفرد تصبح كاسرته . لذلك فقد حرمت الشريعة الاسلامية على الصهر ما يلي :

أ - اصول الزوجة مهما علو : امها فجدتها فجدة جدتها ...

ب - فروع الزوجة مهما نزلوا : ابنة الزوج وبنات اولادها .

ح - زوجات الاب والاجداد مهما علوا .

د - زوجات الابناء وابناء الاولاد مهما نزلوا الا اذا كان ابناً بالتبني .

هـ - الجمع بين الاختين الا في حال وفاة الزوجة الاخت أو في حال طلاقها .

٣ - قيود ارضاع :

بين المرضع واسرتها وبين الطفل الذي قامت بارضاعه اواصر قربى كقرابة النسب . ولذا فقد قررت الشريعة الاسلامية ان يحرم من الرضاع ما يحرم بالقرابة والمصاهرة ما عدا مرضعة الاخ ، والاخت .

٤ - قيود الدين :

في المجتمع العربي يحرم الاسلام زواج المسلمة من غير المسلم ويبيح زواج الكتابية من المسلم . كما تحرم المسيحية زواج اتباعها من ابناء او بنات المذاهب

الاخرى ، غـــير ان الزواج المدني المطبق في بعض الامم الغربية أباح مثل هـذا الزواج .

ه ـ القيود القومية :

لم يكن يسمح للعربية في الجاهلية ان تتزوج بأعجمي ، وقـــد بقيت في بعض المذاهب الاسلامية آثار لهذا التحريم . وهكذا فقد ذهب ابو حنيفـــة في مذهبه انه لا يصح زواج عربية من اعجمي أو قرشية بغير قرشي الا اذا تنازل اولياء امرها عن حقهم في هذا الامتياز .

٦ ـ القيود الطبقية :

في الجاهلية ، كان من العار تزوج رفيعة النسب من اسرة اقـــل نسباً وشرفاً وفي مجتمعنا العربي الحالي ، ترفض الطبقات العليا تزويـج بناتها او ابنائهـا من ابناء وبنات الطبقات الدنيا وان كانت هذه العادات والمفاهيم في طريقهـــا الى الضعف والانقراض .

ح ـ مشكلة الطلاق :

عرف مجتمعنا الطلاق الواسع نسبياً منذ عهود بعيدة وذلك لان الدين الاسلامي جعله ميسراً للرجل حين يشاء ، على شرط ان يدفع لمطلقته مُعجل صداقها ومؤجله ، اذا لم يستطع اثبات سوء معاملتها له ، كما ان المرأة المسلمة تستطيع ان تطالب الطلاق او ان يطالب اهلها باسمهـا الطلاق على شرط ان تثبت عدم صلاحية زوجها للمعيشة العائلية الحسنة ، واذا لم تستطع ذلك تتنازل له عن حقوقهـا المادية وتنصـرف ، ومن الصحيـح ان الاسلام لم يشجـع على الطلاق فجعله ابغض الحلال الى الله ، (١) واوصى باستنفاذ الوسائل لحمل الزوجين على الاتفاق قبل اللجوء اليه ، (٢)

---

(١) جاء في الحديث الشريف « ان ابغض الحلال الى الله الطلاق »

(٢) سورة النساء « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من اهله وحكماً من أهلها ان يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما ... »

ولكنه على كل حال سمح به وأبقى أمره في يد الافراد ، ان شاؤوا قبلوا التحكيم وبذلوا الجهود لاعادة المياه الى مجاريها ، وبفضل الاسلام ان تقوم العلاقة الزوجية على التفاهم والرضى بدلاً من الجبر والاكراه ،(١) ولذلك تعتبر نسبة حوادث الطلاق فى اقطارنا مرتفعة بالقياس الى المجتمعات التي تقارب اوضاعنا من النواحي الاقتصادية والتطورية ولكن تتبع شرائع تحد من الطلاق ، فاذا بلغت هذه النسبة في مصر عام ١٩٥١ (٣،٦) بالنسبة لكل الف من السكان ، وفيسورية (٠،٧١) ولبنان (٠،٣٨) والاردن (١،١٧) والجزائر (١،٧١) اضطررنا الى اعتبارها مرتفعة نسبياً على قلتها لان مجتمعنا من هذه الناحية يجب الا يقارن بالامم المتطورة كثيراً كالولايات المتحدة وفرنسا والسويد وانما يجب ان نقارنه بتلك البلاد التي ما زالت تدرج في الخطوات الاولى من التطور كأمريكا الجنوبية والمجتمعات الاسيوية الافريقية ، حيث نجد ان الطلاق لدينا اكثر منها اذا كانت تتبع شرائع معادية للطلاق ، وبسبب هذه الناحية نلاحظ ان الطلاق عند العرب المسلمين اكثر من الطلاق عند العرب المسيحيين ، لأن المسيحية لا تنظر الى الطلاق نظرة تساهل ، ولا تسمح به الا ضمن حدود ضيقة جداً ، ولعل الطلاق في بلادنا مقبل على ازدياد بسبب تعقد الحياة الاجتماعية وبروز الشخصية الفردية للرجل والمرأة في الوطن العربي ، اذ يؤدي الوعي الفردي الى بلبلة اجتماعية في اول الامر ولكنه ما يلبث ان يصبح عامل استقرار من نوع جديد بعد ان يتفهمه الناس .

وينقسم المفكرون الاجتماعيون في بلادنا الى ثلاث فئات حول أمر السماح بالطلاق أو منعه ، اولاها ترى ان الطلاق يجب ان يُسمح به متى اراده احد الزوجين ، وثانيتها تعتقد ان الطلاق يجب ان يُحد منه وتوضع له شروط قاسية وثالثتها تقف متوسطة بين هاتين الفئتين فتدعو الى سحب حق الطلاق

(١) سورة البقرة «الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان .. »

من يد الافراد ووضعه في يد القضاء أو هيئات الخدمة الاجتماعية التي تبذل جهودها لمنعه وتسمح به عند الضرورة .

اما الفئة الاولى فهي ترى ان من الصعب على الانسان البقاء طول حياته مع شخص آخر لا يفهمه ولا يتفق معه في المزاج والطباع ، ولا تستطيع الهيئات القضائية ان تفهم ما في نفس الانسان كما يفهم هو آلامه ومتاعبه ، وان تحرر الزوجين من بعضها وانطلاقهما الى تكوين اسرتين جديدتين افضل من بقائهما تحت سقف واحد يسودهما الشقاق والخصام والتجهم وعدم الانسجام ، ويهمس انصار هذا الرأي في آذاننا قائلين ان الطلاق اذا لم نسمح به رسمياً فلسوف يقع عملياً بين الزوجين غير المتفاهمين فكثيراً ما نرى بيوتاً قائمة بالاسم مهدمة بالفعل ، هجر فيها الرجل زوجته وتحاشاها او وضعت هي بينها وبينه حاجزاً لا يقتحم ، وما اسوأ وضع الاطفال في امثال هذه البيوت .

ثم ألا يكفي الحكومات والقضاء ان تتدخل في الامور السياسية والاقتصادية للمواطنين حتى تتقدم ايضاً الى اخص الخصوصيات وتحاول ان تتدخل فيها ؟ واذا لم يبق الانسان حراً في أمر من يعاشر فماذا يبقى من حريته ؟

واذا اردنا ان نخفف من الطلاق في زعم المتحررين من اصحاب هذا الرأي فعلينا الا نأتي الى الذين تزوجوا وفشلت زيجاتهم ونحاول ان نصل ما انقطع ونجبر ما انكسر بل الافضل لنا ان ننصح الناس بألا يتزوجوا الا بعد ان يدرس الخطيبان اخلاق بعضها وأن يتأكد كل منهما من تلاؤمه مع صاحبه في سائر النواحي ، ومن الغريب ان

يتفق حول موضوع حرية الطلاق اناسٌ من المحافظين أشد المحافظة وأناس من دعاة التجديد .

وهم يبرهنون على ان الانسان يختل انتاجه الفكري والاقتصادي والسياسي وتفسد علاقاته الاجتماعية اذا بقي في بيت الزوجية مليء بالمشاحنات ، وخير للفرد والمجتمع ان يتم الطلاق .

أما الفئة الثانية فترى في الطلاق خطراً جسيماً يصاب به الناس إذ يبعد الاطفال عن ابويهم او احدهما ويجعلهم ينشؤون في جو شاذ يشعرهم بالنقص وبتدني مستواهم عن رفاقهم الذين يعيشون الى جانب والديهم ، كما ان الانسان اذ احس بامكانية الطلاق كلما اراد لم يهتم بالتدقيق في أمر خطوبته بل قد لا يفكر كثيراً فيمن تصلح له او يصلح لها ، وينطبق هذا الامر على الرجال والنساء معاً .

والحياة التي يقطعها الطلاق تفقد استقرارها وتشغل بال صاحبها وتعرضه لتجارب الزواج من جديد مما يضيع وقته ويقلل من انتاجه .

والزواج يجب الا يكون مجرد صك يكتب ويمزق عند الحاجة ، بل هو في جوهره امتزاج عميق بين شخصيتين ورباط مقدس يتيح لكل من طرفيه ان يشارك صاحبه في أخص الخصوصيات ويؤدي الى اقامة الاسرة التي يجب ان نربأ بها عن الهزات والنكسات ، وماذا يبقى من مقدس في المجتمع اذا غدت الاسرة وهي قاعدة القيم والمقدسات عرضة للتفسخ والانحلال وفق الاهواء ؟ بل ماذا يبذل الزوجان من مجهود للتفاهم وابقاء حياتهما المشتركة اذا شعرا ان الطلاق في متناول ايديهما ؟ .

ولذلك ترى هذه الفئة منع الطلاق وعدم السماح به إلا عند الضرورة القصوى كالعقم والمرض المزمن والفساد الاخلاقي . (١)

واما الفئة الثالثة (٢) التي تدعو الى الاعتدال فتأخذ بحجج كل من الطرفين وترى في الطلاق بلاء ، ولكنه بلاء لا بد منه في بعض الاحيان ، وتعتقد ان الفرد لا يستطيع وحده تقدير امكانية استمرار زواجه ، فقد تجرفه العاطفة ويسلبه الغضب تفكيره الموضوعي ، ولذلك ترى ان يرفع الازواج المتخاصمون امرهم الى قضاء مستنير واع اجتماعي ترتبط به جماعات للارشاد الاجتماعي تقوم بدراسة اوضاع البيت المهدد بالانهيار وتحاول رأب الصدوع واعادة المياه الى مجاريها ، كما تحدد مسؤولية كل من الطرفين وتعتمد في كل ذلك على اسس علمية هدفها قبل كل شيء المحافظة على الاسرة ، فان ادركت ان الامر لا يمكن تلافيه سمحت حينئذ بالطلاق ..

وهذه بيانات تبين نسب الطلاق وتطوره في القطر السوري مع توضيح للاسباب الموجبة :

الزواج والطلاق في سورية خلال خمس سنوات

السنة	عقود الزواج	وثائق الطلاق
١٩٥٦	٢٦،٦٠٠	٢،٢٢٢
١٩٥٧	٣٠،٥٢٤	٢،٤٤٨
١٩٥٨	٤٩،٠١٠	٣،٢٤٩
١٩٥٩	٤٧،٣٦٨	٣،٠٤٣
١٩٦٠	٤٢،٩٦٣	٣،٥٨٠

(١) وهذا ما تأخذ به بعض الطوائف المسيحية من العرب كالطوائف الشرقية مثلا.
(٢) ونحن من مؤيدي هذا الرأي

قضايا الطلاق الصادرة عن المحاكم الشرعية في سورية خلال عام ١٩٦٠ (١)

المحافظة	المجموع	اسباب مالية	اسباب اخلاقية	عدم امتزاج	اسباب اخرى
دمشق	١٣٣٣	٤	٩	٩٧٧	٩٤٥
حمص	٢٠٨	–	–	٢٠٣	٥
حماه	١٥٨	–	١	١٥٤	٣
اللاذقية	٢٠٩	١	٥	١٤٠	٦٣
حلب	٨١٢	٤	٤	٧٧٠	٣٤
الحسكة	٨	–	–	٧	١
دير الزور	٨٠	٦	–	٦٢	١٢
السويداء	١٦٦	٢	–	١١٩	٤٥
درعا	٨٣	٣	١	٦٣	١٦

د ـ مشكلة تعدد الزوجات :

تسمح الشريعة الاسلامية بأن يكون للرجل اكثر من زوجة واحدة ، وقد انتشر تعدد الزوجات في بلادنا خلال مدة طويلة من الزمن .

وفي هذه الايام تقل نسبة الذين يجمعون بين عدة زوجات ، ويتسع نطاق البيوت القائمة على زوجة واحدة وخاصة في المدن ، فأكثر ما نلقى

---

(١) النشرة الاحصائية ١٩٦٠

تعدد الزوجات اليوم في الريف او عند البدو وذلك لأن المرأة البدوية والريفية تعملان ، فكلما ازدادت زوجات الرجل وجد عدداً أكبر من العاملات في حقله ورعيه . وتبلغ نسبة الزواج المتعدد ٤ ٪ من مجموع حوادث الزواج .

وتوجد اسباب لتعدد الزوجات غير ما ذكرناه من طلب النفع الاقتصادي في الريف والبادية ، منها عدم انسجام الفرد مع زوجته الاولى التي انجبت له اطفالاً يمنعونه من طلاقها ، فيؤثر ان يتزوج عليها ، ومنها مرض الزوجة الاولى أو عقمها أو تقصيرها في رعاية امور زوجها وبيتها ، ومنها زيادة المتعة الشخصية ، فقد أثر عن بعض الرجال تزوجهم باثنتين وثلاث وأربع ولو كانت زيجاتهم الاولى ناجحة . ومن المعلوم ان الاسلام أوقف التعدد عند أربع زوجات واشترط العدل (١) بين الضرائر ، والفرد هو الذي يقرر قدرته على اعالة زوجاته . وقد اتجهت تونس اليوم نحو منع تعدد الزوجات كما اتجهت بعض الاقطار الاخرى وهي قليلة على كل حال الى نقل حق تقدير امكانية الرجل على اعالة زوجتين أو أكثر من صاحب العلاقة نفسه الى المحاكم المختصة وذلك تمهيداً للحد من الافراط في استعمال هذا الحق .

والناس على آراء ثلاثة في أمر تعدد الزوجات ، أولها ينادي بابقاء هذا الحق مطلقاً ضمن حدود الامكانيات المادية للرجل ، وثانيها يدعو الى الغاء هذا الحق واقتصار الرجل على زوجة واحدة مهما كانت الظروف ، وثالثها الابقاء على نظام تعدد الزوجات ولكن بقيد استعماله ولا يلجأ اليه إلا عند الضرورات التي تقدرها المحاكم .

أما جماعة الرأي الاول فلا يرضون بالتنازل عن حق اخذوه بحكم الله ورسوله وهم يدافعون عن تعدد الزوجات إذ يرون في زواج الرجل بأكثر

(١) جاء في الآية الكريمة «مثنى وثلاث ورباع ، وان خفتم الا تعدلوا فواحدة ،ولن تعدلوا» ..

من واحدة ، انقاذاً له من الانجراف مــع الضلالات والغوايات والعلاقات غير المشروعة ، وهم يحاولون ان يعللوا نظامهم بحجج يرونها علمية ، فيقولون ان الرجل يحافظ على شبابه حتى سن متأخرة بالنسبة الى المرأة وهو بحكم اختلاطه في المجتمع الواسع يظل منفتحاً للحياة وراغباً في المزيد من المتعة خلافاً لزوجته التي تتعبها الولادات والرضاعات ويبعدها انعزالها في البيت عن التفكـير في طلب المزيد من المتعة ، ولذلك يعتبر نظام تعدد الزوجات حصناً منيعاً للاخلاق ، وهم يجزمون بان المجتمعات التي لا تسمح بتعدد الزوجات تكثر فيهـا العلاقات المشبوهة ، ومن يتصفح تاريخ أوروبا يجد ملوكها في العصور الوسطى قائمتين من الاولاد الاولى منها صغيرة وتضم الابناء الشرعيين والاخرى كبيرة وتضم الابناء غير الشرعيين ، ولم نأخذ الملوك هنا إلا كنماذج للمواطنين ، ويعتقد انصار التعـدد ان الحروب تستهلك الرجال الذين هم في سن الزواج فاذا لم نسمح بالتعدد تضخم عدد العوانس والارامل وقل النسل الذي يكون المجتمع في امس الحاجة اليه لتعويض قتلاه .

والحد الذي يقبل انصار هذا الرأي بوضعه امام التعدد هــو الامكانيات المادية فقط ومتى توفر للرجـل المال الذي يكفيه لاعالة زوجتين أو ثلاثة أو اربعة فعلينا ان نسمح له بالاقدام على زيجات جديدة من غير سؤاله عن الاسباب أو احراجه بفرض آرائنا عليه ، ومتى عدل بين زوجاته جاز استمرار احتفاظه بهن .

واما انصار الرأي الثاني الداعون الى منع تعدد الزوجات منعاً باتـاً فيرون في الجمع بين الضرائر ضرراً بالغاً ولا يجدون فيه تلك المنافع الجليلة التي يراهـا الفريق الاول ، وهم يبرهنون على صحة دعواهم بحجج عديدة منها ان الزواج يجب ان يقوم على الحب العميق والاندماج الدائم بين الرجـل

والمرأة ولا يمكن ان تبقى العلاقة عميقة وذات غور انساني بعيد ، اذا هي تشتتت بين عدة زوجات ، وهل تبقى للمرأة كرامة اذا هي لم تحصل في حياتها على شريك لها يعيش دائماً الى جانبها وتحس بانه وجد من أجلها كما وجدت من اجله ؟ هل تبقي للمرأة كرامة اذا هي ظلت مع منافسات لها تدور حول رجل واحد يتخاطفنه ويتجاذبنه ويتبذلن في استرضائه وتسعى كل واحدة منهن الى الاستئثار به ، والانقاص من مودته للاخريات وهو منتفخ بينهم ، شاعر بأنه سيد المجتمع وكأنه الملك الصغير ، لا شك ان هذا الوضع قد يرضى انانية بعض الرجال ولكن على حساب كرامة نسائنا ومستواهن العاطفي والعقلي ، وان الضرة لا تستطيع ان تعيش حياة طبيعية بل هي مشغولة البال دائماً بأمر منافستها مع ضرتها التي تبادلها الحقد والكراهية وتنقل حقدها الى ابنائها فينشأ أولاد الرجل الواحد على كراهية بعضهم ، والضرة تعظم في عينها أتفه الامور وتمضي يومها كله في تفسير بعض تصرفات الرجل وارجاعها الى تأثير ضرتها ، ثم ان تعدد الزوجات من اسباب الطلاق وهكذا يأخذ التعدد باليسار ما يعطيه باليمين ، إذ يستهلك بعض العوانس من ناحية ولكنه يكثر المطلقات من ناحية اخرى ، ثم من يصدق ان نظام التعدد يقلل من عدد العوانس ؟ وهل يدفع الرجل المال ليأتي بزوجة كبيرة في السن نسبياً تصغرها زوجته الاولى وتفوقها نضارة ام يسعى الى الحصول على فتاة صغيرة في ريعان الصبا تبز زوجته الاولى نضارة وشباباً ؟

ويحاول ان يحصل انصار هذا الرأي على فتوى تؤيد دعوتهم الى منع تعدد الزوجات فيقولون بأن الله اشترط العدل بين الضرائر ثم قال « ولن تعدلوا » مما يدل على صعوبة معاملة الضرائر بالتساوي بل استحالتها ولذلك يعتبرون رأيهم غير مخالف للنصوص الاسلامية ومتلائماً مع روح الشريعة .

واما انصار الرأي الثالث الذين يحاولون التوسط بين الطرفين السابقين ، فيعتقدون ان تعدد الزوجات ذو عواقب وخيمة في الغالب على العلاقات الاجتماعية وعلى تربية الابناء بشكل خاص ، ولكن قد تجابهنا حالات نخير فيها بين الطلاق أو السماح للرجل بالزواج من اخرى ، كمرض زوجته مرضاً مزمناً أو عقمها أو جنونها ، فمن الافضل ان ننصحه بابقائها عنده وخاصة اذا كانت ذات أولاد ، ويبني بزوجة ثانية الى جانبها ، وهم يضعون أمر السماح بالتعدد في يد المحاكم والهيئات الاجتماعية التي تدرس المسألة من سائر وجوهها .

٢ ـ الطبقات في المجتمع العربي :

لا تنص قوانيننا صراحة على وجود الطبقات في مجتمعنا ولكنها موجودة عملياً وان الباحثين الذين يحاولون ان يبرهنوا منذ الآن على ان مجتمعنا العربي طبقة واحدة لهم قوم مسرفون في التفاؤل وقد توجههم اغراض لا نرضى عنها ، والطبقة الاجتماعية هي فئة من الناس تبقى منتسبة الى مجتمع اكبر منها ولكنها تتميز عن سائر فئاته ببعض الملامح الخاصة من الناحية الاقتصادية والثقافية والتقاليد ، فاذا طبقنا هذا التعريف على مجتمعنا نلاحظ ان كبار الاغنياء مثلاً يشكلون طبقة فهم قوم ينتسبون الى المجتمع العربي ولكنهم يتميزون عن بقية فئاته ببعض العادات الخاصة التي اكتسبوها على مر السنين ، فأساليبهم في الحديث وآدابهم في الحفلات تختلف ولو ببعض الاختلاف عن اساليب الفقراء البسطاء ، وهم كثيراً ما يرسلون ابناءهم الى مدارس خاصة بهم فينشأ الابناء على تقاليد خاصة معزولة عن تقاليد شعبهم العامة ، وانك ترى فرقاً بين الغني والفقير في كيفية الخطبة والزواج

والعلاقة بين الآباء والابناء ، وقد تعي بعض الطبقات العربية مصالحها الخاصة فتتشبث بها .

وموضوع الطبقات في بلادنا يحتاج الى دراسة مستفيضة وعميقة ، إذ ان احوالنا الطبقية تنعكس آثارها على سياستنا وثقافتنا وعلاقاتنا الاجتماعية ، واننا نتبين منذ الآن ان مجتمعنا العربي ، يضم طبقة اقطاعية تتألف من الملاكين الكبار للاراضي ، انهم اقطاعيون رغم ان القوانين لم تطلق عليهم هذا الاسم ولم تنص صراحة على امتيازاتهم التي كانوا يتمتعون بها قانونياً في العصور الوسطى إذ انهم ينالون فعلياً هذه الامتيازات ولو بدون نص قانوني ، فهم الحكومة في قراهم وهم الحاكم والقضاء ، لهم اتباعهم المسلحون المندفعون وراءهم كالجنود ، بل كثيراً ما يكون رجال الامن في الدولة رجالهم يأخذون من المحاصيل اكثر مما اتفق عليه ويرحلون من شاؤوا بل انهم في بعض الاقطار التي لم تعرف قوانين الاصلاح الزراعي ما زالوا يقتلون من شاؤوا ويخطفون من يريدون ، وحيثما وجدت عائلة مالكة عربية فاعلم انها اقطاعية ، بل هي كبيرة الاسر الاقطاعية في قطرها ، هذا وللاقطاعيين في بلادنا قصورهم واساليبهم في الكلام حسب منزلة المخاطب كما ان لهم عاداتهم في الزواج والتربية وقلما يطلع الشعب على ما يجري في بيوتهم .

وتقابلهم طبقة الفلاحين الذين لا يملكون قطعة من الارض بل يستأجرون ارض الملاك الكبير او يشتغلون تحت ادارته وهم اوسع عدداً من بقية الطبقات في مجتمعنا ، ويعيشون في ضنك شديد ولهم أيضاً تقاليدهم وعاداتهم التى يتميزون بها ولهم آلامهم ومتاعبهم التي يسعون الى التخلص منها ، وقد بذلت بعض الحكومات العربية مجهودات واضحة في

سبيل رفع مستواهم وتمليكهم ارضاً تكفيهم مؤونة الحاجة وتنقذهم من حكم الاقطاعيين ، وذلك عن طريق توزيع املاك الدولة عليهم او شراء اراضي كبار الملاك وبيعها لهم بالتقسيط ، ولكنهم ما يزالون في حاجة الى اصلاحات اكثر .

وقد نشأت في الميدان خلال هذا القرن طبقة من الرأسماليين ، تمتلك ثروة نقدية وصناعية كبيرة ، وأغلب أصحاب الرساميل اليوم كانوا في الاصل تجاراً متوسطين واصحاب مهن حرة ثم تقدموا واستفادوا من الحرب العالمية الثانية ومن قوانين الحماية الجمركية للبضائع الوطنية ومن رخص اليد العاملة في بلادنا فأصابوا غنىً فاحشاً وتجمعت في ايديهم غالبية الثروة القومية في بعض الاقطار ، وقد اصبح لهم نفوذ واسع في دوائر الحكومات ، كما انهم يتعاونون عندما تهدد مصالحهم في سبيل المحافظة على امتيازاتهم ، وهم غالباً متحالفون مع الطبقة الاقطاعية واحياناً يختلفون معها اذا عرقلت حصولهم على الارباح الضخمة ونافستهم على الجاه والسلطان .

والى جانب هؤلاء الرأسماليين نشأت طبقة العمال الآليين الذين يشتغلون في المعامل الحديثة ، وتبرز هذه الطبقة في المدن الكبرى من الوطن العربي بشكل خاص كالقاهرة والاسكندرية ودمشق وحلب وبغداد . . .

والى جانب طبقة العمال الآليين تعرف بلادنا منذ زمن طويل الاجراء الحرفيين والصناع الذين يشتغلون عند معلمي المهن الحرة كصناع النجارة والحدادة والصباغة والصياغة ودباغة الجلود ... وهم جميعاً من طبقة العمال ، وعددهم وفير في المدن .

ولدينا طبقة وسطى مؤلفة من التجار الصغار والبائعين العاديين ومعلمي المهن الحرة الذين يملكون الحوانيت دون المعامل ، والمثقفين الذين يعيشون على

ثقافتهم ولا يمتلكون ثروة اخرى سواها كالمعلمين والمحامين والمهندسين والاطباء وملاك الارض الصغيرة التي تكفي شؤون العيش ولا تجعل صاحبها اقطاعياً وقد أضحى أغلب هؤلاء يشكلون طبقة برجوازية أو طبقة وسطى .

وهذه الطبقة الوسطى ليست وفيرة العدد في بلادنا ، إذ ان مجتمعنا يكاد ينقسم انقساماً حاداً الى اغنياء وفقراء . أما المتوسطون بين الفئتين فهم قلة ، وحين يوجدون فاما ان يكونوا أقرب الى الغنى أو الى الفقر .

هذا تخطيط أولي لوضعنا الطبقي نأمل ان تتبعه دراسات واسعة نظراً لأهمية الطبقات ولانعكاس علاقاتها ونظرتها الى بعضها على سائر امورنا القومية والاقتصادية والسياسية والثقافية .



الفصل الثاني

الاوضاع الثقافية

الثقافة أوضح ما تعبر به الأمة عن طبيعتها ، تظهر فيها نظرتها الى الوجود وتحمل طابعها وذوقها ، وتسجل افكارها ومذاهبها ، وعن طريقها تعي ذاتها وتدرك حاجاتها وتحافظ على وحدتها إذا اقيمت بين اقطارها الحدود المصطنعة وترفع بها رأسها نحو الآمال المشرقة حين لا يساعدها وضعها المادي على تحقيق أهدافها ، ولربما استطاع المستعمر أن يفتت اقتصاد الأمة ويسرح جيشها ويجزئها ويحد من نشاطها ، ولكن الثقافة تبقى ناراً تتوهج من تحت الرماد ، ونوراً يتلمس عن طريقه الحرية والخلاص للشعب .

وسنبحث الاوضاع الثقافية العربية من نقاط أربع : هي وحدة الاساس الثقافي العربي والوضع الادبي ثم العلمي عند العرب وأخيراً الوضع التعليمي في الوطن العربي .

١ ـ وحدة الاساس الثقافي العربي :

مهما اختلفت النظم العارضة وتعددت نسب الاميين والمتعلمين بين

العرب ، فان الثقافة العربية واحدة في جوهرها ، تنطلق من قاعدة مشتركة بينهم جميعاً وتتطور دفعة واحدة لأن التراث العربي يشكل رصيداً ضخماً لأبناء العروبة كلهم فيحفظ عليهم طابعهم الثقافي المميز .

وتتجلى وحدة الجوهر الثقافي العربي في النواحي التالية :

آ ـ **إن لغة العرب واحدة** ـ ومتى تكلم الناس لساناً واحداً فقد انتظم تفكيرهم وفق منهج معين لأنهم باللغة يفكرون ، واللغة تحمل ذوق المجتمع الذي ولدت فيه ونشأت وتطورت ، وتعبر عن هذا الذوق في كيفية اشتقاق كلماتها وتركيب جملها وإلباسها المعاني للألفاظ ، إنها كزجاجة العطر تركزت فيها خلاصة روائح زهور البستان جميعاً ، وقلما نجد أمة في مثل وضعنا سادتها لغة واحدة سيادة اللغة العربية في وطننا . وعن طريق هذه اللغة الواحدة يتفاهم العربي مع أخيه ، ويمتص الطابع العربي منذ نعومة اظفاره في الذوق والتفكير والقيم ، وينال من تراث قومه ثروة ضخمة تحميه من أن تتلاعب بنفسيته رياح الثقافات الاجنبية .

ومن نعم اللغة العربية على قومنا أنها لم تتغير كثيراً منذ قبيل الاسلام حتى اليوم ، وهي بذلك تسمح للعربي المعاصر أن يفهم ما قاله العرب أيام العباسيين والامويين والراشدين ومن سبقوهم . . . فتجعل الاجيال العربية المتلاحقة على مر القرون شخصية واحدة متمازجة متفاعلة يتصل آخرها بأولها ، ويستفيد كل جيل منها من تجارب الذين سبقوه بسهولة ويسر عظيمين .

ب ـ **والتراث الادبي** ـ واحد للعرب جميعاً ، ما من مثقف عربي إلا وطرب لأشعار أمرئ القيس والنابغة الذبياني وعنترة ، واستشهد بحكم اكثم بن صيفي وخطب قس بن ساعدة واستعان بالامثال العربية العريقة في

حديثه وكتابته ، وما من متعلم إلا وروى قصص العرب واهـتز لمعارضات جرير والفرزدق والاخطل ، وابتسم لهجاء الحطيئة وطرب لشعر البحتري وأعجب بقصائد أبي تمام وتمثل بتشبيهات ابن الرومي وتحمس لعبقرية المتنبي وسار مع تأملات المعري ، وشغف بكتابات الجاحظ وتفكر في صنعة الهمداني . . .

وثمة أثر خالد شغف به العرب متعلمهم وجاهلهم فساهم الى حد كبير في حفظ وحدتهم الثقافية وهو القرآن الكريم ، الذي عمت فائدته فشملت كبار العرب وصغارهم ، مسلميهم ومسيحييهم ، واذا فات كثير من أبناء شعبنا أن يتعلموا لغتهم الفصحى في المدارس فهم من غير ادنى شك اكتسبوا ذوقها وتدربوا على فهمها وأحبوها عن طريق سماعهم للقرآن الكريم .

جـ ـ والثقافة الشعبية واحدة في المجتمع العربي ، فلطالما استمع الناس في الباحات الواسعة لدور المدن ، وتحت قباب الريف وبين خيام البادية الى قصص عنترة بن شداد ، وسيف بن ذي يزن ، والمهلهل ، وأبي زيد الهلالي . . .

وتحمسوا لهذا البطل أو ذاك ، وثاروا للحرب وصفقوا للبهجة وتشربوا طباع الفروسية العربية الاصيلة .

ويتفق العرب في رقصاتهم الشعبية واغانيهم ومواويلهم والعاب الفروسية وحفلات الاعراس والموالد والمواسم .

ومما يفيد العرب أن أقاصيصهم الشعبية الهامـة كتبت باللغة الفصحى نثراً وشعراً فجعلت عاميهم على صلة وثيقة بالتراث الفكري الفصيح ، وتعد هذه الاقاصيص من أكبر عوامل الوحدة النفسية والانسجام البديعي والوجداني لدى كل امة .

واذا حوى بعضها أفكاراً غير علمية وجملاً يعوزها حسن الصياغة ، فانها تبقى أساساً راسخاً للأخلاق ومستودعاً للقيم ونقطة انطلاق للخيال والفكر . وتسعى آداب الامم الحديثة الى التطور ابتداء من ملاحمها وقصصها الشعبية ، وتعطينا ملاحمنا وأساطيرنا ذخيرة لا تنفد من الموضوعات الروائية والشعرية ..

د ـ ونحن جميعاً **ورثة تراث فكري واحد** ، ومن سائر النواحي علمية كانت أو اخلاقية ، أو تربوية ، إذ أن أفكار العرب القدماء أضيف اليها رصيد حضاري كبير خلال النهضة العربية التي ابتدأت في القرون الاولى من الهجرة وتوزع هذا الرصيد على الاقطار العربية كلها ، فلا تخلو من المكاتب التي تضم اكداساً من المجلدات تتناول علوم اللغة العربية والفقه والتشريع ، والصنائع المتعددة والعلوم الكثيرة ، فقد قرأ مثقفوا العرب على مر العصور كتب سيبويه والكسائي والآمدي والجرجاني وتناقشوا في آراء ابي حنيفة والشافعي ومالك وبن حنبل وتحمسوا لآراء الأشاعرة وتعمقوا مع المعتزلة وتباحثوا في أمر المرجئة وناقشوا مسائل التصوف وكانوا فيها بين مؤيد ومعارض ، وتدارسوا أقوال الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وابن طفيل وسمعوا برد الغزالي على الفلاسفة ورد ابن رشد عليه وقرأوا تاريخ الطبري وابن الاثير وابن خلدون (١) كلها أو جزءاً منها على الاقل ، واعجبوا بابن خلدون وتوقفوا عنده واهتموا بجدة افكاره ودفعه الدراسات الانسانية الى الامام .

---

(١) لسنا هنا في معرض ذكر جميع تفاصيل تراث الفكر العربي ولكننا في مجال الاستشهاد ببعض منها على اشتراك العرب جميعاً في هذا التراث .

ولا نحسب أن الاطلاع على التراث الفكري العربي اقتصر على المثقفين وحدهم ، بل كان ينتقل الى الجماهير غير المتعلمة عن طريق دروس الوعظ والارشاد وحضور مجالس المتعلمين ، فقلما تجد عربياً مهما اشتد جهله لا يناقشك في أمر المذاهب الاربعة أو يبدي رأيه في التصوف أو يسرد لك نبذاً من التاريخ القديم أو يروي مقطوعات من الشعر الفصيح باسلوبه الخاص دعماً لحجته وتأييداً لكلامه .

ولم تقتصر الاستفادة من التراث العربي الفكري على اتباع دين دون آخر ، فقد اهتم العرب المسيحيون ، كالعرب المسلمين بامور التشريع مثلاً وساروا على نهج واحد في شأن الارث والحضانة في كثير من الاحيان ، كما أنهم اهتموا باحياء تراثنا الفكري ونشر مكنوناته والتجاوب معه .

٢ - الوضع الادبي في المجتمع العربي المعاصر :

للأدب العربي في أيامنا خصائص عديدة أهمها :

آ - انه أدب يميل الى النهوض :

منذ حوالي القرنين أخذ أدبنا العربي يستيقظ وينفض عنه ببطء في أول الأمر غبار التقليد والتكرار ، ويسعى الى اغناء مضمونه بالافكار ورفع مستواه اللفظي بالتجديد ، ويحلق مع الخيال المبدع المنطلق من الواقع .

فبعد النكسة الادبية التي اصابت العرب في أواخر أيام العباسيين وبلغت أسفل دركاتها خلال الحكم العثماني حتى اصبحنا لا نجد كاتباً مجيداً ولا شاعراً مبدعاً عظيماً ، وحتى صارت أهمّ الكتب الرسمية تُصاغ أسوأ صياغة وغدت الالفاظ متحجرة والكلمات في كثير من الاحيان

جوفاء لا تقدم زاداً جديداً للفكر والعاطفة ، بعد هـــذه النكسة ، اخذت الامة تستفيق في أواخر عهـــد العثمانيين واستفاق معها أو في طليعتها شعرها ونثرها ، وقد عرف القرن التاسع عشر لغويين سعوا لأحياء التراث وكتبوا نمـــاذج حاولوا أن يبرزوا من خلالها الطـابـع العربي العريق مثل ناصيف اليازجي وبطرس البستاني. وأهتم جهابذة ذلك القرن بتمجيد اللغة العربية والدعوة الى تجديد شبابها واستخراج كنوزها مثـل الشيخ محمد عبده ورشيد رضا ، وسارت هذه الحركة على حد سـواء في المشرق والمغرب العربيين ، ونشأ شعراء حاولوا صياغة القصيدة الجذلة الفخمة مثل محمد سامي البارودي ، واشتهرت كتابات أحمد فارس الشدياق الرحالة الواسع الاطلاع ، وكان في شعره ونـثره خفيف الظـــل واقعيـــاً .

وعاد العرب يترجمون التراث الفكري للامم الاخرى ويجتهدون للاستفادة منه ، وفي أواخر القرن التاسع عشر واوائـل القرن العشرين سجّل الشعر العربي أسماء عظيمة لا تقل كثـــيراً عن شعراء العصور الذهبية كأحمد شوقي وحافظ ابراهيم ، كما عُـني الباحثون بكتابـــة تاريخ الادب العربي فألف جرجي زيـدان كتابه في هـذا الموضوع ، وعمل حفني ناصيف في نفس الميدان ، وعادت المرأة العربية الى المساهمة في الكتابة فبرزت ابنه حفني ناصيف بحاثة البادية وبرزت ماري زيادة التي لقبت بمي .

وأخذت موضوعات الشعر تتنوع وتغنى ، فقد فاض شعراء المهجر حنيناً (١) الى وطنهم وصارت الموضوعات الوطنية تتقدم لتحمل مكان الطبيعة من الموضوعات، مي والشعر الذي يتناول الامور الاجتماعية .

---

(١) كنسيب عريضة والاخطل الصغير وغيرهم ...

وهكذا انشد الشعراء قصائدهم في حادثة دنشواي وفي ظلم العثمانيين وفي التنديد بالاحتلال الانكليزي والفرنسي والايطالي لبعض الاقطار العربية ، كما انشدوا قصائدهم عن تحرير العرب ووحدتهم وتمجيد أيامهم الماضية والمناداة بمستقبل كريم لامة العرب ، كما غنوا في تحرير المرأة ونددوا بالمظالم التي تقع على الفقراء وحثوا على التعليم ، وطالبوا بمستوى كريم للفرد العربي ، وقد ازداد اهتمام شعرائنا بالموضوعات القومية والاجتماعية في الربع الثاني من القرن العشرين وخلال هذه السنوات التي انقضت من الربع الثالث ، فقد قيل الشعر في ثورات العرب على الاستعمار على ارض سورية والعراق ولبنان ومصر وتونس والجزائر ... ونددد الشعراء بالمؤامرات الاستعمارية والاحلاف وهبوا في وجه المعاهدات الجائرة وشجبوا العدوان الثلاثي على مصر وحيوا كل محاولة رأوا فيها الخير للعرب .

واذا ظلت القصيدة الغنائية التي يتحدث فيها الفرد عن نفسه واحبائه وقومه هي الشائعة بين فنوننا الشعرية فقد بذلت المحاولات لادخال انواع جديدة من الشعر الى لغتنا أو انماء انواع شعرية كانت ضامرة في القديم . واخذت هذه المحاولات شكل الترجمة احياناً كما فعل خليل مطران عندما ترجم بعض مسرحيات شكسبير وكما فعل البستاني الذي ترجم إلياذة هو ميروس وهي ملحمة شعراً الى اللغة العربية ، كما اخذت شكل الابداع احياناً اخرى فنظم شوقي مسرحياته الشهيرة وتابعه عزيز اباظه وعمر أبو ريشة وسواهم . واصبح النقاد يستطيعون ان يسموا بعض شعرائنا كلاسكيين وبعضهم رومانتيكين وبعضهم رمزيين .

ونشطت حركة الكتابة منذ اواخر القرن التاسع عشر ايضاً وأوائل

هذا القرن وتمّ التحرر من السجع والتكلف والصنعة الى حد كبير ، وكانت الجرائد والمجلات العربية مسرحاً للآراء السياسية وللكتابات الادبية في آن واحد ومن أعرقها المقتطف والمقطم والاهرام والهلال والمؤيد ... ونشأ امثال محمود نديم وعلى يوسف ، والمنفلوطي والألوسي وقاسم امين والكواكبي وفارس نمر ويعقوب صروف ...

ثمّ نشأ جيل من الكتاب المهاجرين مثل جبران خليل جبران وميخائيل نعيمه ، وازدادت حركة الطباعة واقيمت دور النشر وعرف القارىء العربي سلاسل متتابعة من الكتب كسلسلة كتب المقتطف والهلال ، وتنوعت موضوعات الكتابة ومستوياتها فأصبحت تجد المسرحيات والقصص . ونشطت هذه الحركة ايضاً بعد الحرب العالمية الاولى والثانية ، فنشأ كتاب عديدون للمقالة والقصة الطويلة والقصيرة والمسرحية وتعددت مستويات الكتب فمنها السهل الذى يصلح للثقافة العامة ومنها العميق الممحص الذي يرضي المختصين . واشتد ساعد النقد الادبي في الكتب والمجلات ، وغدا كل فرد من الشعب يجد ما يلائم مستواه من الجرائد والمجلات في كثير من الاحايين . ولم يترك موضوع اجتماعي إلا وتناوله الكتاب على اختلاف حظوظهم في فهمه وتفسيره ، ونشطت حركة الترجمة في سائر الميادين ومن مختلف الثقافات ، كما ازدادت حركة تحقيق ونشر الكتب المخطوطة .

ب ـ انه أدب يسوده الصراع :

إذا اصاخ المرء باذنه الى الندوات الادبية وتفحص ما يكتبه الادباء شعراً ونثراً لا يجد استقراراً واتفاقاً وانما يشاهد قلقاً متزايدا وهرجاً ومرجاً وصراعاً محتدماً بين فئات عديدة ، ولن نهتم هنا بألوان

الصراع الفكري بين المذاهب الاجتماعية والسياسية والتي تأخذ طابعاً ادبياً في هذه الايام، وانما سنوجه اهتمامنا الى ظاهرة الصراع الادبية البحتة التي نرى أهم ملامحها فيما يلي :

فهي تبتدىء **أولاً في المناقشات الدائرة حول القديم والجديد،** إذ ينادي شعراء بالمحافظة على الاوزان الشعرية القديمة والنسج على منوالها واتباع النهج العربي الموروث في القصيدة وقوافيها ، وقد يتذمرون من أساليب النقد الجديدة ومن تقسيم الشعر الى مدارس، رمزية وابداعية، ويضيقون ذرعاً بكل دعوة الى سن طرق جديدة للشعر ، ويعارضهم شعراء ونقاد آخرون ، منهم من يؤيد بحوراً جديدة للشعر ، ومنهم من يحبذ ان تمخر القصيدة الواحدة عدة بحور ، ومنهم من يرضى بالشعر من غير وزن ، ومن يرضاه بلا قافية او يطالب بحرية واسعة في باب القوافي ، وقد يحتدم الصراع حول الموضوعات الشعرية فيرى الوقورون الا يتبذل الشعر فيتناول الحياة اليومية وشؤونها العادية بينما يسعى المجددون الى افساح مجال رحب لقصائدهم ، فيتغنون لكل ظاهرة ويترنمون مع كل خفقة . وقد شغل هذا الصراع بين القديم والجديد جزءاً كبيراً من مجهودات الشعراء والنقاد، وبحثوا امره في الكتب والمجلات والجرائد والاذاعات على اختلاف في وجهات النظر بين انصار القديم فيما بينهم ، وانصار التجديد فيما بينهم ايضاً .

ولم يقتصر هذا الصراع على الشعر وحده بل تعداه الى النثر وان كان شأنه هنا اقل من شأنه هناك وعلى كل حال فقد وجد كتاب يدعون الى المحافظة على اسلوب معين في الانشاء وآخرون يبذلون جهدهم للتجديد ،(١) وظهر انصار للمقالة يحطون من قدر الرواية ومعجبون بالقصة الطويلة او القصيرة ...

---

(١) جبران خليل جبران – مخائيل نعيمة – توفيق الحكيم وغيرهم

وهي تظهر **ثانياً في الجدل** على **مقدار ما نستفيده من الآداب الاجنبية** ، ولم يكن الاتجاه الى المسرحية والملحمة والرواية الطويلة الا استفادة من تلك الآداب في أغلب وجوهه ، كما أن حركة التجديد في الشعر اقترنت عند اكثر ممثليها بالأخذ عن الآداب الغربية .

ويعتقد انصار إتباع الغربيين في آدابهم ، أننا إذا لبينا دعوتهم نتلائم مع التطور الذي تابعه الاوروبيون في ايام غفوتنا قبل نهضتنا الحديثة ، كما يرون في الاداب الغربية عمقاً في التفكير وسعة في الخيال وحذقاً في صوغ العبارة وتفنناً حراً في تركيب الشعر ، نظلم انفسنا اذا لم نستفد منها ، ويندفع بعضهم فيعتقدون ان كل ادب خلا الادب الغربي المعاصر ، لغو وثرثرة فارغة .

اما الذين يقفون في وجه هذا التيار ويطالبون ببعث كنوزنا الادبية العريقة بدلاً من التوجه نحو الاوروبيين ويرغبون في المحافظة على اساليب القول والكتابة العريقة عندنا ، فيخشون ان تذوب شخصيتنا في الشخصية الاوروبية . لان الادب من اكبر ما يميز الحضارات والامم عن بعضها ، ويؤمنون أن الذوق العربي لا ينسجم الا مع تراثه الذي نشأ عليه . وربما ربطوا الاسراف في تقليد الاوروبين بالاستعمار وقالوا إن الدعوة الى الاخذ عن الاوروبين دليل على الضعف والتهافت بل هي تقليد محض لا يقل عن تقليد القدماء .

واذا استفتيت الشعب في بلادنا ألفيته يخشى الاخذ عن الاوروبيين كل الخشية ، فهو يعتبر شعرهم وقصصهم كسائر بضائعهم وقواهم التي يحاولون ان يغزونا بواسطتها . ومن الافضل الا نسرف في الدعوة الى الاخذ بالمناهج الغربية الحديثة الا بعد ان يكتمل بعث تراثنا الادبي لئلا تخسر

الانسانية طابعاً ذوقياً مميزاً موجوداً لدينا ، ونحن على كل حال لا نرى في الاستفادة من الغير عاراً فقد استفاد منا غيرنا مراراً ، ولكننا نرى العار في التقليد الاعمى ، والاتباع المبتذل كما نرى العار في الجمود ايضاً .

وهي تبدو **ثالثاً في الصراع القائم بين العربية الفصحى وبين اللهجات** العامية المحلية ، ففي كل لغة تنشأ لهجات متعددة خاصة بالمدن والقرى والاقاليم ، لا تبتعد كثيراً عن أصلها الفصيح وإن اتصفت باختصار بعض الكلمات وقبول مفردات غريبة احياناً وتفردت باصطلاحات اختص بها ابناء المنطقة . وتختلف اللهجات العامية عن بعضها في إمالة بعض حروف المد وفي لفظ حرف الجيم مثلاً وفي استعمال احدى ادوات النفي اكثر من سواها كالشين التي توجد في آخر الكلمات المنفية في اللهجة المصرية وهي متطورة عن كلمة شيء . وتبقى اللغة الفصحى عاملا مشتركاً للتفاهم والوحدة النفسية والثقافية بين الناطقين باللغة الواحدة ، وليس من الخطر على الفصحى ولا على وحدة الامة أن يستعمل الناس لهجاتهم العامية في احاديثهم اليومية البسيطة وأن يغنوا بها بعضاً من اغانيهم ، ولكن الفصحى تشعر بالخطر حين تبتعد اللهجات العامية عنها بُعداً يكاد يفصلها عنها ، وحين تنطلق دعوات الى الكتابة نثراً باللهجات العامية ، و .ين يتحمس انصار العامية في هذا القطر او ذاك فينادون باستقلال قطرهم ثقافياً لان لغته تختلف عن لغات بقية الاقطار وهم بهذا القول يخلطون بين اللغة واللهجة . وقد تدنت اللهجات المحلية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر واسفت حتى كادت الكلمات المستعارة من التركية تفقدها اصالتها ، كما أن الجهل انحط بألفاظ هذه اللهجات ومخارج حروفها ، فأصبحت مسوخاً مشوهة تستحي منها لغة العرب ، ولكن اليقظة العربية ابتداء من القرن

التاسع عشر وما رافقها من نشر الكتب القديمة والجديدة في سائر الاقطار وماتجم عنها من التقاء المثقفين العرب في الجميات والمؤتمرات واصدارهم المنشورات ساهمت إلى جانب ذيوع التعليم برفع مستوى اللهجات المحليـــة واقترابها من اصلها الفصيح.

وليت الامر اقتصر على تدني اللهجات المحلية ، بل لقـــد ظهرت فئات من المتأدبين تدعو الى ان يتكلم أبنـاء كل قطر بلهجتهم ويكتبوا وينظموا بأسلوبها وكلماتها ، وحدثت ضجة [1] حين نشر بعض المنتسبين الى الشعر دواوين بالعامية اللبنانية وبالعامية المصرية وبالعامية العراقية والمغربية .

وتدخلت الاذاعات في القضية فأفادت الفصحى إذ نقلت الاخبـار والاحاديث الادبية والعلمية بها ، ولكنها شجعت العامية بكثرة الاغاني التي اسمعتها للناس حسب لهجة هذا القطر أو ذاك ، كما حسب بعض المشرفين على الاذاعات أن القول المفهوم يجب ان يكون عامياً ، فســمع الناس في بيوتهم ومقاهيهم ومنتدياتهم أحاديث سياسية واجتماعية مصوغة بلهجات العامة، وزعم قوم من المهتمين بالشؤون الاذاعية ان الغنـاء والـكلام اذا صـدرا عن الاذاعة بلهجة أحد الاقطار ساهما في إفهام هذه اللهجة لابناء بقيـة الاقطار العربية ، وهكذا يفهم السوري والعراقي واللبناني لهجة أخوانـه في مصر ويتقارب معها ، وتؤدي الرسالة عينها محطات الاذاعة في بغــداد ودمشق وبيروت ...

واشتد ساعد انصار العامية فتعصب كل منهم للهجة قطره وحسبهـا لغة قائمة بذاتها بل فضلها على ألسنة الارض جميعاً ، واقترن حماســـهم بالدعوات الاقليمية السياسية ، فسمعت شاعراً يدعي استقلال لبنان ارضـاً وبشراً ولغة ويسأل عن المبرر الذي جعل الله يخلق لبنان على هذا الحسن

---

(١) محمود تيمور بتمثيلياته وقصصه العامية (وميشال طراد في شعره)

والجمال (١) ويجيب نفسه بأن الله لا شك قد خلق لبنان لغاية هي أوسع وأهم من وحدته مع أجزاء الوطن العربي وانه شيء فريد نادر الوجود وكيان لا يجوز أن يذوب في امة العرب ولا في مصالح العرب ، وسر دعاة الاقليمية اللبنانية لهذه الاقوال وشجعوا كتاباً وشعراء على الانتاج بلهجة لبنان ، كما حاول القوميون الاجتماعيون ان يجدوا لسورية الكبرى أدباً متميزاً مستقلا عن أدب بقية الاقطار العربية .

وعرفت مصر امثال هذه الدعوات التي ربطت بين الحماس للعامية المصرية والنادأة بقومية مصرية متميزة ، ولا يكاد قطر عربي يخلو من نداء للعصبية الاقليمية والاعتماد على اللهجة العامية ، وقد وقف الاستعمار من المنادين بهذه الدعاوي موقف الاب الذي يعرف كيف ربى ابناءه ونحو أي هدف وجههم ، فسارت اذاعاته على نفس الطريق بحماس طليعي واضح ، وشجع الابحاث والمناقشات المصطنعة التي كانت تصل الى النتائج المرسومة لها سلفاً ، فهو يدرك تماماً ان الوحدة العربية عدوته التي لا ترحم ، ولذلك فهو لا يرحمها ولا يفتأ يحاربها ويعلم أن من عوامل تأخيرها تفرد ابناء القطر بلهجتهم واعتبارها لغة قائمة بذاتها لا جدولاً فرعياً بسيطاً من لغة الضاد .

وكثيراً ما استهتر المسؤولون العرب بأمر هذه الدعوات وظنوا ألا خطر منها ، حتى استبدت العامية بالاذاعات والافلام وأحياناً بالخطب والاناشيد القومية .

ونحن نسائل من يضعون البرامج الاذاعية عن اللهجة العامية التي ينسبونها الى كل قطر :

---

(١) سعيد عقل –

أليس في القطر الواحد عدد كبير من اللهجات ؟

ألا تختلف لهجة حلب مثلاً عن لهجة دير الزور ؟

بل ألا نلاحظ ان لهجة الديريين أقرب الى لهجة ابناء عانه وراوه في العراق منها الى لهجة الدمشقيين والحمصيين .

وهل يتكلم الشعب العربي في مصر كله بالعامية التي تخصها اذاعة القاهرة بعنايتها ؟

لا شك ان لابناء الاسكندرية لهجتهم ولأبناء الصعيد لهجتهم وكذلك الواحات الداخلة والخارجة .

إن العامية التي تهتم بها كل اذاعة هي عامية العاصمة أو بعض المناطق المحدودة ، ولم تتوزع اللهجات على العرب حسب الحدود المصطنعة . فالبدوي الذي يعيش في الاردن أو سورية أو مصر يتحدث بلهجة واحدة تقريباً ، وأبناء خان يونس وغزة ورفح يتكلمون لهجة هي أقرب الى العامية المصرية منها الى العامية الفلسطينية .

وأما القول بأن نشر اللهجات العامية عن طريق الاذاعات والكتب مفيد في تعرف أبناء كل منطقة على لهجات المناطق الاخرى مما يزيد التفاهم والوحدة فهو قول إن قصده اصحابه حقاً دل على عقلية عجيبة تفضل السير على الطريق المموج لتصل الى هدفها ، وهي تعلم ان الطريق المستقيمة أقصر وأضمن ، إذ ما دام العرب مشتركون سلفاً في الفصحى ، فلماذا لا نقوي الروابط والتفاهم فيما بينهم على أساسها بدلاً من إثارة حرب اللهجات ومنافساتها .

وأما دعوى التسهيل على الناس وتبسيط الافكار وشرحها عن طريق العامية فلا مبرر لها في وطننا الذي يفهم الفصحى فيه جهاله وعلماؤه ،

صغاره وكباره ، عن طريق سماعهم للقرآن الكريم وتجمعهم للاصغاء الى قصة شعبية مكتوبة بلغة العرب الواحدة .

ولا ننسى أننا نسعى الى الشرح والايضاح ورفع مستوى شعبنا سياسياً واجتماعياً في سبيل تحقيق القومية العربية أهدافها ، تلك القومية التي تعتمد على اللغة العربية الفصحى كقاعده أساسية من قواعد وجودها ، فكيف نصل الى أهداف القومية العربية بوسائل تخل بأحد أسسها الهامة ؟

ولسنا من المنادين بالتقعر والتشدق ، وادعاء الثقافة عن طريق استعمال الجمل الصعبة والكلمات غير المفهومة ، ولكننا نؤمن ببساطة اللغة العربية وسهولتها ونرى ان المتكلم والكاتب والشاعر يستطيعون المحافظة على الفصاحة والسهولة معاً اذا رغبوا في ذلك وثابروا عليه .

وتتبدى ظاهرة الصراع رابعاً في الخلاف بين انصار الادب الملتزم وانصار الفن للفن أو عدم الالتزام ، اذ ترى جماعة من الادباء أن الادب نثراً كان أو شعراً يطلب للجمال والمتعة ولتنمية الاذواق ، وليس من واجبه ان يدعو الى مذهب اجتماعي أو يخوض المناقشات السياسية ، وهم يعتقدون ان الادب يستطيع الكتابة في الموضوعات التي يريدها ويصف الوقائع التي تستلفت نظره ويبقى أدبياً ولو عرض اليوم فكرة وغداً فكرة اخرى ، لأن الافكار وحلول المشكلات وايضاح السبل للامة ليست من واجبات الاديب وانما هي منوطة بالعالم الاجتماعي والنفسي وبالسياسي ورجل الاقتصاد ، وهؤلاء لا يشترط فيهم ان يكونوا من حملة الاقلام أو ناظمي القصيد وبالتالي لا يشترط في الاديب ان يكون واحداً منهم

ويرى بعض انصار هذا الرأي ان مهمة الاديب تسمو على الاوطان وازماتها والطبقات وحاجاتها والجيوش ومعنوياتها والثورات واندفاعاتها ، وتتعلق بصياغة العبارة الجميلة التي تلامس شغاف القلوب وتتسلل اصداؤها لطيفة مؤثرة الى آذان الناس في كل زمان ومكان ، وهم يعتقدون بأن السعي الى خير الناس مطلوب من المصلحين الاجتماعيين ورجال السياسة ، والسعي الى الحق منوط بالعلماء والمختصين بشؤون المعرفة ، وأما الأديب فيختص بأمر الجمال ويقدم للناس نماذجه البديعة الرائعة التي لا يطلب منها ان تدعو الى فضيلة وتنهى عن رذيلة وتشجع على ثورة وتنادي بتطوير اجتماعي .

أما اصحاب **الالتزام** فيعتقدون بأن الاديب مواطن ويجب ان يهتم بمشكلات وطنه ، وهو لا بد صاحب رأي في هذه المشكلات وليس من المعقول ان ينعزل الاديب في برج عادي ، فيغمض عينيه عن مناظر الفقر في بلاده ويصم اذنيه عن صرخات الثوار على الظلم والاستعمار ، وانه مكلف ومسؤول لا كمواطن وحسب ، بل كانسان ايضاً ، إذ ما اقل انسانية الذين يديرون ظهورهم لآلام الناس ولا يساهمون في رفع مستواهم . واذا كان كلام الاديب جميلاً فليكن هذا الجمال من عوامل الاقناع واثاره الحماسة .

ومما يعتقده اصحاب الالتزام ايضاً ان الاديب لا يكثر جمهوره ولا ينتشر صيته إلا اذا ارتفع مستوى الشعب الاقتصادي والسياسي والفكري ، فاستطاع ان يتفرغ لقراءة القصص وانشاد الاشعار ، فكأن عمل الاديب في سبيل شعبه عمل في سبيل فنه ايضاً ، ولا يأمل الكتاب والشعراء ان ينسى الناس ما هم فيه من مشكلات ومتاعب وآلام

وينصرفوا الى أثر ادبي لايمت الى اهتماماتهم الملحة بصلة ، وقد ألفنا ان نرى ترحيب الناس بالشعر أو النثر اللذين يعبران عن آلامهم وآمالهم ويساهمان في هديهم الى طرق التقدم والرفعة .

ثم يهمس انصار الالتزام في آذاننا قائلين : أتحسبون ان هنالك ادباً لا يلتزم أي مذهب ولا يدعو الى فكرة معينة أو نظام معين ؟ لنأخذ اصحاب الفن للفن انفسهم ، إنهم نشأوا في احد المجتمعات وتأثروا بأبطال التاريخ وعاشوا في طبقة اجتماعية خاصة ، فهم قد كونوا بلا ريب وجهة نظر في الكون والاخلاق والسياسة والاقتصاد ويستطيع المتعمق ان يستخلص وجهة نظرهم من آثارهم الادبية ولو لم يعترفوا بها ، كل قصة توجه قارئها الى تبني احد الانظمة الاجتماعية والى تقدير دين من الاديان او مذهب من المذاهب او فئة من الناس ، ويكون هذا التوجيه عن طريق اختيارها لبعض الاحداث دون سواها ووصفها لأبطالها بصفات خاصة واثارتها العطف على نموذج من الرجال دون النماذج الاخرى وتصويرها لامجاد احدى المراحل التاريخية ومناقب ضرب من ضروب السلوك والتفكير .

وقد قويت حركة الالتزام في ادبنا المعاصر ، فنشأ كتاب وشعراء منهم من نذر قلمه ولسانه للقضايا القومية حسب تصوره لها ومنهم من عني بمسائل الفقر والجهل بل إنك ترى اليوم لكل معركة عربية كتابها وشعراءها ولكل مذهب اجتماعي او سياسي ادباء يظهرونه في احسن صوره ويدافعون عنه باقوالهم الجميلة المحكمة الصياغة .

ونحن لا نرى أن يسف الاديب إلى مقام الدعاوة الرخيصة ولا أن يهمل سبك عبارته باسم عمق فكرته او صوابها ولكننا نعتقد في نفس الوقت

أن بلادنا فيها اراض تحتاج لمن يزرعها وفيها حـــدود مصطنعة يجب ان تزال ولها ثغور تطالب بأن تحمى وعليها اكواخ يجب ان يسكن الناس خيراً منها وليس فيها ابراج عاجية يحرم سكانها الوطن من جهودهم ويستنكفون عن العمل من أجل أمتهم ، وخير الأدب ما امتزجت فيه الفكرة العميقة الحقة الجدية بالعبارة الجميلة المجنحة .

ج ـ انه أدب لم تكتمل نهضته بعد :

لا يستطيع المرء ان ينكر حركة الادب العربي الصاعدة الـــتي اوردنا البراهين عليها منذ قليل ولكننا نلاحـــظ في الوقت نفسه ان الامكانيات العربية اغنى من ادبنا المعاصر ، فهذا الادب ما يزال دون المستوى الذي نصبو إليه ونقدر عليه من نواح عديدة أهمها :

اولاً ـ **من ناحية الاعتماد على القدماء** اكثر مما يجب عنـــد بعض شعرائنا ولا نندد هنا بالداعين إلى احياء الشعر العربي القديم والاعجاب به بل نحن نندد بمن لا يستطيعون أن يأتوا بتشبيهات جـــديدة تدل على سعة الخيال وتطوره ، ويعجزون عن التعبير الا بعبارات الاقدمين ذاتها أو بعـــد تحوير بسيط فيها ، ولئن اعتبر تشبيه امرىء القيس لليل بالبحر (١) قمة من قمم الخيال فعلى اسلاف امرىء القيس من شعرائنا الا يكرروا هذا التشبيه نفسه والا داروا في حلقة مفرغة ودلوا على العقم وجفاف الخيال ، إن الابداع من أهم خصائص الفن ومن لا يأتي بالاخيلة الجديدة ولا يكتشف اواصر القرابة المتعددة بين الموجودات لا يعد شاعراً مبدعاً مجيداً ، ولئن كان زهير بن ابي سلمى قد تحدث عن الحرب فشبهها بالرحى التي تـــحق المشتركين فيها ، فلا شك أن زهيراً نفسه لا يرضى عنا إذا لم نجد بعده بخمسة عشر قرناً تشبيهاً ملائماً للحرب غير تشبيه لها ، وقد شبه شعراؤنا

---

(١) وليل كموج البحر ارخى سدوله علي

الاولون الجميلة بالظبي وكانوا في ذلك فاتحين في ميادين الخيال ولكن الكون واسع ويستطيع الشاعر الفحل أن يأتي بأوصاف جديدة لجميلته ، ومن الغريب حقاً ان نتصفح كثيراً من دواوين شعرنا فنجد عبارات القدماء واستعاراتهم وتشبيهاتهم ذاتها تتكرر في كل صفحة ، وأن نسمع حتى اليوم بحديث الكرماء الذين هم كالبحور والشجعان الذين يفوقون الاسود والوجوه التي تبزُّ البدور ، والقدود التي تتيه على الاغصان واغصان البان بشكل خاص ، فلماذا يضيق عدد جمٌ من شعرائنا الكون على انفسهم ويغلقون الابواب امام خيالهم فلا يستطيعون أن يأتوا الا بما هو مكرر ومعاد ؟

وثانياً - **من ناحية الاقتباس عن الاجانب بشكل تعسفي** عند بعض شعرائنا الاخرين وقصاصينا ، فمن لا يفوته الاقتباس عن الشعر القديم من نظاميه يعتمد على الشعر الاوروبي فيأخذ عنه متسرعاً وبدون تمثل ، ولربما استغل احد الشعراء جهل جمهور القرآء باللغات الاجنبية ففاجئهم بقصيدة تضم افكاراً وخيالات جديدة ، وزعم أنها من ابداعه وبعد حين يكتشف احد النقاد نقل الشاعر لها عن قصيدة اجنبية معروفة او مغمورة ، ولا نذيع سراً اذا اكدنا أن كثيراً من عبارات اليوت (١) ورامبو ولامارتين وفاليري وبارون وشالي وغيرهم من الغربيين قد تسربت إلى شعرنا من غير أن يصرح مقتبسوها في غالب الاحيان عن الأصل الذي نقلوها عنه .

وليت الامر اقتصر على استيراد العبارة او التشبيه بل أخذ بعض شعرائنا المثقفين ثقافة اجنبية يستوردون المشكلات الاوروبية ويسلخونها عن مجتمعها ليفرضوها على مجتمعنا ، وهكذا كثر الحديث عن فراغ الحياة

---

(١) من أهم شعراء الغرب

وعبثها وعدم وجود ما يهتم به الانسان تقليدا لشعراء اوروبا التي بـــدأ الملل يتسرب الى شبابها بعد أن جربت وعرفت اشـــياء كثيرة وخاضت غمار الحروب العالمية وحققت اكثر ما تريد مع أن شباب مجتمعنا العربي لا يجدون فراغاً بل يرون ان الوقت أقصر من أن يستوعب أمالهم ولا ينكرون القيم بل يثورون لأن الواقع لايجسمها تماماً .

وينطبق الامر نفسه على القصة ، وأنت اذا تابعت المجلات الادبية قرأت في أحد اعدادها أقصوصة ينسبها كاتب عربي لنفسه ، ثم تقـــرأ هذه القصة بعد عدة أعداد على انها مترجمة عن أحد الكتاب الاوروبيين، ولربما كان العدد الغفير من قصص الافلام العربية مقتبساً عن الافـــلام الاجنبية وقد يأخذ أحد القاصين رواية غربية فيغير في اسماء أشخاصها وفي امكنة وقائعها ويضيف إليها فقرة خطابية هنا واخرى غزليـة هناك فتصبح من ابداعه وتقدم الى القراء على انها من انتاجه ، نقول هـــذا القول ولا ننكر وجود قصص عربية خالصة وقصاص عـــرب مجيدين كنجيب محفوظ وعبد الحليم عبد الله ..

ثالثاً - **ويتجلى ضعف المستوى الادبي عندنا في اكـــثر شعرائنا وكتابنا من التقرير** ، اذ تختلف العبارة الادبية شعرا كانت او قصة عن الكلام العادي في كونها لا تصف الوقائع مباشـــرة وبجمل خالية من الخيال بل تصل إلى مرادها عن طريق التصوير والتمثيل وتـترك الحادثة نفسها توحي بفكرتها الى القارىء ، فلسنا شعراء اذ تحدثنا عن شجاع فوصفناه بانه صمد في المعركة حتى نهايتها ولم يخش الاقطار ، لسنا شعراء اذا وصفناه بهذا الاسلوب ولو نظمنا كلامنا على البحر الطويل أو الكامل

أو الوافر ، ولكننا نكون شعراء حين نقنع سامعينا بشجاعة من نصفه بصورة خيالية رائعة كأن نقول مع المتنبي :

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم

أو مع أبي تمام :

فأثبتَ في مستنقع الموت رجله وقال لها من تحت اخمصك الحشرُ

ولا نكون شعراء اذا تحدثنا عن معركة حربية فوصفناها بأنها شديدة وقتل فيها خلق كثير وعلا الغبار وسالت الدماء على أرضها ، اننا لا نكون شعراء ولو نظمنا هذا الكلام ووضعنا له قافية بل إن وصف المعركة شعر في قول بشّار :

كأن مُثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ومن يقرأ لشعرائنا يلاحظ أن الكثيرين منهم يعتمدون على التقرير والحديث العادي المنظوم حسب احد البحور ويظنون ما يقولونه شعراً ، مع أن حلبة الشعر العربي لا تخلو خلواً مطلقاً من الشعراء المجيدين . (١)

وتعاني القصة العربية من التقرير ايضاً فأنت كثيراً ما ترى البطل يقف ويندفع في خطبة أو موعظة تجعل القصة أشبه بالمقالة أو كتب الابحاث العلمية وقد يتدخل القاص نفسه في سياق القصة لينبهنا الى ما غفل عنه اشخاصها مع ان المفروض ترك الوقائع تجري وتوجهنا من تلقاء ذاتها .

رابعاً – **ويتضح ضعفنا الادبي حين نتذكر قلة النقاد الادبيين الموضوعيين العميقين** عندنا ، فنقدنا الادبي المعاصر ظهر متأخراً ولم يزل

---

(١) كالشابي وسواه

بعد يحبو في خطواته الاولى وقد تتصفح مجلة ادبية وتسرع الى زاويتها النقدية فتصدمك غالباً سطحية النقد واهتمامه بناحية واحدة ، فربما عمد الناقد الى تلخيص القصة التي ينقدها أو سرد افكار القصيدة التي يتعرض اليها من غير أن يلم بسائر الجوانب المطلوبة وقد تسمع ان فلاناً من الكتاب ينادي بثورة في عالم النقد الادبي وتكتشف بعد ان تكتمل دراستك بأنه شعاع من مدرسة نقدية أوروبية ، شرقية أو غربية ، ونحن كما أسلفنا لا نكره الاستفادة من جهود الآخرين ولكن لماذا لا تكون الصراحة رائد من يقتبس ومن يأخذ عن الاجانب ، والى اليوم يتحدث اكثر نقادنا عن أمور عامة غامضة ولا يستطيعون الخوض في المجالات العميقة الدقيقة ، وقد يكتفي الناقد بنعت موضوع الاثر الادبي بأنه مناسب أو غير مناسب او يصف الشاعر بأنه اخلاقي او غير اخلاقي مجدد او سلفي ولا يدرس بعناية عباراته وخيالاته ، ويبدو ان المحافل الادبية انتبهت الى اهمية النقد فبدأت توليه المزيد من عنايتها .

ومن الادلة على ضعف أدبنا المعاصر ان حركة إحياء الكتب القديمة ما زالت دون ما نرغب فيه ، واذا كانت تسجل في كل سنة انتصارات جديدة وتكتشف كنوزاً حرمنا منها مدة طويلة فهي تطالبنا باهتمام اعظم وانصراف ابلغ وعناية بالدقة والتمحيص اكثر ؛ وتأسف العربية حين تجد ان الكتاب العربي الذي ينشره مستشرق يخرج أدق من الكتاب العربي الذي تنشره مؤسسة وطنية ، ومن شاء فليأخذ أي أثر نشره المتشرقون ليطلع على مقدار الجهد الذي يبذلونه في سبيله فهم يحاولون ان يجمعوا صوراً عن مخطوطات الكتاب المنشور الموجودة في سائر مكتبات العالم وهم يشيرون في الهوامش الى ان احدى الكلمات

وردت في مخطوطة معينة ولم ترد في مخطوطة أخرى ، ويقرن بين هذا الكتاب وبين كتاب آخر نشر على يد ابنائنا حيث نجد التسرع وعدم الاكتراث بالتحقيق واللامبالاة بالدقة .

ولا ننسى ان المستشرقين لا توجههم الغايات العلمية وحدها ، فاذا تركناهم يسبقوننا في ميدان نشر تراثنا ودراسة أصولنا توصلوا الى النتائج التي تريدها دولهم ، وقد أخذت العناية بالدقة عند نشر الكتب القديمة تزداد في وطننا كما وكيفاً .

خامساً ـ **ومسألة الكتب المترجمة تقدم برهاناً آخر على أن أدبنا محتاج الى جهود كبيرة** ، فالترجمة ضرورية لكل شعب فمن طريقها يستفيد الناس من خبرات بعضهم وتتلاقى المجهودات الفكرية للبشر جميعاً ، وقد عنيت الدول المتقدمة بأمر الترجمة ، فما يكاد يصدر كتاب هام باللغة الفرنسية مثلاً حتى يترجم خلال اسابيع إلى اللغات الالمانية والانكيزية والروسية ... وقد بدأنا نحن نهتم بالترجمة مع بزوغ فجر نهضتنا الادبية ولكننا لم نترجم بعد كل الكتب الهامة في التراث الانساني وكثيراً ما انصرف مترجمونا الى نقل الروايات البوليسية والقصص الرخيصة تاركين الادب الرفيع وكنوز العلم والفلسفة ، ويبدو أن عدداً لا بأس به من المترجمين لا يتمتعون بحس المسؤولية تجاه قومهم ، فينقلون الكتب التافهة قبل القيمة ويقدمون مترجماتهم بلغة ركيكة تنحرف بالقارىء عن الاسلوب العربي الأصيل ولربما صعبت عليهم عبارة فأهملوها أو لم تعجبهم فقرة فتركوها ، وهكذا يحسب القارىء أن الكتاب الذي يتصفحه منقول بأجمعه مع انه يكون ناقصاً وممسوخاً احياناً .

وامرنا مع الاصطلاحات عجيب جداً إذا ترى أن الكلمة الاجنبية الواحدة يضع لها احد المترجين مرادفاً عربياً معيناً ويضع لها مترجم ثان مرادفاً آخر فيضيع القارىء العربي في زحمة الاصطلاحات .

وما زالت الترجمة من طرف واحـــد ، إذ يجب علينا أن نعرف القراء الأجانب بتراثنا الادبي ونحن مقصرون في هذا الميدان ، وقد تركنا المسألة للظروف ولرغبـــة الاجانب انفسهم الذين لم يترجموا الى لغاتهم من تراثنا المعاصر الا كمية محدودة جداً مع ان المبادرة يجب ان تكون منـا في أول الأمر . وعلى كل حال فقد ازداد الاهتمام بالترجمـة اخيراً وتسعى المجامـع العلمية العربية الى وضع اصطلاحات موحـــدة وانتشرت مؤسسات الترجمة في اقطارنا ، كما شكلت الجامعة العربيـة مكتباً دائماً لشـــؤون التعريب جعلت مقره الرباط ، ليشرف على حركة الترجمة ويوجهها نحـــو مصلحة العرب جميعاً .

٣ - الوضع العلمي في المجتمع العربي المعاصر :

يتصف الوضع العلمي في بلادنا بصفات ثلاثة هامة هي :

آ - بدأ يميل الى التحسن :

من المعلوم أن العرب حملوا شعلة العلم خلال عدة قرون حيث اضاءت جامعاتهم ومدارسهم ومراكز بحوثهم الفكر البشري كله ، وحفظت علوم من سبقوهم وأضافت عليها ، وكان العالم يتطلع الى الوطن العـــربي كمنطلق للاكتشافات العلمية في المجالات الرياضية والجغرافية والطبيـة والطبيعية والاجتماعية والفلكية . غير أن النكسة التي اصابت الحضارة العربية إثر سيطرة الاعاجم على دولة العرب خففت من النشاط العلمي وكادت

تطفيء الحركة العلمية العربيـة تماماً ، وأثرت غزوات التتار والمغــول والفرنجة فقذف هولاكو بالكتب الثمينة الى دجلة واحرقت مكاتب غنية في سائر بقاع الوطن العربي على يـد خلفائه واشباهه ، وبقي الفكر العربي بعيداً عن متابعة التطور العلمي الذي تكفلت به اوروبا بعد ان استفادت من التراث العربي وشغلتنا امور حياتنا اليوميـة البائسة عن متابعة الابداع والتجريب والاكتشاف واصبحنا في زمن العثمانيين نعيش على بقايا من تراثنا ، ولا نتصور أن العقل الانساني يمكنه أن يهب في ثورات علمية جديدة .

واصبحت الخرافة في مجتمعنا اهم من التجربة والاتباع أفضل من التجديد ولكن فجر النهضة العربية في القـرن التاسع عشر حمل معــه تباشير يقظة علمية جديدة ، لقد رفع الناس رؤوسهم من جديد اوحاولوا رفعها وعادوا يتساءلون عن مشكلات الكون ومعضلاته ويتباحثون في امر الجسم والنفس والعقاقير والابنية .

وعاد بعض من شاهدوا اوروبا ينبهون العرب إلى سبق الاجانب اياهم في ميادين العلم والتطبيقات العلمية ، وقد رافق رفاعـة الطهطاوي البعثة التي ارسلها محمد علي والى مصـــر إلى فرنسا ولم يكن ممن كلفهم الوالي بتلقي العلم ، ولكن الموفدين الرسميين لم يستفيدوا كثيراً ولم يفيدوا أمتهم بشكل ملموس بعد أن عادوا لأنهم كانوا من المترفين الطامعين في الترف الشخصي ، اما رفاعة ابن الشعب فقد حاول أن يفهم اسـرار التقدم الاوروبي وكتب للعرب خلاصة تجاربه في هذه الرحلة ، فأثار الحماسـة في نفوس من قرأوه او سمعوا به .

وبدأ أبناء الوطن العربي يكثرون نسبياً من ارتياد مناهل العلم الحديث في اوروبا بعد أن امضوا مدة طويلة لا يعرفون مجداً يفوق مجد استامبول وعلماً يطغى على علمها ، وحاول عبد القادر الجزائري أن ينشيء دولة حديثة ، فشجع الحركة العلمية في الجزائر ، كما أن رغبة بعض الولاة المنشقين على السلطنة العثمانية في تقوية جيوشهم دفعتهم الى ارسال البعثات العلمية للتخصص في الفنون العسكرية . وجال جمال الدين الافغاني ومن بعده محمد عبده في بعض بقع اوروبا ودعا محمد عبده الى الوقوف من العلم الحديث موقفاً متبصراً نأخذ منه ما يفيدنا ولا نذيب شخصيتنا ولغتنا .

وكثر الطلاب العرب في المدارس العثمانية العليا واخذوا يتطلعون الى آفاق علمية أبعد مما قيدوا به ولقنوه ، وفي اواخر القرن التاسع عشر شرع الاطباء العرب الذين تلقوا علمهم في الجامعات يتزايدون في المدن العربية وانشئت الجامعة المصرية (القاهرة اليوم) وبعد الحرب العالمية الاولى ازداد عدد المقبلين على العلم وكانت البعثات الرسمية قليلة في اول الامر فأضطر اكثر الدارسين الى الاعتماد على انفسهم ، وأخذت المعاهد العليا التي تعتبر مهداً للبحوث العلمية تنشأ هنا وهناك في انحاء الوطن العربي ، فأقيمت كليتا الطب والحقوق في سورية وبدأت تظهر كليات الزراعة والعلوم في مصر وبدأ التطور يمس جامعاتنا العريقة كالازهر وجامعة القرويين ، وساهمت بعض المجلات في الحركة العلمية الناشئة ، فكانت المقتطف تخصص قسماً كبيراً من صفحاتها للبحوث العلمية المترجمة والمقتبسة ، كما نشرت هذه المجلة ومجلة الهلال عدة كتب علمية .

وازداد شغف الناس بالعلم الحديث فطلبوا منه المزيد فكثرت في

الاسواق الكتب التي تتحدث عن الفلك والطبيعة وعلم الحياة والمخترعات المجيبة واصبح الناس يتناقشون حول نظرية التطور ونظريات أصل الكرة الارضية والمجموعة الشمسية وكثيراً ما احتدم الجدل في اوساطنا بين من يعتقدون بأن الارض تدور حول الشمس ومن يؤمنون بأن الشمس تدور حول الارض ، مما يدل على أن العلوم أخذت تشغل جانباً كبيرا من اهتمامنا ، وتطورت الحركة العلمية العربية بعد الحرب العالمية الثانية فازدادت البحوث الرسمية والخاصة ، وبعد ان كانت شعب العلوم في المدارس الثانوية قليلة العدد بالنسبة الى شعب الاداب ، لحقت بها ثم نافستها في آخر الامر ، وازداد عدد الاطباء والمهندسين وعرفت بلادنا المهندس الزراعي والكهرباء ومهندس الري الى جانب المهندس المعماري ، وتضاعف عدد الصيادلة وانشئت كلية للعلوم في دمشق وكلية للهندسة في حلب اعقبتها اخيراً كلية للزراعة ، كما اقيمت معاهد عليا للفروع العلمية المختلفة في دمشق وحلب وبيروت والقاهرة وبغداد (1) كما عقد العرب المؤتمرات العلمية مثل مؤتمرات الاطباء العرب والصيادلة العرب والحقوقيين كما اقيمت مهرجانات واعياد للعلم ومجالس في بعض الاقطار العربية .

ب ـ لم تكتمل نهضته بعد :

وعلى الرغم من أن النشاط العلمي قد دبت فيه الحياة على أرضنا وأصبح الفرق واضحاً بين احوالنا العلمية الان وحالنا خلال القرن الثامن عشر الا أن العلم عندنا لم تكتمل نهضته ، وعلينا ان نقول بكل موضوعية أننا ما زلنا في اول الطريق ، فعدد المتخصصين من بيننا في فروع العلوم المختلفة ما زال قليلاً بالقياس الى حاجاتنا ، وبالنسبة الى عدد

---

(1) نهتم هنا بايراد الكليات والمدارس المتخصصة في العلوم فحسب

المختصين من الاوروبيين ، كما أن مراكز البحوث والمختبرات المتفرغة للاكتشافات محدودة عندنا بل تكاد تكون معدومة .

ونحن وان انجبنا اليوم اطباء مهرة يبرعون في تشخيص الامراض ووصف العلاجات الا أننا لم ننجب بعد أناسا يقدمون للطب معلومات جديدة لا يعرفها مختصو الغرب ، أو يكتشفون جرثومة مرض استعصى اكتشافها على الاطباء الاوروبين ، نحن ما زلنا ننتظر نتائج بحوث الاجانب لكي نأخذها عنهم ونشيعها في بلادنا ولم يظهر من بيننا حتى الآن ابن سينا جديد يضع كتاباً في الطب فتدرسه الجامعات العالمية ، واذا كنا قد عرفنا صيادلة بارعين فهم يستوردون ادويتهم من البلاد الاجنبية او يركبونها حسب تعليمات مؤسسات الادوية في الخارج ، ولم نرتفع بعد الى مستوانا السابق حين كنا صيادلة العالم وصناع عقاقير . وقد عرفنا المهندسين من مختلف الاختصاصات ولكنهم جميعاً تلاميذ اوروبا او تلاميذ تلاميذها عنها اخذوا علمهم ومنها نقلوا طرائقهم في البناء والري والكهرباء والتعدين ، وفي الوقت الذي نفذت فيه البصائر العلمية إلى جوف الذرة وحلقت مع الصواريخ والاقمار الصناعية في الفضاء البعيد نقف اليوم نحن امام عتبة العلم ونتقدم بخطوات بطيئة اذا قيست بعظم الفارق بيننا وبين سوانا ، فالطريق العلمي طويلة ، ولا تصل الشعوب الى نهايتها بسهولة بل هي ملزمة بالاندفاع والتضحية حتى تعوض ما فاتها خلال عدة قرون وخاصة في هذا العصر الذي ما سمي عصر السرعة الا لان العلم حمله على اجنحته وطار به .

ج - يعنى بالتطبيقات العملية :

وحركتنا العلمية تميل حتى الآن الى العناية بالتطبيقات العملية على

العلوم اكثر من ميلها إلى الدراسات العلمية النظرية ويتجلى لنا هـــذا الميل واضحاً عند استعراضنا لمختلف انواع العلوم :

فاذا اخذنا العلوم الحيوية نرى وجود متخصصين في الطب انتشروا في مدننا وأخذوا يمتدون الى الريف ، ولكننا قلما نعثر على مختص بالعلوم الحيوية التي لا يعتبر الطب الا تطبيقاً لها ، إذ ان الطب ليس علماً بل هو فن تطبيقي معتمد على علم الحياة وما يتبعه من علمي وظائف الاعضـــاء والتشريح ، ونحن قد عرفنا عيادات الاطباء والمستشفيات ولكننا لم نعرف مراكز للبحوث الحيوية مهمتها دراسة الكائنات الحية والتفريق بين انسجتها وتحليل الخلايا الحية مع أن كل فتوح الطب جاءت من هذه الابحاث ، وستبقى معتمدة عليها في أصلها وجذرها .

وحين نأخذ الرياضيات لا نرى بين ظهرانينا علماء اختصوا بدراسة الاعداد وصفاتها وتناقشوا حول مفهوم العدد وهل اصله الواحد أم الفئة وهل توجد قاعدة لاستخراج الاعداد الاولية أم أن القواعد الحالية لا تكفي . ولا نرى آخرين يناقشون الاعداد الصم [1] والسالبة وما هـــو أصلها ومدى الفائدة منها ويضيفون الى المعلومات الرياضية شيئاً جديداً في هذا المجال ، مع ان علماء الرياضيات في العالم يتباحثون في هذه الامور ، كما يتباحثون حتى اليوم في امور المضلعات وحدودهـا والخطوط المتوازية والبديهيات والمصادرات (الموضوعات) ويضعون منها الجديد ، وان بحوثهم هذه هي التي تمد الرياضيات العملية التطبيقية التي نهتم نحن بها ، إذ نعتني بفنون الهندسة التي هي تطبيقات على الرياضيات ولا ندرس الرياضيات البحتة إلا بمقدار ما تفيدنا في فهم الناحية التطبيقية .

---

(١) جذور الاعداد التي توصل الى نتيجة $\sqrt{٢}$ والسالبة $\sqrt{-٢}$ مثلاً

واذا اخذنا علوم الفيزياء من صوت وضوء وحرارة وكهرباء واذا نظرنا الى علوم الذرة والكيمياء نجد أيضاً أننا نهتم بالناحية العملية الناتجة عنها اكثر من انصرافنا الى الناحية العلمية النظرية التي صدرت عنها التطبيقات العملية ، إذ نعتني بالأدوية وتمديد الاسلاك والمصابيح الكهربائية وادارة الآلات والمحركات البخارية والانفجارية والكهربائية ، ونستورد الاجهزة الاشعاعية للفحوص الطبية او اختبار المواد من غير ان نتخصص في معرفة الاسس النظرية الكامنة وراء كل هذه الشؤون العملية ، وينطبق الامر نفسه على علوم النبات والتربة وطبقات الارض ... واذا تساهلنا فاعتبرنا الفلسفة من بين العلوم ، نرى أننا نأخذ عن الفلسفات المختلفة المذاهب الاجتماعية التابعة والتي تعتبر تطبيقات عليها دون ان نعتني كثيراً بالاصول الفلسفية لهذه المذاهب ، إذ ضمت بلادنا أناساً يدينون بالاشتراكية ، بل وبالشيوعية الى جانب من ينادون بالرأسمالية والاقتصاد الحر . وعُني أناس بالوضع الطبقي وتفسير اوضاعنا من خلاله ، كما عُني آخرون بالوضع القومي وتصوروا حاجاتنا على أساسه ، ووراء هذه المذاهب الاجتماعية كلها فلسفات تتناول شؤون الكون بعضها روحي وبعضها مادي وتهتم بأمور المعرفة فتسير إما على طريق عقلي أو حسي ثابت أو جدلي (ديالكتيكي) واما ان تعتبر الاصل في الحياة الانسانية الكائن الفردي أو المجتمع الكلي ، وترانا لا نمر على الفلسفات الا عابرين لنقف ونطيل الوقوف عند المذاهب الاجتماعية التابعة لها ، واذا انجبت حضارتنا السابقة أساتذة في الفلسفة كباراً فلا نستطيع ان ندعي ظهور فيلسوف عربي جديد الى اليوم .

ولم يكن اهتمامنا بالجوانب التطبيقية من العلوم وليد الصدفة بل

هو أمر طبيعي بالنسبة الى أمة استيقظت حديثاً على الشقاء والمرض والفقر والخراب ، فأول ما تفكر به تلك الامة هو أن تداوي جروح ابنائها وتبني لهم البيوت وتحسن من ظروف حياتهم ليستطيعوا السير في الطريق الصاعدة ، على أننا مكلفون بزيادة اهتمامنا بالعلوم النظرية ما دامت هي أصل المخترعات الطبية والصناعية ، وهي اساسها وذخيرتها التي لا تنفذ ، ومتى ظللنا على انصرافنا عن العلوم النظرية الاساسية بقينا تحت رحمة الاوروبيين ننتظر نتائج ابحاثهم واكتشافاتهم لنتلقفها عنهم ، من المفيد ان ننتبه أن العلوم النظرية التي نطالب بالعناية بها ليست هي ما اعتدنا أن نفهمه من كلمة نظرية ، التي توحي في مجتمعنا بالعقم والفراغ وعدم الفائدة بل نعني بها العلوم الاساسية التي تنصرف الى دراسة الكائنات المختلفة وتحليلها كي يستفيد المخترعون من نتائج ابحاثها .

٤ - الوضع التعليمي في المجتمع العربي المعاصر :

تعبر الاوضاع التعليمية الى حد كبير عن مستوى الأمة وما يمكن أن تحققه في المستقبل القريب ولا تعلم الامم ابناءها ابتغاء الثقافة المجردة فقط ، بل تدعيماً لنشاط الشعب واندفاعه الى الامام في سائر الميادين ، إذ يؤثر عدد المتعلمين ومستواهم وتنوع اختصاصهم على السياسة والاقتصاد والاخلاق والاسرة وبقية وجوه الحياة الاجتماعية ، وقد أصبح المتعلمون المختصون ضرورة لا بد منها لكل مشروع وأصبح مطلوباً ممن يريد اقامة بناء أو انشاء معمل أو اشادة سد أو تجفيف مستنقع ان يهيء لمشروعه سلفاً باعداد الفنيين القادرين على اتمامه بشكل علمي دقيق ، فهم العمود الفقري للنهضة وجزء ثمين من الرأس المال الوطني يجب الاكثار منهم والتضحية في سبيل اعدادهم .

وكيف يرتفع المستوى الصحي اذا لم يتوفر العدد الكافي من الاطباء والصيادلة والممرضين ، وكيف تستصلح التربة وتجود بأحسن الغلات وأوفرها اذا لم يكن بين ظهرانينا مهندسون زراعيون كافون ...

وان المدارس والجامعات هي التي تمد الاطباء والصيادلة والممرضين والمهندسين والكيميائيين والمؤرخين والجغرافيين ، بل هي التي تمد الشعب الواعي الذي يتابع انباء وطنه ويدرك حاجات أمته ويناقش الاحداث بعقل مستنير ويساهم في وضع الحلول الملائمة لمشكلات امته .

وسندرس الوضع التعليمي في وطننا من خلال أهم مسائله المعاصرة وسنرى من خلال دراستنا أن الطابع العام لمجتمعنا ، وهو النهضة المحتاجة الى الكمال ، ينعكس على امورنا التعليمية والتربوية من جميع نواحيها .

آ ـ مسألة الاستيعاب :

أول ما يشغل ذهن المواطن العربي أن يجد لطفله مدرسة تعلمه وأول ما يهتم به رواد الخير في مجتمعنا أن تصبح المدارس كافية لاستيعاب كل الاطفال والشباب الذين هم في سن التعليم ويصلحون له ، واذا تأملنا ما كانت عليه مدراسنا منذ قرن وما وصلت اليه الآن ، نلاحظ أنها قد ازدادت زيادة ملموسة في أكثر بقاع الوطن العربي .

فمنذ قرن من الزمان كانت مدننا تعيش بلا مدارس ومن يرغب في تعليم ابنه فعليه ارساله الى الكتاب الذي لا يمنحه إلا معلومات بسيطة يستظهر اكثرها من غير فهم ، واذا وجدت مدرسة في تلك الايام فهي إما

أجنبية افتتحتها إحدى الارساليات التبشرية وإما طائفيـة أنشأهـا اتبـاع مذهب ديني معين ، ولكن العـرب انتبهوا ولم يزل انتباههم في ازدياد الى أهمية المدارس وضرورتها ، فهي منذ القرن التاسع عشر الى اليوم تتكاثر ولا تمر سنة لا تعرف فيها بقاع الوطن العربي الواسعة قيام عشـرات المدارس حتى بلغ عدد طلابنا اليوم حوالي ثمانيـة ملايين طالبا ، توزعوا على ٣٤ الف مدرسة من مختلف المستويات الاولية والابتدائية والاعدادية والثانوية والجامعية ، في مختلف الفروع من تعليم عام وصناعي وتجاري وزراعي الى جانب عـدد الاختصاصات الجـامعية ، وينـوف عـدد المعلمين والمدرسـين على ربـع مليـون في مختـلف منـاطق الوطن العربي .

ومن امارات اهتمام مجتمعنا بدخول التلاميذ الى المدارس وتوفير المعاهد لهم ، ما نصت عليه أكثر الدسـاتير العربية من أن التعليم الابتدائي وأحياناً الاولي فقط الزامي ومجاني .

ولكن هذه الالزامية لم تتحقق تماماً على النطاق العملي في مجتمعنا وما زال عدد مدارسنا دون حاجتنا ، وما فتئنا نلمس وجود أطفـال وشباب لم تتوفر لهم الأماكن في المدارس ، فظلوا في الشوارع واتجهـوا نحو المهن قبل الأوان . وندرك قلة المدارس في بلادنا اذا قارنا بين عدد الطلاب الحاليين وبين الاطفال والشباب الذين هم في سن التعليم ، فـلا شك أنهم أكثر من ثمانية ملايين بكثير واذا اعتبرنا أن سن التعليم تمتد حتى العشرين وعرفنا أن عدد الذين تتراوح أعمارهم بين ستة سـنوات والعشـرين في بلادنا من ذكور وأناث يقتربون من ٣٠ ٪ من مجموع الشعب العربي أدركنا مقدار حاجتنا الملحة الى مدارس اكثر .

وإذا اكتفينا بالنظر الى من هم في سن الدراسة ولا يستطيعون الكسب بعد ، أي الذين تتراوح أعمارهم بين ٦ ـ ١٥ سنة لوجدناهم أكثر من ٢٥٪ من السكان وبذلك تبقى مدراسنا أقل عدداً من حاجتنا .

وإذا أخذنا كلاً من المراحل التعليمية على حدة ، نرى ان المدارس الاولية لا تستوعب جميع الاطفال الذين بلغوا سن الدراسة الابتدائية وتبلغ نسبتهم ١٦٪ وسطياً من مجموع سكان الوطن العربي ، بينما لا تتجاوز نسبة المقبولين في المدارس المتوفرة ٧٪ من مجموع السكان ، فيظل أكثر من نصف الذين هم في سن الدراسة محرومين من التعليم .

جدول بعدد التلاميذ في مختلف بلاد الوطن العربي

البلد	عدد التلاميذ	المجموع	
مصر	٣،٣٧٨،٥٣٢	مجموع التلاميذ	٧،٧٤٤،٥١٠
المغرب	٩٨٩،٤٣٦	مجموع المعلمين حوالي	٢٥٨،١٥٠
العراق	٩٣٠،٩٩٧	مجموع المدارس	٣٤،٠٠٠
سورية	٥٤٩،٣٦٤		
تونس	٥١٠،١٨٥		
السودان	٣٨٨،٤٦٣		
لبنان	٣٠٣،٧٢٢		
الاردن	٢٨٣،٩٢٢		
ليبيا	١٦٧،٤٨٧		
السعودية	١٥٠،٦٧٩		
الكويت	٤٥،٤٩٣		
الامارات والمحميات	٤٦،٠٠٠ (١)		

(١) الرقم المعطى عن المحميات تقديري وحسب بناء على تقديرات الاستاذ الحصري

ويزداد الامر حرجاً حين ننتقل الى الدراسة الاعدادية والثانوية فمن المشاهد في بلادنا ان عدد الطلاب ينخفض انخفاضاً بالغاً حين ننتقل من المرحلة الابتدائية الى الاعدادية ثم ينخفض أكثر حين ننتقل الى المرحلة الثانوية واذا علمنا ان تلاميذ المدارس الابتدائية العربية يبلغون حوالي ٦ ملايين تلميذ ، لم يبق للمراحل الاخرى من اعدادية وثانوية وجامعية إلا ١٬٧٤٤٬٥١٠ طالباً ، ويظن البعض ان قلة الطلاب الاعداديين والثانويين طبيعية لان قسماً كبيراً من الناشئة يجب أن يتجه الى العمل بعد الدراسة الابتدائية ، ولأن الامكانيات العقلية لعدد من الاطفال لا تسمح لهم باكمال التحصيل ، ولكن الفرق بين طلاب المدارس الابتدائية والاعدادية أكبر بكثير من عدد الاطفال الذين يدلنا علم النفس على أنهم لا يستطيعون متابعة الدراسة ، فأكثر من ٣/٤ تلاميذ الصفوف العليا في المدارس الابتدائية قادرون على النجاح في الصفوف الاعدادية ، وأكثر من ٣/٤ طلاب الصفوف العليا من المرحلة الاعدادية قادرون على اتمام تحصيلهم الثانوي ، كما ان المجتمعات الحديثة لا توافق على نزول الاطفال الى سوق العمل قبل أن يشتد عودهم ويكتمل اعدادهم وقد مددت بعض الدول المتقدمة سن التعليم الالزامي حتى ١٦ و ١٧ و ١٨ .(١)

واذا بحثنا مسألة الاستيعاب من الناحية الجامعية وجدنا النقص بالغ الخطورة إذ يدل علم النفس على ان أكثرية الناجحين في شهادة انهاء التحصيل الثانوي قادرون على متابعة الدراسة الجامعية بنجاح ، مع ان جامعاتنا في أكثر الاقطار العربية تطوراً لا تستوعب إلا ٣٠ ٪ من الحائزين على شهادة الدراسة الثانوية بينما تنخفض هذه النسبة في بعض الاقطار الاخرى حتى تكاد تلامس العدم .

---

(١) انكلترا وفرنسا مثل على ذلك

أما اسباب قلة مدارسنا وطلابها بالقياس الى حاجاتنا فعديـــدة أهمهـــا :

أولاً - ضعف الامكانيات المادية :

لئن بلغت نسبة موازنة التربية والتعليم في الاقطار العربية وسطياً ١٣ ٪ من مجموع الموازنة العامة واحتلت المرتبة الثانية بعد ميزانية الدفاع إلا ان ضعف الموازنات عموماً يجعل الاموال المخصصة للتعليم قليلة بالقياس الى مطالبنا . وهنا ينعكس ضعف دخلنا القومي العام وسوء توزيع هذا الدخل وان ميزانية لا تتجاوز الـ ٣٠٠ مليون ليرة سورية لا تقدم للتعليم إلا ٤٥ مليون ليرة سنوية في أحسن الاحوال ولو بلغت نفقات التربية والتعليم منها ١٥ ٪ ، وأفضل منها موازنة ضخمة غنية وان قلت نسبة النفقات التعليمية فيها عن ١٠ ٪ .

ويبين الجدول التالي نسبة موازنة التربية والتعليم من مجموع الموازنات العامة في بعض الاقطار العربية (١) :

البلد	العام	النسبة
سورية	١٩٥٧	١٥٫٤ ٪
مصر	٥٦ - ٥٧	١٣٫٧ ٪
الاردن	٥٣ - ٥٤	٧ ٪
لبنان	١٩٥٦	١٣٫٣ ٪
الكويت	٥٦ - ٥٧	٨ ٪
العراق	٥٣ - ٥٤	١٢٫٨ ٪

(١) عن محاضرات الدكتور عزة النص في كلية التربية بجامعة دمشق

وتتضح ضآلة نفقاتنا التعليمية اذا قسمنا الاموال المرصودة لدينا لشؤون التربية والتعليم على عدد الطلاب وعلى عدد المواطنين وقارناها مع مثيلاتها لدى بعض الدول المتقدمة ، حيث نجد الفرق كبيراً جداً (١) :

البلد	ما يصيب التلميذ	ما يصيب المواطن	السنة
الاردن	١٨ ل . س	١٫٨ ل . س	١٩٥١
سورية	٨١٫٦٠ ل . س (٢)	٨٫٢٣٢ ل . س	〃
العراق	٨٣ ل . س	١٠ ل . س	〃
لبنان	٤٨٫١٠ ل . س	٨٫٦٥٥ ل . س	〃
مصر	٢٧ ل . س	١٠٫٨٠٠ ل . س	〃
الولايات المتحدة	١٤٠٠ ل.س	٣٠٠ ل . س	١٩٥٦
الاتحاد السوفياتي	١٠١٠ ل.س	٢٥٥ ل . س	〃
فرنسا	٥٨٩ ل.س	٨٨ ل . س	〃

وعلاج قلة الاموال المخصصة للتعليم في بلادنا مرهون برفع مستوانا الاقتصادي وزيادة دخلنا القومي ، كما ان النظام الضريبي في وطننا يجب ان يصلح فمازالت موارد التعليم تعتمد على الضرائب غير المباشرة التي تلقي حملاً ثقيلاً على كاهل الفقير ، بينما يجب ان تعتمد على الضرائب المباشرة والتصاعدية حسب الدخول فتجلب للموازنة اموالاً أكثر بطريق عادلة ومعقولة ، ونستطيع ان نعيد النظر في موازناتنا العربية فنحذف منها

(١) عن الحولية الثقافية للاستاذ ساطع الحصري ـ السنة الثالثة ١٩٥٣ والدكتور النس .

(٢) بلغ ما يصيب التلميذ في سورية ١٠٢ ل.س والمواطن ١١ ل . سنة ١٩٥٦ .

النفقات الزائدة والمصاريف الشخصية الباهظة على الحفلات والقصور ، لتوجه اموالها نحو التعليم وان اصحاب الدخول العالية في بلادنا مكلفون وجدانياً وقومياً أن يساهموا بالنهضة التعليمية لا عن طريق دفع الضرائب وحسب بل بالتبرعات ايضاً ، فان العدد الجم من جامعات الدول المتقدمة اقامته جمعيات اعتمدت على التبرعات ، كما ساهم اندفاع المواطنين الاغنياء في بناء المدارس والمدن الجامعية وتقديم الاثاث والمختبرات والكتب والاعانات السنوية للمعاهد وطلابها . ولضعف الامكانيات المادية وجه آخر ، وهو أن عدداً غفيراً من الآباء لا يستطيعون ارسال ابنائهم الى المدارس ولو هيئت لهم الامكنة فيها ، لعجزهم عن دفع اثمان الكتب واللوازم المدرسية بل لحاجتهم في كثير من الاحيان الى مساهمة اولادهم في إعالة الاسرة ، ففقرهم يدفعهم إلى إخراج ابنائهم من المدرسة طلبا لدريهمات قليلة يعتبرونها هامة نظراً لعوزهم الشديد .

وبعض العائلات الريفية تؤثر ان يساعدها أطفالها في امور الزراعة من حراثة وبذر وحصاد ، ويمكن تلافي هذه الناحية بجعل توقيت المدارس مرناً ومتلائماً مع ضرورات المواسم الزراعية .

ثانياً ـ التقاليد :

ولا يقبل الاطفال والفتيان الذين هم في سن الدراسة بأجمهم على معاهد العلم ، إذ ان التقاليد تبقى قسماً كبيراً منهم في البيت وهذا الجزء الذي لا يرسل الى المدارس الا نادراً استحياء في كثير من مناطقنا هو الاناث بشكل خاص مما يقلل عدد طلابنا عموماً ، ومن المعلوم ان الاناث والذكور متساويان عدداً ومع ذلك فالطلاب الذكور يفوقون الطالبات بثلاث اضعاف في الاقطار العربية المتطورة ، ويقل عدد التلميذات

في بعض الاقطار الاخرى حتى يكاد ينعدم ، وكلما ارتفعت المرحلة التعليمية ازداد الفرق بين عدد الطلاب والطالبات كما يتناقص عدد التلميذات اذا توغلنا في الارياف .

وقد جرت العادة في مجتمعنا العربي على تزويج البنات في سن مبكرة ، مما يدعو إلى تناقصهن في المراحل الاعدادية والثانوية والجامعية ، وكثير من الأهل يعتقدون الا فائدة من تعليم البنات ما دمن سيتزوجن ويعتمدن على ازواجهن في اعالتهن ، ويخشى بعض الآباء على الاخلاق اذا تعلمت البنات وتفتحت اذهانهن على نواحي الحياة المتعددة وقرأن الشعر والقصص وما حوته من جوانب عاطفية وربما زهد الخاطبون في المتعلمة لخوفهم من أن تكون معتدة بنفسها ، فيصعب قيادها وتناقش فيما يلقى اليها من اوامر وترهق زوجها بالطلبات .

والذين يمتنعون عن ارسال بناتهم الى المدارس يتبعون التقاليد التي طرأت على مجتمعنا العربي ايام انحطاطه ولو انهم استقوا من التقاليد العربية الاصلية لأقدموا على تعليم بناتهم ودفعوهن الى اعلى المراحل ، فقد عرفنا في عصورنا الذهبية الكاتبات والعالمات والشاعرات ، وكانت نساؤنا تشهد مجالس العلم وتناقش في امور الدنيا والدين ... (١)

ويؤثر التطور الاجتماعي فى هذه الايام فيزيد من عدد البنات المرسلات الى المدارس ، ويقتنع الناس يوماً بعد يوم أن الفضيلة لاتقوم على الجهل بل تعتمد على العقل الواعي الموجه ومن أتته الفضيلة عن غير طريق العلم لا يستطيع ان يواجه الحياة وتعقدها ويغدو فريسة سهلة للتضليل .

(١) كسكينة بنت الحسين وغيرها

ب ـ مسألة مستوى المعاهدة التعليمية :

لا شك أن مؤسساتنا التعليمية ارتفع مستواها كثيراً منذ اواخر القرن التاسع عشر حتى اليوم فقد تعددت المدارس وتوزعت على مختلف المراحل وانشئت الجامعات والمعاهد العليا وعرفت بعض مدراسنا المخابر والاذاعة المدرسية والوسائل الحديثة في التربية ، وتجمعت مكتبات جيدة في المدارس العادية والجامعات وأصبح قسم من المعلمين معداً اعداداً تربوياً ملائماً لشتى المراحل من ابتدائية وثانوية كما عرفت الجامعات اساتذة كباراً .

غير أن مستوانا التعليمي ما يزال دون الغاية التي نقصدها ويتضح لنا ضعفه في الامور الآتية :

اولاً : كثير من مدارسنا وخاصة في الارياف ينقصها الاثاث الضروري ، فعدد كبير من الطلاب لا يجد المقاعد التي يجلس عليها كما أن المخابر الحديثة لاتوجد الا في مدارس المدن الثانوية وبعض المدارس الابتدائية الواقعة في الأحياء الغنية ، وتتصف أغلب مدارسنا بالنقص في جميع اللوازم إذ كثيراً ما تعجز عن تدفئة طلابها وشراء الكتب الضرورية ومساعدة التلاميذ الفقراء .

ثانياً : والابنية المدرسية الحديثة الصحية المعدة سلفاً للتلاؤم مع التعليم قليلة الوجود في وطننا واذا استطاعت الكويت أن تشيد ابنية مدرسية حديثة فهي قطر صغير يتناول ارباحاً طائلة من عائدات النفط ، أما في بقية انحاء الوطن العربي فنسبة المدارس التي تمتلكها وزارات التربية والتعليم ضئيلة وتعمد المؤسسات التربوية الى استئجار البيوت التي لم تشد لتكون مدارس اصلاً ، وإننا نمر بالقرى الكثيرة فنجد اغلب مدارسها

ـ اذا وجدت ـ قائمة في ابنية بعيدة عن الشروط الصحية وغير مشجعة على اعطاء العلم وتلقيه ، وتسعى بعض الدول العربية لتلافي ازمة الابنية المدرسية ، فقد انشئت في سورية مؤسسة للابنية المدرسية بعد أن كانت البلديات هي المسؤولة عن اشادتها ، كما انشئت مثل هذه المؤسسة في مصر ، وتسعى بقية الدول العربية حسب امكانياتها ومستوى وعي المسؤولين فيها الى معالجة هذه المشكلة ولكن يبدو ان علاجها يحتاج الى خطوات حاسمة ووضع مشروعات دورية وتأمين الوارادات لا عن طريق الضرائب غير المباشرة كما يحدث الآن أو طريق ارهاق الاهالي الفقراء كما كانت عليه الحال في سورية منذ مدة بل بأسلوب واضح ومباشر .

ولا يفوتنا ان الابنية المدرسية لا تعني الصفوف وحسب وانما تشمل الملاعب والمسارح والمخابر الفنية وقاعات المحاضرات وتلك مرافق ضرورية يفتقر اليها مجتمعنا بشكل واضح .

ثالثاً ـ ومن مظاهر انخفاض المستوى التعليمي في مدارسنا أزمـــة الكتب المدرسية كماً وكيفاً ، فأغلب الاقطار العربية تشكو من فقدان الكتب المدرسية المؤلفة وفق القواعد التربوية والتي تجمع بين التلاؤم مع عمر الطالب وبين الثقافة والتوجيه والبساطة ، فقد تجد كتاباً غــزير المعلومات ولكنه خالٍ من التوجيه القومي والخلقي وربما اطلعت على كتاب حسن توجيهه وقلت معلوماته او كانت خاطئة ، واذا كانت بعض الدول العربية كسورية ومصر قد أممت الكتب المدرسية وجعلتها تحت اشراف وزارة التربية والتعليم تأليفاً وطباعة وتوزيعاً ، فان أغلب الاقطـــار العربية الاخـــرى تركت فيها الكتب المدرسية لاختيار المشرفين على المؤسسات التعليمية وقد لا يختارون دائماً الكتب المناسبة ، وأما الجامعات

والمعاهد العليا في كل بقاع الوطن العربي فكتبها ينتقيها أو يؤلفها اساتذة المواد .

وقد أممت الكتب الجامعية في سورية بمرسوم صدر منذ ٢١ / ٩ / ١٩٦٣ لتلافي الكثير من النقائص في الكتب الجامعية .

ويحتاج الكتاب المدرسي العربي الى مزيد من العناية بالمادة والاخراج والتوجيه والتوزيع ، إذ يحرم الفقر ابناء الاسر المُعسرة من شراء الكتب ولا تكفي المنح المجانية حتى اليوم ، كما ان وجود كتب مدرسية سهلة وجميلة وعلمية وموحدة بين ايدي الطلاب العرب له فائدة حاسمة في ميدان التعليم .

رابعاً - ومن مظاهر تدني المستوى التعليمي عندنا ضعف استقرار المناهج التعليمية ، فقد عرفت سورية مثلاً خلال مدة وجيزة انواعاً مختلفة لشهادات الدراسة الثانوية . منها الشهادة ذات المستويين (البكالوريا الاولى والثانية) وهي في نفس الوقت ذات فرعين (رياضيات وفلسفة) ثم شهادة الدراسة الثانوية الموحدة التي ينالها الطالب بعد انهاء دراسته الاعدادية بسنتين ، بينما كانت سابقتها تحتاج الى ثلاث سنوات ، وكانت شهادة الدراسة الثانوية ذات فرعين علمي وأدبي ثم اعيد نظام السنوات الثلاث لتحصيل شهادة الدراسة الثانوية الى سورية وأصبحت هذه الشهادة ذات أربعة فروع (اجتماعيات ، ولغات ورياضيات ، وطبيعيات) وبعد ذلك الغيت هذه الفروع الاربعة واستعيض عنها بفرعين هما العلمي والادبي . .

ومن الطبيعي ان يرافق تغير الفروع والسنوات تغيير في المادة التي تعطى لطلاب كل صف وفي الكتب المدرسية التي يدرسونها وفي الثقافة التي يحصلونها ، ناهيك عما تستلزمه الانظمة الجديدة من مدة

كافية لاعتياد المعلمين والطلاب عليها ، فما يكاد النظام يبدأ في اعطاء ثماره حتى يحل محله سواه .

وقد اكتفينا بهذا المثل عن الدراسة الثانوية في سورية ، لكثرة ما يمكن ان نضربه من امثلة على سائر مراحل التعليم في بقية الاقطار العربية وسورية نفسها ايضاً .

ونحن ممن يشكرون الاستقرار اذا بني على خطأ وفساد ولكن تغيير الانظمة بشكل سريع يدل على الارتجال وعلى ان الخطط التربوية لا توضع بعد دراسات علمية تأخذ بعين الاعتبار حاجات مجتمعنا وامكانياته فتوفر البلبلة والتعديلات المتلاحقة .

خامساً ـ ولا يشكل المعلمون المعدون اعداداً كافياً لمهنتهم إلا نسبة ضئيلة من مجموع القائمين بالتعليم [1] فنظراً لندرة المتعلمين في بلادنا لجأت المدارس الى استخدام ضعاف الثقافة لتعليم ابنائنا ، وكثيراً ما ضمت المدارس الابتدائية العربية معلمين كل ميزاتهم أنهم غير أميين ، ولا يقتصر الامر على المدارس الابتدائية وحدها بل يمتد الى بقية مراحل التعليم الرسمي والخاص ، وقد انشئت في بلادنا دور للمعلمين ولكنها لم تخرج عدداً كافياً لجميع مدارسنا . ومن الجدير بالذكر ان المعلم لا يقتصر اعداده على دراسته في دور المعلمين الابتدائية او الثانوية ، بل يجب أن تعقد له دورات تدريبية بعد تخرجه كل عدة سنوات ، حتى يظل على مقربة من الابحاث الجديدة في مهنته ويستفيد من تجارب زملائه ويفيدهم بخبرته ويستمع الى محاضرات فيما يستجد من شؤون التربية عموماً والمادة التي يدرسها خصوصاً . وقد عرفت بعض الاقطار العربية امثال هذه الدورات ولكنها لم تنتشر بعد الانتشار المناسب .

---

(١) انظر الجدول ص ١٥٤

وما دام القسم الاكبر من معلمينا غير معد تربوياً لذا ما زالت مدارسنا او أكثرها تسير وفق أساليب عتيقة في التعليم ، ويبقى الالقاء طريقة ممجدة في مدارسنا للشرح مع أن التربية الحديثة تطالبنا بأن نعلم التلاميذ عن طريق العمل والتجريب والمشاهدة وممارسة النشاط الحر الموجه في آن واحد ، فلا نعجب اذا شاهدنا ان الحفظ الببغائي البعيد عن الفهم منتشر بين طلابنا ويلاحقهم بعد تخرجهم من المدارس ولا نعجب اذا لم نستطع الاستفادة من اكثر القوانين العلمية التي درسناها لاننا على الاغلب حفظناها عن ظهر قلب بدون تعمق وحمدنا الله على نجاحنا في الفحوص ، أما عن التوجيه فان العدد الاكبر من مدارسنا قائم على القسر والاكراه فلا ندهش اذا رأينا ان الفضائل لم تنفذ الى بعض نفوسنا نفوذاً تاماً ولا نستغرب اذا شاهدنا افراداً من مجتمعنا يقدمون على الرذيلة بمجرد ان ترتفع العصا عنهم او تغفل عيون الرقباء ، فقد اعتادوا منذ طفولتهم وفي مدارسهم على ان يتبعوا التوجيهات التي تلقى إليهم كأوامر تدعمها القوة والتهديد بالعقاب .

ولا شك أن الوصول الى معلمين ناجحين اكفاء لا يقتضي فقط تأهيلهم وتدريبهم بل يستدعي تحسين ظروفهم المعاشية وترفيههم ليكونوا في احسن الظروف الملائمة للقيام بمهمتهم الجليلة . تلك هي بعض الادلة على انخفاض مستوى التعليم في مدارسنا ، فاذا بحثنا عن اسباب هذا التدني وجدناها في الناحية المادية التي تحدثنا عنها في مسألة الاستيعاب ، إذ تستلزم المباني والملاعب والمخابر والكتب الجيدة واعداد المعلمين وتحسين ظروفهم المعاشية اموالاً طائلة ، فالوضع التعليمي مرتبط بالاحوال الاقتصادية ويؤثر فيها وتؤثر فيه ، ولا شك ان الاندفاع في مضمار

النهضة الاقتصادية وتوجيه القسم الكبير من الموازنات الى شؤون التعليم وتوفير بعض النفقات الزائدة تساهم في رفع المستوى التعليمي ، ومن اسباب تدني تعليمنا ايضاً الى جانب الناحية المادية قلة الاختصاصيين المعمقي الاختصاص في أمور التربية والمتفرغين فقط للدراسة والبحث والتخطيط لسائر النواحي التعليمية .

ج - مسألة التعليم الرسمي والخاص :

عرف الوطن العربي في جميع اقطاره المدارس الخاصة إلى جانب المدارس الرسمية ، وتسمح الدساتير العربية كلها بقيام المدارس الخاصة على اختلاف فيما بينها حول مدى اشراف الدولة عليها ، واغلب التعليم عند العرب رسمي الا في لبنان حيث تفوق المدارس الخاصة المدارس الرسمية عدداً ، وقد اثيرت مناقشات في بلادنا حول قيام الدولة بعبء التعليم وحدها أو سماحها ببقاء المدارس غير الحكومية ، وقد انقسم الناس في هذا الموضوع إلى ثلاثة اطراف :

الطرف الاول ينادي بأن تختص الدولة وحدها بانشاء المدارس فى شتى المراحل التعليمية وسائر الفروع ، وحججهم عديدة منها أن بلادنا تحتاج الى توجيه موحد وثقافة موحدة لا يتوفران الا اذا كان رأس التعليم واحداً ومهما سمت الدولة لمراقبة المدارس الخاصة فانها تستطيع في كثير من الظروف أن تعلم ما تريد ، وأن توجه التلاميذ بشكل قد يخالف سياسة الدولة العامة ، ويذكرنا أصحاب هذا الرأي بأننا نخوض معركة ضارية ضد الاستعمار ونناضل في سبيل توحدنا وتحررنا ، فاذا بقي التعليم الخاص لم يعبأ ابناؤنا تعبئة قومية واحدة إذ يمكن ان تتسرب كثير من الانحرافات إلى المدارس الخاصة وأقصى

ما يستطيع المواطن عمله مع المدرسة الخاصة الا يرسل ولده اليها ، أما الحكومة فهي مسؤولة امام الشعب ويستطيع الشعب ان يطالبها دائماً بالتوجيه السليم . ومن حجج هذا الطرف أيضاً أن وجود المدارس الخاصة يساعد على بقاء الطبقية بين المواطنين إذ تنشأ لأبناء الاثرياء مدارس باهظة الاقساط يتجمعون فيها فلا يختلطون بأبناء الفقراء ويظلون بعيدين عن آلام شعبهم .

ويزيد انصار هذا الرأي فيدلون ببرهان جديد وهو أن بقاء المدارس الخاصة وترك كل طائفة توجه اطفالها كما تريد ينتج جيلاً متباعداً في التفكير وقد تغلب عليه العصبية الطائفية والعنصرية وتعوزه الوحدة في الاتجاه والوعي القومي ، وربما خرجت المدارس الخاصة مثقفين ملمين بالثقافات الاجنبية من فرنسية وانكليزية وايطالية اكثر من المامهم بثقافتهم العربية . ويخشى أن ينقلب المجتمع الى مجموعة من الجاليات تسير كل منها حسب اعراف دولة اجنبية بدلاً من أن ينصهر المواطنون في اعراف واحدة ، ثم يضيف انصار التعليم الرسمي المحض دليلا آخر وهو أن المدارس الخاصة لا توفر دائماً المستوى التعليمي اللائق لتلاميذها فقد تضطرها ظروفها الاقتصادية الى التساهل في قبول معلمين اقل مستوى من معلمي المدارس الرسمية ، وقد تتهرب من إنشاء المخابر الكافية وإقامة الابنية اللائقة وربما دفعها حب الربح إلى ترفيع من لا يستحقون النجاح واذا انطبق هذا القول على المدارس ذات الصبغة التجارية وحدها فان انصار هذا الرأي يذكروننا بالادلة السابقة والتي تنطبق على كل المدارس الخاصة .

واما الطرف الثاني فيرى الابقاء على المدارس الخاصة بسائر

انواعها طائفية أو اجنبية او تابعة لبعض الجمعيات او الافراد ويدلون بعدة براهين على رأيهم منها أن استئثار الدولة بالتعليم يفقده حريته الضرورية لازدهاره إذ أن التجديد واتباع الاساليب الحديثة تقتضي مغامرة لا تقوم بها الحكومة ، بينما تقدم عليها المؤسسات الخاصة .

ومن براهينهم أيضاً ان التنافس بين المدارس الخاصة يدفعها الى رفع مستواها والاتيان بأحدث الاساليب واكثرها فائدة لتجذب العدد الوفير من الطلاب على حين ان المدارس الحكومية اذا وجدت وحدها لم تخش المنافسة وبالتالي تقع في الجمود وتتوقف عن التطور ، ومن حججهم ايضاً ان بلادنا فيها طوائف عديدة واغلب هذه الطوائف لا تطمئن الى ان عقائدها تدرس باتقان في المدارس الرسمية ، وإن مجتمعاً يضم السني والشيعي ، الارثوذكسي والكاثوليكي والبروتستاني عليه ان يعتبر المدارس الخاصة شيئاً ضرورياً منبثقاً عن حاجة اجتماعية ملموسة .

ويضيف انصار التعليم الخاص برهاناً جديداً إذ يعجبون ممن يخشى على وحدة مجتمعه من تنوع الثقافات ففي اعتقادهم أن وجود ثقافات عديدة في المجتمع يفيده ، إذ يجعل الافكار في غليان دائم وتفاعل مستمر ينتج عنها خير عميم للامة ، ولا خوف على وحدة المجتمع ما دام افراده على اختلاف ثقافاتهم يدركون أن افكارهم كلها في سبيل وطنهم وأن كلاً منهم مكلف بخدمة أمته وفق الاسلوب الذي اعتاد عليه والثقافة التي استقاها بها .

ومن ادلتهم أن الدولة اذا كلفت وحدها بعبء التعليم ناءت بمصاريفه الباهظة وتحملت فوق ما تطيق وهي ذات مسؤوليات جسام ؛ منها الدفاع

عن البلاد وما يتطلبه من تجهيز الجيش وتسليحه ومنها حفظ الأمن الداخلي ومنها تعبيد الطرق ومد السكك الحديدية وانشاء المستشفيات ... وإن عدد الاطفال الذين هم في سن الدراسة كبير جداً ، فاذا طالبنا الدولة بفتح المدارس التي تستوعبهم قدمت ميزانيتها كلها من غير أن تصل الى ما تريد ، وما دامت الدولة غير قادرة على استيعاب الطلاب كلهم في مدارسها ، فلماذا لا تسمح باقامة المدارس الخاصة فتساعدها على تثقيف أبناء الامة وتخفف من عدد الذين يبقون في الشوارع كل عام ؟

وآخر ما يبرهن به انصار المدارس الخاصة على دعواهم قولهم بأن الطالب قد يتعرض لبعض المشكلات أثناء دراسته ، فقد يرسب مرات متلاحقة فأين يتعلم اذا طردته المدارس الرسمية ، وقد تعاقبه مدرسته بالفصل النهائي من مدارس الحكومة كلها ، فيحرم من التعليم اذا لم توجد المدارس الخاصة ، كما أن المدارس الرسمية لا تقبل الا الطلاب الذين حازوا مجموعاً معيناً في اقسامها الاعدادية والثانوية والجامعية ، فهل نترك جمّاً غفيراً من شبابنا محروماً من اتمام تحصيله أم الأفضل إنشاء المدارس الخاصة ، وهم يرون كثيراً من الدول المتقدمة تحمل المدارس الخاصة القسم الاكبر من عبء التعليم ، كالولايات المتحدة الامريكية .

اما الطرف الثالث فيقف موقفاً وسطاً بين الرأيين السابقين ، إذ يرى الابقاء على بعض المدارس الخاصة دون البعض الاخر مع وجود اشراف دقيق وفعلي عليها ومطالبتها بتطبيق مناهج الحكومة وتدريس كتبها في المواد ذات القيمة القومية والتوجيهية على الاقل ، ويأخذ أنصار هذا الرأي قسماً من أدلة انصار التعليم الرسمي وقسماً من أدلة أنصار التعليم الخاص ، فهم يجدون مصاريف التعليم باهظة على الدولة وحدها كما يرغبون

في اذكاء التنافس والابداع الحر بين المدارس الخاصة ويرغبون من ناحية ثانية في ايجاد اساس ثقافي عام لجميع الطلاب على اختلاف مدارسهم ، واغلب اصحاب هذا الرأي ينادون بتصفية المدارس الخاصة الاجنبية ، كما يكرهون وجود مدارس تستهدف الربح ويودون الابقاء على المدارس الطائفية والتابعة لبعض الجمعيات الخيرية ، ويختلفون فيما بينهم حول الابقاء على المدارس الخاصة في بعض مراحل التعليم ، فقسم منهم ينادي بأن يقتصر التعليم الخاص على المراحل الاعدادية والثانوية وأن يمتد حتى الجامعية اذا أمكن مع اختصاص الدولة وحدها بالتعليم الابتدائي لان الخبرة التوجيهية الاولى يحصلها الطفل أثناء هذه المرحلة ، بينما لا يرى القسم الآخر مانعاً من بقاء التعليم الابتدائي الخاص على شرط أن يوجه توجيهاً حسناً ودقيقاً .

أما نحن فمن انصار الطرف الاول إذ نرى أن بلادنا بحاجة الى تدعيم وحدتها الثقافية بدلا من استمرار التفرقة بين المواطنين وقد لمسنا عن تجربة بان الاشراف الحكومي على المدارس الخاصة لا يمكن ان يكون فعالا الى الدرجة التي تطمئننا على حسن تعليم ابنائنا وتوجيههم ، إذ تستطيع المدرسة الخاصة في غياب المفتشين ان تفعل ما تريد وليس من المعقول أن نلجأ الي بث العيون على المدارس الخاصة من الطلاب أنفسهم إذ أن ذلك يزيد من فقدان الثقة بين المواطنين ويساهم في تخريب المؤسسات التعليمية ، كما أننا نعتقد أن تعليم المذاهب الدينية أمر في استطاعة الدولة أن تقوم به فهي ليست ممثلة طائفة معينة بل هي مندوبة عن المواطنين جميعاً .

وأما التنافس فيمكن ان نذكيه بشكل مشروع بين المدارس الحكومية نفسها وفي استطاعتنا أن نشجع الابداع الفردي فنكافيء المعلم

الناجح المجدد ، ولم يعد التطور قائماً على المغامرة بل اصبح امراً علمياً توضع له الخطط وترصد له النفقات وكل مشروع تربوي حديث يحتاج الى الخبراء واللوازم التي تعجز المدارس الخاصة عن تأمينها . واذا استطاعت بعض المدارس الاجنبية أن ترصد الأموال اللازمة للخبراء والاثاث والوسائل التعليمية فذلك لان وراءها دولاً تستهدف من وجودها غايات بعيده .

وأما مسألة الطلاب الذين يرسبون أو يطردون فيمكن أن تعدل أنظمة المدارس لتستطيع قبولهم على أحد الوجوه ، ومن المعلوم أن المتخلفين والمشكلين لا تستطيع المدارس الخاصة أن تقوم من اعوجاجهم أو تنسجم مع مستواهم بل هم في حاجة الى مؤسسات تربوية تختص بأمرهم وتضم الخبراء في شؤون علاجهم ، وهذه المؤسسات لا يستطيع أحد أن يقيمها الا الدولة .

وأما العقبة المادية فنعترف بأهميتها ونلاحظ أن ما تتكبده الدولة من مصاريف في سبيل المدارس بل ندرك عجزها أحياناً عن قبول جميع طلاب مرحلة من المراحل ولكن هذه العقبة يمكن أن تعالج إذا وضعنا خطة علمية مدروسة تستهدف تصفية المدارس الخاصة خلال عدة سنوات ولتكن خمساً أو عشراً ، فليس المهم عدد السنين بل المهم أن نحدد خطواتنا ونعرف في كل سنة عدد المدارس التي يجب أن نفتتحها في مقابل المدارس التي نصفيها ، كما أن من المهم جداً معرفة عدد المعلمين الذين يجب أن نؤهلهم للمدارس الجديدة ولتعليم مختلف العقائد . وعلينا أن نضع في حسابنا تأمين العمل لمعلمي المدارس الخاصة سواء فى مدارس الحكومة أو في مهن أخرى تتلائم مع كفاءاتهم وتهيء لهم الحياة الكريمة المتناسبة مع ما أدوه للعلم في وطنهم العربي .

جـ ـ مسألة محو الامية :

الأمية من أمراض مجتمعنا المزمنة إذ تصل نسبة الاميين في بعض الاقطار العربية الى ٩٠٪ من عدد السكان ، وهي فوق الـ ٥٠٪ في اكثر الاقطار العربية عدا لبنان الذي انخفضت فيه الى ٢٥٪ .

جدول لعدد ونسبة الاميين في بعض [1]
اقطار الوطن العربي لعام١٩٦٤

القطر	العـــدد	النسبة المئوية	٪ الذكور	٪ الاناث
السودان	٥٨٤٧٨٢١	٩٥,٦	٩٢,٦	٩٨,٤
المغرب	٦٤٧٤٤٠٠	٨٦,٢	٧٨,١	٩٤
العراق	٥١١٤٥٦٠	٨٠,٧	٧٣,١	٩٢,٤
مصر	١٤٨٥٤٧٠٨	٧٣,٧	٥٩,٥	٨٧,٦
الاردن	٩٣١٧١٠	٦٧,٦	٤٩,٩	٨٤,٦
سورية	٢٨٣٢٥٥٠	٦٤,٦	:٦,٥	٨٣,٢

والأمية ذات أخطار جسيمة على الأمة إذ أنها تقف حائلاً دون نهضتها وتطورها ، ولا يستطيع الامي أن يتلاءم مع مقتضيات التقدم في العصر الحديث فكل شيء في هذا العصر يحتاج الى القراءة والكتابة وبعض الثقافة لأن الحضارة المعاصرة قائمة على العلم والتدقيق في الحسابات وتتبع أحدث المكتشفات والاستفادة من الاساليب الجيدة في التجارة والصناعة

---

(١) عن نواة المجتمع العربي ـ كلية الاداب ـ جامعة دمشق
العمر المأخوذ بعين الاعتبار هو ١٥ سنة فما فوق .

والزراعة والسياسة وشؤون الاسرة ، ولم يعد البائع الصغير بقادر على الاستغناء عن معرفة القراءة والكتابة والالمام بطرق الدعاوة ، ناهيك بما تتطلبه الاعمال الكبيرة والمشاريع الضخمة والمهن الفنية من اطلاع، والامي عالة على غيره في جانب كبير من جوانب حياته ، بل هو اذا سار في الطريق وحاول أن يصل الى محل يقصده مضطر الى الاستعانة بغيره ، والأمي سهل التضليل لأنه عاجز عن الاطلاع على الوثائق والنظريات السياسية والاجتماعية بنفسه ، فيغرر به اصحاب الاغراض ويسيرونه في الطرق التي يريدونها .

تلك هي أهم اخطار الامية وقد تخلصت منها المجتمعات المتقدمة حتى أصبحت منذ مطلع هذا القرن لا تجد الا عدداً قليلاً من الاميين في البلاد الاسكندنافية وبريطانيا وفرنسا وبلجيكا ، كما تسعى الدول الاخرى الى التخلص منها بجد ، فقد قطع الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة اشواطاً بعيدة في هذا المضمار ، كما سارت الصين الشعبية على نفس الطريق .

وقد بدأ الشعب العربي يهتم بمسألة الأمية حتى وصل هذا الاهتمام حداً جعل سورية تضع محو الامية من جملة أهداف الدولة الرئيسية في دستور عام ١٩٥٠ ، الذي نصَّ على ضرورة محو الأمية خلال عشر سنوات ، وشاهدنا في مختلف الاقطار العربية قيام المدارس الخاصة بتعليم الاميين اغلبها مسائي يعتمد على التطوع ولم تفد هذه المحاولات كثيراً، فعلى الرغم من مضي اثنتي عشر سنة على النص الدستوري السابق في سورية فان الامية ما تزال منتشرة في هذا القطر وتتجاوز نسبتها ٦٠٪ كما ظلت اكثر الاقطار العربية تعاني هذا الوباء .

والحق أننا لا نستطيع محو الامية الا اذا عالجنا امرها بشكل علمي والدراسة العلمية لمسألة الامية تقتضي منا أن نعرف اسبابها ودرجاتها وطرق معالجتها .

فاذا بحثنا عن اسباب الامية وجدناها في قلة عدد المدارس بالنسبة الى الاطفال الذين هم في سن الدراسة ، مما يترك قسماً كبيراً منهم خارج المدرسة فيصبح مقضياً عليه بالامية طول حياته ، ولذلك نجد أن الامية بين الكهول أكثر وجوداً منها بين الشباب وعند هؤلاء نري أن نسبة الاميين أعلى منها بين الفتيان ، لان كهولنا أمضوا طفولتهم في فترة من الزمن كانت المدارس فيها نادرة الوجود ، أما شبابنا فقد افتتحت في أيام طفولتهم مدارس عديدة وكلما تقدمنا نجد أن المدارس تتزايد وتستوعب عدداً أكبر من الاطفال وبالتالي تنخفض نسبة الاميين ، وللسبب عينه نشاهد أن الامية في ريفنا اوسع انتشاراً منها في مدننا ، لان المدارس في الريف قليلة اذا قيست بمدارس المدن ، كما يلاحظ ان الامية بين الاناث أكثر منها لدى الذكور ، لان مدارسنا تستوعب عدداً كبيراً من الذكور بالنسبة للاناث .

ومن الطبيعي ان تصبح كل العوامل التي جعلت مدارسنا أقل من حاجاتنا أسباباً اساسية لتفشي الامية بين ظهرانينا ، وقد رأينا في بحث الاستيعاب أن أهمها ، هو ضعف الامكانيات المادية والتقاليد .

وأما درجات الامية فيختلف حولها المفكرون فمنهم من يرى أن من يعرف كتابة اسمه غير أمي ، وأكثرهم لا تعجبهم هذه الفكرة ، بل يعتقدون أن المواطن يجب أن يُحسن القراءة والكتابة والحساب

ويستطيع أن يخط رسالة أو استدعاء أو يقرأ صحيفة أو كتاباً من كتب الثقافة العامة وأن يكون قادرا على فهم ما يقرأ ، ويرى البعض ان الامية لا يتخلص منها الفرد الا اذا نال الشهادة الابتدائية أو تثقف بثقافة تعادلها ، بينما لا يجد البعض الآخر ضرورة لذلك ، ومن الباحثين من يعتقد أن الامية ليست كتابية وحسابية فقط ، بل هنالك أمية أقتصادية وسياسية واجتماعية ، وقد ينال المواطن أعلى الشهادات ويظل أمياً في تدبير شؤونه الاقتصادية وفي فهم أوضاع وطنه السياسية وفي السلوك الاجتماعي .

وأغلب الآراء تتفق على أن المواطن يجب أن ينال حداً أدنى لا بدّ منه من الالمام بالقراءة والكتابة والاطلاع على أهم أمور الحياة من سياسية واقتصادية واجتماعية .

ثم نبحث وسائل مكافحة الامية ، وقد اهتم بها المختصون بشؤون التربية الاساسية ، وانشئت مراكز خاصة في بعض البلدان للتربية الاساسية وتعليم الكبار ساعدت هيئة الامم المتحدة على اقامتها كمركز سرس الليان في مصر ومركز اربد في الاردن ، ومهمة هذه المراكز تخريج مرشدين اجتماعيين يساهمون في رفع مستوى المواطنين الذين فاتهم ركب التعليم ، كما يدربون غيرهم على القيام بهذه المهمة .

ونحن نرى أن من أهم وسائل مكافحة الامية افتتاح المدارس الابتدائية والاكثار منها حتى تستوعب كل الاطفال الذين هم في سن التعليم ، ومهما انشأنا من مراكز لمحو الامية بين الكبار فلن نستطيع القضاء عليها طالما ظل عدد غفير من اطفالنا بعيدين عن المدارس حيث يصبحون أميين في كبرهم فيمدون في عمر الامية .

ولكن افتتاح المدارس الاطفال لا يكفي ، فلدينا قسم كبير وعزيز من مواطنينا الذين تجاوزوا سن الدراسة الابتدائية ولم يتعلموا ، وهؤلاء الاميون يجب أن نمد لهم يد المساعدة وننقذهم من الامية إذ أنهم يشكلون نسبة كبيرة من شبابنا ورجالنا ، عمالنا وفلاحينا ، آبائنا وامهاتنا واخوتنا ، فلا بد لنا من تعليم الكبار ايضاً ولن ننجح في تعليمهم اذا افتتحنا معاهد مرتجلة تقوم على التطوع غير المنظم وتسير على غير هدى ولا يشرف عليها مختصون متفرغون لشؤونها يرتبون دوامها ويؤلفون كتبها ويضعون مناهجها ، ويجب أن نعلم أن قضية الكتب هامة جداً في تعليم الاميين الكبار ، إذ لن يتحمس الشاب والرجل لكتاب الابجدية الذي أعد لصفوف المدرسة الابتدائية الاولى حيث يتحدث الى الاطفال بلغتهم ويذكر العابهم بشكل يجعل الكبير يحس بنفسه وقد انقلب الى طفل صغير اذا اهتم به ، وحين توضع لمحو الامية خطة علمية فيجب أن تقسم معاهدها الى مستويات عديدة منها ما يختص بتعليم من هم دون العشرين ومنها ما ينتسب اليه الشباب الذين تجاوزوا هذه السن كما يمكن أن تنشأ صفوف للاميين الذين لم يتلقوا أي حظ من التعليم ولاولئك الذين الموا بعض الالمام بالقراءة والكتابة ، كما يمكن أن يختلف الدوام في هذه الصفوف بين مسائي ونهاري ، صيفي وشتوي حسب مشاغل المنتسبين اليها ، ويجب أن ينظم المنهاج بحيث يشتمل على الثقافة العامة الضرورية للمواطن ، ومن المهم الا تقوم هذه المعاهد في المدن وحدها بل يجب ان تشمل الارياف ومناطق البداة .

ونحن مطالبون بأن نستفيد من تاريخنا ومن تجارب الامم الاخرى

في هذا الميدان ، فقد كلف الرسول العربي (ص) كل أسير يعرف القراءة والكتابة من اسرى بدر أن يفتدي نفسه بتعليم عشرة من المدينة ، وقد نظمت الحكومة الصينية منذ سنوات برنامجاً لمحو الامية طالبت فيه كل متعلم بانقاذ أمي على الأقل ، ثم يقوم هذا الامي الذي تثقف بتعليم مواطن آخر خلال مدة معينة وهكذا تتناقص الامية بسرعة متزايدة ، وقد استفادت امم أخرى من المعامل والمزارع الجماعية ، فطالبت كل معمل بانشاء صف خاص لمحو الامية بين عماله ، كما الزمت المزارع الجماعية وسائر المشاريع بتعليم أفرادها الاميين ، وحين ننوي القضاء على الامية جدياً فان الامر لا يعجزنا ، لأننا نستطيع الاستفادة من كل الامكانيات بما فيها الجيوش .

د ـ مسألة التنوع والوحدة :

يتقسم بحثنا لهذه المسألة الى فرعين ، اولها التنوع والوحدة في التعليم بين الاقطار العربية ، وثانيها التنوع والوحدة بين البيئات من مدنية وريفية ، صناعية وزراعية في الوطن العربي كله وفي القطر الواحد .

اولاً ـ التنوع والوحدة بين الاقطار العربية :

على الرغم من وحدة الاساس الثقافي العربي فاننا نلاحظ أن الدول العربية تختلف فيما بينها رسمياً حول قضايا التعليم وأنظمته ، فالقاعدة المتبعة الان هي التنوع ، ولولا أن الامة العربية تفرض نفسها على المتعلمين العرب لحدثت ثغرات كبيرة في الثقافة بين أبناء الاقطار العربية ، وهذا التنوع يتجلى لنا في كل ناحية ، فكل قطر عربي يحدد منفصلاً برامجه التعليمية وعدد المواد وانواعها ومضمون الكتب المدرسية وما

يركز الاهتمام عليه من الحوادث التاريخية ، كما أن مواقف الدول العربية مختلفة من حيث نظرتها الى التعليم الخاص ، فمع أنها لا تعارض وجوده مبدئياً ، الا أن بعضها يعطي لوزارات التربية والتعليم حق الاشراف التفصيلي على المدارس الخاصة وبعضها الآخر كلبنان يتركها حرة ويحدد مراقبة الحكومة لها بشكل ضيق جداً .

ويتنوع التعليم في الاقطار العربية من ناحية السنوات المطلوبة في كل مرحلة من ابتدائية واعدادية وثانوية ، فأنت تجد سورية ومصر تجعل المرحلة الابتدائية ست سنوات والاعدادية ثلاثاً وكذلك الثانوية ، بينما يحدد لبنان المرحلة الابتدائية بخمس سنوات وتكتفي ليبيا بسنتين للدراسة الاعدادية ، كما أن العراق لا يكلف الطالب الا بسنتين ثانويتين واذا انقص لبنان المرحلة الابتدائية فانه يزيد من سني الدراسة الاعدادية اذ يجعلها اربعاً ، وتختلف الدول العربية في تفسير الالزامية التي تنص عليها قوانينها ، فمنها من يجعلها ممتدة خلال ست سنوات هي مدة الدراسة الابتدائية كلها ومنها ما يقصرها على التعليم الاولي الذي يتم خلال اربع سنوات ، ويبدو التنوع ايضاً في الانظمة الاوروبية التي يقتبس منها كل قطر أكثر اساليبه التربوية وبرامجه ، فالعراق والاردن ومصر والسودان تأثرت بالنظام الانكليزي ، بينما اخذت سورية ولبنان ودول المغرب العربي عن النظام الفرنسي ، واقتبست ليبيا النظام الايطالي ، أما المدارس الخاصة في لبنان فتعتمد على ضروب شتى من الانظمة ، وقد تقدمت بعض البلاد العربية اكثر من شقيقاتها الاخريات فانشأت عدداً لا بأس به من المدارس الحديثة والجامعات بينما لا تزال الكتاتيب اكثر انتشاراً في

اقطار اخرى كاليمن والسعودية والساحل المعاهد ، وحتى الآن لا توجد في تونس جامعة حديثة وجامعتها الوحيـــدة هى جامع الزيتونة ، تسير على الاساليب المتوارثة من القـــدم وان ادخلت فيها أخيراً بعض العلوم الحديثة، وعلى حين أن مصر عرفت النظام الجامعي الوطني منذ مطلع القرن العشرين ، فان القطر المغربي لم تنشأ فيه جامعة وطنية الا منذ مدة وجيزة وكذلك العراق والسعودية أما الاردن واليمن مثلاً فلم تعرف الجامعات بعد ، وأما لبنان فقد عاش على الجامعات الاجنبية منذ القرن التاسع ولم تؤسس فيه جامعة وطنية الا في الفترة الاخيرة ، أما الجزائر فكل جامعاتها اجنبية الى اليوم .

جدول بعدد الجامعات في البلدان العربية (١)

البلد	العدد	الجامعـــة
مصر	٥	القاهرة، الاسكندرية، اسيوط، عين شمس الازهر
سورية	٢	دمشق ـ حلب
العراق	١	بغداد
لبنان	١	الجامعة اللبنانية
السودان	١	فرع جامعة القاهرة
تونس	١	جامع الزيتونة
المغرب	٢	القروين والرباط
السعودية	١	جامعة الرياض
ليبيا	١	بني غازي

(١) اما الجامعات الاجنبية فهي الامريكية واليسوعية في لبنان والامريكية في مصر وثلاث جامعات فرنسية في الجزائر غالبية طلابها من الفرنسيين .

ويتجلى التنوع ايضاً في عدم وجود تخطيط عربي مشترك لشؤون التعليم يقوم به مجلس نافذ القرارات يساهم فيه مندوبون من سائر الاقطار العربية ويتفرغون لدراسة الوضع التعليمي في الوطن العربي ، بل ان التخطيط يكاد يكون منعدماً حتى على نطاق القطر الواحد في اكثر الدول العربية وهو لم يزل حديث الولادة عند الدول التي اهتمت به كسورية ومصر ، واذا كانت في الجامعة العربية لجنة ثقافية فأكثر أعمالها عام وضيق ، يقتصر على طبع بعض الكتب وادارة معهد الدراسات العربية العليا ، وأما قراراتها وقرارات المؤتمرات التي عقدها وزراء المعارف العرب ، وكبار المسؤولين عن أمور التربية والتعليم تحت اشرافها فلم تنفذ بشكل مرضٍ ، وقد حاولت بعض الاقطار العربية ان تقيم بين بعضها وحدة ثقافية كسورية ومصر والاردن ثم انضمت اليها العراق ، ولكن معاهدات الوحدة الثقافية تحتاج الى مزيد من العناية والدقة في التطبيق .

وليت الامر اقتصر على وجود التنوع واقعياً كمظهر من مظاهر التجزئة المصطنعة بل نشأت نظريات تزعم أن هذا التنوع ضروري ولا بد منه بين الاقطار العربية وحجتها في ذلك أن أجزاء الوطن العربي وان كانت واحدة في الأصل الا أن كلاً منها يتمتع بصفات خاصة تميزه عن شقيقه فالمصري قد اكتسب خلال عيشه مستقلاً عن بقية بقاع الوطن العربي خصائص معينة يجب ان نراعيها في التعليم وكذلك السوري والعراقي والاردني واللبناني والتونسي ... وهم يدللون على رأيهم أيضاً بادعائهم أن المواطن في كل قطر يتأثر ببعض الملامح التاريخية الخاصة بقطره ، ويشاهد

آثاراً قديمة غير التي يشاهدها سكان القطر الآخر (١) فالمصريون محاطون بالآثار الفرعونية على حين يتأثر السوريون بالآثار والمخلفات الآرامية والأشورية ... واللبنانيون بالآثار الفينيقية ، والعراقيون بالبابلية والكلدانية ... ويضيف المعتدلون من انصار هذا الرأي قولهم بأن الخير أن تتنوع الثقافات بين العرب لئلا نصبح نسخاً جامدة عن بعضنا ، ويدعون أن وحدة الثقافة العربية لا تتأثر ببقاء التنوع ، ففي امكاننا المحافظة عليها بالاتفاق على تدريس بعض المواد تدريساً موحداً في سائر الاقطار وتظل المواد الاخرى حرة يتناولها كل قطر كما يشاء .

والكن هذا الرأي الداعي الى التنوع مع شيء جزئي من الوحدة له معارضون يتزايدون في كل يوم ويكادون يكسبون الجولة في النقاش حول هذه المسألة . وهؤلاء المعارضون هم انصار الوحدة في التعليم بين الاقطار العربية جميعها وبراهينهم عديدة ، منها ان الوطن العربي واحد، فلماذا نظن أن البيئة الجغرافية في العراق تختلف عنها في سورية ومصر وتونس ؟ ، وتاريخه واحد فالسوري يفتخر بأبطال مصر ويعتبرهم ابطاله لأنهم عرب مثله ، والمصرى يعتد بشهداء الجزائر والاردن ، ما داموا قد ذهبوا ضحية الاماني العربية ، ومن براهينهم أيضاً أن التجزئة ما دامت مصطنعة فلماذا نسوّغها ونفلسفها ونساعد على بقائها بدلاً من المساهمة في التخلص منها . وحينما وضع الاستعمار الحدود ، بين الاقطار العربية ، لم يقمها لاختلاف البقاع العربية عن بعضها وانما ابتغاء مصلحته ولو شاء اثناء التقسيم لضم لبنان الى سورية وديرالزور الى العراق والاردن الى السعودية وليبيا الى تونس وغير ذلك ، إننا سذج اذا جئنا الى الحدود الوهمية فقلبناها

---

(١) راجع كتاب الاستاذ ساطع الحصري حول الوحدة الثقافية العربية في رده على الدكتور اسماعيل قباني .

الى حدود فكرية وواقعية ، ولو ان الاستعمار جعل حلب دولة مستقلة ، فليس من المستبعد أن يقوم بعض البسطاء أو العملاء بالدعوة الى نظام خاص بها وثقافة خاصة بها على اعتبار انها قطر له مميزاته وخصائصه ومن ابطالها ابو الفراس الحمداني ، بينما تذكر حماه في سورية فتاها أبا الفداء . . . واذا نادى المعتدلون من انصار التنوع بثقافات عربية عديدة تجمع بينها بعض الخطوط العامة العريضة ينادي انصار الوحدة على العكس بتعليم عربي موحد مع شيء طفيف من التنوع لا في مضمون المواد الدراسية بل في اساليبها ، فليس من الضروري أن يكثر برنامج التاريخ في مصر من الحديث عن الاثار الفرعونية بل يتكلم عنها كبرنامج التاريخ في بقية الاقطار ، ويفهم الطالب المصري هذه الآثار عن طريق الامثلة التي يضربها المعلم ، وخلال الرحلات التي تجريها المدرسة ، ونحن في حاجة الى صهر لا الى تفريق ، الى نمو العناصر المشتركة بيننا لا الى تنمية العناصر الخاصة وجعلها شيئاً مذكوراً ، أما اختلاف البيئات من مدنية وريفية وزراعية وصناعية فلا يختص به كل قطر على حده ، بل يتوازعه الوطن العربي كله ، فما فرق البيئة المدنية في مصر عنها في تونس والعراق ولبنان ؟ وما فرق البدو في الاردن عنهم في مصر والمغرب العربي ، فزيادة الاهتمام بتعليم الريفيين اصول حياتهم وتعليم المدنيين ضروب التقاليد في مدينتهم لا تتم عن طريق اختلاف الاقطار العربية عن بعضها في نظم التعليم بل طريقها أن تتوحد هذه الاقطار جميعاً في تعليمها وتميز المناطق المتشابهة وتجمعها في اسلوب تعليمي واحد مهما تعددت الاقطار التي توجد فيها ، وهنا نصل الى الفرع الثاني من قضية الوحدة والتنوع .

ثانياً ـ التنوع والوحدة بين البيئات :

يتفق المربون على أن تلامذة المدارس الريفية يجب أن يتلقوا معلومات عن الزراعة وتربية الدواجن اكثر من تلامذة المدن، ويوصون بأن ينبه طلاب المدن

الى الآلة والصناعة الحديثة والى ضروب العيش في مدنهم وخاصة اذا كانت كبيرة كانظمة السير في الشوارع المزدحمة والتعرف على مختلف المؤسسات في مدينتهم ، وتفضل التربية الا" يطالع الريفي كتاباً في القراءة محشواً بذكر البيوت المدنيه ومملوءاً بالرسوم التي لا تصور الا" معالم المدن وثياب المدن وظروف حياة المدينة ، فالتربية الحديثة ترغب في أن يطلع الطفل على منطقته ويندمج مع المهن التي تتوقع له ان يمارسها في المستقبل ، وان يتآلف مع كتابه القريب من عاداته وظروف حياته ، وهي إذ توجه النظر الى أهمية اطلاع الريفي على حياة المدينة والمدني على حياة القرية فلا تريد هذا الاطلاع تعسفياً وظالماً لأحد الطرفين بل ترغب في أن نبدأ بتعليم الطفل اشكال الحياة في منطقته الاصلية ونظام الاسرة المحلية في بيئته ثم نهيء له عقد المقارنات بين منطقته الضيقة وسائر المناطق الأخرى ، واذا كانت انظمة التعليم العربية قائمة على التنوع بين مختلف الاقطار وهو تنوع لا نقبله فانها بعيدة كل البعد عن التنوع المشروع القائم على أساس البيئة المحلية من ريف ومدينة وزراعة وصناعة ونظام مطري ونظام ري ...

ويخلط بعض المربين بين وحدة انظمة التعليم العربية وبين المركزية ، ويحسبون احدهما مرادفة للاخرى كما يحسبون ان اللامركزية لا تتوفر الا عند وجود التنوع بين انظمة التعليم في الاقطار العربية ، ونحن نخالفهم فيما يذهبون اليه .

إذ نرى أن اللامركزية يمكن أن توجد مع وحدة التعليم ، فانكلترا غير مقسمة الى اقطار ولا ينادي أحد مربيها بثقافات متعددة على الجزيرة البريطانية ، ومع ذلك فهي تتبع نظام اللامركزية في ادارة شؤونها التعليمية ، ويمكن ان تختلف انظمة التعليم ويبقى مع ذلك رأس المعارف واحداً ،

والنتيجة التي نصل اليها هي أننا نستطيع أن نوحد التعليم بين الاقطار العربية من حيث اسسه في الاهداف والاتجاه و اللغة والتاريخ والمبادىء العلمية التي تدرس للطلاب ، وسني الدراسة وانظمة التفتيش والادارة والشهادات ونبقى مع ذلك تنوعاً محلياً لا يقوم على أساس القطر أو الدولة المنفصلة عن شقيقاتها بل على أساس تشابه الظروف البيئية والمعاشية في البيئات المتماثلة من مدنية وريفية وبدوية ، سواء أوجدت هذه البيئات في هذا القطر أو ذاك ، ويمكن توصلاً لذلك أن نعطي للمحافظات دوراً كبيراً في تنظيم التعليم ، فبدلاً من ان تتلقى مديريات التربية والتعليم في كل المحافظات نسخاً متماثلة من قرارات تصدر عن العاصمة تحدد كل شيء ، يكتفي بأن تضع المجالس العليا الاهداف والخطوط الاساسية للتعليم ثم تترك قسماً معيناً من التفاصيل لمديرية كل محافظة تساهم في تنظيمه بالاشتراك مع ممثلي المواطنين واولياء الطلاب وفق المهن السائدة فيها وضروب انماط الحياة الموجودة لديها .

ونعود فنذكر بأن أهم ما يتطلبه التعليم العربي اليوم هو انشاء مجلس للتخطيط تشترك فيه الاقطار العربية جميعاً وتكون قراراته ملزمة وجدية .

الفصل الثالث

ـ الاوضاع الصحية ـ

في الوطن العربي

منذ وجود الانسان على سطح الارض وهو في صراع دائم من أجل الاستمرار في البقاء . فالمعركة ضارية بينه وبين الأنواع الأخرى من أجل الاستئثار بالموارد . وهو اذ ينتصر غالباً ، يخسر الجولة أحياناً فتعم المجاعات والحروب ، ويصاب الجنس البشري بنكسة تفقده الكثير من أفراده . ولكنه ، في شهوته للحياة ، يعيد الكرة ولا يلبث ان ينتصر ويستعيد ما فقده لينطلق الى الامام ، دائماً الى الامام .

ومن جملة الاعداء الالداء للانسان ، ثالوث رهيب يضم المرض الى جانب الجهل والفقر .

واذا كان الانسان لا يزال يقارع المرض . فاننا نشاهد ان مجال المعرفة في هذا الميدان ، كلما تقدم ، ارتسمت امامه نقاط استفهام هائلة الحجم تلح على الدماغ الانساني بايجاد العلاج للداء الذي يهدده في وجوده وبقائه . ففي القرن التاسع عشر ، كان المرض العضال ـ كما هو معلوم ـ

السل . وكانت الانسانية تفقد العديد من ابنائها ضحية هـذا المرض . ولكن الانسان لم يلبث ان انتصر بايجاد العلاج المناسب الذي سدد لهذا المرض الضربة القاضية . فهل استراحت الانسانية اذ ذاك ؟ بالطبع لا ، اذ لم تلبث امراض أخرى ان ظهرت على المسرح تهدد وتتوعد ، واذا بالانسان يعيد تنظيم نفسه ليشن حملة على ما يهدده . . . على مرض السرطان الرهيب ، حتى بتنا نعتقد ان لكل عصر مرضاً خاصاً به . فالانسان ، على الرغـم من كونه اضعف المخلوقات ، على الرغم من كونه اضعف من احقر انواع القصب ـ كما يقول الفيلسوف الفرنسي باسكال ـ الا انه قصبة تفكر ، وتنتصر بتفكيرها على ما يهدد بقاءها .

وبصورة خاصة ، فقد كثرت الامراض وتفشت في وطننا العربي ، ويعود سوء الاوضاع الصحية عامة الى اهمال المستعمر للشئون الصحية في البلاد المستعمرة ، إذ ليس من مصلحة المستعمر بشيء ان يكـون من يُستعمر بحالة صحية جيدة ، اذ أنه حينذاك ينصرف الى التفكير في تحرره ، والحرية عزيزة من قلب انسان القرن العشرين ، وهي في كل الاحوال من الدوافع الاساسية الملحة الموجودة لدينا كما يعود الى الفقر والجهل ، وكأن تماسك الجهل والفقر مع المرض تلازم طبيعي . فحيثما وجد العاملان الاولان ، تبعهما العامل الثالث بالضرورة .

اولاً - الاوضاع الصحيـة
والامراض المتفشيـة في الوطن العربي

١ - الامراض المتفشية في مصر والخدمات الصحية فيها :

إن الوضع الصحي السائد في القطر المصري متأخر نسبياً ، كما هو الحال في كافة البـلاد العربية . واذا أردنا تحـديد الأمراض المتفشية في القطر المصري امكننا حصرها بما يلي :

آ - **البلهارسيا :** وهو مرض قديم جداً ، وقد عرف عند الفراعنة ، وقدامى المصريين وكان يسمي بالبول الدموي ، وظل مجهول السبب حتى عام ١٨٥١ حيث اكتشف من قبل الطبيب الالماني بلهارس . ويعـود السبب في انتشار هذا المرض الى وجود ديدان صغيرة منتشرة في المستنقعات والترع على النيل . تضع هذه الديدان بويضاتهـا في الاوعيـة الشعرية الموجودة في جدران المثانة او الحالبين ، فتثقف جدران الاوردة حتى المثانة أو الاحشاء ، ثم تصرف مـع البول او البراز وتذهب في المجاري والترع حيث تنفجر هناك وتتحول الى حيوانات مهـدبة تسبـح في المـاء . فاذا قابلت بعض القواقع دخلت فيهـا واستقرت في جوفهـا وتوالدت واصبحت حيوانات ذات ذيل يطلق عليها اسم المذنبات ، تنطلق في المياه مجدداً لتهاجـم الانسان عند الشرب او الاستحمام . وعند دخولها الجسم تنمـو داخل الاوردة وتثقبها بحيث يفقد المصاب الكثير من دمه .

وهكذا نرى ان فلاحاً واحداً يتبول عدة مرات ، يلوث الماء بعدد هائل من البويضات تهدد كيان عدد كبير من الافراد ، حتى باتت نسبة ٩٠ ٪ من الافراد مصابين بهذا المرض وما يرافقه من فقر الدم وهزال شديد وتأخر في النضج الفكري وظهور البلاهة .

ب ـ **الانكلوستوما** : وهو مرض ينتشر بواسطة ديدان بسبب فقر الدم في المجتمع المصري ويصيب من الفلاحين ما يعادل عشرة ملايين تقريباً ومعظمهم مصابون بالبلهارسيا ايضاً ، لان طريقة العدوى في المرضين متشابهة تنتقل عن طريق الجلد الخارجي والمخاطي .

ج ـ **التراخوما** : وهو التهاب حبيبي يصيب الاجفان ويضعف العينين وهو مرض سار ، يقضي على نظر عدد كبير من الاطفال . ويبلغ عدد ضحاياه (١٠٪) من المصريين .

أما فيما يتعلق بالخدمات الصحية ، فقد أعدت الدولة برنامجاً انشائياً شاملاً يهدف الى الاستفادة من الخدمات الطبية والى تعميم المستشفيات تدريجياً في جميع انحاء البلاد ، وبناء على ذلك فقد افتتح عام ١٩٥٩ مستشفيان كبيران في القاهرة وثمانية مستشفيات في المحافظات ، فأصبح عدد المستشفيات / ١٠٤ / كما ضوعف عدد الاخصائيين في فروع الطب المختلفة ونظمت المؤتمرات لتبادل المعلومات وتشجيع البحث العلمي . واعتني بالاشعة وبالتمريض ومستواه وبتوفير الادوية ، حتى بلغ عدد الذين عولجوا في الاقسام الداخلية والخارجية عام ١٩٥٧ كما يلي :

العلاج بالقسم الداخلي :

مجموع المرضى المعالجين	مجموع من شفي	مجموع الوفيات	النسبة المئوية للوفاة
٢٢٤٠٨٨٥	٢١٧،٨٧٣	٧١٢	٣٪

العلاج بالاقسام الخارجية :

مرضى مستجدون	مرضى مترددون	المجمـــوع
٥،١٤٦،٢٦٦	١،٩٨٦،٧٢٧	٧،١٣٢،٩٩٣

ومنذ عام ١٩٥٢ تم انشاء معمل تحضير لقاح B. C. G المضـــاد للتدرن الرئوي وقسم تشخيص التدرن وقسم الاختبـارات المصلية وقسم الفيروس وقسم التحليل ، وتأسيس / ٢٣ / مصحاً لعلاج التدرن الرئوي و / ٥ / مصحـات لجراحة العظام ومستوصفـات للامراض الصدرية بمعظم المدن المصرية ، كما اقيمت مجموعات صحية كثيرة تضم كل واحدة منهـا عيادة طبية مجانية وخدمة صحيه ووقائية وداراً لرعاية الامومـة والطفولة وحمامات عامة وتشمل كل مجموعة صحية عدة أقسام تقوم بعلاج الامراض التي تنتشر بالريف وتجري فحوص شاملة لأهالي المناطق بغية تبين مشكلاتهم الصحيـة التي تستوجب العناية والتنفيـذ . وعلى الرغم من ذلك فان مصر بحاجة الى المزيد من العناية والخدمات الصحية العامة ، اذ لا يتعـدى ما خصص لكل الف من السكان الستة اسرة في القاهرة ، والاربعة في الاسكندرية والثلاثة في باقي المحافظات . وهذا ـ كما هـو معلوم ـ دون ما ينبغي بكثير .

الخدمات الصحية في العراق :

ان الامراض السائدة في العراق هي - بالاضافة الى ما ذكر من امراض منتشرة في مصر - البرداء . وهي مرض ينتقل عن طريق البعوض الذي تكون المستنقعات ومياه الفيضانات مرتعاً خصباً لبيوضه . ومن اعراض هذا المرض الشعور بالبرد الشديد المتبوع بحرارة مرتفعة فتعرق فزوال الازمة لتعود بعد فترة من الزمن . وكان عدد ضحايا هذا المرض يبلغ فيما مضى / ٥٠٠٠٠ / نسمة في كل عام ، عدا عن النقص الذي يصاب به من يشفى اذ يصبح هزيلاً ضعيف الجسم لا يتحمل اي مجهود .

غير ان الحكومة العراقية تولي النواحي الصحية عناية خاصة ، بعد ان تعدد ما انشىء من مستشفيات وما تخرج من اطباء سواء عن طريق البعثات أو عن عن طريق الدراسة . ولكن يعتبر مستوى المعيشة المتدنية في العراق من اول العوامل المؤدية الى تفشي الامراض ، على الرغم مما يوجد فيه من ثروات دفينة داخل الارض ونخص بالذكر منها البترول .

٣ - الخدمات الصحية في لبنان :

لقد ازدهرت الخدمات الصحية في لبنان ونمت نمواً هائلاً ، والسبب في ذلك التقدم الاجتماعي والثقافي وكثرة المؤسسات الصحية والمستشفيات الخاصة المنتشرة في كافة المدن اللبنانية . وفيما يلي بيان بعدد المشافي الاهلية والحكومية وبعدد الاسرة فيها .

١ ـ المستشفيات الاهلية	عددها	عدد الاسرة
المحافظة : بيروت	٣٦	١٠١٢
جبل لبنان	١٤	١٩٢٨
البقاع	٤	٩٢
لبنان الجنوبي	٧	١٦٠
لبنان الشمالي	١٩	٤٣١
المجموع	٨٠	٣٦٢٣

٢ ـ المستشفيات الحكومية	عددها	عدد الاسرة
المحافظة : بيروت	٤	٣٤٠
جبل لبنان	١	١٢٠
البقاع	١	١٢٠
لبنان الجنوبي	١	١٢٠
لبنان الشمالي	١	١٢٠
المجموع	٨	٨٢٠

ويربو عدد الاطباء في لبنان على ١٣٠٠ طبيب .

ثانياً ـ اسباب المشكلة الصحية في الوطن العربي :

وعلى العموم ، يمكن ايجاز اسباب انتشار الامراض في الاقطار العربية بما يلي :

انخفاض مستوى المعيشة :

يعتبر متوسط دخل الفرد من المعايير الهامة في تحـــديد مستوى

المعيشة نظراً لأنه يتيح للفرد تأمين حاجاته الاساسية الضرورية كالغذاء والكساء والسكن والتعليم والملاج . وقد صنف المجلس الاقتصادي والاجتماعي للامم المتحدة المجتمعات على أساس متوسط الدخل الفردي السنوي كما يلي :

- مجتمعات متخلفة اقتصادياً ، ويكون متوسط دخل الفرد فيها أقل من ١٥٠ دولاراً في السنة .
- مجتمعات متوسطة اقتصادياً : ويتراوح متوسط دخل الفرد فيها بين ١٥٠ و ٤٥٠ دولاراً في السنة .
- مجتمعات متقدمة اقتصادياً : ويكون متوسط دخل الفرد فيها ٤٥٠ دولاراً فأكثر في السنة .

وتقع معظم الاقطار العربية في الفئة الاولى . ويتجلى انخفاض مستوى المعيشة في الوطن العربي في الظاهرتين التاليتين :

١ ـ عدم توفر السكن الصحي :

فالمساكن في الاحياء العربية الفقيرة متلاصقة متشابكة كثيرة السكان ، مما يؤدي الى الاصابات ، لا سيما وان الازقة في هذه الاحياء ضيقة مظلمة ترتع فيها الجراثيم الناشئة عن الاوساخ والاقذار المتراكمة . والوضع في الريف اسوأ مما هو عليه في المدن ، اذ يسكن الفلاح عادة مع بهائمه وهذا ايضاً عامل فعال في انتقال الامراض من الحيوان الى الانسان .

٢ ـ عدم توفر التغذية المناسبة :

ان تغذية معظم المواطنين العرب سيئة كماً ونوعاً ، فالعمال والفلاحون لا يتناولون الغذاء الذي يعوض عما فقدوه من مدخرات

وحريرات خلال اعمالهم الشاقة . وهم لا يتمكنون من تناول اللحوم الا نادراً مما يجعل راتبهم الغذائي في حالة اضطراب . وقد يقتصر الفلاحـون في غذائهم على ما تنتجه ارضهم من حبوب او خضار .

٢ - عدم ملاءمة الشروط الطبيعية :

آ - عدم توفر المياه النقية :

ان المياه التي تشرب منها القرى العربية غير نقية غالباً ، ويكون مصدرها عادة النهر المليء بالطمي والوحول والاوساخ ، أو الساقية او الترعة او المستنقع أو حوض الماء الذي يعيش على مياهه الانسان والحيوان على السواء . هذا عدا ما للماء اهمية في النظافة عامة ، وما يجب اتخاذه من وسائل لتصفية المياه كي تصبـح قابلة للشرب .

ب - عدم توفر المناخ المناسب :

على الرغم من سطوع الشمس ، ومن تأثير ذلك في الصحة العامـة ، فان فوارق الحرارة بين الليل والنهار، والصيف والشتاء ، ذات تأثير كبير في تعريض الجسم للامراض كما ان هطول الامطار بغزارة فترة واحدة من العام يجعـل المياه تتجمع وتشكل المستنقعات التي تعتبر مرتعاً لتوليد البعوض والطفيليات التي تنشر الحميات ، ولتـكاثر دودة البلهارسيا والانكلوستوما .

٣ - ضعف الجهاز الصحي :

آ - عدم توفر الاطباء والمستشفيات عامة :

تقتضي العناية الصحية المناسبة وجود طبيب لكل /٥٠٠/ فـرد ، وسرير للمستشفيات لكل /١٠٠/ فرد . ولكن ذلك بعيد عما هو الحال في الوطن العربي . وهذان جدولان مقارنان بين الحالة السائدة في الاقطار العربية وفي بعض الاقطار الاجنبية .

الجدول رقم ١

عدد الاطباء والمشافي مع نسبها في الاقطار العربية

بين عام ١٩٥٠ وعام ١٩٥٤

القطر	عدد الاطباء	نسبة السكان الى كل طبيب	عدد الاسرة في المشافي	نسبة السكان الى كل سرير
لبنان	١٠٤٩	١٣٠٠	٨٤٧٩	١٥٦
مصر	٦٠٥١	٣٦٠٠	٣،٦٢٢١٦	٨٠٥
سورية	٦٧٠	٥٣٦٠	٢٣٩٩	١٥٠٠
العراق	٨٧٤	٥٦٠٠	٦٦٢٣	٧٣٥
تونس	٥٢٦	٦٧٠٠	٥٧٧١	٦٠٦
الاردن	١٨٥	٧٣٤٥	١٩٩٤	٦٨٢
السعودية	١٥٣	٤٥٠٠٠	١٠٢٥	٦٨٠٠
السودان	١٧٤	٥٠٠٠٠	٨٢٣٠	١٠٦٥

الجدول رقم ٢

عن الأطباء والمشافي مع نسبها في بعض البلاد الاجنبية

بين عام ١٩٥٢ وعام ١٩٥٤

البلد	عدد الاطباء	نسبة السكان الى كل طبيب	عدد الاسرة في المشافي	نسبة السكان الى كل سرير
الولايات المتحدة	٢٠٩،٢١١	٧٧٠	١،٥٨٠،٦٥٤	١٠١
الاتحاد السوفييتي	٣٧٣،٦٩٠	٧٨٩	١،٠٣٥،٠٠٠	٢٠٨
سويسرا	٤،٩٣٢	١٠٠٠	٦٨،٢٧٥	٧٠
فرنسا	٣٧،٣٩٨	١١٠٠	٤٦٩،٦١٢	٩٠
تركيا	٧، ٧٩	٣١٠٠	٢٣،١٩٦	٩٦٨

ب ـ فقدان الاطباء والمستشفيات والادوية في الريف العربي :

تقتصر الخدمات الطبية في الوطن العربي على المدن دون الريف ، إذ قلما نجد طبيباً ثابتاً أو ادوية أو مستشفيات في القرى العربية ، فاذا مرض القروي ، فانه يلجأ الى الوصفات البلدية والى من يدعي الخبرة في معالجة الامراض . ومعظم هؤلاء من الدجالين والمستغلين ، أو يتوجه نحو المدينة المنقذة التي تنتظره باستغلالها لموارده المحدودة جداً . وبالتالى فان نسبة الوفيات مرتفعة جداً في ريفنا لا سيما بين الاطفال .

والسبب في ذلك عزوف الاطباء عن سكن القرى لصعوبة شرائط الحياة فيها وانعدام وسائل الترفيه والتسلية .

وتبين الاحصاءات سوء توزيع الخدمات الطبية في الوطن العربي . ومن أمثلة ذلك ان لواء بغداد الذي يشكل ١٧٪ فقط من مجموع سكان العراق ، احتكر لوحده عام ١٩٥٣ ٦٣٪ من مجموع الاطباء ، وان لواء القدس يحتكر نصف اسرة المشافي مع أنه لا يمثل سوى ٢٢٫٧٪ من مجموع سكان الاردن وان في قضاء القدس طبيباً لكل ٢٧٠٠ فرداً ، بينما ليس في قضاء جرش سوى طبيب لكل ٢٧٠٠٠ نسمة .

والوضع في مصر أو في سوريا شبيه بما ذكرنا . فقد بلغ عدد المستشفيات والعيادات والمستوصفات الخارجية المستقلة في مصر عام ١٩٥٩ كما هو مبين في الجدول :

عدد المشافي	العيادات والمستوصفات	عدد الاسرة	عدد الاطباء	الصيادلة	الممرضات
المجموع ١٤٤	٧٨	٧٥٧٦	١٠٧٢	٧٦	٨٢٣
القاهرة والاسكندرية ٧١	٣٥	٤٥٢٤	٧٥١	٤٦	٤٩٢

وفي سوريا ، فقد بلغ عدد المستشفيات الحكومية والخاصة عام ١٩٦٠ ٧٨ ، منها ٥٠ في محافظتي دمشق وحلب ، كما بلغ مجموع عدد الاطباء عامة ١٢٠٤ طبيباً ، منهم ٨٠٧ في دمشق وحلب ، و ٥٦١ في دمشق وحدها .

مما يبين بوضوح سوء توزيع الخدمة الصحية .

٤ ـ الامية الصحية :

الامية على أنواع ، وقد تكون الامية الصحية المتمثلة بالجهل بوسائل الوقاية من الجراثيم وأسباب المرض أشد الاميات خطراً على حياة الانسان مباشرة ، على الرغم من خطورة باقي أنواع الاميات كالامية الثقافية والامية الاقتصادية والامية السياسية والاجتماعية . وهنالك تلازم بين الامية الثقافية والامية الصحية . فاذا كان معيار تلك الامية الحصول على الاقل على شهادة الدراسة الابتدائية ، فان نسبة من حصلوا على هذه الشهادة في سوريا مثلاً لا يتعدى ٦٪ في نهاية عام ١٩٥٧ . وتنخفض هذه النسبة لتبلغ ٣٪ لدى الاناث ، امهات المستقبل ، بينما تبلغ ٩٪

عند الذكور . هذا عدا الفروق في النسب بين المدن والريف ، حيث تميل الامية الصحية الى الانتشار والسيطرة على كافة الافراد .

وقد تسهم المدارس في مكافحة الامية الصحية وذلك بان تساعد الافراد على اكتساب المعلومات الصحيـة أولاً والعـادات الصحية ثانياً والاتجاهات الصحية ثالثاً .

فالمعلومات الصحية تمين الافراد على حفظ صحتهم واتقاء المرض ومعالجته بقدر المستطاع .

والعادات الصحية يكونها الافراد كثيراً في البيت وفي المدرسة ، حيث يتعودون مثلاً عدم استعمال مشط الغير أو الشرب بكأسه أو وضع الاصابع في الفم أو التهام الطعام بسرعة .

أما الاتجاهات الصحية فهي الايمان باهمية الصحة في حياة الفرد وحياة الجماعة .

ثالثاً ـ خطة الاصلاح الصحي في الوطن العربى

ينبغي أن تشمل كل خطة للاصلاح في هذا الميدان المجالين التاليين :

١ ـ الاجراءات الوقائية

٢ ـ الاجراءات العلاجية

آ ـ الاجراءات الوقائية التي يجب ان تتخذ في الوطن العربي :

قديماً قيل الوقاية خير من العلاج وهذه الحكمة الشعبيـة لا زالت

على قدر عظيم من الصحة . فعلينا والحالة هذه درء الامراض عن الافراد قبل أن يصابوا بها لئلا يكون الأوان قد فات عند المباشرة بعلاجهم . واذا كانت مسؤولية الدولة عظيمة في هذا المجال ، فانها لا تقل بحال من الأحوال عن مسؤولية الفرد الذي يطلب اليه أولاً الاعتناء بصحته ليتقي شر الوقوع في الامراض .

وتتم الوقاية باتخاذ الاجراءات التالية :

١ - تحسين الاوضاع المادية للطبقات الفقيرة بحيث تستطيع تأمين الغذاء الصحي الضروري لمعيشتها وذلك عن طريق تحديد الحد الأدنى لأجور العمال .

٢ - وضع شروط خاصة بالبناء السكني بحيث تتوافر فيه الشمس والهواء ؛ وبالابنية العامة التي يكثر فيها انتشار الامراض بواسطة الهواء أو الجوار كالاسواق العامة المغلقة وكدور السينما ، ومراقبة المعامل والمصانع التي قد يشكل انتاجها خطراً على الصحة العامة .

٣ - توفير المياه النقية للقرى والمدن ، إما عن طريق التصفية أو حفر الآبار الارتوازية .

٤ - انشاء شبكة تصريف فنية لجر المياه القذرة الى باطن الارض .

٥ - ردم المستنقعات التي تشكل خطراً أكيداً على صحة الافراد بما تحتويه مياهها الآسنة من جراثيم .

٦ - الاعتناء بالارشاد والتعليم الصحي وذلك عن طريق انشاء

وحدات صحية وارشادية تجوب جميع انحاء الريف ، وعن طريق تزويد التلاميذ خاصة والافراد عامة بالمعلومات الصحية التي تثبت فيهم عادات صحية والتي تنيرهم وتبين لهم طرق الاسعاف البدائي ووسائل الصحة العامة وفوائد التمرينات الرياضية في الهواء الطلق والشمس الساطعة .

٧ — تلقيح الافراد بلقاحات الامراض السارية والمستوطنة في مجتمعنا وعزل المصابين بها في مستشفيات خاصة .

ب ـ الاجراءات العلاجية :

عند تغلب المرض والجرثوم على الفرد ، فانه يتحتم عليه وعلى المجتمع توفير العلاج اللازم كيلا يستمر الفرد في عجزه عن الاسهام الصحيح في مجتمعه .

وبناء على ذلك ، فانه ينبغي على مجتمعنا العربي الاهتمام بما يلي :

١ ـ العمل على الاكثار من الاطباء والمستشفيات :

من المعلوم ان الخدمة الطبية الملائمة يجب أن توفر طبيباً لكل ٥٠٠ فرد وسريراً واحداً في المستشفيات لكل ١٠٠ فرد . ومجتمعنا مقصر عن بلوغ هذه النسب ، إذ لا يوجد في سوريا مثلاً إلا طبيب واحد لكل ٤٠١٩ فرداً وسرير واحد لكل ١٢٦٨ ، وفي مصر يعمل المسؤولون على تخصيص سرير في المستسفيات لكل ٣٠٠ فرد . فعلى مجتمعنا ألا يألو جهداً لبلوغ نسب معقولة عن طريق تخطيط برامج مناسبة توصله الى المستوى المطلوب .

٢ ـ توزيع الخدمة الملاجية توزيماً عادلاً بين المناطق :

يجب أن تؤمن الخدمة الملاجيه في المدن وفي القرى والارياف على السواء ، وذلك بتنظيم المهن الطبية بصورة تؤدي فيها الخدمة الطبيه على غرار خدمة العلم ، فيقضي الطبيب مدة لا تقل عن السنتين في مركز ريفي تحددة له الجهات المختصة ليحق له حينذاك انتخاب مركز عمله .

٣ ـ توزيع الخدمة الملاجية مجاناً للفقراء :

وذلك عن طريق حمل الاطباء عامة على تخصيص يوم يعالج فيه الفقراء مجاناً وفتح باب المشافي والمصحات والمستشفيات لمعالجة الفقراء المرضى على نفقة الدولة . هذا وقد لجأت بعض الدول الاجنبية الى تأميم الطب ، وقد نجحت هذه الخطة في كثير منها ، فيمكن الاسترشاد بذلك لتحويره بما يلائم مجتمعنا العربي ، ثم لتطبيقه .

٤ ـ انشاء دور للولادة وأخرى للمصابين بالعاهات الجسدية والامراض المستعصية وثالثة للشذوذ العقلي .

٥ ـ انشاء مراكز كافية للاسعاف السريع بحيث يختص مركز لكل ٥٠٠٠ فرد ويمنح في هذه المراكز العلاج الطبي السريع لمن يحتاج اليه الى أن يتسنى للمسعف مراجعة الطبيب المختص :

وبهذه الاجراءات من وقائية وعلاجية يمكن رفع المستوى الصحي في مجتمعنا العربي بصورة يتمتع معها المواطنون بالصحة المناسبة كي يكونوا أعضاء منتجين نافعين .

الخـــلاصة:

درسنا في هذا الفصل الخدمات الصحية في الوطن العربي ومـدى كفايتها لحاجات السكان وعرضنا الامراض المستعصية المستوطنة فيه ، وانتقلنا الى محاولة ايجاد اسباب تفشي المرض في الوطن العربي وبحثنا في مختلف العوامل التي تؤدي الى ذلك ثم حاولنا ان نجد طرق الاصلاح الصحي من وقائية وعلاجية .



الفصل الرابع

الاوضاع السياسية

ادركت حركة تفتح الوعي العربي أن انطلاق الطاقة العربية وتحقيقها لمثلها مرتبطان أشد الارتباط ، بوصول الامة العربية الى وضع سياسي سليم يساهم في دفع عجلة التقدم ويكافح اعداء العرب من استعمار وفقر وجهل ومرض ، ويرعى المصلحة العامة وينمي مواهب الافراد وامكانياتهم في جو من الحرية والتعاون والتفاهم .

ومن الملاحظ ان الحال السياسية للعرب لم تصل بعد الى مستوى الآمال المعلقة عليها ، فهي وليدة المؤامرات الاستعمارية العثمانية والاوروبية ، تتلاعب بها من جهة الايادي الخفية والظاهرة للمستعمرين والانانيين بينما تصرخ جماهير الشعب العربي في وجهها مطالبة اياها بأن تكون عوناً لها لا عليها .

وإن أهم ملامح الاوضاع السياسية العربية المعاصرة هي :

أولاً ـ وجود النفوذ الاستعماري :

سيطرة المستعمرون الفرنسيون والايطاليون والبريطانيون على شمالي افريقيا خلال القرن التاسع عشر وفي اوائل القرن العشرين وورث

الانكليز والفرنسيون الهيمنة العثمانية على العراق والاردن وفلسطين وسوريا ولبنان ، وكان الانكليز قد استعمروا عدن وعقدوا معاهدات الحماية مع مشايخ امارات الجزيرة العربية بعد استعمارهم لها في أواخر القرن التاسع عشر .

واليوم نجد عدداً من البلدان العربية تتمتع باستقلال نالته بتضحياتها وثوراتها كسورية ولبنان ومصر والعراق والاردن وتونس والمملكة المغربية وليبيا واليمن ، والسودان والكويت أخيراً ، أما المملكة العربية السعودية فقد قامت مستقلة منذ نشوئها ، ومن يتعمق في دراسة أوضاع هذه البلدان المستقلة يدرك ان الاستعمار لم يخلفها وراءه نهائياً ، واذا كانت قد غادرتها جيوشه الصريحة فقد ابقى فيها جيوشاً خفية من العملاء ذوي النفوذ الكبيرة ، يمدهم بشتى أنواع المعونات المادية والدعم المعنوي لينفذوا أغراضه ويبقوا اقطارهم تحت سيادته العملية والخفية وليتآمروا عليها اذا حاولت كسر الطوق الاستعماري كسراً تاماً .

وتتعاون السيطرة السياسية للاستعمار في هذا المجال مع السيطرة الاقتصادية والثقافية ، ولا تكاد تمر سنة لا نسمع فيها عن ثبوت اتفاق بين بعض الحكام والفئات السياسية وبين المستعمرين .

وثمة اقطار عربية لم تنل حتى الاستقلال الظاهري ، ومنها المحميات ومستعمرة عدن والجزائر وفلسطين التي سلمها الاستعمار الانكليزي وحلفاؤه للصهيونيين، كما توجد أجزاء من الوطن العربي اقتطعتها بمساعدة المستعمرين ، دول مجاورة لنا كلواء الاسكندرون ومنطقة كيليكيا ، ومنطقة عربستان .

ومن هذا التصوير السريع لسلطان الاستعمار على وطننا ندرك ثقل الكابوس الذي نرزح تحته ، وحين نتذكر أن القوى الاستعمارية متكاتفة

مع بعضها في سبيل تدعيم سيطرتها علينا نعلم مقدار البطولة الفائقة التي تحصن بها هذا الشعب لتنفجر في الثورات ولتناضل في سبيل التخلص من العبء الاستعماري الثقيل .

آ - الثروات الطبيعية :

وهي تعتبر المادة الخام للصناعة ، وقد ازدادت أهمية البترول بشكل خاص منذ الحرب العالمية الاولى وأصبح يعد الثروة الاولى التي يتكالب الاستعمار على سرقتها .

وإن غنى الوطن العربي بالبترول دم الصناعة الحديثة والمواد الخام المعدنية كالحديد والفوسفات يجعله عرضة لاندفاع المستعمرين نحوه ، فهنالك اقطار عربية يفرض عليها الاستعمار سلطانه لوجود البترول فيها كالعراق والكويت والبحرين وقطر وعمان والسعودية وليبيا والجزائر الخ ...

وأقطار أخرى يأمل في أن يستخرج البترول منها أو أي معدن هام آخر أو يخشى اذا هي تحررت تحرراً تاماً أن تصبح عامل إثارة لابناء الاقطار البترولية ، فتشجعهم على تحطيم قيود المستعمرين ، ونبذ تحكمهم ، ونحن لن نصدق أبداً ما يروجه المستعمرون من أنهم لم يعودوا يكترثون كثيراً ببترولنا بعد اكتشاف منابع بترولية جديدة وبعد ظهور الطاقة النووية إذ أن التكالب على البترول العربي ما زال قائماً وحاداً يتجلى في تمسك فرنسا بالصحراء الجزائرية وفي تهديدات بريطانيا المستمرة ، للمحافظة على مصالحها البترولية في العراق والكويت .

ولم تقدم المنابع البترولية الجديدة ما يوفر حاجة الصناعة الاوروبية والحياة اليومية الاوربية الى البترول ، كما أن الطاقة النووية لم تصل بعد

الى درجة تستطيع معها أن تستعمل في الاغراض العمايـــة على نطاق واسع .

فما تظاهر الاستعمار باللامبالاة إلا وسيلة للتنكر واخفاء نواياه .

ب ـ تأمين مواصلات المستعمرين في السلم والحرب :

فوطننا يحتل الجناح الجنوبي والشرقي من البحر الابيض المتوسط ، وهو بحر ذو قيمة اقتصادية وعسكرية كبيرة ، خاصة لوجود قناة السويس فيه التي تربط الاسواق الافريقية والاسيوية بالمصانع الاوروبية ، بل إن مفتاح هذا البحر الغربي عند مضيق جبل طارق، في يد العرب ، كما ان وطنهم يمتد كواجهة خلفية لمضيق الدردنيل والبحر الاسود الذي لا تفصلهم عنه إلا تركيا ، ويفصل بين الكتلة الغربية والشرقية .

وللخليج والجنوب العربيين أهمية بالغة في تأمين المواصلات للاسواق الهندية والاسيوية ، وتعتبر الاجواء العربية مركز اتصال بين الشرق الاقصى وأوروبا وافريقيا .

وتزداد هذه الاهمية في ايام الحروب ، فالارض العربية الواسعة ذات التضاريس العالية المحدودة تتيح للجيـوش حـرية التحرك ، كما أن إنشاء القواعد العسكرية يتم على مقربة من طرق المواصلات الهـامة ومن النقاط الفاصلة بين المتحاربين ، والوطن العربي عقدة هامة لطرق المواصلات في السلم والحرب لا تستطيع أي من الكتلتين الاستغناء عنها عند وضعها لمخططاتها الدفاعية .

وما حلف بغداد ، وما دعم المستعمرين للصهيونيين الذي أدى الى قيام دولة العصابات في فلسطين إلا تعبير عن رغبة المستعمرين في ايجاد

قواعد ثابتة ودائمة لهم في هذا الوطن ، تساعدهم في الحروب كمخزن للاسلحة ومركز للتعبئة والانطلاق البري والبحري والجوي ، ولم يتغير الوضع الدولي تغيراً تاماً من هذه الناحية خلال السنوات الاخيرة ، بل نستطيع القول بأن الوطن العربي قد ازدادت أهميته الستراتيجية بعد الحرب العالمية الثانية ، إذ لم يعد الصراع بين دول المحور والحلفاء كما كان الامر سابقاً ، بل بين الكتلتين الشرقية والغربية ، واحدى هاتين الكتلتين يكاد الوطن العربي يلامسها ، فعلينا أن نتوقع بقاء التكالب الاستعماري علينا من هذه الناحية للمحافظة على مصالحه .

جـ - ايجاد مستوطنات جديدة للفائض من سكان اوروبا :

على اثر ازدياد السكان في اوربا في القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر ، اخذ المستعمرون يفكرون في ايجاد مناطق خارجة عن اوطانهم تؤوي عدداً من الفائضين عما تستوعبه مساحة دولهم ، وقد كان الوطن العربي من بين المناطق التي وقع عليها اختيار المخططين الاستعماريين لسكنى المهاجرين الاوروبيين ، فهو بقعة غنية وقريبة من اوروبا كما انه في حالة ضعف تشجع الطامعين فيه ، وهكذا تعرض الوطن العربي بعد استعماره الى هجرة جماعية ، فقد سكن ما يزيد على المليونين من الاجانب في افريقية العربية منهم اكثر من مليون في الجزائر وحدها .

كما أن الهجرة الصهيونية الى فلسطين والتي جاءت باعداد كبيرة من الاوروبيين اليهود إليها ، ساهمت في تخفيف ازدحام السكان في اوروبا ، وقد شجعها الاستعمار لهذا السبب ولاسباب عديدة أخرى .

وقد ذكرنا سابقاً أن هؤلاء المهاجرين لا يحـلون مشكلة تكاثف السكان في بلادهم الاصلية وحسب ، وانما يجلبون إليها منافع اقتصادية كبيرة عن طريق ا ستغلالهم لثروات وطننا الطبيعية والبشرية ويمكنون للنفوذ الاستعماري في بلادنا ، فهم عملاء طبيعيون للاستعمار .

د ـ ابقاء الوطن العربي سوقاً لبضائع الدول الاستعمارية:

فبلادنا يسكنها ٨٦ مليوناً من العرب ، ومثل هذا العدد الضخم ، يغري اصحاب الشركات الاستعمارية بابقائه سوقاً كبيرة لبضائعها ، والسوق العربية سوق مربحة ، لعظمها من ناحية ولضعف تطورها الاقتصادي من ناحية أخرى ، واذا خسر الاستعماريون ما يدفعه العرب من أموال في كل سنة ثمناً لمشترياتهم تكون قد ألمت بهم مصيبة كبرى . ولا يستطيع الاستعمار أن يعتمد على الترويج لبضائعه بالدعاية والجودة ورخص الأسعار بل هو يستهدف الربح الفاحش ويرغب في فرض سلعه علينا ولو كانت أغلى ثمناً وأقل جودة من سواها ، ولا يحقق الاستعمار هذا الهدف الا بابقاء سلطانه السياسي والعسكري علينا ، وان له أملاً سخيفاً في أن تستطيع (اسرائيل) أن تصبح وكيلته التجارية في قلب وطننا يوزع منها بضائعه ؛ وما إقدام المعامل الاوروبية على افتتاح فروع لها في فلسطين المحتلة الا تعبيراً عن هذا الأمل الذي يسمون الى تحقيقه عن طريق الضغط على العرب لانهاء مقاطعتهم للصهيونيين ولاجبارهم على عقد الصلح مع دولة العصابات .

وقد طاش صواب المستعمرين حين اتجهت بعض الاقطار العربية كسورية ومصر وقبل العدوان الثلاثي على مصر وبعده الى المتاجرة مع الكتلة الشرقية ، ولم يكن قلق الاستعمار ناجماً عن خوفه من انتشار الشيوعية في بلادنا كما يدعي وانما خشي ان نعتاد التعامل بحرية مع

من زي المصلحة في التعامل معهم ، وتغيير خط تجارتنا كلما اقتضت حاجاتنا الاقتصادية ذلك ، ونحن على كل حال لا نرضى وصايته علينا ولا نقبل ان يصبح هو الحامي لنا ضد الشيوعية أو سواها ، فالامم هي التي تحمي نفسها .

ثانياً ـ التجزئة:

لا شيء ادعى الى الالم من مشاهدة الوطن العربي على المصور السياسي ، إذ يصدم الناظر بوجود دويلات عربية متعددة مع انها خلقت جميعاً لتكون دولة واحدة . وقد عرف تاريخ الأمم أمثال تجزئتنا وأشد منها ، فقد كانت المانيا حتى مطلع القرن التاسع عشر مؤلفة من مئات الدول وعرفت ايطاليا مدة طويلة تعدد الدول فيها قبل ان تتوحد في النصف الثاني للقرن التاسع عشر : ولكننا اذا استعرضنا الامم المعاصرة نجد ان اكثرها قد توحد ، واذا كانت التجزئة باقية في بعضها فهي لا تصل الى الشكل الذي اخذته التجزئة العربية . فألمانيا منقسمة الى شطرين فقط وكذلك كوريا وفيتنام ، وقد وضعنا هذه الصورة المؤلمة أمام القارىء لأن قضية الوحدة اذا لم تصبح شغلنا الشاغل وتملأ ليلنا ونهارنا فان طريقها عندئذ سيكون طويلاً ، أما اذا حثثنا الهمم ووجهنا الطاقات نحوها فالصاعب تزول أمام قوى شعبنا ولا ننسى ان تلك المصاعب على خطرها سطحية ومصطنعة .

ومما ساعد على تجزئة الوطن العربي سياسياً وأطال عمرها الاسباب التالية :

آ ـ الاستعمار :

وهو عدو وحدتنا اللدود ، فهو يدرك تماماً الا بقاء لمصالحه

ونفوذه في وطننا عنـــدما نعمل كقوة سياسية متحدة ، وهو لا يرضى ابداً أن يصبح مضيق جبل طاوق وقناة السويس مضيق باب المندب وخليج العقبة والخليج والساحل العربيين تحت إمرة دولة واحـــدة ، تستمد من الطاقة العربية بأجمعها قوتها فتكسر ظهر اعدائها وتقضي على استغلالهم وسيطرتهم ، ولا تقبل بالانجراف لاغراضهم في الحروب التي يخوضونها في سبيل أطماعهم .

وقد أوهن العرب من عزيمة الاستعمار وهم مجزئون ، فماذا تكون عليه الحال اذا هم اتحدوا وزالت من بينهم الحدود التي أوجدها هو ، واجتمع شبابهم في جيش واحد لجب كالبحر الزاخر وامتدت اياديهم لبعضهم متعاونة في الاقتصاد والثقافة وسائر الميادين ؟

ان الاستعمار يعتقد أن وجوده على أرضنا رهن ببقاء التجزئة ، وهو يرى أن الدول العربية اذا بقيت مجزأة لا تخيفه كثيراً ولو استقلت بمقدار ما تخيفه الدولة العربية الكبرى . ولذلك يسعى الاستعمار دائماً الى محاربة كل اتجاه جدي نحو الوحدة أو الاتحاد ، وينفق في سبيل ذلك الاموال ويقيم الحكومات ويسقطها ويدعم الصهيونية والعملاء ، وحين يضطر تحت ضغط ثورية الشعب العربي الى التظاهر بمسايرة ميلهم نحو الوحدة ، يبذل جهده لتقوم اتحادات زائفة معادية للشعب تحت سيطرته كما فعل حين ارهب سورية المنادية بالوحدة العربية عن طريق الترويج لمشروع سورية الكبرى تحت لواء اجرائه ، أو لاتحاد العراق مع سورية تحت حكم نوري السعيد وأمثاله ، أو حين أقام الاتحاد الهاشمي بين دولتي العراق والاردن أو كما فعل في بعض امارات الجنوب العربي .

وأول ما يستهدف الاستعمار عند الترويج لامثال هذه المشاريع

والسماح بتحقيقها أحياناً أن يشوه وجه الوحدة العربية الحقيقية وينفر الناس منها كما يريد ان يحمل كل إتحاد يقوم بين العرب بذور انشقاقه حتى يتمكن من انهائه بعد ذهاب حاجة الاستعمار اليه .

وقد عمل الاستعمار جاهداً في سبيل إيجاد حركات اقليمية بين العرب تنادي بالوطن الصغير أمة قائمة بذاتها .

ب ـ الحركات الاقليمية :

وهي تيارات فكرية وسياسية ، أنجبها الاستعمار وكلفها بمهمة رئيسية هي إظهار بعض الاقطار أو بعض مجموعات الاقطار على أنها أمم قائمة بذاتها ، تستقل بقوميتها عن القومية العربية .

ومن هذه الحركات الدعوة الفينيقية (١) في لبنان التي نادت بأن هذا القطر العربي قائم بذاته ومنتسب الى حضارة خاصة هي الحضارة الفينيقية ولذلك لا يرتبط لبنان مع العرب بغير رابطة الجوار ، أما اللغة فلا يقيم الداعون للفينيقية لها وزناً . واذا كانت هذه الحركة كغيرها من التيارات الاقليمية مفلسة فكرياً . فان اموال الاستعمار وشراءه لذوي الضمائر المنحرفة ، أبقيا لها أصداء سياسية حتى اليوم تشوه وجه لبنان العربي الاصيل .

والقومية السورية التي تبناها الحزب القومي الاجتماعي من أبرز الحركات الاقليمية التي عرفها الوطن العربي ، وقد أدعت ان الامة عندها تقوم على الأرض ، الارض السورية الواحدة المتميزة عن بقية الوطن العربي ، تضم سورية ولبنان وفلسطين والاردن ، ثمّ اضاف اليها قبرص

(١) هذا العالم العربي ـ لبيه امين فارس .

والعراق واخيراً لا آخراً الكويت !!!

وان صلات اتباع هذه الفكرة بالاستعمار معروفة ، فقد غذت ايطاليا حزبهم أول الامر ، لانها كانت تحلم في عهد موسوليني باقامة امبراطورية لحوض البحر الابيض المتوسط ، ثم اتجهوا نحو المانيا النازية ، فهي أقوى واغنى من الايطاليين وبعد انكسارها رسى المزاد على البريطانيين ، وبقية دول الاستعمار الغربي ، وما ضموا العراق والكويت وقبرص للوطن السوري المزعوم الا تعبيراً عن مصالح الاستعمار البترولية والعسكرية .

وقد انكرت جماهير الشعب العربي هذه الحركة ، فالارض السورية كما يثبت العلم جزء لا يتجزأ من الأرض العربية بسائر تضاريسها وصفاتها الطبيعية ، كما أن القومية العربية تقوم على أساس اللغة والتاريخ العربي الواحد ووحدة المصير والمصالح . ولم تزل هذه الحركة على قيد الحياة في بعض الاقطار عملياً وان لم تستطع ان تجذب اليها الناس فكرياً واجتماعياً ، ويستعملها الاستعمار اليوم لتنفيذ بعض المؤامرات .

وشجّع المستعمرون ظهور الدعوة الاقليمية في مصر ، القائمة على الاعتزاز بالحضارة الفرعونية واعتبارها حضارة غير عربية والنظر الى أبناء مصر على أنهم امتداد لها لا للحضارة العربية . وقد نشطت هذه الحركة على أثر الاحتلال الانكليزي وكانت تجد في ضخامة آثار الفراعنة وعظمتها وسعة ارض مصر وكثرة سكانها وانعزالها بتأثير الاستعمار سياسياً عن بقية الاقطار العربية ، ادلةً وبراهين لدعم دعواها الزائفة (١) غير أن العرب في خارج مصر استنكروا هذه الدعوة فهم لا يرون في مصر

---

(١) نفس المصدر السابق .

الا قطراً عربياً فصله الاستعمار عن بقية أجزاء الوطن واستنكرها الشعب العربي في مصر فلم تلق رواجاً بين طبقات الشعب الاصيلة ، وان استطاع الاستعمار أن يشترى لها حينذاك انصاراً بين ابناء العائلات المتنفذة المسيطرة والتي رأت في بقاء التجزئة خدمة لأغراضها ، وقد أخذ الوعي القومي العربي في مصر ينتشر ويعمق وغدا قميناً بالقضاء على الدعوة الفرعونية ان لم يكن قد قضى عليها نهائياً .

وحاول المستعمرون في افريقية العربية أن يوغر صدر البربر ويوهمهم بأنهم ليسوا عرباً (١) لا من حيث الأصل ولا من حيث الحضارة ، وسعى ليفرق بينهم وبين المواطنين العرب : فأعطاهم بعض الامتيازات وغذى زعامات أنانية مصطنعة تعمل بوحي منه وأقدم على نشر اللغة الفرنسية بينهم ، ولكن هذه الدعوة الاستعمارية الاقليمية التي بنى عليها المستعمرون الفرنسيون الآمال العريضة لم تستطع ان تصمد امام وعي الشعب العربي لوحدته القومية .

وللاقليمية وللقضاء عليها نهائياً حديث نستأنفه حين الكلام على اهداف القومية العربية في بحث مُقبل ، وهي على كل حال اذا ارتبطت بالاستعمار فقد غذتها ايضاً المصالح العائلية والفردية الضيقة .

جـ ـ المصالح العائلية والفردية :

كما أخرت سيطرة بعض العائلات على عدد من الامارات الالمانية قيام الوحدة الالمانية ، فكذلك يعاني العرب اليوم من وجود بعض الاسر

(١) راجع بحث اصل السكان .

التي لا تنظر الى الامور الا من خلال مصلحتها ولا تقيسها الا بمقياس منفعتها الخاصة وزيادة نفوذها وثروتها ، فوجود العائلات المالكة في بعض الاقطار العربية يساعد على ابقاء التجزئة ، إذ أن الاسرة الحاكمة لا ترضى اوعودتنا الا ترضى عن العرش بديلاً ، ومن دواعي السخرية ، أن نجد عائلات تحكم دويلات صغيرة ومحدودة السكان والموارد ومع ذلك تنادي بأن دويلاتها ذات كيان خاص وان الوحدة العربية ليست قادرة على تمثلها في وقت قريب .

وقد فضلت العائلات المالكة حتى اليوم ان تلجأ للاستعمار حماية لعروشها وتضخيماً لثرواتها على أن تتجاوب مع آمال شعبها في التوحد ، وحين تفكر احداها بالوحدة العربية فانما تتصورها زيادة لرقعة الارض الخاضعة لها واكثاراً لعدد رعاياها ، وقد ذهب الوقت الذي تستطيع عائلة مالكة فيه أن تحيط نفسها بهالة قدسية تجعل الشعب العربي يسبح بحمدها والثناء عليها وتلبية أوامرها ، ومع ذلك فقد تنافست هذه الاسر الحاكمة وما زالت تتنافس على حكم شعب لا يرضاها جميعاً ولو تركت له حرية الاختيار . فقد اشتعلت نيران الحرب بين السعوديين والهاشميين بعد الحرب العالمية الاولى ، كما كانت مشتعلة بين السعوديين وآل رشيد قبل تلك الحرب ، ثم نشبت المعارك بين امام اليمن والادريسي حاكم عسير ، ثم بين امام اليمن والسعوديين ، كما اشتعلت الحرب الباردة بين السعوديين من ناحية وبين الهاشميين حكام الاردن والعراق من ناحية ثانية قبل قيام الثورة العراقية .

واننا نلاحظ أن بقاء بعض الاقطار العربية منفصلة عن سواها عائد الى وجود عائلة مالكة تريد المحافظة على سلطانها .

والى جانب المصالح العائلية الضيقة تقوم الاغراض الفردية بدور

كبير في تثبيت التجزئة ، فغرور كثير من الزعماء والحكام وكبرياؤهم وظنهم أن أكبر ما حققه الله لاقطارهم من فوز هو ايصالهم الى سدة الحكم يمنعهم من النظر الى الامور على مستوى الآمال العربية .

ويرتبط ببقاء الحاكم الأناني عادة بقاء حاشيته والمنتفعين من المناصب التي يرفعهم اليها والخيرات التي يغدقها عليهم .

وللفردية الاقتصادية ايضاً أثر فعال ، فبعض ارباب المصالح الاقتصادية يخشون أن تؤدي الوحدة الى التقليل من أرباحهم أو انقاص ثرواتهم لسماعهم بوجود منافسين لهم في الاقطار العربية الأخرى ، ولرغبتهم في التفرد بأسواق قطرهم واحتكاره لأنفسهم .

والوحدة العربية تقضي علينا أن نكيف أنفسنا تبعاً لها ، لا ان نكيفها حسب مصالحنا الشخصية فهي ليست صولجاناً في يد ملك ولا كرسياً لحاكم ولا كيساً من المال لثري ، وانما هي لأجل العرب جميعاً وأملهم المشترك .

د ـ الطائفية :

ولا نعني بها تمسك المواطن بدينه ، واقامة شعائره ، والحفاظ على تعاليمه ، بل نعني بها التعصب وانكماش اتباع كل مذهب على انفسهم ، والنظر الى شؤون الوطن من خلال المصلحة الضيقة لقوقعتهم ، ولا شك ان الاستعمار العثماني بذل جهوداً كبيرة لبث الطائفية بين صفوفنا نحن الذين لم نعرفها في تاريخنا الحر ابداً . وقد سار الاستعمار الاوروبي على نهجه ، فحاول ان يبعد أبناء الوطن الواحد ، أبناء الأمة الواحدة ، عن التعاون بنشر الحذر بين المذاهب الدينية ، واقامة الحواجز وإيغار

صدور المواطنين على بعضهم ، وقد أثر الاستعمار عن هذا الطريق بأن أعاق وحدة الصف الوطني في بعض الاقطار ، واشغلها بالخلافات الطائفية المفتعلة ، ليصرفها عن قضايا العرب الحقيقية ، ولكن وعي الشعب العربي لوحدته القومية استطاع أن يلقم الاستعمار حجراً حتى في أحلك أيام نفوذه علينا واضطهاده لنا . وليس هذا غريباً على شعبنا الذي هب ابناؤه منذ الازمنة القديمة صفاً واحداً على اختلاف اديانهم لمكافحة الاعداء ، وايام الوثبة العربية في القرون الاولى للهجرة وكفاحنا ضد الصليبين المستعمرين وضد الاستعمار العثماني والاوروبي شواهد كافية على وحدة الشعب العربي وعدم اقامته وزناً للتفرقة الطائفية . ولا شك أن اختلاف نظم الحكم ايضاً وتمسك اتباعها بانظمتهم ساعد على وجود التجزئة ودوامها .

ثالثاً ـ اختلاف نظم الحكم :

عرفت الاقطار العربية اشكالاً شتى من الحكم ، ايد الاستعمار استمرار اكثرها وان هو سمح بتغييرها احياناً ، فقد يكون السبب اما رغبته في تغيير وجه الحكام أمام الشعب ليسهل عليه خداعه من جديد أو مكرهاً عندما تقوم ثورات شعبية يجد نفسه مجبراً على قبولها انتظاراً لوقت مناسب يمكنه فيه من القضاء عليها على أن يحاصرها ريثما ينتهي منها اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً .

ومن اشكال الحكم الموجودة في الوطن العربي حتى اليوم حكومات ملكية دستورية كشرقي الاردن وليبيا أو هذا ما دون في سجلاتها الرسمية على الأقل ، وحكومات عربية ملكية من غير

دستور ولو ظاهرياً (١) كالمملكة العربية السعودية والمغرب العربي . ولو أن ملك السعودية يعتبر دستوره القرآن الكريم والمبادىء الوهابية ، كما كان يعتبر الحكم الامامي الزيدي دستوره القرآن والمبادىء الزيدية في اليمن قبل قيام الثورة التي أطاحت بحكم الامام البدر عام ١٩٦٢ وانتهجت سبيلاً تقدمياً رئاسياً على المنهج المصري .

وهنالك امارات ومشيخات وراثية في الجنوب والخليج العربيين لا تعمل وفق دستور صريح وان كانت التقاليد ورغبات الحكام وقرارات المندوبين الساميين هي التي تحدد اساليب الحكم ، وقد عمدت بريطانيا الى محاولة تجميع لبعض هذه الامارات المحميات تحت ستار الدعوة الى الاتحاد ومنحه استقلالاً ظاهرياً لتشديد قبضتها على المنطقة التي بدأت تستيقظ على واقعها المؤلم الممزق وتطالب بالتحرر والاستقلال .

أما عُمان فهي امارة ينتخب امامها انتخاباً وفق تقاليد الخوارج (٢) الاباضية . وما تزال الثورة تستعر فيها ضد المستعمر في الجبل الاخضر منذ اعوام . أما الكويت فقد اصبحت امارة ذات دستور منذ عام ١٩٦٢ وانتخب فيها مجلس نيابي من ثلاثين عضواً تطبيقاً للدستور ، وان كان نفوذ العائلة الحاكمة ما يزال اقوى من الدستور المكتوب .

---

(١) من هذا العالم العربي — لنبيه أمين فارس .

(٢) الخوارج : هم الخارجين على علي بن ابي طالب بعد وقعة صفين وتنازله لمعاوية عن الخلافة .

أما السودان فقد علقت فيه الحياة الدستورية البرلمانية بعد انقلاب الفريق عبود عام ١٩٥٨ ، وحكم من قبل العسكريين ، الا ان هذا القطر على الرغم من انه ليس ملكياً الا انه لم يعرف بعد رئيساً للجمهورية . ثم قامت الاحزاب عام ١٩٦٤ بعد اعلان ميثاق وطني بانتفاضة على الحكم العسكري فحاصرته حتى استسلم بعد ان قضى مئات الضحايا لتخرج حكومة احزاب ما تزال تتنازعها العائلية والطائفية وشتى المذاهب السياسية التي يغذيها الاستعمار ، اذ أن الاستعمار لم ينفض يده بعد بصورة نهائية من السودان، وما اثارة موضوع الجنوب السوداني الا حلقة في سلسلة الضغط الاستعماري على الحكم الجديد في السودان .

وفي العراق قامت ثورة تموز عام ١٩٥٨ فألغت الدستور الملكي وسنت في حينه دستوراً مؤقتاً قام بمهام رئيس الجمهورية فيه مجلس للسيادة وتحول نموذج الحكم الجديد الى حكم عسكري طغياني بزعامة عبد الكريم قاسم فحاكم من حاكم صوريا وقتل من قتل ، الا ان كفاح الشعب قد اسقط حكم الطغاة في ثورة رمضان الاشتراكية الوحدوية عام ١٩٦٣

وأما سورية فقد عرفت الجمهوريات الدستورية منذ عهد طويل ، منها الجمهوريات النيابية والرئاسية الا انها جميعاً كانت جمهوريات تعتمد على حكم الطبقة المستغلة للشعب عن طريق الاقطاع والرأسمالية ، كما كانت خلال الانقلابات المتعددة والتي هي مظهر من مظاهر عدم الاستقرار السياسي الذي كان يدعمه الاستعمار والنفوذ العربي والاجنبي ، كانت

تحكم مـــدة من الزمن بدون دستور ، الى ان قامت ثورة الثامن من آذار عام ١٩٦٣ فأعطت الحكم ايديولوجية القيادة الجماعيـــة والتنظيم الشعبي المستند الى مبادىء عقـــائدية تهدف الى تحقيق الوحـدة والحرية والاشتراكية في ارجاء الوطن العربي . ذو دستور مؤقت هو قيـــد الاعداد للنهائي .

وجمهورية لبنان دستورية نيابية تعتمد على التوازن الطائفي ، وكما هي العادة تبقى السلطة التنفيذية فيها أقوى من كل برلمان .

أما مصر فقد حكمت منذ الثورة عام ١٩٥٢ التي اطـاحت بالحكم الملكي بدستور مؤقت تلاه آخر بنظـام جمهوري رئاسي حتى ايام وحدة سورية ومصر ، اذ عـــدل الدستور ليضم القطرين ولكن بقيت الخطوط العامة فيه هي نفس الخطوط في الدستور المصري قبل الوحدة مع تعديلات اقتضاها الوضع الجديد، ثم بعد جريمة الانفصال طرح الميثاق الوطني واعلن عنه في الجلسة الافتتاحية للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية في ٢١ ايار عام ١٩٦٢ واضحى بمثابة الدستور الذي يحكم به القطر المصري حالياً وبموجبه قام الاتحاد الاشتراكي العربي الذى يضم مختلف القوى الشعبية في القطر المصري على اساس الحزب الواحد . .

وتحكم تونس التي اصبحت جمهورية رئاسية بعـد اقصاء (الباي) منذ عام ٩٥٧ بدستور يعين طريقـــة الحكم فيها ، ويلعب الحزب الحاكم دوراً كبيراً في سياسة الدولة وهو حزب ذى نهج اشتراكي .

والجزائر منذ ان قامت الثورة فيها عام ١٩٥٤ ضد الاستعمار الفرنسي حكمت عن طريقين ، اولهما السيطرة الفرنسية المباشرة الـــتي كانت تتمثل بالحكام والقادة العسكريين ، الفرنسيين ، وثانيها حكم جبهة التحرير الوطنية

الجزائرية التي انبثق عنها المجلس الوطني ، الجزائري ، وممثلته في حينه الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ، ولكن بعد ان وصلت الثورة الى النصر وفي اعقاب المفاوضات التي جرت في مدينة ايفيان السويسرية أعلن استقلال الجزائر نهائياً عن فرنسا ، وقامت الجمهورية الجزائرية الشعبية والديموقراطية عام ١٩٦٢ ووضع المجلس الوطني الجزائري وجبهة التحرير الجزائرية الممثلة بمكتبها السياسى الدستور الحالي الذي يحكم بموجبه القطر الجزائري على اساس الحزب الواحد .

أما موريتانيا فقد فصلت عن المغرب العربي بارادة استعمارية ولم يحدد نظام الحكم فيها بشكل واضح على الرغم من ان اثار العائلية والقبلية هما الوجه البارز لنظام الحكم فيها ، ورغم ادعاء المغرب ان موريتانيا قسم من اراضيه .

ويطيب لنا بهذه المناسبة ان نتذكر حالنا في الماضى لنري اثره في هذا الواقع السيء ولننشد مع « دعبل الخزاعي » ابياته المشهورة :

تراثٌ بلا قربى وملكٌ بلا هدى
وحكمٌ بلا شورى بغير هُداة

رزايا أرتنا خضرة الافق حمرة
وردّت أجاجاً طعم ماء فُرات

وما سهلت تلك المذاهب فيهم
على الناس الا بيعة الفلتات

وهكذا يطالعنا الوضع السياسي العربي بانظمة متباعدة منها الديني ومنها الجمهوري والملكي والعسكري . . .

وأما الاسباب التي أدت الى هذا الاختلاف فأهمها الاسباب التالية :

آ ـ الاستعمار :

فهو الذي يتقدم صفوف اعدائنا ، ويهمه جداً أن توجد حكومات مختلفة الاسس لكي تتنابذ ، ويخشى جمهور كل منها واتباعه والمؤمنون بطريقته أن يقضى على شيء عزيز لديهم اذا تحققت الوحدة ، فهو يتدخل الى حد بعيد في إقامة الحكومات واسقاطها ، ومنع تطويرها ، أو السعي الى تطويرها بخطوات متفاوتة حتى لا يلتقي العرب في صف سياسي واحد .

وليس غريباً عليه أن يؤيد في وقت واحد عائلات مالكة متنازعة وأن ينشىء عروشاً جديدة يرفع اليها اشخاصاً لم تكن لهم من قبل صفة الحكام ، وليس غريباً عليه أن يؤيد حكومة جمهورية وملكية في آن واحد ، دستورية وغير دستورية ليبقي التضارب بين الحكومات العربية وأهدافها وليعيق سير الوحدة .

ب ـ العائلات المالكة والحكام :

وأهواء الملوك والحكام ليس لها أثر في التجزئة فقط بل في اختلاف أنظمة الحكم ، إذ أن الملك متمسك بعرشه ، لا يبيعه برضى الشعب ومحبته ، وسائر أنواع الحكام يعملون وكأن انظمتهم خالدة ويأبون التساهل في أمرها .

جـ ـ التطور المجزأ :

منذ أن فكك المستعمرون وطننا دأبوا على عزل تطور كل قطر

عن تطور الاقطار الأخري ، وإن الحركة الاجتماعية والسياسية اذا سارت في كل دولة على حدة أعاقت قيام الوحدة العربية ، وتؤيد الملاحظة البسيطة وجود هذا التطور القائم على اساس التجزئة ، فثمة أقطار عربية لم تزل في وضع عشائري أقرب الى البداوة ، وأقطار أخرى بدأت تنال قسطاً أوفر من التفتح والوعي ، لقد اصبح المستحيل على بعض الاقطار أن تقبل ولو الى حين حكماً ملكياً ، بينما ما زالت أقطار أخرى تتحمل تحت الحكم الملكي ، وإن لم تثر عليه ثورة جارفة .

ويسعى الاستعمار جاهداً الى عزل الاقطار العربية عن بعضها في التطور لا من الناحية السياسية فحسب بل من النواحي الاخرى كالاقتصاد والثقافة والعلاقات الاجتماعيه . ونعتقد ان هذا العامل خطير جداً من واجبنا المبادرة الى ايقافه عن طريق وحدة النضال العربي والعمل العربي . واذا كان شعبنا متصلاً ببعضه دائماً غير معترف بالحدود التي اقامها الاستعمار ، فلا شك أن القوانين تزيد في سرعة هذا الانصال ونشاطه او تحد منه .

د ـ المذاهب الدينية والاجتماعية :

كان للمذاهب الدينية أثر في قيام بعض انظمة الحكم العربية ، فتجمعُ اتباع المذهب الزيدي في اليمن حملهم على اتباع النظام الامامي الوراثي ، ووجود الخوارج في عُمان جعل نظام الحكم في هذا القطر امامياً انتخابياً ، كما ان نظام الحكم في المملكة العربية السعودية يستمد شيئاً من قوته من التفاف اتباع المذاهب الوهابي حوله ، وقد بدأت المذاهب الاجتماعية والاقتصادية تدلي بدلوها في تنويع أنظمة الحكم ، فأنصار الاقتصاد الحر ووجود الرأسمال الفردي يفضلون نظاماً للحكم غير الذي يدين

به الاشتراكيون أو الداعون الى الاقتصاد الموجه ، ولعلّ قيمة هذه المذاهب ستزاد يوماً بعد يوم .

ومن الواجب والمأمول الا يبقى لاختلاف المذاهب الدينيـــة أثراً على وحدة العرب أو نظام حكمهم ، كما أن المذاهب الاجتماعية لا تثبت جدارتها للعرب الاّ اذا تسابقت للعمل على تحقيق وحدتهم .

وان اختلاف نظم الحكم اذ يثبت التجزئة فهـو ايضاً يضعف من شأن الدول العربية .

رابعاً ـ ضعف الدول العربية:

لم تصبح الدول العربية على درجة مرموقة من القوة عسكرياً أو دولياً ، واذا كانت اصواتها في الامم المتحدة عديدة فلعل تعددهـــا من عوامل قلة اهميتها إذ لم تستطع ان تحـــول دون قرار تقسيم فلسطين ، واعتراف هيئة الامم بدولة العصابات الصهيونية وضمها اليها ، ولم تستطع أن توقف الاّ مجموعة محدودة من الدول عن تبادل التمثيل السياسي مـــع اعدائها ، كما ان قلة المعترفين بحكومة الجزائر المؤقتة في حينها تعبر بشكل صارخ عن ضعف دولنا .

وإن أكبر الانتصارات التي حققها العرب حتى اليوم قامت على سواعد جماهير الشعب العربي التي كانت تثور لا كحكومات ولا كدول ، وانما كشعب تدفعه قوميته وينظمه حماسه وصفاؤه .

لقد عجزت عدة دول عربية زحفت جيوشها عام ١٩٤٨ الى فلسطين ، عن تحريرها ، كما أن (اسرائيل) دولة العصابات لم تنكمش حتى الآن شبراً واحداً عن الحدود التي وصلت اليها اثر كارثة فلسطين .

ولم تجرؤ الحكومات العربية أن تساعد الجزائر بالجيوش النظامية صراحة رغم وضوح انتصارها وتلبية للواجب القومي ، وهذا دليل آخر على ضعفها الدبلوماسي والحربي ، كما انها لم تتدخل صراحة حتى الآن لانقاذ عُمان وبقية الاجزاء المحمية والمستلبة من ارض الوطن العربي .

وللاستعمار اثر كبير في وجود هذا الضعف ، كما أن قلة الدخل القومي العربي رغم عظم الامكانيات الاقتصادية وسوء توزيع هذا الدخل على الاقطار العربية وعلى الفئات الاجتماعية في القطر الواحد ، أهمية في هذا الميدان ، ولا ننسى دور التجزئة والتنافس بين الحكام ، فنحن كالاصابع المتفرقة لم تتجمع في قبضة واحدة قوية .

ومن المؤسف حقاً الا تستطيع الجامعة العربية التي يفترض انها تمثل ٨٦ مليونا من العرب ، القيام بأي دور حاسم في المجال الدولي وتعجز عن التأثير على الرأي العام العالمي تأثيراً جدياً ودائماً ، ناهيك بعجزها عن التأثير على الحكومات العربية نفسها .

ويساعد عدم الاستقرار على اضعاف الدولة العربية ايضاً .

خامساً ـ عدم الاستقرار السياسي :

الأمة العربية تموج كالبركان ، وتصطخب كالفيضان ، ومن مظاهر اصطخابها قلة استقرار الحكومات وأنظمة الحكم فيها .

فزيادة على الثورات السافرة التي قامت وما زالت تقوم في بقاع الوطن العربي ضد الاستعمار وحكوماته المزيفة ، عرفت كثير من الاقطار العربية ، خلال مدة وجيزة عدة دساتير منها الدائم ومنها المؤقت ، ومرت بانقلابات متعددة ، وحتى اليمن لم تحرم من الانقلابات والمنازعات

الداخلية ، واذا كانت بعض الدول العربية تتمتع باستقرار نسبي فهو ظاهري يخفي تحته كثيراً من المنازعات التي لا يعلن عنها ، ومن محاولات تغيير الحكم التي تفشل ولا يذاع خبرها .

ولا نظن أن أي نظام للحكم يستطيع ان يراهن على بقائه طويلاً في أي قطر عربي .

ومن أهم أسباب ضعف الاستقرار ، التفاوت الكبير الواقع بين آمال الشعب العربي العريضة ورغبته في إقامة حكومات على مستوى هذه الآمال وبين عدم تجاوب الحكومات مع ارادة امتنا ومحاولتها كبح المد الثوري العربي بدلاً من سيرها في طليعته .

وللاستعمار ومؤامراته يد خفية وظاهرة في حمل الحكومات على الانحراف ، فتتناقض مع الشعب ، أو في التخلص منها اذا تناقضت معه .

كما أن اختلاف المذاهب الاجتماعية والاقتصادية يساعد على قلة استقرار الحكومات .

ومن الملاحظ أن القوى الحاكمة من وراء الحكومات العربية ليست غالباً دستورية ، فالعدد الجم من دويلات العرب ما يزال من غير دستور واضح ، كما أن البلدان ذات النظام الدستوري عرفت اشكالاً واجتهادات شتى ، في تفسير دساتيرها حسب ارادة القوى المسيطرة من سائر الأنواع .

سادساً - يقظة الشعب العربي السياسية :

وراء هذا الواقع المر ، لحالة العرب السياسية ، والذي تجلى لنا

في الفقرات السابقة ، يتحرك الشعب العربي متململاً حيناً وثائراً أحياناً ، محاولاً دائماً أن يصل الى وضع سياسي منسجم مع أهدافه وآماله ، فاذا كنا نعاني من الاستعمار فان الاستعمار ايضاً يعاني منا ، واذا فرضت التجزئة علينا فوحدة الشعب تدينها في كل يوم وتعمل على التخلص منها الى الأبد . وصحيح أن الدول العربية ضعيفة غير أن الشعب قوي ، وقد سجل انتصارات رائعة منذ فجر نهضته الحديثة في القرن التاسع عشر ، حتى اليوم .

وان كانت أنظمة الحكم عديدة متصارعة فالشعب لا يرضى عن الحكومة الواحدة بديلاً ، ويساهم أبناء كل قطر في مناقشة أساليب الحكم في الاقطار الأخرى ، والعمل على إحلال الجيد منها محل السيء ، وان تجلى عدم الاستقرار فشعبنا يبحث بجد وتضحية عن الاستقرار الذي لا يخدم الاستعمار ولا يجمد النهضة ، بل من الاستقرار الحي القائم على دفع عجلة التطور بانتظام ، وتتبدى لنا وثبة الشعب العربي واندفاعه نحو النظم السياسية المتحررة المتجاوبة معه في كل ما نسمعه من أقوال وما يخوضه العرب من مناقشات وما قاموا به ويقومون من ثورات ومعارك من أجل وحدتهم وتحررهم .

ومن الأمثلة على وثبة العرب ، الحركات الفكرية والثورات المسلحة ضد الاستعمار والحركات السياسية ومحاولات التخلص من الاوضاع الفاسدة .

آ ـ الحركات الفكرية السياسية :

عملت السنوات الطوال على يقظة العرب من جديد فقد أخذت الجروح التي أحدثتها غزوات التتار والمغول بالشفاء ، وأثرت القرون التي امضاها العرب تحت حكم غيرهم فأبعدتهم عن النفسية الدخيلة عليهم والتي

ابتلاهم بها الترف والبذخ والاعاجم في أواخر أيام العباسيين (١) واستطاعوا بعد أن عرفوا الفقر وذاقوا مرارة الذل ، ان يقارنوا بين ماضيهم المجيد وطبيعتهم الباسلة وبين واقعهم المرير ، فبدأوا يدركون ما أدت اليه التفرقة والتعصب من شرور مكنت للغرباء في بلادهم واطمعت فيهم شتى المستعمرين . ومع فجر القرن التاسع عشر ، بصورة خاصة ، أخذ التململ يحل محل الاستسلام والقلق يطرد الاستقرار القائم على الضياع وتساءل شعبنا عن مصيره ، فلا الدولة العثمانية عادت مثله الاعلى وما هو مستعد للذوبان في الاوروبيين . وقد ساعدت بعض العوامل الاخرى في إذكاء التفكير السياسي العربي ، اذ انشئت في وطننا بعض المدارس وانتشر التعليم ولو على نطاق محدود ، كما أن عدد السكان في البقاع العربية مال الى السرعة في الزيادة مما دلّ على انبعاث حيوية الشعب العربي من جديد .

واذا اعتد بعض زعماء المناطق العربية بأنفسهم كأفراد وكعائلات فليس هذا دليلاً على طموحهم الشخصي فحسب بل على شعورهم بأهمية المناطق التي يحكمونها بشكل لم يظهر يوم أن كانت اكثر بقاع الوطن العربي ذائبة في الشخصية العثمانية ، وليس من المعقول أن تأتي الصدفة وحدها بهذا الشعور الى الامراء العرب ، اذ لا بدّ من أن يكون قد تسرب اليهم من فئات الشعب الذي يسوسونه ، فتجاوبوا معه على طريقتهم الخاصة السائدة في تلك الايام والتي كان ينقصها الكثير من الوعي والتجرد .

ومن مظاهر بداية الانبعاث القومي ازدياد اهتمام المثقفين المتخرجين من المساجد او الاديرة بدراسة قواعد اللغة العربيه وأدبها والاعتداد

(١) يقظة العرب ـ جورج انطونيوس .

بميزاتها (١) ، فقد كان ناصيف اليازجي لا يطيب له الحديث الا عن لغة العرب وماضيهم الأدبي نثراً وشعراً ويدعوا طلابه ومجالسيه الى بذل الجهد في سبيل احياء هذه اللغة المجيدة ، واهتم بطرس البستاني باللغة العربية تعلماً وتعليماً كما اهتم بمعالجة المشكلات السياسية فدعا الى نبذ الطائفية والتعصب ، واعتقد أن السبيل الى مكافحتها هو العلم (٢) والعلم باللغة العربية وآدابها بشكل خاص ، ثم قويت حركة الطباعة العربية ونما التفكير السياسي واتجه العرب الى إنشاء الجمعيات وعقد الندوات التي سمت الى تعميق التفكير السياسي واذكائه . فقد كافحت الجمعية العلمية السورية المنازعات الطائفية حوالي منتصف القرن التاسع عشر ، وذكرت العرب بأن الاستعمار يعتبر هذه النزعة معواناً له ، ونظم أحد اعضاء الجمعية وهو ابراهيم اليازجي قصيدته المشهورة « تنبهوا واستفيقوا ايها العرب » ، التي كان لها دور طليعي في تنبيه أذهان العرب الى امجادهم وإذكاء الثقة في نفوسهم ودفعهم الى التخلص من نفوذ الترك وسواهم .

كما ان منشورات جمعية بيروت السرية التي قامت عام ١٨٧٥ احدثت صدىً عميقاً في نفوس قرائها ، إذ دعت الى حكم الولايات العربية من قبل ابنائها والعناية باللغة العربية والقضاء على المفاسد . . .

واذا كان جمال الدين الافغاني قد اهتم بالعالم الاسلامي كمجموعة واحدة الا أن آراءه خدمت حركة الوعي السياسي عند العرب اذ نادى هذا المفكر بخليفة ترضى به كل الاجناس الاسلامية على حد سواء والح على ضرورة الحكم السليم ، مما زاد في تنبه العرب الى المظالم الحكومية التي تقع عليهم .

---

(١) تاريخ الحركة القومية ــ عبدالرحمن الرافعي .
(٢) يقظة العرب ــ جورج انطونيوس .

أما عبد الرحمن الكواكبي فقد كانت أفكاره خطوة حاسمة نحو اكتمال الوعي السياسي عند العرب إذ حمل بشدة على استبداد العثمانيين في عهد السلطان عبدالحميد ، وعلى كل استبداد (١) أياً كان مصدره ، ودعم ثقة العرب بأنفسهم وأثار فيهم اصالتهم بما أورده في كتابه أم القرى في بحثه للخلافة ، من ان خليفة المسلمين لا يمكن أن يكون إلا عربياً .

واذا كانت الجمعيات العربية السرية والعلنية (٢) التي قامت بعد انتهاء حكم السلطان عبدالحميد تهتم بالاعمال السياسية الى حد كبير فانها ضمت في الوقت نفسه ، نخبة المثقفين العرب وساهمت مناقشاتها وبياناتها في توضيح معالم الطريق السياسي للعرب . وقد عني المنتدى الادبي بشكل خاص بالابحاث الفكرية السياسية وتوزعت بقية الجمعيات بين واحدة تنادي ببقاء العرب تحت حكم العثمانيين مع ادارة بلادهم من قبل أبنائها بشكل لامركزي ، وبين أخرى تدعو الى وضع الاثنين العربية والتركية على قدم المساواة تحت تاج عثماني مزدوج يمثل صراحة ورسمياً العرب والاتراك . وبين ثالثة

---

(١) عبدالرحمن الكواكبي ـ طبائع الاستبداد وأم القرى

(٢) أهم الجمعيات العربية هي :

١ ـ جمعية بيروت السرية عام ١٨٧٥
٢ ـ الاخاء العربي العثماني عام ١٩٠٨
٣ ـ المنتدى الادبي عام ١٩٠٩
٤ ـ الجمعية القحطانية عام ١٩٠٩ ورئيسها عزيز المصري
٥ ـ جمعية العربية الفتاة عام ١٩١١ (في باريس)
٦ ـ حزب اللامركزية الادارية العثماني عام ١٩١٢ (القاهرة)
٧ ـ جمعية الاصلاح البيروتية عام ١٩١٢
٨ ـ جمعية العهد العسكرية عام ١٩١٤ ـ اسسها عزيز المصري بدلاً من الجمعية القحطانية .

تنادي باستقلال العرب تماماً عن السلطنة العثمانية وابتعادهم عن قبول أي حكم غريب عنهم مهما ادعى لنفسه من اسماء أو اتخذ من صفات . كما رأت بعض هذه الجمعيات أن انقاذ البلاد العربية لا يتم الا بالنضال السري الصلب ورأى بعضها الآخر ان النضال يمكن أن يكون علنياً سافراً ، واعتقدت جمعيات عربية أخرى بأن العمود الفقري لحركة الانقاذ هم المسكريون بينما قبلت اخريات امتزاج العسكريين والمدنيين فيها .

وهذا يدل على مساهمة هذه الجمعيات في تلمس الطريق السياسي الذي يصلح للعرب وفي تنمية الوعي القومي بين صفوفهم .

ومهما تعددت آراء تلك الجمعيات فقد كانت متفقة جميعاً على أن الاقطار العربية وحدة قائمة بذاتها ولها شخصيتها وكيانها . ومن واجب المؤرخ الا يتعسف فيحكم على حركات الماضي بمقاييس عصره ، بل عليه أن يكون عادلاً وواقعياً ينظر الى الحوادث السابقة ضمن الظروف التي احاطت بها ويقيسها بمستوى الوعي في زمانها ، ومن الامثلة على ذلك أن بقاء العرب في دولة واحدة مع أمة أخرى لا يقبلها الوعي القومي الذي نضج في أيامنا الى حد كبير ، ولكنها في بداية هذا الوعي جديرة بالاعتبار والاحترام اذا قامت على اساس النظرة الى العرب كشخصية متميزة عن بقية الاجزاء المشتركة معها في الدولة الواحدة .

وقد جسمت الثورة العربية التي انطلقت من مكة عام ١٩١٦ انتصار الفكرة القومية الداعية الى الاستقلال التام ، ومن واجبنا أن نضع هذه الثورة ايضاً ضمن ظروفها ، فاذا كان الاستعمار قد استطاع التغرير ببعض قادتها نظراً لانخفاض مستوى وعينا يومئذ ، فانها تبقى بلا شك ثورة ارادتها الطلائع العربية لتحقيق امل هذه الأمة في الوحدة والتحرر ،

وهي ليست وليدة هذا الشخص أو ذاك بل ثمرة جهود عديدة تعاونت فيها الجمعيات وذهب في سبيلها الشهداء الذين اعدمهم جمال باشا السفاح في بيروت ودمشق من مسلمين ومسيحيين ، فساهمت دماؤهم في التعجيل بقيام الثورة .

وازدادت حركة التفكير السياسي عند العرب اتساعاً وعمقاً بعد الحرب العالمية الاولى اذ تفتحت عيونهم على مؤامرات المستعمرين وألاعيبهم ، وأصبحت الكتب والمجلات والجرائد ميداناً تتفاعل فيه الافكار محاولة تلمس السبيل لتحرير العرب وتوحيدهم وتبين معالم الحكم الصالح لهم .

وتعد كتب ساطع الحصري ومحاضراته أعمالاً بالغة الاهمية في انضاج الوعي القومي للمواطنين العرب ، كما تكاثر المفكرون الهادفون الى نفس الغاية والمتعمقون في فهم القومية العربية والنظم السياسية ونقد الواقع المر ومعرفة حاجات الأمة وكيف تصل اليها ، وازدادت الاحزاب وحميت المناقشات وعرف العرب المعارك الانتخابية في كثير من اقطارهم ، وتضاعفت الحركات الفكرية السياسية في الحرب العالمية الثانية وهي ما تزال في نمو مضطرد حتى اصبح المواطن العربي العادي يعتبر أن من حق أمته عليه بذل الكثير من وقته في مناقشة امورها والمساهمة برسم طريقها والتضحية من أجلها .

وليس هذا عجيباً اذ أن الوعي وان ابتدأ بالمفكرين الا أنه مستمد من الشعب في أساسه وما دور المفكر الا العمل على بلورة آراء المواطنين وتحليلها وشرحها وايصال كل منها الى الجماهير بسائر الاقطار .

ب ـ الثورات المسلحة :

اذا كانت ثورات فخر الدين المعني في جبل لبنان والشهابي وضاهر

العمر ومحمد علي الكبير قد اصطبغت بصبغة الاحلام الفردية والمظلمة الشخصية والعائلية إلا أن سرعة نمو هذه الثورات وصمودها خلال مدة طويلة من الزمن أمام الدولة العثمانية يدلان على أن الشعب العربي كان يعلق عليها بعض الآمال وان لم يعتبرها مجسمة تماماً لما يهدف اليه .

وقد عرف المغرب العربي مقاومة ضارية للمستعمرين حين احتلالهم لأراضيه فقاد عبدالقادر الجزائري ثورة منظمة أذهلت الغربيين المعتدين بتنظيمهم وصناعاتهم ولم توقف الثورات أبداً منذ ان وضع الفرنسيون والاسبان والايطاليون والانكليز أرجلهم على أرض المغرب العربي . ومن الثورات المتلاحقة التي عرفتها الجزائر ثورة اولاد سيدي شيخ وثورة لالا فاطمة وحركات أخرى تكاد تكون يومية كان من ابرزها أخيراً مظاهرات / ١٩٤٥ / الدامية ، ثم اجتمعت ثورات الجزائر وطاقة العرب الثورية جميعاً فانتخبت الثورة الجزائرية التي بلغت حد الاعجاز في الاعتماد على النفس والصمود والتنظيم والصلابة .

وقاوم الليبيون العرب احتلال ايطاليا لقطرهم واشترك معهم العرب من سائر الاقطار حتى ان تهاون السلطنة العثمانية في امر الدفاع عن ليبيا ، كان اسوأ الاثر على سمعتها عند العرب وساهم هذا في اسراع العرب بالمطالبة بالاستقلال عنه ، ووثب عمر المختار ورفاقه على الايطاليين فأضعفوا شأنهم وأطاروا ألبابهم حتى جندت ايطاليا كل طاقتها لتتخلص من عمر المختار وثورته المجيدة .

وثار المغاربة في الريف بقيادة عبدالكريم الخطابي فاضطرت اسبانيا وفرنسا الى التعاون ضده صراحة .

وهب الشعب العربي في مصر ضد استبداد الخديوي والدولة العثمانية

وتغلغل النفوذ الاوروبي بزعامة احمد عرابي واستطاع ان يغير من وجه الحكم في مصر ولكن الخديوي والانكليز والعثمانيون جمعوا صفوفهم وايدوا الحملة الانكليزية التي ضربت الاسكندرية من البحر وتوغلت في ارض مصر ، فنشبت بينها وبين القوات العربية معركة التل الكبير التي قضت على هذه الثورة ومكنت الاحتلال الانكليزي ، وكان لتآمر المتآمرين وخيانة الخديوي ومنشور التفكير العثماني دور حاسم في تدعيم الانكليز .

وقام الشعب العربي في مصر بحركات عديدة ضد الاحتلال ، لمعت اثناءها اسماء مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وسعد زغلول ، حتى استطاع ان يجلي الانكليز ويؤمم قناة السويس بمعونة الشعب العربي كله .

واذا كانت ثورة المهدي في السودان قد قامت مكتسية بالطابع الديني فهي من بعض الوجوه تعبير عن رغبة الشعب العربي في تحقيق تحرره ، إذ أن القطر المصري كان يحكمه الانكليز وباسمه كانوا يحكمون السودان ، فاستطاع المهدي ان يستقل بالسودان وكاد يثب على حكومة الاحتلال في القاهرة .

أما فلسطين فلم يخل يوم من ايامها منذ الانتداب وظهور الحركة الصهيونية من ثورة أو مظاهرة دامية ، يبذل فيها الفلسطينيون والعرب جميعاً أرواحهم في سبيل تحريرها . وعرف التاريخ العربي في سورية والعراق ولبنان صفحات مجيدة من البطولات والتضحيات خلدت ثورة ١٩٢١ في العراق وما تبعها من وثبات ومعركة ميسلون وثورات الغوطة وجبل الدروز وحماه والعلويين وجبل الزاوية ، وصمود محافظة الجزيرة ضد مؤامرة سلخها عن القطر السوري ، وعدداً وفيراً آخر من الثورات معروف بعضه في كتب التاريخ ، كاضرابات سورية الكثيرة ضد محاولات الفرنسيين وصمود العراق في وجه الانكليز خلال الحرب العالمية الثانية

بثورة رشيد علي الكيلاني ، وتحطيمه لمؤامراتهم ومعاهداتهم واحلافهم بعدها ، وصمود الشعب العربي في سورية ضد مؤامرات المستعمرين التي كانت تستهدف ربط هذا القطر بعجلة الاحلاف الاستعمارية وطرد الشعب العربي في الاردن للجنرال غلوب ووقوفه بصلابة ضد حلف بغداد .

اما الجزيرة العربية فقد كانت وما تزال مرجلاً يغلي بالغضب والثورة على المستعمرين والاوضاع الفاسدة ، فقد تخلص اليمنيون من الاستعمار العثماني وقطعوا كل الايدي الاجنبية التي امتدت اليهم ، وفي الجنوب العربي تستمر الثورات اليوم في عدن وتقف عُمان مثالاً لأهداف الخليج العربي في التحرر من الاستعمار وعملائه .

أما الثورة العربية التي انطلقت في مكة عام ١٩١٦ فهي من الثورات العربية العامة التي بنى عليها شعبنا آماله وكان يسعى عن طريقها الى التحرر من العثمانيين دون الوقوع في ايدي المستعمرين الجدد ، والى اقامة الحكم العربي الموحد، إلا انها لم تبلغ الغاية التي ارادها العرب لها ، بل بلغت الغاية التي خططها الاستعمار في معاهد سايكس بيكو عام ١٩١٦ .

ونستنتج مما تقدم ان الملامح السياسية متشابهة في الوطن العربي فنحن جميعاً نعاني من الاستعمار ظاهراً ومقنعاً وتصيبنا التجزئة بأفدح الاضرار وتبذل الجهد للتخلص من المطامع الفردية والعائلية ، ولا يوجد مظهر سياسي إلا وتشترك فيه الاقطار العربية جميعاً واذا وجدت بعض الفروق في تكوين الحكومات بين ملكية وجمهورية رئاسية وجمهورية نيابية وعسكرية ومدنية فان الاختلاف ظاهري إذ يظل عدم الاستقرار وسيطرة القوى التنفيذية والطبقية واضحة كل الوضوح ، وظاهرة التوثب هي الوجه الرئيسي الآن للوضع السياسى العربي واذا كانت التجزئة والاستعمار وعدم الاستقرار والضعف ادلة على وحدة

آلامنا فان ثوراتنا ونضالنا وتضحياتنا ادلة على وحدة آمالنا ومصيرنا واندفاعنا نحو غايات واحدة .

ونستطيع القول ان العرب لم يعرفوا ثورات متعددة بل يمرون في ثورة واحدة كبيرة مستمرة منذ القرن التاسع عشر حتى اليوم تظهر في هذا القطر لتساهم فيها بقية الاقطار ثم تنتقل الى جبهة أخرى وهكذا وستظل هذه الثورة قائمة الى أن يتحقق أمل العرب في انشاء دولتهم الواحدة البعيدة عن نفوذ المستعمرين ومطامعهم والحصينة ضد مؤامراتهم الى أن يطرد آخر مستعمر صهيونياً كان أم فرنسياً أم انكليزياً ... والى أن يزال آخر حد من الحدود المصطنعة .

ولا شك أن هذه الثورة العربية الواسعة قد بدأت تفرض وجودها وما لجوء المستعمرين الى الاختفاء وراء المؤامرات وخوفهم من الظهور سافرين أمام العرب الا تعبير عن فرض الوثبة العربية هيبتها الى حد كبير على اعدائها .

ومن الملاحظ ايضاً أن الملامح العامة للوضع السياسي العربي متداخلة تؤثر على بعضها البعض ، فالاستعمار يدعم التجزئة وهي بدورها من عوامل بقائه ، والضعف يطمع الاستعمار ويبقى التجزئة كما انها من اسباب وجوده واستمراره ، وهكذا في بقية الملامح ،وتقف الوثبة العربية الموحدة في مقابل سائر الثغرات ونقاط الضعف محاولة ان تنهيها وأن تقلب وجه السياسة العربية وتحيلها الى عامل دفع للقوى العربية بدلاً من أن تكون حجر عثرة في سبيلها .

الفصل الخامس

ـ الاوضاع الاقتصادية ـ

ـ تمهيد ـ

يعتبر الاقتصاد العمود الفقري للتقدم والقوة ، فاذا ما امتلكت أمة موارد للثروة فترة واحسنت استخدامها ، واستدرت دخلاً قومياً كبيراً عدلت في توزيعه فانها تستطيع ان تحمي نفسها من الطامعين ، وتسترد اجزاءها السليبة وترفع المستوى الصحي والمعاشي لابنائها وتتمكن من أن تجد اعمالاً للزيادة المتوقعة في سكانها ، وتزداد قدرتها على افتتاح المدارس وتخريج المختصين ، وتقضي على الامية بين ظهرانيها .

ومن الطبيعي أن نقر بأن المادة كانت أحد عوامل قيام الحضارات ، لذلك كانت دراسة الاوضاع الاقتصادية في أي مجتمع من المجتمعات ـ بما يفترضه الاقتصاد من تنظيم ـ دراسة اساسية شاملة ، تثير لدى الباحثين مجموع مشكلات ذلك المجتمع .

ونحن على الرغم من أننا لا نقر بوجهة انصار المذهب المادي الذين اعتبروا ان البُنى العليا وحتى السلوك والتفكير هي نتاج للبنى الدنيا الناجمة عن الانتاج وطرقه ، الا انه لا يسعنا الا ان نعترف بأن

تاريخ البشرية تأثر قليلاً بالعوامل الانتاجية (الادوات والآلات) منذ انسان ما قبل التاريخ . فمع التقدم التقني كانت الأفكار تتأثر بهذا التقدم ، وتتبدل تدريجياً مع تبدل الوسائل المستعملة في الانتاج ، حتى ان الافكار التي دعت الناس الى الحرية والعدالة كانت في بعض مظاهرها اثراً من الثورة الصناعية التي كتلت الطبقة العاملة فهبت تطالب بحقوقها وبالعدل الاجتماعي .

ومع المشكلات التي اثارتها الثورة الصناعية ، بدأت تظهر أمور شديدة الجدة ، من مثل ظهور الصراع الطبقي في المناطق الرأسمالية وكذلك مطالبة المناطق المستعمرة بالتحرر الاقتصادي والسياسي .

وأمام ضغط كهذا سارع الرأسمال الذكي الى اصدار تشريعات اجتماعية كانت في اصلها تهدئة لخطط الطبقة العمالية ، كما سارع الاستعمار الى منح بعض المناطق المستعمرة استقلالاً ظاهرياً خادعاً معتمداً في فرضه على عملائه .

ومما تقدم يتبين لنا أن للاقتصاد أثره على جميع المظاهر الاجتماعية ، سواء منها الفكر أو النحلة أو السياسة وعلى الخصوص علاقة الانسان بأخيه ، هذه العلاقة تبدلت في مجتمع القرن العشرين لتصبح علاقات احترام متبادل بعد أن كانت علاقة السيد والمسود والمستعمِر بالمستعمَر .

أما نحن العرب ، فان تحررنا التام من الاستعمار والامبريالية (١) بكافة صوره القديمة والحديثة ، ووحدتنا التي يعيش على أمل تحقيقها مجموع شعبنا العربي ، فننتظر أن يُسهم الاقتصاد العربي في تحقيقها لايماننا

---

(١) الامبريالية هي السيطرة التي تفرضها الدول العظمى على الدول المستعمرة أو شبه المستعمرة في جميع النواحي السياسية والاقتصادية .

بأن لهذا الاقتصاد تأثيره الكبير على قضايانا الاساسية في الحرية والوحدة ، وأن أقسى العقبات التي تبدو في طريقها لتزول اذا حلت المشكلات الاقتصادية التي تعترض سبيلها .

هذا وان أهم مظاهر الاقتصاد العربي في رأينا هي كونه اقتصاد ، متخلف ، تابع ، مجزأ ..

وسنعرض في هذا البحث الى هذه المظاهر ثم نتعرف على نتائجها ، لنعمد بعدها الى دراسة علاج التخلف وتبيان الحلول المختلفة لبلوغ التنمية الاقتصادية .

١ ـ تخلف الاقتصاد العربي

لقد اضحى التخلف الاقتصادي من مشكلات الساعة التي كثر حولها الجدل في قرننا هذا ، لرفع مستوى المجتمعات المتخلفة التي دعيت باسم المجتمعات النامية under develoqed Countries .

ولقد دلت دراسات الامم المتحدة في مختلف الميادين على أن المجتمع العربي هو من بين المجتمعات المتخلفة أو من مجتمعات العالم الثالث Third - World .

ويتجلى لنا تخلفه هذا في المشاكل السكانية والاقتصادية والسياسية .

اولاً ـ المشكلة السكانية :

لقد سبق لنا ان بحثنا في اوضاع السكان في المجتمع العربي وتبين لنا بأن مجتمعنا هذا يعتبر من بين الشعوب الفتية بل من اكثر شعوب العالم خصوبة .

والمجتمعات عموماً يمكن ان تقسم الى مجتمعات شديدة الخصب ومعتدلة وضعيفة (١) .

فالمجتمعات الكثيرة التوالد أو ما يدعى بالشديدة الخصوبة هي تلك

---

(١) راجع بحثنا في الاوضاع البشرية .

المجتمعات التي يزيد فيها سنوياً عدد المواليد عن (١٠٠) مولود لكل (١٠٠٠) إمرأة في سن الخصب .

والقطر المصري كمجموع الوطن العربي هو من اكثر المجتمعات العالمية خصباً ، اذ بلغ معدل الخصوبة في هذا القطر عام ١٩٣٧ ، م ٠ خ = ١٨٠

هذا مع العلم بأن كل مصرية تلد وسطياً ستة ولادات خلال حياتها الخصبة (ذكور واناث) .

أما معدل الولادات عموماً فقد بلغ في هذا القطر (٤٥) بالألف وفي سوريا (٤٠) بالالف وسطياً ، وهذا المعدل يتجاوز نسبة ٣٠ بالألف في سائر الاقطار العربية مما يجعل المجتمع العربي من المجتمعات الكثيرة الولادات ، الا ان الوفيات تجتزىء من هذه الولادات فتكون نسبة التزايد اكثر من (٢٠) بالالف وسطياً .

ويؤثر هذا التزايد الكبير تأثيراً حاداً وخطيراً على موارد الوطن العربي وعلى تجارته الخارجية وكذلك على مشروعات التنمية الاقتصادية منه ، وذلك لأن موارده لا تنمو بنسبة تزايد سكانه مما يؤثر على المستوى المعاشي ويجعله ينخفض باضطراد ، وكذلك فان كثرة الافواه التي تحتاج الى طعام ولباس ومسكن ، تجعل كميات المواد الاولية التي تصدر تتدنى بسبب استهلاكها محلياً ، كما ان العدد المتزايد من السكان يلتهم نسبة كبيرة من الموارد الاقتصادية ومن التنمية الاقتصادية ، لذلك كانت هناك ضرورة قصوى - للذين يعالجون موضوع التنمية الاقتصادية - الى ربط التخطيط السكاني بالتخطيط للتنمية الاقتصادية .

ثانياً - المشكلات الاقتصادية :

لقد تبنى الاقتصاديون بعض المقاييس لتحديد هوية المجتمعات ودرجة

تطورها ، الا ان أهم المقاييس التي اعتمدت للتعرف على هوية المجتمعات المختلفة هي :

١ ـ انخفاض متوسط الدخل الفردي .
٢ ـ سيطرة القطاع الزراعي على سائر القطاعات الاخرى كالقطاع الصناعي وقطاع الخدمات .
٣ ـ ضعف المستوى الفني .

١ ـ انخفاض متوسط دخل الفرد :

ان متوسط الدخل الفردي هو حاصل قسمة مجموع الدخل القومي في سنة ما على السكان وهو يحسب وفق المعادله الاتية :

$$م د ف = \frac{د}{س}$$

حيث ترمز (م د ف) الى متوسط دخل الفرد ، و (د) الى الدخل القومي و (س) الى عدد السكان . وهذا الدخل عموماً يتناسب عكساً مع مجموع السكان وطرداً مع الدخل القومي ، وبمعنى آخر ان متوسط الدخل الفردي يتدنى مع ازدياد السكان اذا ثبت الدخل القومي ، ويرتفع مع زيادة الدخل القومي اذا بقي عدد السكان ثابتاً والا لامتص المدد المتزايد تزايد الدخل القومي ، اذ قد يبقى الدخل دون زيادة ، اذا لم ينخفض .

ولقد حددت احصاءات الامم المتحدة عن الدخول الفردية المجتمعات المتخلفة بأنها تلك التي لا يتجاوز فيها متوسط دخل الفرد الـ (٢٥٠) دولاراً

في السنة ، كما بينت ان مجموع الدخل القومي للوطن العربي لا يتجـــاوز ١،٥٪ من مجموع الدخل القومي لجميـع بلاد العالم ، بحيث ان المدخـول الوسطي للفرد العربي لا يتجاوز بحال من الاحوال الـ (١٥٠) دولاراً مما يجعل جميع اقطار الوطن العربي تعتبر من المناطق المتخلفة اقتصادياً وهذا ما يوضحه الجدول المقارن التالي :

جدول متوسط الدخل الفردي السنوي بالدولار (١)

الدولـــة	متوسط الدخل الفردي	درجة التطور	الدولـــة	متوسط الدخل الفردى	درجة التطور
الولايات المتحدة	٢٢٣٧	الدول المصنعة	الجزائر	٢٠٢	الدول المتخلفة
كندا	١٥٨١		تركيا	١٧٢	
اوستراليا	١٢١١		سوريا	١٥٠	
بريطانيا	١٠٣٢		تونس	١٥٠	
بلجيكا	٩٢٧		ج.ع المتحدة	١٤٠	
فرنسا	٨٨٣		الكونغو	٧٠	
المانيا الغربية	٨٧٣		الهند	٦٤	
الاتحاد السوفياتي	٧١٩		اندونيسيا	٦٢	
ايطاليا	٤٧٢	الدول المتوسطة النمو	الباكستان	٥٢	
كوبا	٣٤٠		السعودية	٥٠	
اليابان	٢٩١		اليمن	٥٠	
اسبانيا	٢٦٩				
لبنان	٢٦٧				

(١) ان متوسط الدخل الفردي ليس معياراً أساسياً بل هو معيار تقريبي بسبب وجود طبقات موسرة ومتوسطة وفقيرة لاتتماثل في مداخيلها، الا ان الرقم المعطى هو رقم احصائي استدلالي فحسب .

٢ - سيطرة القطاع الزراعي :

لايضاح مكانة احد القطاعات الاقتصادية يجب علينا ان نتبين اهميته من حيث نسبة اسهامه في الدخل القومي ، ومن حيث عدد العاملين فيه .

فمن ناحية اسهام القطاع الزراعي في الدخل القومي العربي نجد أن نصيب الزراعة في هذا الدخل يتراوح بين ٣٠ — ٤٠ ٪ في جميع الاقطار العربية .

والجدول التالى يوضح ما تقدم .

جدول يبين نسبة الدخل الزراعي (١)

السنة	القطر	نسبة الدخل الزراعي الى مجموع الدخل
١٩٥٧	السوري	٤٥٪
١٩٦٠	المصري	٣٢٪
١٩٥٣	الجزائري	٢٩٪
١٩٥٨	المغربي	٣٤٪
١٩٥٧	الاردني	٤٠٪

أما عن نسبة العاملين في القطاع الزراعي ، فقد تتجاوز ثلثي مجموع القوى العاملة .

والجدول التالي يوضح ما نقصد :

(١) الارقام المعطاة هي الارقام التي امكننا الحصول عليها .

جدول يبين نسبة العاملين في القطاع الزراعي [1]

القطر	القطاع الزراعي	القطاع الصناعي	قطاع الخدمات
السوري	٦٠٪	١٧٪	٢٣٪
المصري	٦٥٪	١٣٪	٢٢٪
العراقي	٧٧٪	١٣٪	١٠٪
اللبناني	٥٠٪	١٥٪	٣٥٪ [٢]

الا ان ما تقدم من ارقام لا يمكن له ان يبين لنا وضع فلاحنا المتأخر بالنسبة الى فلاحي البلاد المتقدمة .

ففى امريكا الشمالية ينتج الفلاح سنوياً اكثر من خمسة اطنان من الحبوب ، مما يسمح له باعالة (١٥) شخصاً ، وكذلك فان الفلاح الاوروبي ينتج اكثر من طن واحد من الحبوب وذلك بسبب ضيق رقعة الارض التي يعمل بها وطول استخدامها مما يضعف انتاجها ، بينما نجد ان الفلاح في البــلاد المتخلفة لا يتجاوز انتاجه نصف طن اذا لم يقل عن ذلك ، وهذا يدل على ضعف كفايته ومردود عمله ، وذلك بسبب قدم الوسائل التي يستعملها وضعف تدريبه على الطرق الزراعيــة الحديثة ، كاستخدام الدورات [٣] الزراعية واستعمال الاسمــدة والمبيدات

(١) علماً ان الصادرات الزراعية قد تصل الى ٩٠٪ من مجموع الصادرات .

(٢) ارتفاع نسبة العاملين في قطاع الخدمات في لبنان اسبابه السياحة والاصطياف .

(٣) راجع بحثنا عن تخلف الزراعة في القطر السوري واسبابها ـ في كتابنا مطالعات في المجتمع الريفي ـ مغربل وعقاد - منشورات جامعة حلب/١٩٦٤ .

وتخلفه في تبني الآلات الزراعية واعتماده على الطرق البدائية في الري . . . وكل ذلك يعود الى عدم توفر الأطر العليا في الزراعة التي يقع على عاتقها الارشاد والتدريب .

ومن مظاهر تخلف الفـلاح في الوطن العربي ايضاً ان متوسط انتاجه من المواد الغذائية - مثله كمثل فلاحي العالم الثالث عموماً - لم يسجل الا تقدماً طفيفاً خـلال الاعوام الماضية ، بينما قفز انتاج فلاح البلاد المتقدمة قفزات قوية ، مما أسهم في توسيع الشقة وساعد على ازدياد الفروق في مقدار التطور بـين الزمرتين ، وهذا يظهر واضحاً من نصيب الفرد من الغذاء الذي يختلف اختلافاً كبيراً بين البلاد المتقدمة والبلاد المتخلفة ، علماً ان متوسط الحريرات التي يحتاج اليها الانسان للابقاء على حياته تبلغ / ٢٥٠٠ / حريرة (كالوري) في اليوم ، كما ان نسبة البروتيد التي يحتاجها لا تقل عن ٣٠ غراماً ، ومتوسط الحريرات متوفر للانسان العربي احصائياً ، بينما لا تزيد نسبة البروتيد التي يتناولها في احسن اقطاره عن ٢٠ غراماً في اليوم الواحد ، بينما تتدنى حتى تصل عشر غرامات في اغلب اقطار الوطن العربي .

وفي الجدول التالي ما يبين اختلاف ما يتناوله الفرد في المجتمعات المختلفة .

جدول بالحريرات واللحوم المستهلكة من كل فرد حسب منشورات منظمة الزراعة والتغذية الدولية (F. A. O)

الدول	كمية الحريرات في اللحوم	كمية اللحوم في اليوم
العالم الثالث	٢١٠٠	٥٠
المجتمعات في اول مراحل النمو	٢٦٥٠	٧٧
المجتمعات المتقدمة	٣٠٥٠	٨٧

ولقد دفع ما تقدم احد الاقتصاديين الى تقسيم المجتمعات الى فئتين : « فئة تأكل ولا تنام ، وفئة تنام ولا تأكل فهي جائعة ، الان العاقبة ستكون وخيمة عند استيقاظها وثورتها » (١) .

وتبين احصاءات الامم المتحدة على أن ١٦٪ من سكان العالم يتمتعون بـ ٧٠٪ من الدخل العالمي ، بينما يعيش ٥٤ ٪ من سكان العالم على دخل قدره ٠٩/. من الدخل العالمي ، ولكن ما هي نسبة المالكين الفعليين لهذه الـ ٠٧٠/. ؟

لقد كان ٠٦/. فقط من سكان القطر المصري قبل ثورة عام ١٩٥٢ يمتلكون ٠٦٤٫٥/. من مجموع الارض الزراعية ، بينما كان ٠٩٤/. من السكان لا يمتلكون الا ٠٣٥٫٥/. من هذه الارض ، ولكن ما هو عدد المالكين الفعليين ؟ .

الا ان سؤلاً يعرض لنا الان وهو ما نسبة اسهام كل قطاع من القطاعات الاقتصادية في هذا الدخل العالمي ، وما هي الدلائل التي يستدل منها على اوضاع تلك المجتمعات ، ان الجدول التالي يوضح هذا التساؤل :

جدول يبين اسهام كل قطاع في الدخل العالمي(٢)

مدى التطور	متوسط دخل الفرد	نسبة العمل في القطاع الزراعي	نسبة العمل في بقية القطاعات
المجتمعات المتقدمة	٧٥٠	٠٣٠/.	٠٧٠/.
〃 في اول مراحل النمو	٣٥٠	٠٥٠/.	٠٥٠/.
〃 المتخلفة	١٥٠	٠٧/.	٠٣٠/.

(١) جوزيه دي كاسترو « Geopolitque de la faim »
(٢) هارتشورن : وضع التنمية الاقتصادية ــ نيويورك ١٩٥٩ .

يتبين من الجدول السابق اولاً - ان المعيار الذي يميز بين المجتمعات انما هو معيار التصنيع ، اذ يزداد تقدم المجتمع مع ازدياد التصنيع ، وعلى العكس فان سيطرة القطاع الزراعي على الدخل وعلى طبيعة العمل في مجتمع من المجتمعات يعتبر ظاهرة من ظواهر التخلف [1] ، فاذا بلغ اسهام القطاع الزراعي في الاقتصاد والدخل القومي اكثر من ٥٠٪ دل ذلك بوضوح على التخلف ، وهذا ينطبق ولا شك على الوطن العربي ، علماً بأن المردود الزراعي الذي نحصل عليه لا يصل الى نصف مردود الزراعة في المجتمعات المتقدمة .

ثالثاً - ضعف المستوى الفني :

من خصائص الدول المتخلفة ندوة وضعف الاطر العليا الاختصاصية وتسربها ، إذ تشير الاحصاءات عموماً الى ضعف نسبة المتعلمين من السكان عامة والفنيين خاصة ، كما انها تشير الى انعدام خطة يسير الاختصاص والتعليم العالي حسبها .

ولو عدنا الى نسبة الامية مثلاً فاننا نجدها شديدة الارتفاع في المجتمعات المتخلفة ، حتى انها لتصل الى اكثر من نصف عدد السكان ، والوطن العربي [2] مثل رائع على هذا التخلف ، اذ تتراوح نسبة الاميين بين ٦٠ - ٩٠ ٪ . وتكون بين الاناث اكثر منها بين الذكور ، وفي القرى اكثر من المدن وبين طبقة العمال اكثر من طبقة الموظفين والاغنياء .

---

(١) لا يمكن لنا تعميم هذا القول ، اذ ان هناك بعض المجتمعات التي يسيطر فيها القطاع الزراعي على غيره دون ان تعتبر من البلاد المتخلفة كالدانمارك واوستراليا ...

(٢) راجع بحثنا في الاوضاع الثقافية - مسألة الامية .

والأمي كما هو معلوم أقل مردوداً وكسباً من المتعلم عامة ، كما أنه عرضة للتنقل بين الاعمال المختلفة ، دون ان يتوصل الى الاستقرار ، كما أن الازمات تصيب أول ما تصيب الامي ، فيقع بين براثن البطالة ومشاكلها .

وفقدان الاطر العليا أو ضعفها حلقة ذات صلة وثيقة بالحلقات التي المحنا اليها ، فالتعليم الجامعي الفني لا تتعدى نسبته ١٠ - ١٥٪ من مجموع عدد الجامعيين عموماً والسبب في ذلك يعود في رأينا الى انعدام خطة يسير وفقها التعليم العالي - في هذه البلاد - هذه الخطة التي يجب أن تستمد من خطة التنمية الاقتصادية ذاتها ، إذ لو رغبنا في إنشاء عدد من الصناعات خلال خمس سنوات مقبلة ، وجب على الخطة التعليمية ان تدعم الخطة الاقتصادية بتكوين الاطر اللازمة لهذه المصانع سلفاً .

وان الامر لا يقتصر في البلاد المتخلفة على نقص في الاطر العليا فحسب بل انه ليبدو واضحاً أيضاً في انعدام الاطر المتوسطة (الكادر الاوسط) الذي يدير هذه المصانع تحت اشراف الاطر العليا ووفق مخطط علمي مدروس .

كما ان اهمال وضع الانسان المناسب في المكان المناسب نقطة جوهرية بارزة في المجتمعات المتخلفة ، لذلك وجب الاعتماد على التوجيه المهني الذي يرفض فكرة صلاحية الفرد لكل الاعمال Professional Guidance ، ويعتنق فكرة وجود فروق فردية بين الناس تجعل احدهم اكثر كفاءة في عمل من الاعمال من فرد آخر بسبب توفر خصائص جسمية ونفسية فيه لا تتوفر للفرد الآخر ، والتوجيه المهني عموماً يحاول وقاية الافراد من الازمات الاقتصادية وما ينجم عنها من بطالة ويجعلهم اكثر كفاية ورضا في عملهم الذي يمارسونه لانه يهدف الى تمكينهم من استغلال امكاناتهم على أحسن وجه .

ومما تقدم يتبين لنا ان حصر القوى البشرية والاستفادة منها بصورة فعالة يعتبران شرطين اساسيين في كل محاولة للتنمية الاقتصادية ، وان اهمال هذا الجانب يعرض اية خطة للفشل مهما كانت مدعومة بالوسائل المادية ، وذلك لأن الانسان عنصر اساسي في الانتاج لا يتحقق دونه أي مشروع . ويتضح لنا ضعف المستوى الفني في وطننا العربي ونقصان الاطر اللازمة للتنمية لو نحن حاولنا فقط ان نعدد الاختصاصات الادبية المتوفرة ، ونقص الاختصاصات العلمية والفنية .

فاذا رغبنا ان نعد الاطر اللازمة لخطة مقبلة وجب علينا ان نلجأ الى احدى الوسيلتين التاليتين :

آ ـ فعلى الصعيد القطري يمكن ان نتعرف على ما تحتاجه خطط التنمية القطرية من اخصائيين لنعمد الى اعدادهم منذ اليوم ، رغم قناعتنا ان اية خطة اقليمية للتنمية ستكون معرضة للفشل بسبب محدودية الاطار الذي تعمل فيه وان الخطط القطرية يجب ان تنبثق عن خطة للتنمية على المستوى القومي طالما ان هدف العرب جميعهم هو الوحدة ، ويكون ذلك باستدعاء الفنيين ـ في حالة عدم وجودهم ـ من البلاد الاجنبية للقيام بالتدريب وفق حاجات مجتمعنا العربي .

ب ـ وعلى الصعيد العربي ، يمكن اللجوء الى استدرار الخبرات من الاقطار العربية الاكثر خبرة واللجوء الى ايفاد البعثات الى الخارج في حالة عدم توفر بعضها .

ونحن نفضل دوماً لو نتمكن من التعاون على الصعيد العربي في هذين المضمارين لما لذلك من فائدة كبرى على القضية القومية .

وختاماً لما تقدم نتبين ان الاقتصاد العربي اقتصاد متخلف بسبب

زيادة السكان التي تمتص كل محاولة للتنمية ، مما يجعل الدخـــل الفردي والقومي شديد الانخفاض ، وكذلك بسبب سيطرة القطـاع الزراعي على الحياة واعتماده على محصول واحد مما يجعل المشكلة أشد وطـأة في حالة اصابته بالآفات (١) ثم لاعتماد الفلاح على ماء السماء ، وعدم وجود محاولات جدية للاستفادة من الانهـار والينابيـع بانشاء السدود وشبـكات الري الا في بعض الاقطار العربية واخيراً لفقدان الاطر الفنية اللازمة للنهوض بجميع الاوضاع الاقتصادية .

---

(١) ان ما تعرض له محصول القطن المصري عام ١٩٦١ لخير دليل على ذلك .

٢ ـ تبعية الاقتصاد العربي

التبعية الاقتصادية بمعناها الواسع صفة ملازمة لاقتصاد كافة الاقطار العربية وان العصر الذي نعيش فيه يتميز بتطورات سريعة غايتها تبديل الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية لينقل هذه الاوضاع من حالة التخلف الى مستوى الانتصارات التي احرزتها الحضارة العالمية الحديثة .

ولقد سبق ان عاشت امتنا العربية قمة الحضارة الانسانيـة ، كما عاشت فترة انحطـاط جثم فيها التخلف على كاهلها فران عليها الجهـــل والركود ، وغطت في نوم عميق في حين كانت الانسانية تخطو خطوات جبارة في عصر النهضة الاوروبية والثورة الصناعية .

ولقد ذاقت امتنـا مرارة الاستعمار بأعنف صوره واشكاله ما يزيد على اربعة قرون ، استعماراً عثمانياً ثم غربياً اثر اتفاقية سايكس ـ بيكو عام ١٩١٦ ، وناضل العرب في كافـــة اقطارهم هذين الاستعمارين بعد ان استفاقوا نتيجة احتكاك طليعتهم المثقفة مع الغرب واطلاعهـا على منجزاته ، فأخذوا ينفضون عن كاهلهم غبار التخلـف والاستعمار ، فاستقلت دولهم الواحدة تلو الاخرى سياسياً ونالت حريتها بعد نضال كلفها الدم كضريبة للحرية ، الا ان الحدود المصطنعة التي أوجدها الاستعمار لم تزل بعد رغم الجهود الكبيرة المبذولة حتى اليوم .

ولقد كان حكم الاجنبي مباشراً حيناً ومقنعاً في حين آخر تحت ستار ما اسمي بالوصاية والانتداب ، وكان لهذا الحكم آثار على الاقتصاد العربي ، سلبية تارة وايجابية تارة أخرى .

فلقد امتنع الاستعمار من الناحية السلبية عن القيام بأعمال التنمية الاقتصادية والاصلاحات الاجتماعية الضرورية ، فربط وطننا به كمورد للمواد الاولية ، وجعله سوقاً مفتوحة لبضاعته وصناعته . يشتري منا المادة الاولية بسعر الذي يحدده ويبيعنا منتجاته وبالسعر الذي الذي يفرضه ، دون أن يهتم جدياً الى استغلال ثرواتنا الدفينة الا في الحدود التي تشبع حاجات صناعته ، فبقي البترول والحديد والفوسفات وبقية المعادن الاخرى داخل الارض حتى امد قريب دون ان نستفيد منها كما اهمل اعمال الاصلاح في مجال المواصلات والسدود والمرافق العامة الا في الحدود الضرورية للاستراتيجية العسكرية .

ولقد بذل الاستعمار جهداً كبيراً إثر الاستقلال ليبقينا ذوي صناعة خفيفة استهلاكية ، واخذ يحاول ايهامنا بعدم صلاحية بلادنا لاقامة صناعة كبرى بالتركيز على ان اقتصادنا لا يمكن ان يكون الا زراعياً ، وجهد في عدم اتاحة الفرصة امامنا لاقامة صناعة ثقيلة ، أو صناعات انتاجية يمكن بواسطتها رفع الدخل القومي بصورة محسوسة وذلك عن طريق منافسته لصناعتنا الناشئة وخلق صناعات متنافسة متماثلة في اقطار الوطن العربي احياناً، لخلق التناقضات الاقتصادية بين اقطار الوطن العربي ليبقي عليه تجزئته ويمنعه من التقدم والقوة .

واذا كان التحرر الاقتصادي والاكتفاء الذاتي وهو مطلب اساسي من مطالب قوميتنا ، مثلاً اعلى يصعب تحقيقه كاملاً لكون الاقتصاد

العالمي وحدة متكاملة يتجلى فيها التعاون العالمي بين مختلف القوميات ، هذا التعاون الذي تفرضه الضرورات ، فان الوطن العربي ما زال يخضع للاحتكارات المالية وللضغط السياسي في مختلف مشروعات التنمية ، وخير مثال على ذلك مشكلة السد العالي في مصر وتمويل مشروع سد الفرات في القطر السوري ، إذ بقيت مفاوضات تمويل السد العالي تتعثر حتى عام ١٩٥٥ حين احجم الانكليز والامريكان عن تمويل المشروع رغبة منهم في ابقاء العربي المصري في وضع متخلف تابع لهم اقتصادياً ، الا ان الضغط لم يود الا الى نتائج عكسية كان من نتائجه تبديل في الاستراتيجية ودخول الاتحاد السوفياتي كممول للمشروع بدون قيد أو شرط وبفائدة ضئيلة .

وكذلك فقد ناور الالمان ووعدوا ثم انسحبوا من تمويل مشروع الفرات بعد ان لم يجدوا لطمعهم ببترول القطر السوري طريقاً .

كما ان ارتباط نقدنا في الوطن العربي بمناطق النفوذ الاجنبي يجعل ماليتنا تحت رحمة المستعمرين القدامى والجدد وتسمح لهم بالتلاعب باسعاره كما يشتهون وحسب مصالحهم ، إذ يخفضون سعر هذه العملات عندما يستوردون منا ويرفعونها استيرادنا لبضائعهم ومنتجاتهم المصنوعة .

ولقد خطت بعض الاقطار العربية خطوات حاسمة في هذا السبيل ، فحررت نقدها من التبعية واسست مصارف الاصدار المستقلة كما هو الحال في القطر السوري والمصري ، متخلصة بذلك من التلاعب والمضاربات .

وتتبدى التبعية ايضاً في التثمير الاجنبي ، إذ يثمر الاجانب رؤوس اموالهم في مختلف البلاد العربية . وان فرنسا وبريطانيا تثمر القسم الاكبر

من رأس المال الاجنبي الموجود في الوطن العربي ، كما ان الولايات المتحـدة قد دخلت عقب الحرب الثانية سوق التثمير وحصلت على نصف التثميرات الاجنبية المباشرة في هذا الوطن ، وان القسم الاكبر من هذه التثميرات يستغل في صناعة استخراج البترول ونقله ، مـع العلم ان الاستثمارات البترولية ضعيفـة الاثر في الوطن العربي لانها جزء من اقتصاد البلاد المستثمرة على ارضنا ، ولأن ارباح البترول لا تثمر من جديد في مشاريـع جديدة تنشأ لصالح المواطنين العرب ، بل تذهب لتضخم خزائن المستغلين وجيوب اليد العاملة الاجنبية المختصة ومن يشغل المناصب الرئيسية في هذه الاحتكارات ومعظمهم من الاجانب .

كذلك نلاحظ اثر الشركات البترولية على السياسة العربية والسياسة الاقتصادية منها بشكل خاص إذ تأتي ٥٠٪ من موارد العراق و ٧٠٪ من موارد العربية السعودية وكامل موارد الخزانة الكويتية من عائدات البترول أي ما يعادل ٩٠٪ من الدخل القومي تقريباً . وفي الجـــدول التـالي تأكيد لما نقول .

جدول بعائدات النفط في الاقطار العربية عام ١٩٥٥-١٩٥٦

الرقم بملايين الدولارات

النوع	العرق	العربية السعودية	الكويت	سوريا	لبنان
المدفوعات	١٦٩،٢	٢٥٨،١	١٨٨،٩	١٢ (I.P.C) ٤ (T. L)	٣ (I.P.G)(١) ٤ (T.L.)(٢)
النفقات المحلية والرواتب والاجور	٧،٢	٢٠	١٥		١٤ (من I.P و T. L.)

(١) هذه الارقام هي ارقام تقديرية بالرغم من الوصول الى اتفاق نهائي مع لبنان .

(٢) ان المبالغ المبينة اعلاه مبالغ مملفة .

المصادر : عن تقارير منظمة الامم المتحدة (التطور الاقتصادي للشرق الاوسط)
١٩٤٥ ـ ١٩٥٤ و ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥

فاذا اضفنا الى ما تقدم بأن الشركات البترولية هي التي تفرض الاسعار العالمية للبترول العربي الخام ، عرفنا مدى الكوارث التي تصيبنا في حال تلاعب الاجانب بها أو عند تخفيضها ، علماً بأن الاقطار العربية لا تستفيد الا من نصف عائدات البترول الخام (عدا الجزائر التي تحاول ان تناصف الارباح بعد التكرير) ، وهي تلجأ الى الشركات الاجنبية لتصفية حصتها لقاء التنازل عن قسم من الكميات المصفاة كتعويض للتكرير ، مع ملاحظة ان اغلب هذه العائدات تعود الى خزائن الحكام لا للشعب الذي لا يستفيد الا من جزء يسير منها .

ومهما يكن من امر التبعية الاقتصادية فان هنالك عوامل عدة اسهمت في الابقاء على اقتصادنا العربي تابعاً واهمها :

١ ـ سياسة الباب المفتوح : ونعني بذلك ترك اسواقنا أو اجبارنا على تركها مفتوحة امام البضائع الاجنبية التي تنافس صناعتنا الناشئة ، وذلك بمنح حرية الاستيراد لمن شاء دون حماية للاقتصاد العربي الذي لم يستطع المقاومة طويلاً في معركة التنافس الاقتصادي والاحتكار ، ولو أن بعض الاقطار العربية قد تنبهت مؤخراً الى هذا الامر فحاولت معالجته .

٢ ـ سياسة استخدام رؤوس الأموال الاجنبية : إذ قامت معظم صناعات الوطن العربي معتمدة على رؤوس الاموال الاجنبية ، ولم ينتظر والحالة هذه ان تكون المنافع الاقتصادية لصالح شعبنا ، وانما كان هذا الشعب يستغل لمصلحة الاجنبي الذي أسس المصارف لمنح القروض بسخاء لعملائه من الاموال المحلية .

٣ ـ السياسة الاقتصادية الانتدابية : كانت السياسة الاقتصادية أثناء

الانتداب موجهة للاهتمام بالمشروعات التي تضمن ارباح الدولة المنتدبة ، لا لمشروعات غايتها تحقيق مصالح الوطن العربي ، ولذلك كانت جميع المشاريع التي حققت في عهد الانتداب او الاستعمار ليست الا مشاريع انشئت في سبيل صالح المستعمر وحده .

وأخيراً وعلى الرغم من التقدم الاقتصادي الذي احرزته بعض الاقطار الاقطار العربية اليوم تبقى هناك بعض الصعوبات التي يجب تذليلها في سبيل قيام صناعة عربية قوية اهمها :

آ ـ صعوبات التمويل : تحتاج الصناعة عامة الى رؤوس أموال ، وهذه الأموال قد لا تتوافر لدى الصناعيين أو الدولة ، فيلجأ الصناعيون الى المصارف المحولة التي تقرضهم بفوائد تتراوح بين ٧ ـ ١٢٪ سنوياً وأحياناً الى المرابين الذين يقتطعون نسباً طائلة من الأموال لقاء ما يقرضون حتى تصل النسبة أحياناً الى ٢٥٪ من المبلغ الاصلي .

وهذه المشكلة لا يمكن ان تحل الا باتباع سياسة ادخار قومي شامل ، يتسنى عن طريقها للمواطنين الادخار في حسابات مصرفية تتجمع في مؤسسات الادخار وتستخدم في الصناعات وتوجه الى رفع الدخل القومي .

ب ـ ضيق الاسواق المحلية : وبسبب من ضيق هذه الاسواق يصعب على الانتاج العربي في حالته الحاضرة منافسة مثيله الاوروبي أو الاجنبي بصورة عامة رغم رخص اليد العاملة المنتجة ، الا بحماية جمركية تطبق في جميع ارجاء الوطن العربي ، وبفتح الاسواق العربية امام المبادلات العربية على نطاق واسع ، وذلك لأن اسعار الكلفة للمصنوعات العربية قد تكون أكثر ارتفاعاً من مثيلاتها الاجنبيات بالنظر لاعتمادنا حتى اليوم على

الآلات القديمة من جهـــة والاساليب العتيقة من جهة أخرى ولانعـدام الخبرة أو نقصها لدى المنتجين ، وان تيار التطور الفني المستمر في العالم وتبدل الاساليب الانتاجية يفترض من العامل العربي اطلاعاً أكبر وتدريباً متواصلاً على المستحدث من الآلات والاساليب ، هـــذا على الرغم من ان عاملنا على العموم سريع التلاؤم بطبعه ، لا ينقصــه الا المران المناسب ليكون بمستوى غيره من عمال العالم .



٣ ـ تجزئة الاقتصاد العربي

على الرغم من مرور اكثر من عشرين عاماً على استقلال بعض الاقطار العربيـــة فلا زال العرب يعيشون كأغراب في مختلف اقطارهم ، واذا كان الاستعمار قد اقام منذ احتلاله لأرضنا الحدود المصطنعة فان حب الحكم والتسلط قد أدى الى تعميق هذه الحدود وتوضيحها ، وكذلك فان المصالح الفردية التي نمت نمواً منقطع النظير مع التطور المجزأ ما تزال تسهم في تأخير وحدة العرب السياسية والاقتصادية .

واذا كان الاستعمار قد جزأنا ليسهل عليه حكمنا فما بالنا حـــتى اليوم ونحن مستقلون نظرياً لم نستطع ان نزيل هذه الحدود التي فرضها علينا منذ عام ١٨٣٠ في الجزائر وعام ١٨٨٠ على مصر وعام ١٨٨١ على تونس وعام ١٩١١ على ليبيا وعام ١٩١٢ على تونس ، كما فرضهـــا على القسم الشرقي من الوطن العربي منـــذ اتفاقية سايكس بيكو وعام ١٩١٦ ومعاهدة سان ريمو عام ١٩٢٠ وقبل ذلك بكثير على مناطـــق البترول العربي .

ان مؤامرات التجزئة التي فرضها الاستعمار ما تزال تجد لها بـين ظهرانينا من يؤيدها ولو بشكل خفي مدعياً أنه يرمي الى وحدة عربية دون ان يعمل جدياً من أجلها .

فاذا كانت الاطماع الانكليزية الفرنسية خاصة ، و لاستعمارية عامة قد فتتت اوصال الوطن العربي ليسهل عليها التحكم فيه وابقاؤه مزرعة لمصالحها الاقتصادية والسياسية ، فان الطليعة العربية ايماناً منها بوحدة العرب القومية الشاملة لأمور الاقتصاد ولايمانها بأن العرب يشكلون وحدة اقتصادية كاملة متكاملة لا تتجزأ ، تستطيع أن تقاوم الاستعمار وان تستقل عنه ، فقد رفعت هذه الطليعة شعار الوحدة الشاملة كبديل منطقي وحقيقي للتجزئة المصطنعة في كافة المجالات .

ولكن على الرغم من هذا الايمان بضرورة الوحدة فان مظاهر التجزئة الاقتصادية ما تزال تطل بوجهها واضحة في الكثير من شؤوننا ، مما يجعل الامل بعيداً يحتاج تحقيقه الى كثير من الجهود والتضحيات .

وتتبدى التجزئة الاقتصادية في أمور كثيرة منها :

١ ـ التجزئة في الانتاج :

تلاحظ هذه الظاهرة عموماً في الاقتصاد العربي نظراً لعدم وجود خطة توحد الجهود الانتاجية .

ففي القطاع الزراعي نلاحظ أن اكثر الاقطار العربية تعتمد على المحصول الواحد ، والذي تماثل فيه أقطار أخرى ، مما يتيح المجال أمام التنافس الضار بالمصلحة العربية ويضعف من مقاومتنا أمام الشروط التي يفرضها الطلب الخارجي على هذه المنتجات بالنظر لفقدان التنسيق في العرض ، والقطن الذي يزرع في القطرين "سوري والمصري وعلى الرغم من أنه ذو خصائص متمايزة في كل من القطرين مثال واضح على ما نقول ، الا ان هذا يجب الا يمنع من ان تنتشر زراعة القطن حيثما توفرت لها الشروط الملائمة اذا أوجدنا « مؤسسة موحدة للتصدير » تقوم بالتنسيق بين

المنتجات وتصدر عنها العروض العالمية .

والحبوب مثال آخر ناطق عن التنافس العربي ، اذ يصدر أحياناً من بعض الاقطار العربية بأسوأ الشروط وارخص الاسعار على الرغم من استيراد بعض الاقطار لها من المصادر الاجنبية .

كذلك هو وضع الزيتون والزيت والتمور وسائر المحاصيل الزراعية التي تتعرض دوماً لضغط المستعمر وارهابه وتهديده بعدم شرائها أو تخفيض اسعارها حسب رغبته وعلاقاته السياسية بنا ، مما يجعل تجزئة الانتاج الزراعي عاملاً مهدماً في الاقتصاد العربي يؤدي الى تخلفه وضعفه .

أما في القطاع الصناعي فيبدو ان توحيد التخطيط ضرورة اقتصادية قومية ملحة ، لأن المصانع التي تنشأ ضمن حدود التجزئة لا تتنافس مع بعضها فحسب بل انها لتضطر الى تخفيض انتاجها بعد ان تغرق السوق المحلية بسبب ضعف الطلب وسوء التسويق الخارجي العربي مما يجعل ازمات فرط الانتاج تستفحل بالنسبة لبعض المنتجات في الوقت الذي تمس فيه الحاجة الى مصانع أخرى كفيلة بسد حاجاتنا التي لا نزال نشبعها حتى الآن عن طريق الاستيراد الخارجي رغم الصعوبات التي نعانيها في تأمين القطع النادر .

إن ما تقدم ليشير بوضوح الى ضرورة تنسيق التخطيط الصناعي على الصعيد القومي لا القطري ليتكامل الاقتصاد العربي فعلاً ، لا قولاً ، ناهيك عن ضرورته لرمي آثار التجزئة ظهرياً باتاحة الفرصة للعرب في استغلال مواردهم الطبيعية والقيام بمشاريع التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

٢ ـ التجزئة في التبادل وفي التمويل :

على الرغم من اختلاف نظم التبادل في الاقطار العربية ، فاننا نلمس بوادر تقارب بين هذه النظم بدأت تفرضه الضرورات ، إذ بعد أن كانت التجارة حرة حرية مطلقة مالت في السنوات القليلة الماضية الى التقييد رغم تفاوت نسبة هذا التقييد بين قطر وآخر ، حيث نجد اقطاراً تؤمن بضرورة اطلاق حرية التجارة [١] في صالح المستحدثين والمستهلكين واقطاراً تؤمن بضرورة حماية الصناعة الناشئة فتقيد التجارة تاركة للصناعة المحلية الفرصة لتدعيم خطاها وتشجيعها لبلوغ مستوى التصنيع الذي يتمكن معه المجتمع من سد حاجاته والاستفادة من فيض الانتاج في التصدير للحصول على القطع النادر .

وان أولى الملاحظات التي نتبينها فيما لو استعرضنا الاحصاءات المختلفة هي الضآلة النسبية للتبادل بين البلاد العربية [٢] .

فصادرات مصر مثلاً الى البلاد العربية ووارداتها منها تصل في المتوسط الى ٠٦/. فقط من مجموع صادراتها ووارداتها الكلية . وصادرات مصر وواردتها الى الاقطار العربية لم تكن تشكل عام ١٩٥٤ مثلاً الا نصف صادراتها ووارداتها الى انكلترا وحدها .

ولعل السبب في ذلك ان القطن وهو مادة التصدير الاولى والذي يمثل ٠/٠٧٠ من صادراتها لا يصرف منه شيء يذكر في البلاد العربية أما صادراتها الصناعية فانها تلقى شبهاً لها ومنافساً حيثما تذهب في الارض العربية ، ومع ذلك تظل الصادرات المصرية الى الوطن العربي كثيرة ، واهمها الارز

(١) وضع سورية ولبنان من مشكلة اطلاق حرية الاستيراد وما نجم عنه من قطيعة اقتصادية عام ١٩٥٠ .

(٢) عن اقتصاديات البلاد العربية (الاستاذ عمر الحكيم ١٩٦٠) .

والمصنوعات السكرية وبعض المنسوجات القطنية والملابس والاثاث والجرائد والكتب والافلام السينمائية . بينما تتكون وارداتها من الاقطار العربية من بعض أنواع الحبوب والفاكهة (خاصة من لبنان) والتمور (من العراق) والبن (من اليمن) والحيوانات الحية (من السودان وليبيا) .

أما من جهة توزيع تجارة مصر الكلية من الاقطار العربية ، فيعتبر السودان أهم سوق عربي لها من حيث نصيبه من صادراتها الكلية ثم تليه العربية السعودية .

وكذلك فان صادرات السودان الى البلاد العربية الأخرى تمثل في المتوسط ٧٠٪ من صادراته الكلية ، أما وارداته منها فحوالي ٩٠٪ . وتمثل تجارة السودان مع القطر المصري وحدها بين ٨٠ ٩٥٪ من تجارته مع مجموع البلاد العربية .

وان اغلب صادرات السودان الى هذه البلاد هي من الحيوانات الحية واللحوم والجلود وبعض الحبوب كالذرة والبقول .

أما وارداته فتتكون من بعض المنتجات الزراعية كالارز (من مصر) ودقيق القمح والفواكه الطازجة والجافة (من لبنان وسوريا) ، والتمور (من العراق) ، والمنسوجات القطنية والحريرية (من مصر وسوريا ولبنان) والمنتجات البترولية (من السعودية) .

ثم تبرز في الاحصاءات مجموعة ثانية من البلاد العربية تتميز بأن تجارتها مع بقية الوطن العربي تكوّن نسبة مرتفعة نسبياً من تجارتها الكلية ، إما في كل الصادرات والواردات كلبنان وسورية وإما في جانب الصادرات وحدها كالعراق والاردن ، وإما في جانب الواردات وحدها كالسعودية .

ومن مقارنة أرقام الصادرات اللبنانية ووارداته الكلية نتبين أن تجارة لبنان مع البلاد العربية تمثل نسبة مرتفعة من صادراته ووارداته الكلية ، ويمكننا القول أن صادرات لبنان الى البلاد العربية الاخرى تمثل حوالي ٥٠٪ من مجموع صادراته الكلية اما وارداته فتمثل ٣٣٪ من مجموع وارداته الكلية .

وان هذا النشاط ناشيء ولا شك عن الصلات التجارية الحسنة للبنان مع القطر السوري ، وكذلك بسبب قيام اللبنانيين بدور الوسطاء في المنطقة العربية . واتباع لبنان سياسة الحرية التجارية شبه المطلقة في التصدير والاستيراد .

وصادرات لبنان الى الاقطار العربية تتكون من سلع زراعية اهمها الفواكه وخاصة التفاح والحمضيات والزيوت ومن سلع صناعية أهمها المنسوجات والمصنوعات الجلدية والاسمنت وبعض الآلات، اما وارداته منها فتتكون من الحيوانات الحية والحبوب والبذور والقطن الخام (خاصة من سوريا) والبترول (من السعودية والعراق) وسوريا هي العميل الاول للبنان بين الاقطار العربية ثم تليها العربية السعودية .

أما سوريا فان صادراتها الى الاقطار العربية تتجاوز الـ ٤٠٪ من صادراتها الكلية ، بينما تشكل وارداتها منها حوالي ٢٣٪ ، وتعتبر هذه النسب جيدة اذا قورنت مع نسب مصر والسودان .

ومن خلال الجداول الاحصائية تبدو اهمية صادرات سوريا الى لبنان حيث تبلغ اكثر من ٦٠٪ من مجموع صادراتها الى الاقطار العربية الاخرى .

وكذلك يلاحظ كبر حجم واردات الاردن من سوريا الى حد يفوق حجم واردات أي بلد عربي آخر وخاصة فيما يتعلق بالمصنوعات النسيجية والغذائية .

وتتألف صادرات سوريا الى الاقطار العربية من الحبوب والقطن

الخام (الى لبنان) والحيوانات الحية ومنتجاتها (تستورد بعضه من العراق وتركيا وتعيد تصديره) ، والخضروات والفواكه (الى لبنان والاردن) والفواكه المجففة ، والمنسوجات الحريرية والقطنية والصابون (الى العراق والسعودية) .

أما وارداتها من الاقطار العربية فتتألف من الحيوانات الحية (من العراق) والارز (من مصر) والخضراوات والفواكه (من الاردن) والكتب والمجلات (من مصر ولبنان) والمنتجات البترولية (من العراق) .

ولبنان هو أول الاقطار العربية من حيث تعامله مع سوريا ثم يليه العراق فالعربية السعودية فالاردن. والجدولين التاليين يوضحان ذلك :

١ ـ علاقات القطر السوري التجارية بالاقطار العربية عام ١٩٦٠ بألوف الليرات السورية

القطر	التصدير	الاستيراد
مصر	٦٠٩٨٢	٥٢٤٧٦[١]
لبنان	٤٨٤٨٢	٢٨٦٧٣
العراق	٢٥٢٨	٤٤٧٦٣
السعودية	٢٦٨١٥	٢٩١٧
الاردن	٢٤٠٧٣	٧٤٥٥
الكويت	١١٦١٧	١٧٥٦
المغرب	١٠٤	٧٦١
تونس	٨	١٨٦٦
الجزائر	٤	٣٠٧

(١) ان وقوع القطر المصرى كاول قطر في التعامل مع سوريا كان حدثاً استثنائياً فرضته الوحدة التى كانت تقوم بين البلدين .

٢ - مجموع صادرات القطر السوري لعام ١٩٦٢
بملايين الليرات السورية

البلد المستورد	اجمالي الصادرات
لبنان	٢٧٨
ايطاليا	١٨٨
الدانمارك	٩٥
المانيا الاتحادية	٨٩
هولندا	٨٧
فرنسا	٦١
بلجيكا	٥٥
بريطانيا	٤٤
الاردن	٤٣
العراق	١٦
السعودية	١٥

ومن دراسة ارقام الجدول الاول نتبين وجود كتلتين اقتصاديتين تجاريتين ، اولها دول المشرق العربي وثانيها دول المغرب العربي وأن العلاقات التجارية القائمة بينها شبه معدومة تحتاج الى مزيد من التعاون .

كما نتبين من الجدول الثاني انه على الرغم من ان القطر اللبناني يعتبر من اكبر الاقطار العربيه المستوردة من سوريا ، فان بلاداً اجنبية تأتي بين اوائل الدول التي يتم معها التعامل التجاري بصورة اكبر مما يتم مع الاقطار العربية مع ان المفروض ان يكون العكس صحيحاً ، كما نتبين من الجدول انه ليس لبعض الاقطار العربية أي ذكر ونخص

بالذكر منها دول المغرب العربي ، علماً بأن المبادلات التجارية بين كل من المغرب والجزائر من جهة وبين فرنسا من جهة ثانية تتراوح بين ٥٦-٦٥٪ من مجموع مبادلات هذين القطرين .

واذا عدنا الى الجداول الاحصائية العراقية نرى ان صادرات العراق الى الاقطار العربية (عدا منتجات النفط) تؤلف حوالي ٢٩٪ من صادراته الكلية ، في حين ان وارداته منها لا تتجاوز ٣٫٥٪ .

وصادرات العراق تتألف من الحبوب والتمور والحيوانات الحية ، وقد بلغت نسبة صادرات هذه الاصناف الثلاثة الى صادرات العراق الكلية ٨٠٪ عام ١٩٥٤ .

وان امارات الخليج وخاصة الكويت تشكل السوق الاول للعراق بسبب قربها منه ولوقوعها في منطقة نقدية واحدة (منطقة الاسترليني) وتتألف واردات العراق من الاقطار العربية من الفواكه الطازجة والمجففة وبعض المنسوجات القطنية ومن الحرير الصناعي والصابون (من سوريا ولبنان) ومن الكتب والجرائد والمجلات (من لبنان ومصر) .

أما الاردن فهو ذو اقتصاد فقير بمجموعه ، لذلك كانت صادراته قليلة ووارداته التي تعتمد على المساعدات الاجنبية والسياحة كثيرة .

وصادرات الاردن الى الاقطار العربية تشكل ٦٧ - ٨٥٪ من مجموع صادراته الكلية ومعظمها من نصيب سوريا ولبنان .

أما وارداته من هذه الاقطار فتتألف من الحبوب وبعض الخضروات والفواكه (من سوريا ولبنان) والسكر والمنتجات القطنية والحرير والكتب والمجلات والمواد البترولية .

وتمثل واردات العربية السعودية من الاقطار العربية حوالي ٢٨٪ من مجموع وارداتها العامة ، وتظهر هذه الواردات قدراً كبيراً من التنوع ، فهي تتراوح بين المواد الغذائية والمنسوجات والسلع الاستهلاكية الصناعية والآلات - وكثير من هذه المستوردات تستورد من قبل الاقطار العربية ليعاد تصديرها الى السعودية .

وتمثل البحرين المركز الاول من حيث نصيبها من واردات السعودية ، ثم تليها مصر وسوريا ولبنان ، أما صادرات السعودية الى الاقطار العربية فهي قليلة جداً وتتألف من التمور والاغنام والجلود والصوف الخام والحصر .

أما المبادلات التجارية بين دول الشمال الافريقي وبين الشطر الشرقي من الوطن العربي فقد كانت حتى عهد قريب محدودة جداً ، ولعل السبب ناشىء عن تشابه الموارد والمنتجات هنا وهناك وصعوبة النقل وارتفاع نفقاته عدا عن ارتباط هذه الاقطار بمنطقة الفرنك مما يجعل تجارتها مرتبطة اصلاً بالدولة الفرنسية ، ولذلك فقد اقتصرت تجارة هذه الاقطار على التجارة مع الدول الاوروبية القريبة منها والواقعة على الطرف الآخر من البحر المتوسط كانكلترا وفرنسا ، بالاضافة الى تبادل السلع بينها ثم تجارة القوافل مع البلدان الافريقية المجاورة .

ولقد كانت اكثر من نصف الصادرات والواردات التونسية والمغربية حتى عهد قريب تجري مع فرنسا ، ولكن عندما احست الاقطار العربية الافريقية بغبية اخطار هذه التبعية بعد حصولها على الاستقلال عمدت الى البحث عن اسواق جديدة لمنتجاتها في اسواق الاقطار العربية الأخرى والدول الاجنبية .

وعلى الرغم مما تقدم تظل التجارة العربية فيما بينها أقل بكثير من المطلوب وان تجارة هذه الاقطار مع الدول الاجنبية تفوق مئات المرات التبادل فيما بينها .

وتنحصر الصادرات الاساسية للوطن العربي الى خارجه بالمواد الاولية كالبترول والقطن والحبوب[1] ، مما يجعل في مكنة الدول المستوردة لهذه المواد ان تستأثر بتحديد اسعار هذه السلع وان تحجم عن شرائها لتضغط على بعض الاقطار سياسياً . وتتراوح تقلبات الاسعار العالمية بالنسبة لهذه المواد ٣٠٪ هبوطاً وصعوداً مما يجعلنا في وضع غير مستقر بالنسبة لمشروعات التنمية التي تعتمد في جزء من تمويلها على هذه الصادرات .

اضف الى ذلك ان احتمال التقلبات العالمية في حجم مجموع الطلب على المواد الاولية قد يتطور ويتبدل نتيجة للتقدم العلمي والاختراعات التي تتيح الاستعاضة عن المواد الاولية بمواد صنعية ، كما حصل بالنسبة للحرير الطبيعي اذ استعيض عنه بمادة الحرير الصناعي الارخص سعراً مما عرض عملية انتاج الخيوط الطبيعية الى هزة كبرى وأدى الى التأثير مباشرة على الدخل القومي .

وعلى الرغم من كثرة الصادرات العربية نسبياً الا ان هذه الصادرات لا تكاد تشكل الا جزءاً ضئيلاً من التجارة العالمية (بسبب كون اغلبها مواداً اولية) اذ تتراوح نسبة هذه الصادرات بين

---

(١) ان نصف صادرات الوطن العربي او يزيد هي من البترول ، كما ان القطن يمثل في مصر حوالي ٧٠٪ من صادراتها وكذلك السودان ، اما الحبوب والقطن والصوف فتمثل ٥٠ـ٧٠٪ من صادرات سوريا ، بينما يمثل التمر والحبوب والصوف الخام ٨٠٪ من صادرات العراق .

١ - ١٠٧ /. (١) فقط من مجموع الصادرات العالمية الا ان واردات الوطن العربي تعادل ١٠٦ ١٠٧٪ من الواردات العالمية ، ولهذه الارقام دلالتها وخطرها ، لأن الميزان التجاري يعبر عادة عند توازنه على توازن الاقتصاد، وعندما يفقد ذلك التوازن يتأثر التقدم الاقتصادي والميزان التجاري خاسر عموماً بالنسبة لمجموع اقطار الوطن العربي ، وان دراسته بالنسبة للاقطار العربية تظهر حقيقة مؤلمة وهي احجام بعض الاقطار العربية عن التعامل مع اشقائها وارتباطها بالدول الاجنبية في تعاملها التجاري رغم توفر السلع في السوق العربية التي قد يضطر أحد الاقطار الى بيعها بارخص الاسعار للمحتكرين الاجانب .

والآن ما هي اسباب العزلة بين الاقطار العربية ؟

من المعروف ان معظم البلاد الحديثة الاستقلال تكون عادة مفرطة الحساسية بالنسبة لسيادتها ، ولذلك فهي تنكفيء على نفسها وتنعزل في معاملاتها محافظة منها على استقلالها خوف تقلص سيادتها ، واذا كان هذا الأمر صحيحاً وله ما يبرره بالنسبة للبلاد الغربية عن بعضها فانه امر لا يمكن تصوره بالنسبة لاقطار الوطن العربي التي تعتبر الوحدة المقبلة امراً حتمياً .

واذا صح مثل هذا الموقف تجاه الدول المستعمرة والشركات الاجنبية المستغلة المحتكرة فلا يصح بحال بالنسبة للاقطار العربية فيما بينها والا لما وجد له تفسيراً غير سيطرة الانانية على الحكام مما يجعل التعاون الاقتصادي العربي مستحيلاً .

وان خير مثال نضربه على هذا الامر هو تلك التحفظات الدائمة

---

(١) هذه النسبة لا تشمل الصادرات البترولية .

التي يبديها حكام المناطق المنتجة للبترول تجاه كل تعاون عربي ، مما يترك هذه الاقطار رغم غناها بالمال منعزلة عن المساهمة الفعّالة في تمويل مشاريع التنمية العربية في الاقطار الأخرى ، خوفاً منها ان يقاسمها العرب عائداتها من البترول ، هذه العائدات التي يجمد ا كثرها في المصارف الاجنبية وتتصرف بها التنمية الاجنبية بينما يحرم الوطن العربي من فوائدها ولا يتمكن من الاستعانة بها في تطوره الاقتصادي وفي القضاء على التخلف في شتى المجالات الاجتماعية .

والخلاصة :

فلقد عرضنا في القسم الاول من الاوضاع الاقتصادية العربية الى صفات الاقتصاد العربي عموماً وتبينا انه يتصف بالتخلف والتبعية والتجزئة ، وسنبحث فيا يلي في الحلول الكفيلة بالنهوض باقتصادنا بحيث يساير اقتصاد الدول المتقدمة . لنرفع من مستوى الفرد العربي الذي يعتبر الخلية الاساسية في كيان الامة العربية .



ـ التنمية الاقتصادية العربية ـ

على الرغم من الاتفاق الحاصل بين المختصين حول ضرورة ايجاد سبل لتطوير المجتمعات المتخلفة الا انه يصعب حصر طرق التنمية الاقتصادية بحلول جامدة ثابتة تنطبق على جميع المجتمعات المتخلفة وذلك لأن اسباب التخلف قد تختلف من مجتمع لآخر وكذلك نتائج هذا التخلف ، كما أن مظاهر التخلف قد تبدو في بلد غيرها في بلد آخر ، ولهـــذه الاسباب ولحداثة طرح موضوع تطوير البلاد المتخلفة فقد تشعبت آراء الاخصائيين حول موضوع التنمية الاقتصادية ، اذ انه لم يطرح الا عقب الحرب العالمية الثانية ، عندما قامت البلاد المتخلفة المستقلة حديثاً تطالب بتطوير بلادهـا رامية جميع اسبابه على اكتاف الدول الكبرى المتقدمة مما جعل تلك الدول تنظر من وجهة نظر مصلحتها الخاصة الى أوضاع البلاد المتخلفة ، وبدأت تحـاول تهدئة لخواطر هذه الشعوب ايجاد طرق أو سبل لمساعدة البـلاد المتخلفة على التطور .

ولقد لاحظ المختصون في البلاد المتقدمة البون الشاسع بين بلادهم والبلاد المتخلفة التي اسموها بالنامية ، وادركوا من الاحصاءات المتوفرة لديهم انهم شركاء في مسؤولية تخلف هذه البلاد .

ولكن على الرغم من وجود شبه اجمـــاع على اهميـة وضرورة

التنمية الاقتصادية ، فان هذا الاجتماع يفتقد عند محاولة ايجاد طريقة واحدة للتنمية .

فمن قائل بأن الحلول للتخلص من مشكلة التخلف تكمن في ايجاد العلاج الديموغرافي لتكاثر البشر على سطح الكرة الارضية المحدود ، ومن قائل بأن الحلول يجب ان تكون اقتصادية لمعالجة الاوضاع الاقتصادية وذلك بتعديلها وتبديلها اذا اقتضى الأمر ، وآخرون يقولون أن التحرر من الاستعمار هو الحل الوحيد لمشكلة التنمية معتبرين المشكلة سياسية بحتة .

ونحن سنعرض هنا لمختلف الحلول المقترحة ، مؤكدين بأن الحل لا يمكن أن يكون وحيد الجانب ، بل هو متعدد الجوانب يشمل السكان والاقتصاد والسياسة .

اولاً ـ الحلول الديموغرافية :

مما لا ريب فيه ان الحل الديموغرافي اي تحديد تزايد السكان كفيل الى حد ما بايجاد بعض التوازن في التنمية الاقتصادية .

فاذا اخذنا مجتمعنا العربي وجمعنا الدخول القومية لاقطاره التي نرمز اليها بـ (د) ثم قسمنا هذه الدخول على عدد السكان الذي نرمز اليه بـ (س) . سنجد الحالات التالية احتمالاً .

اذا كان العامل (د) يتزايد مع ثبات العامل (س) وهذا امر فرضي فان مستوى الفرد يكون في حالة ارتفاع اكيد .

أما اذا ثبت العامل (د) كما ثبت العامل (س) فان الاوضاع الاقتصادية تكون ثابتة لا تتأثر ولا تتغير وهذا مستحيل ايضاً .

أما اذا ازداد العامل (س) ، وهذا هو وضع المجتمع العربي كما

سبق ان بيناه في البحث البشري ، وثبت العامل (د) كان معنى ذلك كارثة محققة وانخفاض مستمر لمستوى الفرد العربي .

ان الحالات السابقة هي ولا شك حالات نظرية محضة ، لاننا نلمس في مجتمعنا العربي تزايداً في (د) وفي (س) ولكن (س) قد تكون اكبر من تزايد (د) عند ذلك يمتص التزايد السكاني كل ارتفاع ممكن في الدخل القومي الذي ينتج عن التنمية الاقتصادية ، أو قد يترك معدلاً صافياً للتنمية بسيطاً جداً لا يظهر أثره الا على المدى البعيد ، وهذا يبدو واضحاً جلياً من ملاحظة الجدول التالي حيث نجد ان معدل التنمية الصافي يكون شديد الانخفاض بالنسبة للقطر المصري حيث يتزايد السكان تزايداً كبيراً ، بينما نجد ان معدل التنمية الصافي يكون كبيراً بالنسبة للقطرين السوري والعراقي .

جدول بمعدل التنمية الصافي في بعض الاقطار العربية

القطر	الفترة	معدل الزيادة (د)	معدل الزيادة (س)	معدل التنمية الصافي
المصري	١٩٥٠-١٩٥٦	٢،٦	٢،٤	٠٠،٢ ٠/٠
السوري	« «	٦،٥	٢،١	٤،٤ ٠/٠
العراقي	« «	١٢	٣،٢	٨،٨ ٠/٠

الا انه تجدر الملاحظة بأن انخفاض معدل التنمية الصافي لا يكون دوماً دليلاً على التخلف أو على عدم جدوى التنمية الاقتصادية (١) فالمجتمعات

(١) وهذا الامر لا ينطبق على القطر المصرى لان تزايد السكان فيه تعادل تقريباً تزايد الدخل القومي والامر هنا يحتاج الى علاج اذ ان الزيادة في السكان تمتص كل ارتفاع في الدخل القومي .

المتقدمة والتي وصلت أعلى مراحل التطور الصناعي يكون فيها معدل التنمية الصافي ضئيلاً لأنها وصلت في التنمية الى اعلى حدودها ، كذلك فان ارتفاع المعدل الصافي للتنمية ليس دليلاً على نجاح خطة التنمية التي اخذت بها الدول المتخلفة الا اذا بقي هذا المعدل كبيراً على المدى البعيد ، وذلك لان هذا المعدل يبدو مرتفعاً لدى جميع الدول الاخذة ببرامج للتنمية بسبب حداثة هذه البرامج من جهة وكذلك بسبب التركيز عليها لانجاحها ، فاذا بلغت التنمية المستوى المطلوب بدأ هذا المعدل يقل تدريجياً حتى يصبح طفيفاً كما هو الحال لدى المجتمعات الكاملة التطور .

ونحن مع قناعتنا بأن تحديد النسل وتثبيت التزايد ضمن حدود معقوله قد يكون ضرورياً في كثير من البلدان التي تشكو من الا كتظاظ السكاني ، الا ان هذا الحل مرفوض من قبلنا نحن العرب لأن بلادنا تشكو ضعف الكثافة السكانية ومواردها تكفي مئات الملايين زيادة عن العدد الموجود حالياً ، لأن الاخذ بمثل هذا المبدأ يعرضنا للضعف ولاستعمار ارضنا واستثمار خيراتنا من قبل غيرنا .

هذا مع قناعتنا ايضاً ان تزايد السكان قد يؤدي الى انخفاض في مستوى المعيشة اذا لم يواكبه تزايد في الدخل القومي ، مما يعرض الناس الى انخفاض في المستوى الصحي وانتشار الامراض والاوبئة والى نقص في المواد الغذائية مما قد يسبب المجاعات والفوضى الاجتماعية ، وقد يدفع البلاد المتقدمة اذا ازداد سكانها الى البحث عن موارد جديدة فيدفعها الى الاستعمار (كما حصل عقب الثورة الصناعية الاوروبية) أو قد يدفعها الى الحرب للحصول على مناطق نفوذ او مجالات حيوية .

آ ـ الاتجاه المتشائم :

ويقف على رأس دعاة هذا الاتجاه الاقتصادي الانكليزي

مالتوس Malthus الذي يرى بأن تكاثر السكان هو اكبر بكثير من امكانيات الارض على انتاج الغذاء . لأن السكان يتزايدون وفق متوالية هندسية في حين ان الموارد الغذائية تتزايد وفق متوالية حسابية ، مهما بذل الناس من جهد في الانتاج .

تزايد السكان : ١ ٢ ٤ ٨ ١٦ ٣٢ ٦٤ الخ ...
تزايد الغذاء : ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ الخ ...

ومما تقدم يمكن لنا ان نتبين فقدان التوازن بين المتواليتين ، مما يسبب وقوع الكوارث كالمجاعات والحروب وذلك لان السكان يتضاعفون على سطح البسيطة كل خمسة وعشرين عاماً ، بينما لا يتزايد الغذاء بنفس النسبة .

ويكمن الحل بالنسبة لمالتوس في تبني الموانع الاخلاقية كالعفة والزهد وتأخير سن الزواج ، الا ان ذلك لا يكفي وحده ، اذ تقوم الطبيعة نفسها لتدعم التوازن بموانعها المتمثلة بالاوبئة والزلازل والفيضانات والمجاعات .

وقد وصفت هذه النظرية من قبل البعض بأنها « عبقرية سوداء تخنق كل أمل للجنس البشري » .

ب ـ الاتجاه المتفائل (١) :

يهاجم المتفائلون مالتوس وينتقدونه بشدة لانه اغفل أهمية التقدم التقني Technical Progress وأثره في ايجاد موارد جديدة وامكانيات مبتكرة لتغذية الانسان (٢) وامكانية هذا التقدم في اعادة التوازن المفقود باستمرار ،

(١) جان فوارستيه « Le Grand Espoir du XX Siécle »
(٢) فكرة الحصول من خبز من البحر عن طريق تجميع بعض الاشنيات التي تتزايد بشكل هائل ...

ويقولون ان الدفاع الانساني قادر وكفيل على ايجاد المخترعات والاكتشافات التي تحقق ايجاد حلول المشكلات السكانية ، فها هو الانسان ينطلق الى عوالم أخرى غير الارض وها هو ذا يمخر عباب الفضاء الكوني بمركباته محاولاً غزو القمر ولعله قد يجد موارد جديدة للجائعين والمحرومين من بني البشر .

اضف الى ذلك ان الكثير من المجتمعات لم تنظم نفسها اقتصادياً بعد ، كما انها لم تفكر جدياً في رفع مستوى افرادها عن طريق توزيع عادل للثروة ، كما ان بعض المجتمعات الاخرى لم تحاول معالجة الموضوع على أساس التكامل الديموغرافي بين أجزاء الوطن الواحد ، بحيث تتوزع الكثافة السكانية بشكل معقول ومدروس ، وان هناك مناطق كثيرة الموارد قليلة السكان تمنع الناس من الهجرة اليها أو تحدد عدد المقبولين في مجتمعها .

ومهما يكن من أمر التشاؤم والتفاؤل ، فان المجتمعات في عصرنا الحاضر تتوزع بين ثلاثة مذاهب ينادي اولها وهو المذهب الغربي وهو ذو طبيعة مالتوسية ، بتحديد النسل كلما انخفض مستوى المعيشة في حين ينادي ثانيها وهو المذهب الاشتراكي بأن ازدياد السكان في دولة ما انما هو ازدياد لقوتها الاقتصادية ، لان زيادة اليد العاملة معناه زيادة وارتفاع في الانتاج ، أما الثالث وهو مذهب الحياد فيعتنق مبدأ النسبية الاجتماعية الذي يبيح لكل مجتمع أن يتبنى السياسة الديموغرافية المتفقة وظروفه .

ج ـ الاتجاه العربي :

فاذا عدنا هنا الى محاولة تطبيق ما تقدم على وطننا العربي ، يبدو لنا أن أي حل يتخذ على أساس ظروف قطرية فاشل حتماً ، وأن الحل الصحيح للمشكلة السكانية في مجتمعنا العربي يجب ان يرقى الى

المستوى القومي ، ونعود هنا مجدداً لنؤكد ان طريقة تحديد النسل لا يمكن ان تصح لمجابهة المشكلة السكانية العربية نظراً لوجود اقطار تعاني نقصاً في الكثافة السكانية مع امتلاكها امكانات كبيرة في الثروة الطبيعية كسوريا مثلاً في حين تكتظ اقطار أخرى كمصر بسكانها مع قلة في الموارد ، وان وجود اسرائيل شوكة في كيان الامة العربية يؤكد لنا خطر الاخذ بطريقة تحديد النسل ، كما ان التهديد المستمر لوطننا من قبل الاستعمار يجعلنا نلح لايجاد طريقة لعلاج تعديل الضغوط السكانية وفقاً لسياسة تهجير عربية منظمة ، اخذين بعين الاعتبار وحدة الامة العربية مصرّين على أن التجزئة المصطنعة يجب ان لا تحول دون اعادة التوزيع على نحو يحقق التوازن المرغوب في البناء الديموغرافي للمجتمع العربي .

الا ان هذا يجب الا يمنع بعض الاقطار العربية ولا مرحلياً وحتى الوصول الى اتفاق حول الموضوع من أن تتبنى فكرة تنظيم النسل لعلاج مشكلة التخلف الاقتصادي على الصعيد القطري على أن تدعم بحملة توعية للجماهير تجعلها اكثر تقبلاً لمثل هذه الافكار الجديدة .

ثانياً ـ الحلول الاقتصادية :

ان مشكلة تمويل مشروعات التنمية الاقتصادية تعتبر من المشكلات العويصة التي تحتاج الى حل ، خاصة وان الادخار الفردي ضعيف في الوطن العربي اجمالاً بسبب انخفاض مستوى الدخل الفردي ، ولذا يصعب الاخذ بهذه الوسيلة لتمويل المشروعات ، واذا صح هذا السبيل بالنسبة لبعض الاقطار العربية كسوريا مثلاً فانه صعب التحقيق في مجموع اقطار الوطن العربي حيث يتدنى مستوى الدخل الفردي الى ادنى حدوده كما في

السعودية واليمن [1] ، بحيث يكاد يكفي تأمين الحاجات الحياتية الضرورية ، ولذلك تتجه انظار الحكومات العربية الى التمويل الخارجي المتمثل بالهبات والقروض الاجنبية ، لذا فان بحثنا سيتناول على التوالي امكانية التمويل الداخلي عن طريق الادخار وعائدات النفط ثم التمويل الخارجي .

آ ـ التمويل الداخلي .

ويتمثل التمويل الداخلي بمصدرين اساسيين الاول الادخار الفردي والثاني بعائدات النفط وعائدات مروره في الانابيب .

١ ـ الادخار :

والادخار الفردي هو المصدر الاول للتنمية الاقتصادية ، لان زيادة حجم الادخار تتيح عادة زيادة حجم التوظيف ما دام البلد يعتمد على امكانياته المحلية دون الالتجوء الى القروض والمساعدات الاجنبية .

الا ان الادخار القومي ـ كما سبق ان بينا ـ ضعيف الجدوى في الوطن العربي لا يمكن الاعتماد عليه وحده في تمويل مشروعات التنمية الاقتصادية ، لان الادخار الخاص لا يتجاوز (٧٠٦) مليون دولار او ٢٪ مما يحتاجه الوطن العربي لزيادة دخله القومي ، حسب احصاءات الامم المتحدة .

وهذا الادخار ينصرف عادة وبسبب انخفاض سوية عيش الجماهير الى تلبية الحاجات الاكثر الحاحاً اكثر من اتجاهه الى التثمير والتنمية .

والجدول التالي يوضح ضآلة الادخار وبالتالي ضآلة التثمير في بعض الاقطار العربية .

---

(١) راجع بحثنا عن انخفاض مستوي الدخل الفردي .

جدول بمعدل الادخار والتثمير لبعض الاقطار العربية

القطر	السنة	معدل الادخار	معدل التثمير
المصري	١٩٥٥	٩٫٤ ٪	٩٫٤ ٪
اللبناني	١٩٥٧	١٧٫٥٪	١٥٫٢٪
السوري	١٩٥٦	١٦٫٨٪	١٦٫٥٪
العراقي	١٩٥٦	٢٣٫٥٪	٢٧٫٣٪

٢ ـ عائدات البترول :

ينقص الاقطار العربية المنتجة للبترول الكيان الاقتصادي الذي يسمح باستثمار عائدات البترول بل ان اكثر هذه العائدات ان لم يكن معظمها ينصرف الى البذخ والاستهلاك دون الالتفات الى حاجة العرب لهذه العائدات لتنمية اقتصادهم . ونتيجة لشعور العرب بالحاجة الى استثمار جزء من هذه العائدات على الأقل في هذا المجال فقد اتجه التفكير لانشاء منظمة عربية للبترول تقوم باستثمار فائض العائدات في برامج التنمية الاقتصادية العربية .

وتجسيداً لهذه الفكرة فقد وضعت في حزيران عام ١٩٥٧ اتفاقية بين أعضاء المجلس الاقتصادي التابع لجامعة الدول العربية نصت على إنشاء مصرف عربي للانماء الاقتصادي برأسمال مبدئي قدره / ٢٠/ مليون جنيه مصري .

وهكذا اضطرت دول البترول على الخروج من عزلتها وعلى تثمير جزء من عائدات النفط فيها في مشاريع قومية للتنمية الاقتصادية وعلى الاسهام بانشاء مصرف عربي للتنمية ، وعلى فرض اشتراك عدد معين من

المواطنين العرب في الشركات البترولية المستثمرة وايصالهم الى المناصب الادارية الرئيسية فيها وكذلك اجبار هذه الشركات على تصفية البترول العربي ما أمكن ذلك في مصاف مقامة على ارض العرب للاشتراك مع هذه الشركات في جني ارباح التصفية التي تزيد مئات المرات عن ارباح العائدات، واخيراً اجبار الشركات البترولية على الاسهام في مشاريع التنمية الاقتصادية بتثمير جزء من ارباحها في الارض العربية للتعجيل في هذه التنمية .

كذلك فقد عمدت الاقطار العربية التي تمر عبرها انابيب النفط الى المطالبة بزيادة عائدات المرور فيها لتتمكن من تخصيص المبالغ الجديدة (١) لتمويل المشاريع الاقتصادية وانشاء كيان اقتصادي جديد يعتمد في جزء منه على العائدات البترولية ويكون وسيلة من وسائل تحقيق التنمية الاقتصادية .

ب ـ التمويل الخارجي :

لما كان الادخار الخاص عاجزاً عن تأمين تمويل مشاريع التنمية الاقتصادية فقد انصرف التفكير الى البحث عن مصادر خارجية للتمويل كالهبات والقروض .

١ ـ الهبات :

وهي في جزء منها اقتصادية الهدف تبتغي التنمية والمعونة الفنية ، وهذه إما أن تكون معونات دولية كمعونات الامم المتحدة أو معونات حكومية قد ترمي الى غايات دعائية .

والجدول التالي يبين مقدار المعونات الفنية التي قدمتها الامم المتحدة لمنطقة الشرق الاوسط عام ـ ١٩٥٦ ـ .

---

(١) ان المبالغ التي كانت تتقاضاها اكثر الاقطار التي يمر عبرها البترول كانت تنصرف في تدعيم الموازنات العادية لتغطية بعض النفقات فيها .

المعونات الفنية للامم المتحدة عام ١٩٥٦ (١)

البلد	مشاريع التجهيزات الارقام بالاف الدولارات	الخبراء	المنح
مصر	٨٩١٫٢	٨٧	٢٤
سورية	٦١٫٠	٥٠	٢٥
العراق	٤٨٦٫٩	٥٣	٣٦
اسرائيل	٤٠١٫٤	٤١	٤١
الاردن	٣٨٣٫٣	٣٨	٢١
لبنان	٢١٢٫٥	٢٢	٢٨
العربية السعودية	١٣٥٫٠	١٦	١٣
اليمن	١٥٣٫٠	٢٠	١٥
المشاريع الاقليمية	٥٢٦٫٤	٤٤	١٥٤
المجموع	٣،٨٠٢٫٧	٣٧١	٣٦٧

ومن الجدول السابق يتبين ان مصر والعراق والاردن وبقية الاقطار العربية نالت قسماً كبيراً من هذه المساعدات ، بينما نالت سوريا اقلها ، وكذلك فان اسرائيل نالت مساعدات تعادل تقريباً ما ناله الاردن ، مما يتبين معه اصرار المنظمة الدولية على سياسة التوازن بين هذا القطر واسرائيل .

أما الجدول التالي فيوضح توزيع المساعدات الامريكية في الشرق الاوسط بين عام ١٩٤٥ — ١٩٥٦ .

(١) عن كتاب التنمية الاقتصادية والبنى في الشرق الاوسط ـ بيروت ١٩٥٧ للأستاذ الياس غناجة .

جدول بتوزيع المساعدات الامريكية في بلاد الشرق الاوسط (١)
بين عام ١٩٤٥ - ١٩٥٦ بملايين الدولارات

الدولة	٩٤٥-٩٥١	٩٥٢	٩٥٣	٩٥٤	٩٥٥	٩٥٦	العون الكلي بعد الحرب
لبنان	١٫٨	٣٫٧	٠٫٩	٨٫٧	٣٫٠	٧٫٧	٣٤٫٨
مصر	١٨٫٤	٠٫٤	١٢٫٩	٣٫٢	٤٢٫٦	٢٦٫٠	٨٠٫١
الاردن	١٫٥	٤٫٧	٢٫٨	١٠٫٥	٧٫٢	٧٫٥	٣٤٫٢
العراق	٠٫٩	٠٫٥	٢٫١	٢٫٢	٢٫٨	٢٫٣	١٠٫٨
العربية السعودية	٢٠٫٦	٠٫٢	١٫٣	٠٫٦	٠٫٢	—	٢٢٫٩
اسرائيل	١٢٧٫١	١٠٤٫٠	٧٢٫٩	٥٣٫٩	٤١٫٥	٢٤	٤٢٣٫٤
المجموع	١٧٠٫٣	١١٣٫٥	٩٢٫٩	٧٩٫١	٩٦٫٣	٤٤٫١	٥٩٦٫٢

من الجدول السابق يتبين بأن اسرائيل نالت ما يزيد عن ٤٢٣٫٠ مليون دولار خلال عشرة سنوات من الولايات المتحدة أو ثلاثة ارباع المبلغ المقدم كمنح مساعدات الى نطقة الشرق الاوسط ، وهذا يدل على اصرار الولايات المتحدة الامريكية احياء اسرائيل ببذل الدماء الجديدة بصورة مستمرة لها وتدعيمها .

وكذلك يلاحظ ان مصر نالت ٧٫٥٪ من مجموعات المساعدات أو ما يعادل ٨٠ مليون دولار خلال نفس المدة ، في حين يغيب اسم القطر السوري عن قائمة المساعدات هذه .

ان التضامن العالمي والاخوة الانسانية تفترض من المجتمعات المتقدمة

(١) المصدر ـ مكتب الامم المتحدة في لبنان .

اخلاصاً اكبر لهذا التضامن وشعوراً انسانياً أقوى من الذي ساد حتى اليوم لتقوم هذه المجتمعات بواجبها تجاه المجتمعات المتخلفة عن طريق منحها المساعدات والهبات والمساهمة في تطوير هذه المناطق المتخلفة مساهمة فعلية الا ان بعض الدول المتقدمة كانت تمن" على المستفدين من مساعداتها مما جعل الكثيرين يرفضونها وبعضهم يتردد في قبولها خوفاً من أن تكون ذات غايات ابعد من مظاهرها الخارجية ، فعمدت الى طلب القروض تستعين بها على تطوير اقتصادها ووجدت الدول المتقدمة ان طريق القروض أفيد للطرفين بعد إذ وجدت مساعداتها لا تُتلقى كثيراً بالترحاب حيث حلت ، لذلك ورغبة في تثمير الأموال فقد عمدت الى القروض الطويلة الاجل التي تتطلب من الدول المستفيدة ان تشترك بالفعل بنسبة مئوية من تكاليف المشاريع ، لاذكاء الشعور لدى الدولة المستفيدة بأنها صاحبة المشروع ولو في جزء منه ، وقد حققت هذه الطريقة الكثير من المشروعات حتى اليوم.

٢ - القروض :

والقروض على أنواع ثلاثة ، فاما أن تكون قروضاً وطنية وتكون بطرح أسهم ذات قيمة محدودة وبفوائد محددة على المواطنين لتغطية مشروع من المشروعات وقد عمد اليه القطر المصري مرات عدة فغطى المواطنون هذه القروض بساعات أحياناً وبأيام.

واما أن تكون قروض قومية كتلك القروض التي قدمتها السعودية يوماً لسورية أو التي ما زالت تقدمها الكويت لبعض الاقطار العربية بعشرات ملايين الدنانير للمساهمة في تنمية المشروعات العربية.

او ان تكون اجنبية ، وهذه قد تكون دولية كقروض البنك

الدولي الذي يساهم في أقراض الدول الاعضاء على تنمية مشاريعها بنسبة اشتراك العضو في الرأسمال الاصلي للبنك وتتدخل في هذه القروض ومدتها وكميتها الدول المسيطرة على البنك بمساهمة كبيره كالولايات المتحدة الامريكية التي قد لا تسمح لمجلس البنك اقراض أي جهة قد تقاوم او لا تجاري السياسة الامريكية ، أو قد تكون قروضاً بين دولتين دولة متقدمة في الصناعه ودولة نامية ، كالقروض الاميركية التي تقدمها الولايات المتحدة الى بعض الدول أو القروض السوفياتية أو غيرها وقد تلعب القيمة السياسية للدولة المقترضة أو استراتيجية الدولة المقرضة في شكل هذه القروض وكمياتها ، فبعضها يكون آنياً كالقروض التي تمنحها الولايات المتحدة من فائض الاغذية لديها للمناطق التي تتعرض للكوارث الطبيعية أو التي تنقص فيها كميات الغذاء في فترة من الفترات وقد تكون طويلة الاجل لتمويل مشاريع تنمية طويلة الأمد كقروض الاتحاد السوفياتي لانشاء السد العالي .

وسنستعرض فيما يلي القروض الامريكية ثم السوفياتية ثم القروض الأخرى دون التعرض للقروض الداخلية أو العربية لانها تعتبر تمويلاً محلياً للمشاريع الصناعية .

القروض الامريكية :

انشأت الولايات المتحدة من أجل تنمية البلاد المتخلفة صندوقاً خاصاً للتنمية الاقتصادية ، وغايته منح القروض الطويلة الأجل **للاستثمارات الرابحة** التي تعطي دخلاً منتظماً بعد وضع دراسة كاملة للمشروع والتأكد من ربحه ، بالاضافة الى القروض التي يمنحها المصرف الدولي للانشاء والتعمير والى الصندوق الخاص للمساعدة العاجلة المنوط بالرئيس الامريكي مباشرة .

وقد بلغت مخصصات صندوق التنمية بين عام ١٩٥٧ - ١٩٦٠

مبلغ خمسماية مليون دولار سنوياً ، وجميع القروض التي منحها كانت مشروطة وليس امتناع الصندوق عن تمويل مشروع السد العالي عام ١٩٥٥عنا ببعيد .

القروض السوفياتية :

بعد ان وصل الاتحاد السوفياتي الى المستوى الصناعي المرتفع الذي هو فيه اليوم ، عمد الى النزول الى سوق القروض وبدأ ينافس الولايات المتحدة الامريكية في هذا المجال كما ينافسها في كثير من مجالات الحياة الاخرى ، إذ وجد هذا الاتحاد انه من المستحيل تحرير الدول المتخلفة من اثار الاستعمار والامبريالية وخاصة منها الدول الحديثة الاستقلال في آسيا وافريقيا الا بتمويل مشاريع في تلك الدول تساعدها على ايجاد توازن بين وارداتها ونفقاتها ، ولذلك فقد رصد الاتحاد السوفياتي بميزانيته المبالغ الطائلة للقروض هذه وحدد القروض بفوائد لا تتجاوز ٢،٥٪ وهو أقل معدل ممكن لاي قرض في العالم اجمع .

ولقد وجدت البلاد المتخلفة ومنها بعض اقطار الوطن العربي فرجاً في نزول الاتحاد السوفياتي الى سوق القروض فاستطاعت ان تكون اكثر صلابه تجاه المشاريع الامريكية واستفادت من وجود مصدر آخر للقروض للمساومةمع الدول الكبرى .

وقد استفاد القطر السوري من القروض السوفياتية اذ عقد عام ١٩٥٧ اتفاق بين الاتحاد السوفياتي وهذا القطر اطلق عليه اسم « اتفاق التعاون الاقتصادي والفني » منحت سورية بموجبه قرضاً بمبلغ / ١٦٥ / مليون دولار اضافة الى المعونة الفنية اللازمة ، على ان يسدد القرض على اقساط سنوية مدتها /١٢/ عاماً من تاريخ البدء باستعمال القرض وعلى ان يستفادمنه بتمويل مشروعات الري والكهرباء والنقل الحديدي واستغلال المعادن وتنمية

الموارد الحيوانية والزراعية .

كما منح القطر المصري عام ١٩٥٨ قرضاً بمبلغ / ٢٦٤ / مليون دولار بشروط ممتازة ثم تلاه قروض اخرى .

وتتميز القروض السوفياتية عدا عن انخفاض معدل فائدتها ، أنها سهلة الدفع والتسديد ، إذ يتميز التسديد بالمنتجات الوطنية او بالعملات الاجنبية القابلة للتحويل .

القروض الاجنبية الاخرى :

ومنها القروض الالمانية الشرقية والغربية . وقد منحت المانيا الغربية قبل القطيعة السياسية مبلغ مائة وخمسون مليون دولار لاستخدامها في انشاء مراكز للتدريب ومعاهد البحوث البترولية ولدراسة خامات الحديد والمنغنيز وانشاء مطار دولي في دمشق ، اذ أن الاتفاق كان يشمل القطرين المصري والسوري .

أما المانيا الشرقية فقد أقرضت مصر مبلغ عشرون مليون دولار ليستخدم في الحصول على الآلات والمعدات اللازمة لاقامة مصانع للخشب المضغوط والورق ، واقامة وحدات للغزل والتبريد على ان يتم التسديد بمنتجات وطنية .

ومنها القروض اليابانية اذ منحت اليابان مصر قرضاً بمبلغ ثلاثون مليون دولار بفائدة قدرها ٥٪ لتستخدم في انشاء معامل جديدة للسكر والغزل والسردين والصود الكاوي وشباك الصيد وبناء اربع ناقلات بترولية واحواض لبناء السفن .

هذا وقد نزلت الصين وفرنسا (١) مؤخراً الى سوق

---

(١) القرض الفرنسي لسورية لانشاء المطار الدولي بدمشق وقد تم توقيعه عام ١٩٦٥ الجاري بعد ان انسحبت المانيا من هذا التمويل .

الاقراض وبدأت المباحثات بين بعض الاقطار العربية وهاتين الدولتين للاستفادة من قروضها .

ولكن وعلى الرغم من مغبات الاقتراض فان العرب بسبب نمو شعورهم القومي رفضوا دوماً القروض المشروطة من أي مصدر كانت خاصة اذا كان لها مساس قريب أو بعيد باستقلالهم أو قضاياهم القومية ، كما انهم عرفوا ان اعتمادهم على مصدر واحد للاقتراض يجعلهم دائماً عرضة للضغط من الجهة المقرضة وكذلك يشل حرية حركتهم في تصرفاتهم الدولية لأن خلافاً قد يقع بين الجهة المقرضة والجهة المقترضة مما يعرض الجهة المستفيدة من القرض الى نتائج وخيمة العواقب على اقتصادها وقد يصيب بالشلل كافة مشروعات التنمية فيها ، لذلك فقد خرج العرب على مبدأ الاعتماد على جهة معينة وساعدهم في ذلك نزول عدد من الدول الكبرى الى سوق المنافسة في الاقراض .

الا ان امراً واحداً بقي هنا لا بدّ من ان نشير اليه ، الا وهو ان العرب يجمدون اموالهم في البنوك الاجنبية بل ويقرضون هذه الاموال الى بعض الدول التي تقرض بعضهم الاخر ، كقروض الكويت مثلاً لليابان والتي كثر الحديث عنها .

وان المال العربي الناشىء عن ثروة العرب جميعاً أي البترول يجب ان يستخدم لصالح العرب كلهم لتنمية مشاريعهم الاقتصادية الا ان الاقليمية والعزلة وما ينجم عنها من خوف وشك وكذلك اختلاف الانظمة الاقتصادية عوامل خطيرة ما تزال تلعب دوراً كبيراً في تأخير استفادة العرب من هذه الأموال وتثميرها في المشاريع المجدية ، والتي باستطاعتها وحدها تحريرهم من التبعية الاقتصادية بل والسياسية .

ح ـ التوحيد الاقتصادي وفوائده في النمو الاقتصادي العربي :

بعد أن عرضنا الى الاوضاع الاقتصادية في وطننا العربي وتبينا مظاهر تخلفه وتجزئته وتبعيته وعرضنا الي طرق التنمية الممكنة فيه ، لا بدّ لنا من ان نعرض بايجاز الى ضرورات التوحيد الاقتصادي وفوائد هذا التوحيد في النمو الاقتصادي والاجتماعي الموصل بالضرورة الى الوحدة العربية الكبرى التي هي هدف الشعب العربي .

ولكن التوحيد الاقتصادي على الرغم من ضرورته لتحريرنا من الاستعمار وايصالنا الى اهدافنا فانه يجابه الكثير من العقد السياسية والاجتماعية على الصعيدين الداخلي والخارجي رغم ان قضايا النمو الاقتصادي تشكل عنصراً جوهرياً وراء كل تطور .

وان النظرة الخاطفة التي عرضنا فيها الى اوضاع الوطن العربي اقتصادياً ابرزت لنا الحقيقتين التاليتين :

اولاً ـ تخلفنا الاقتصادي وثانياً تفككنا الاقليمي أي عدم وجود تعاون يتخذ شكل التوحيد الاقتصادي رغم جهود الجامعة العربية .

وان ثمة علاقة لا بدّ هنا من اظهارها ولو باقتضاب بين التوحيد الاقتصادي للوطن العربي والنمو الاقتصادي العربي ، ولتبيان هذه العلاقة لا بدّ لنا من عرض الوضع الحاضر ثم الى فوائد التوحيد واخيراً الى بعض العقبات الظاهرة والحلول الممكنة لها .

مما لا شك فيه ان للمسائل السياسية اثر كبير على الوضع الاقتصادي الحاضر بل قد يكون لهذه المسائل اهمية كبرى لا تعادلها أهمية بمسائل التوحيد الاقتصادي ، وهذا ما عرضنا اليه عند البحث عن الاوضاع السياسية تاركين مجال البحث هنا الى دراسة هذا التوحيد .

لذا فاننا نفترض ان الجامعة العربية ـ نظرياً على الأقـل ـ اداة صالحة للتقارب والتعاون العربي ، وبالتالي فان الوضع الحاضر للجامعة يؤمن ادنى حدود التعاون والتقارب اذا شاءت دولها السير في طريق التوحيد ، ولو أن الجامعة قد اثبتت حتى وقتنا الحاضر عقمها عن امكانية ايجاد أي توحيد جدي سواء أكان هذا التوحيد سياسياً او اقتصادياً نظراً لبنيتها الانفصالية .

والتوحيد الاقتصادي يعني تعاوناً اقتصادياً كامـلاً بحيث يشمل ازالة جميع الحواجز عن المعاملات التجارية الجارية وحرية تنقل الرساميل العربية والاشخاص .

وقد يظهر هذا النوع من التقـارب مثلاً في إنشاء وحدة جمركية تامة تسمح بالحرية المطلقة للتجارة وتنقل الرساميل بين أعضاء الجامعة ، الا ان نجاح مثل هذه الوحدة يتوقف الى حد كبير على الامور الثلاثة التالية :

اولها توحيد السياسات التجارية والمالية لاعضاء الجامعة ، وثانيها توحيد الجداول الجمركية بالنسبة للبضائع الاجنبية وثالثها وضع اتفاقية مدفوعات جماعية Multilateral Payments Agrèement وذلك لأجل تأمين قابلية التحويل لمختلف نقود الدول الاعضاء .

ومما لا شك فيه ان النمو الاقتصادي يتخذ بالضرورة مظهـر الارتفاع المستمر للدخل الوطني الحقيقي بالنسبة للفرد ، ويعتمد لذلك والى درجة كبيرة على امكانيات استثمار وتكوين الرساميل على مختلف أنواعها . أي أنه بقدر ما يساعد التوحيد على جعل استثمار الموارد الفائضة في جهات معينة امراً ميسوراً في تلك الجهات المفتقرة اليها ، وبقدر ما يسهم في تكوين الرساميل

والادوات الضرورية للنمو الاقتصادي ، تحقق وسائل وشروط ارتفاع مستوى المعيشة للسكان .

ان هذه التحديدات التي عرضنا اليها ضرورية ولا شك لحصر البحث في النطاق الاقتصادي الذى نهتم به هنا اولاً ، ولتبسيط التداخل الظاهر بين قضيتي التوحيد والنمو ثانياً ، لأن عوامل النمو كثيرة وتختلف باختلاف البلدان .

فقد يكون انعدام الرساميل هو المعضلة الرئيسية في أحد الاقطار ، بينما يكون النقص في الخبرة الفنية أو تكاثر السكان العائق الاول في طريق النمو في قطر آخر (١) ، ولكن رغم ذلك لا بدّ من التأكيد بأن قضايا استثمار وتكوين الرساميل عنصر اساسي وراء كل نمو وخصوصاً في البلاد المتخلفة اقتصادياً كاقطار الوطن العربي .

وقبل ابراز العناصر التي تربط بين نمو الاقطار العربية وتوحيدها اقتصادياً لا بدّ لنا من ان نعرض باختصار الى مدى التعاون الاقتصادي العربي الحاضر والتي كنا قد ألمحنا الى بعضها بشكل سريع عاجل قبل قليل .

١ ـ واقع التعاون الاقتصادي الحاضر :

يتخذ التقارب العربي الحاضر في حقل الاقتصاد مظهرين رئيسيين :

اولها ـ الاتفاقات الثنائية التجارية العربية ، وهذه الاتفاقات بالرغم من بعض الفروق بينها ، لا يتعدى اكثرها نفعاً التخفيض الجمركي على بعض المنتجات الزراعية والصناعية العربية مما قد ينشط الى حد ما التبادل التجاري ، الا انه قد يكون للمسائل السياسية هنا وجهاً آخر

(١) سبق ان بحثنا هذا الموضوع سابقاً باسهاب في بحثنا لمظاهر تخلف الاقتصادي العربي .

في ايقاف هذه الاتفاقات أو تعطيلها أحياناً مما يجعلها غير ذات فائدة بشكل جذري .

ثانيها - الاتفاقية الاقتصادية الجماعية التي عقدت بالقاهرة في ١٧ ايلول عام ١٩٥٣ في الجامعة ، وقد اعتبرت في حينها أول خطوة نحو تنسيق التوحيد الاقتصادى الا أنها لم تؤت الثمرة المرجوة منها لاسباب متعددة ، مع هذا فقد قسمت هذه الاتفاقية الى قسمين : الاول يتعلق بالتجارة والترانزيت ، والثاني يتناول قضايا المدفوعات والرساميل .

أما القسم الاول فقد انطوى على النقاط التالية :

أ - اعفاء جمركي تام لاصناف عديدة من المنتجات الزراعية والحيوانية العربية .

ب - اعفاء جمركي جزئي يتناول بعض المنتجات الصناعية العربية .

ج - تسهيل تجارة الترانزيت وفق الانظمة السارية .

بينما نص القسم الثاني على تسهيل المدفوعات الناجمة عن الاعمال التجارية وفق نظم القطع والتصدير والاستيراد المعمول به في كل قطر متعاقد ، وان السماح بحرية تنقل الرساميل بين الاقطار يخضع لشرط المساهمة في مشاريع الانماء الاقتصادي .

ومن دراسة هذه الاتفاقية يتبين ان الهدف الرئيسي لها هو فقط تنشيط التجارة المنظورة بين أعضاء الجامعة عن طريق الاعفاءات الجمركية ، أما حرية تنقل الرساميل فلا تزال محدودة ، كما ان تسهيل المدفوعات الناجمة عن التجارة بين هذه الاقطار لا تزال تخضع للنظم المختلفة الموجودة في هذه الاقطار .

وعلى الرغم طرح موضوع السوق العربية المشتركة مؤخراً من قبل مجلس الوحدة الاقتصادية في ١٣/٨/ ١٩٦٤ وسعي بعض الاقطار العربية وضعها موضع التنفيذ (١) فقد مرت ولا تزال تمر بعقبات عدة منها السياسي كخوف بعض الاقطار التي أدعت بأن السوق تدخل صريح في شؤونها الداخلية ومنها الاقتصادي الناجم عن اختلاف النظم المعمول بها بين دعاة الاقتصاد الحر والموجه الاشتراكي... ومنها عقبات مادية تنصب على الخوف الوهمي من مشاركة الاشقاء لارباح الاقطار البترولية .

وان المبادىء الاساسية التي قامت عليها السوق لا تخرج عن كونها توسيعاً للاتفاقية الاقتصادية الجماعيـــة التي الحنا اليها قبل قليل مع أطلاق حرية انتقـال الاشخاص ورؤوس الأموال ، وعـدم جواز فرض رسوم أو ضرائب على المنتجـات العربية تزيـد على الرسوم التي تفرضها الدولة على منجاتهـا الداخلية ، وعدم خضوع المنتجات المتبادلة الى رسم تصدير جمركي الخ ...

وبناء على ما تقدم فلم توقع على قرار انشاء السوق الا خمس دول فقط من مجموع الدول العربيـــة وهي الاردن والعراق وسوريا ومصر والكويت ، ورغم ذلك فلا يزال التقارب الاقتصادي العربي كما يبدو من جملة الاتفاقات بعيداً جداً عن مفهوم التوحيـــد الاقتصادي ولو ان السوق العربية المشتركة لو أقرت من جميـع الاقطار العربية لـكانت طريقـاً من من طرق التنمية الاقتصادية العربية ولبنة من لبنـات اقامة صرح الوحدة الاقتصادية ولكن ويا للأسف فان المنافع ـ وما أقلها ـ التي يمكن ان تنتج

---

(١) ان اول دولة اقرتها كانت الاردن ، في حين اعربت الكويت عن رغبتها في عدم مشاركتها فعلا في هذه السوق حتى يتيسر لها الاشتراك المتـكافىء .

عن التوحيد الاقتصادي لا تزال في حدودها الدنيا ان لم تجن بعد اطلاقاً رغم كل هذه الاتفاقات .

٢ ـ فوائد التوحيد الاقتصادي :

تبدو هذه الفوائد اولاً في المنافع العامة التي قد تنجم عن أي شكل من اشكال التوحيد الاقتصادي وثانياً في المنافع الخاصة التي تنجم عن التوحيد الاقتصادي العربي .

أما المنافع العامة والتي كانت سبباً في اقرار مبدأ السوق الاوروبية المشتركة من قبل دول متنافسة تمزقها الحروب والاختلافات وتباعد بينها اللغة والتاريخ والتراث والعداء التقليدي فتبدو لنا كما يلي :

أ ـ ان التوحيد يوسع امكانيات التصنيع ويمكن من جني المنافع التي تنجم عن الانتاج الواسع . واذا اعتبرنا أن البلاد المتخلفة اقتصادياً تلجأ عادة الى الحماية الجمركية لمساندة صناعتها المتخلفة ، مما قد يؤثر تأثيراً سيئاً بصورة غير مباشرة على الصناعات التي تعتمد على التصدير فان التوحيد يعمل على تخفيف هذا التأثير السيء .

ب ـ كلما توسعت الوحدة الاقتصادية التي تسمح بالحرية المطلقة لتنقل الرساميل ازدادت الكفاءة الاقتصادية لزيادة مجال التخصص .

جـ ـ ومن الحقائق الثابتة ان القسم الاكبر من الرساميل الاجنبية في البلاد المتخلفة اقتصادياً يوظف في صناعة استخراج المواد الاولية المعدة للتصدير الى البلدان المتقدمة صناعياً واقتصادياً .

وان أحد اسباب هذه الظاهرة هو ولا شك ضعف القوة الانتاجية وبالتالي القوة الشرائية في البلد المتخلف مما يجعل التوظيف في الصناعات التي تعتمد على قوة الشراء المحلية امراً غير مرغوب فيه .

فاذا افترضنا ان النمو الاقتصادي يتطلب الى حد ما توظيف الرساميل في تلك الصناعات التي تعتمد على الاستهلاك المحلي ، فان التوحيد يكون عاملاً مساهماً في انماء القوة الانتاجية والشرائية وبالتالي عامل جذب لرؤوس الأموال باتجاه تلك الاعمال التي تعتمد على الانتاج والاستهلاك المحلي، وبعبارة اعم ان التوحيد يشكل جاذباً أقوى للرساميل الاجنبية المرغوب فيها ويعمل على فتح مجال التخصص في مثل هذه الصناعات .

د ـ ان تحقيق المنافع الثلاث المذكورة آنفاً يعمل على رفع الدخل الوطني الحقيقي بالنسبة للفرد ، أي يتيح امكانات اكبر لتكوين الرساميل وبالتالي يسهم في النمو الاقتصادي .

وهذه المنافع الرئيسية ستكون ميسورة التحقيق اذا ما تحققت الوحدة الاقتصادية العربية بل ستكون عوامل فعالة في سبيل الانماء الاقتصادي الاجتماعي .

أما منافع التوحيد الاقتصادي العربي فهي كثيرة الا ان أول ما يستلفت النظر فيها هو الحقيقة التالية :

ان الوطن العربي يشكل وحدة اقتصادية اقليمية غنية بالموارد الضرورية للتصنيع والنمو ، وان عدم الاستفادة من هذه الموارد لا يعود فقط الى عدم استغلالها استغلالاً كاملاً من قبل كل قطر بشكل منفرد ، بل الى وجود الحواجز الاقتصادية بين هذه الاقطار مما يشكل عقبة رئيسية في طريق الاستغلال المرتجى .

الا أن هناك عاملين رئيسيين ترتكز عليهما مساهمة التوحيد العربي في الانماء العربي :

اولا ـ ان التوحيد يؤمن توزيعاً أفضل من ناحية التوظيف لموارد البترول فلا تبدو هنـاك اقطار تفيض بهذا المورد بينما هناك اقطار بحاجة ماسة اليه .

ثانياً ـ ان التوحيد يسهم في ازالة العقبات الناتجة عن ضعف القوة الانتاجية والشرائية في الاقطار العربية ، تلك القوة الـتي تكوّن اساس النمو ومستوى المعيشة ، فكلما قويت عناصر الانتاج وارتفع الدخل الحقيقي للفرد العربي اتسعت امكانيات الادخار Savings وتكوين الرساميل التي تشكل العنصر الاساسي للانتـاج ، على أنه يجب التنبه الى أن تحقيق التوحيد بحد ذاته لا يعتبر ضماناً كافياً لازالة العقبـات الناتجـة عن ضعف القوة الانتاجية ، بل يوسع امكانيات التغلب عليها بوسائـل شتى لا مجال لبحثها هنا .

الا ان التوحيد الاقتصادي العربي ولا شك يشكل عنصراً هاماً ورئيسياً في التطور الاقتصادي للوطن العربي اذا ما روعي في تطبيقـه الطرق السليمة .

٣ ـ العقبات القائمة في وجه التوحيد الاقتصادي :

ترجـع هذه العقبات الى عوامل عدة اقتصادية وسياسية واجتماعيـة يصعب في كثير من الأحيان التفريق بينهـا بسبب تداخلهـا وتشابكها ، لأن السياسات الاقتصادية والسياسة كثيراً ما تكون وثيقة الصلة بحيث يتعذر التمييز بينها كأن يكون احدها سبباً للآخر أو بالعكس .

فاذا أهملنا الجانب السياسي والاجتماعي في قضية التوحيد واعتبرنا انهـا محاولة مع الزمن نجد ان العقبات الرئيسية في وجه التوحيد الاقتصادي هي عقبات اقتصادية بالدرجة الاولى وانها تتبدى بشكلين رئيسين :

اولهما ـ اختلاف الفلسفة الاقتصادية المتبعة في كل قطر بحد ذاته .

ثانيهما ـ تأثير المصالح الاقتصادية الشخصية المقاومة لمشاريع التوحيد .

ومما لا شك فيه ان التغلب على العقبة الاولى أمر جوهري وضروري للوصول الى التوحيد الاقتصادي . واذا نحن عرضنا هنا الى اسباب القطيعة الاقتصادية بين سوريا ولبنان عام ١٩٥٠ مثلاً فذلك لأننا نرغب بأن نبرهن على أهمية التقارب في السياسات الاقتصادية المتبعة على التوحيد الاقتصادي .

ومن المعلوم ان من أهم الاسباب في الانفصال الجمركي بين القطرين هو اختلاف وجهات النظر بالنسبة للسياستين التجارية والمالية ، ففي حين اتجهت سوريا نحو تقييد التجارة الخارجية بواسطة رفع التعرفة الجمركية ، واللجوء الى نظام « الاجازة المسبقة » وتحديد اسعار القطع ، اتخذ لبنان سبيلاً معاكساً لازالة الحواجز عن اعمال التجارة الخارجية ـ عدا التعرفة الجمركية ـ وبتأسيسه سوقاً مالية حرة ، وكان هذا من اسباب الاختلاف والقطيعة لأن سوريا كانت ترمي الى حماية صناعتها الناشئة .

ومما لا شك فيه ان ايجاد تقارب في السياسات التجارية والمالية والاقتصادية عموماً بين الاقطار العربية ضرورة حتمية لا يمكن بدونها اغراء هذه الاقطار على العمل من أجل التوحيد الاقتصادي ، وهذه المهمة الشاقة لا يمكن ان تتحقق الا عن طريق الاغراء أو الاكراه السياسي . أما العقبة الثانية وهي وجود عناصر قد تتضرر اقتصادياً من جراء التوحيد ، فأمر التغلب عليها منوط الى حد كبير بالفئات الحاكمة واتجاهاتها السياسية ، وما الانفصال الذي وقع بين سوريا ومصر عام ١٩٦١ الا مظهراً من

مظاهر بروز العناصر المستغلة التي دعمت وايدت الانفصال ، وهكذا نرى أن للاتجاهات السياسية أثر كبير على التوحيد الاقتصادي .

وان قضايا الوحدة العربية الشاملة متعددة قد يظهر البعض منها مستحيل التحقيق ، كما ان مفهوم الوحدة لا يزال غير واضح بحيث يفسر تفسيرات شتى متباينة وهذا ما سنعرض اليه فيما بعد عند البحث في اهداف الأمة العربية ، الا ان هذه الحقيقة تصدق بشكل خاص في المجال السياسي حيث تتوفر عناصر الاختلاف ، ولهذا السبب بالذات تبرز اهمية التشديد على التوحيد الاقتصادي عند دعاة الوحدة ، وان التطبيق العملي للتعاون والتقارب الاقتصادي بين الاقطار العربية لا يزال من أجدى الوسائل للوصول الى الوحدة المرجوة ولايجاد الاسس التي تبنى عليها الوحدة الشاملة .

فحيث يتعذر التوحيد السياسي لأسباب جوهرية كاختلافات الفلسفات السياسية والاجتماعية نجد ان التقارب الاقتصادي قد يجد سبيله الى التحقيق رغم الفوارق السياسية لانه منفعة مشتركة للجميع بصرف النظر عن اختلاف الفلسفات الاجتماعية والسياسية للاقطار العربية بل ويساعد على تطوير تلك الفلسفات وتقاربها .

والخلاصة : فلقد عمدت قوميات متباينة وحكومات متنافرة الى توحيد اقتصادها وجهودها في البناء الاقتصادي فيما اطلق عليه اسم الاسواق المشتركة كالسوق الاوروبية المشتركة وما شابهها في القارة الامريكية ، وذلك لأن هذه القوميات قد وجدت ان المصالح المادية في هذه المرحلة من تاريخ البشرية قد اضحت ذات أهمية قصوى تفوق التفرقة القائمة على الاسس القومية . والوطن العربي باعتباره وحدة قومية كاملة مهيء

لمثل هذا التوحيد الاقتصادي نظراً للوحدة القومية التي تربط بين اقطاره برباط وثيق ، ناهيك عن المصلحة الاقتصادية التي تتحقق في تحقيق مثل هذا التوحيد .

الحلول السياسية للتخلف :

مما لا شك فيه ان الحياة الاجتماعية كل موحد مهما تشعبت مظاهرها وتعددت جوانبها ، إذ انها كل متفاعل متكامل يؤثر بعضه في البعض الآخر ، ولقد سبق ان عرفنا الى أن السياسة لا يمكن فصلها اطلاقاً عن الاقتصاد ، كما أن للاقتصاد أثره الواضح على السياسة ، والسياسة نفسها تطبع الحيـــاة الاجتماعية بطابع معين متميز .

وان تفاوت الانظمة السياسية في وطننا العربي المجزأ حتى اليوم يجعل النظم الاقتصادية التي يأخذ بها كل جزء تختلف باختلاف النظام المعمول به وكذلك بالسياسة التي تنتهجها حكومات الاقطار .

لذلك كان من الضروري استعراض النظم الاقتصادية القائمة في الحلول التي أتخذت لتطوير المجتمع العربي ، ودفع التنمية الاقتصادية فيه .

١ ـ النظم الاقطاعية :

يقوم النظام الاقطاعي على مشروعية الملكية الكبيرة للأرض الزراعية ، ولقد ورث هذا النظام من نظم العبودية التي كانت مشروعة في القرون الاولى فكرة ارتباط الفلاح بالارض التي يعمل بها ، بل لقد اعتبره بعضها جزءاً لا ينفصل عن الارض التي يعمل بها ، يباع ويشرى معها .

وقد نشأ هذا النظام منذ عهود الغزو مع فجر التاريخ ، وكان الغزو يمنح الغازي حق امتلاك ثروة المدحور المنهزم ، ولما كانت أغلب

الملكيات في تلك العهود تنحصر بالارض ، لذا فقد استباح الغزاة الارض ووزعوها على الموالين لهم وبمساحات كبيرة وملكوهم هذه الارض يستغلونها على شكل اقطاعات هم وورثتهم من بعدهم . ولن نناقش نحن هنا النظرة القائلة بأن الاقطاعات نشأت بسبب حاجة الفلاح الفرد الى حمايته من الغزو فوضع نفسه رهينة من أجل حمايته تحت وصاية من يتمكن من ان يحميه .

ومهما يكن سبب نشوء الاقطاع فقد امتد هذا النظام حتى القرن الخامس عشر في القارة الاوروبية ، وانبرى المتنفذين منه يحاولون تكييف الاوضاع السياسية حسب رغائبهم المحافظة على امتيازاتهم فاصدروا التشريعات المختلفة التي تخدم مصالحهم واقد تفاقمت الاوضاع نتيجة تحول رجال الكنيسة الايطاليـة وغيرها الى اقطاعيين تدنوا في فترة الانحطاط حتى مبدأ السخرة .

والى جانب الاقطاع في القرون الوسطى قامت طبقة وسطى عملت في التجارة بعيدة عن سيطرة الاقطاع تعمل لمصلحتها الخاصة دعيت باسم الطبقةالبرجوازية ، واضحت تثرى حتى على حساب الاقطاعية التي سمحت لها بالتعايش الى جانبها ، ولم يلبث الوضع ان انقلب بعد لجوء العديد من الامم الى الاستعمار اذ ازدادت قوة البرجوازية الوطنية حتى أنها استخدمت الدولة والاقطاع ذاته للمحافظة على بقائها ، فأضحت الثروة في ايديها وخاصة بعد ان انتشر التعليم والتفكير الحر في القرن ١٦ .

والنظام الاقطاعي لا يزال وللاسف حتى اليوم منتشراً في بعض الاقطار العربية وهو وإن كان قد بدأ مع منح الامراء أثناء الفتوحات الارض لمواليهم الا انه استمر ايام العثمانيين والاستعمار القديم لأنه كان

نظاماً وجد ليخدم قضايا الاستعمار والاستثمار لاقضايا الوطن العربي ، ولقد تميز هذا النظام في الوطن العربي باستغلال بشع لحاجة الفلاح الى العمل مما اوقعه تحت ظروف سيئة فعانى الاستغلال والحرمان والهوان .

لهذه الاسباب جميعاً وضعت الثورات العربية كهدف من أهدافها المرحلية القضاء على الاقطاع وتحرير الفلاح وجهده من السيادة الخانقة التي كان يمارسها الاقطاع عليه ويهدر بذلك قيمة الانسانية .

القوانين الاصلاحية وقانون الاصلاح الزراعي :

هدفت قوانين الاصلاح الزراعي وقوانين العمل الزراعي ومنع تهجير الفلاحين الى معالجة الاوضاع الفلاحية السيئة والتي هي ذات أثر بالغ على الحياة الاجتماعية بصورة عامة ، ولقد تبنت جميع الاقطار العربية ذات الاتجاه الاشتراكي قوانين الاصلاح الزراعي لتحرير ارادة الاكثرية من سكانها وجعلهم يمتلكون القدرة على تقرير المصير الذاتي ، بعد ان ظلوا طويلاً يرسفون في قيود الذل والعبودية .

وكان أول قانون صدر للاصلاح الزراعي هو القانون المصري عقب ثورة عام ١٩٥٢ ، اذ ان الحاجة كانت تمس في ذلك القطر الى ايجاد وسيلة لتحرير اكثرية الفلاحين ، حيث كان يسيطر ٦٪ من مجموع الملاك على ٦٤,٥٪ من الاراضي الزراعية الخصبة بسبب عصور الظلم التي مرت على ذلك القطر ، ولقد صدر القانون على مرحلتين ، بدأت اولاهما عام ١٩٥٣ وتقرر فيها الاستيلاء على جميع الاراضي الزراعية التي تتجاوز /٢٠٠/ فدان لتوزع على غير المالكين من فلاحين وعمال تراحيل ، بحيث يصيب الواحد منهم ما لا يقل عن فدانين و` يزيد على خمسة افدنة ، ثم خفض

سقف الملكية العليا بمقدار النصف عام / ١٩٦١ / سجماً للاوضاع مع ما جرى في القطر السوري من جهة وللحاجة الى ارض جديدة توزع على من لم يصبه نصيب في التوزيع الاول من جهة أخرى فحددت الملكية العليا بمائة فدان للمالك الواحد .

اما في القطر السوري فقد كانت نسبة لا تزيد عن ١٫٥٪ من مجموع المالكين تسيطر على خمس الاراضى الزراعية المروية ، فصدر عام ١٩٥٨ قانون للاصلاح الزراعي حدد الحد الاعلى للملكية الزراعية بـ / ٣٠٠ / هكتار من الاراضي البعلية أو / ٢٠٠ / هكتار من الاراضي المروية أو المشجرة ، ثم عدلت هذه النسبة بقانون لاحق خفض الحد الاعلى الملكية وقسم الارض الزراعية وفقاً لكميات الامطار السنوية ، وحسب نوع الارض وجودتها فتراوحت الملكية الزراعية العليا بين ٢٠ هكتار في اراضي الغوطة الدمشقية و / ٢٠٠ / هكتار في الاراضي البعلية في الجزيرة السورية ، ووزع الفائض وما يزال على الفلاحين بنسبة خمسة هكتارات للأسرة الواحدة .

وكذلك فقد أصدر في القطر العراقي مع ثورة ١٨ تموز عام ١٩٥٨ قانون للاصلاح الزراعي جعل الحد الاعلى للملكية الزراعية /٢٠٠٠/ دونم في الاراضي البعلية و / ١٠٠٠ / دونم في الاراضي المروية .

أما في القطر الجزائري فقد صودرت الاراضي الزراعية الخصبه والتي كان يغتصبها منذ زمن بعيد المستعمرون الاوروبيون ووزعت على السكان العرب وذلك بعد حصول الجزائر على الاستقلال عقب معاهدات ايفيان .

ولكن على الرغم من صدور عدد من القوانين الاصلاحية لا تزال الاقطاعية تسود في بعض الأقطار العربية الاخرى ، كما ان هذه

القوانين لم تكن قط بكافية لأن تحرير الفلاح من عبودية الارض لم يواكبه في كثير من المناطق نشوء التعاونيات المختلفة التي تساعد على تحريره تحريراً كاملاً .

٢ ـ النظم الرأسمالية :

على الرغم من أن التناقضات الحادة التي ظهرت في أوروبا بين النظم الاقطاعية والبرجوازية والتي أدت الى تقويض دعائم الاقطاعية من قبل البرجوازية الجديدة في تلك البلاد ، لم تظهر بشكلها الحاد في وطننا العربي حيث كان هناك حلف مقدس بين الاقطاع والبرجوازية والاجنبي لفترة طويلة من الزمن ، الا ان أسس النظام الرأسمالي كانت تطل برأسها في رحاب الوطن العربي ، وعندما أطلت البرجوازية العربية برأسها حاول الاقطاع مقاومتها الا أن محاولته كانت في غير عصرها ، فأحنى هامته أمامها محاولاً التعايش معها .

والنظم الرأسمالية عموماً تشجب تدخل الدولة ان لم يكن التدخل لمصلحتها ، وتنادي بالحرية الفردية في كافة المجالات كشرط أساسي لتحقيق هدفها الاكبر وهو المصلحة الشخصية وخاصة الحرية الاقتصادية التي تعتبرها وسيلة أساسية للحصول على الثروة .

وقد أوضح آدم سميث Adam Smith أسس هذا النظام في كتابه « ثروة الامم » فافترض وجود توازن آلي بين الانتاج والاستهلاك ، لأن الربح يدفع المستحدث (صاحب العمل) الى بذل أقصى جهده لتحسين الانتاج وتقليل التكاليف للصمود أمام منافسة الغير مما يعود بالفائدة على المستهلك الذي يتمكن من اشباع حاجاته بأدنى الاسعار وأجود السلع .

أما الدولة فتنحصر واجباتها في توفير حرية المبادهة الفردية وتأمين

حرية البلاد وأمنها واحترام العقود بين الافراد والقيام بالخدمات المختلفة ...

ومع الثورة الصناعية تدعم هذا النظام وقامت الصناعات الكبرى وتشكلت طبقة عمالية تزايد وعيها مع ازدياد العلم والافكار الثورية الفلسفية الجديدة .

واذا كانت اوروبا قد استفادت من تطبيق هذا النظام عن طريق دعم الدولة لصناعتها بالاستعمار ، الا ان تطبيق هذا النظام في بلاد متخلفة كبلادنا قد كشف عن الكثير من عيوبه ، بسبب من ضعف صناعاتنا اولاً ثم لانعدام السوق الخارجية المدعومة بالاستعمار ولمنافسة الدول الكبيرة الانتاج لصناعاتنا المحلية وأهم هذه العيوب :

آ - التعارض بين مبدأ الفردية والمصلحة العامة : فالرأسمالية لم تخدم الا مصالح طبقتها وحدها ، وان تدمير الانتاج وتهريب السلع والاموال لمقاومة كل توجيه اقتصادي ظاهرة بارزة في المناطق التي أخذت حكوماتها بالتوجيه الاقتصادي من أجل المصلحة العامة .

ب - فشل النظام الرأسمالي في تحسين أوضاع المجتمع : ونتيجة لتجمع الثروة بيد أفراد قلائل ، سعى هؤلاء الى السيطرة على الحكم لتأمين مصالحهم ونادوا بالحرية - حريتهم هم - في الاستغلال والكسب غير المشروع ، واعتبروا العمل الانساني سلعة تخضع للسوق أي لقانون العرض والطلب .

ح - سوء توزيع الثروة والدخل : ولقد ظهرت نتيجة لظاهرة تمركز الرأسمال فئتان ، صغيرة تملك ولا تعمل و كبيرة تعمل ولا تملك ، مما جعل مبدأ تكافؤ الفرص الذي ينادي به أصحاب النظرية الحرة في الاقتصاد حبراً على ورق .

د ـ تقييد الانتاج لمكافحة انخفاض الاسعار : واذا فاض الانتاج عن استيعاب السوق يعمد الرأسماليون الى الخفض من انتـــاج مصانعهم للمحافظة على سوية الاسعار ، ويلجأون الى تسريح عدد كبير من العمال لخفض انتاجية هذه المصانع دون الاهتمام بمصالح هؤلاء العمال وأسرهم .

هـ ـ نشوء الاحتكارات والانحصارات لمكافحة المنافسة :

وبسبب المصلحة المشتركة للطبقة الرأسماليـــة انى كانت ، نشأت اتحادات ومنظمات تجمع بينهم كالكارتل والتروست دفاعاً عن مصالح هذه الطبقة وتأميناً لديمومة استغلالها وتخلصاً من المنافسة الضارة بمصالحها .

و ـ وقوع الازمات الاقتصادية : يعقب فترات النشاط الاقتصادي والازدهار الرأسمالي عادة زيادة في الانتاج عن طاقة الاستهلاك مما يؤدي الى تدهور في الاجور وهبوط في الاسعار بسبب قلة الاستهلاك وارتفاع اسعار الانتاج وصعوبة تمويله ، وليست الازمات الاقتصادية التي مر بها العالم عقب الحربين العالميتين الاولى والثانية عنا ببعيد ، واذا كانت الدول الرأسمالية تحاول حـــتى اليوم بشتى الطرق تفادي ازمات اقتصادية جديدة عن طريق ايجاد منصرف لفائض الانتاج ، فان هذه الازمات لا بد حاصلة طالما ان الدول المستغلة قد أخذت بالاستيقاظ .

والاقطار العربية على الرغم من أنها لم تصل بعـــد الى النظام الرأسمالي بمعناه العالمي بسبب ظروفها الخاصة الا أن بعضها قد أخذ في فترة ما بعد الاستقلال بهذا النظام محاولاً تطويره بما يلائم أوضاعه .

الا أن بروز معالم ومعايب النظام الحر قد دفع بالاقطار العربيـــة المنادية بالاشتراكية وبتحرير العمال والفلاحين الى الاخذ بنظام تحديـــد

الملكية الصناعية كوسيلة للحد من سيطرة الرأسمال على حياة المجتمع ومصيره .

تحديد الملكية الصناعية :

عمدت بعض الاقطار العربية بعد أن لمست عملياً معايب الاقتصاد الحر الى تبني سياسة تهدف الى علاج الاوضاع عن طريق التحويل الاشتراكي (١) سيما وقد شعرت هذه الاقطار أن القطاع الخاص ، بعد أن خاف من انتشار الافكار الداعية للعدالة الاجتماعية والى تكافؤ الفرص ، أخذ يحجم عن كل تطوير صناعي فعلي ، فأخذ يهرب الأموال الى البلاد الاجنبية ، على الرغم من الامتيازات التي كان هذا القطاع يتمتع بها ، كحماية الصناعات الناشئة من المنافسة الداخلية عن طريق نظام الاجازات الخاصة وحماية هذه الصناعات من المنافسة الخارجية عن طريق رفع التعرفات الجمركية على المنتجات المماثلة والاعفاء من الضرائب العامة طيلة فترة التأسيس ، ثم المساعدات التمويلية والقروض الصادرة عن الدولة .

وقد اتاحت هذه الامتيازات فرص النمو للقطاع الخاص فقوي واشتد وأخذ يضغط على الحكم لتكريس امتيازاته ، لذلك فقد عمدت بعض الاقطار العربية للحيلولة دون تمركز رأس المال واستغلاله وتوجيه دفة الحكم فيه الى اصدار القوانين المحددة للملكية الصناعية كحل مرحلي ، كالقانون رقم /١١٩/ لسنة /١٩٦١/ الصادر في القطرين المصري والسوري والذي جعل الحد الاعلى لملكية المسهم الواحد في مجموعة من الشركات لا تتجاوز مبلغ عشرة آلاف جنيه مصري ، أو مائة الف ليرة سورية ، مع استيلاء الدولة على فائض الاسهم ، والتعويض على أصحابها خلال مدة محددة من الزمن وبفائدة معينة .

---

(١) كمصر وسوريا والجزائر .

الا ان هذا الاجراء لم تكن نتيجته الا محاولة لتخريب القطاع الصناعي مما حدا بالدولة الى الدخول كشريك مشرف على كافة الشركات الصناعية عن طريق امتلاك ربع أو نصف اسهمها ، الا ان هذا الحل كان حلاً مرحلياً لم يجد لأن الرأسمالية استطاعت حتى ان تشتري المشرفين المعينين من قبل الدولة .

وأمام وضع كهذا لم تجد الدولة ورائدها العدالة الا طريقاً واحداً وهو تأميم القطاع الصناعي بمؤسساته الكبيرة ، وقد اختلف حجم المؤسسات المؤممة بين القطر المصري والسوري لاختلاف وجهات النظر في الاسس الاشتراكية ، اذ أن القطر السوري قد أخذ بمبدأ التأميم التام لكافة المصانع والمؤسسات الحيوية بموجب المرسومين التشريعيين ١ و ٢ لعام / ١٩٦٥ / وذلك لتطوير الاقتصاد الوطني الذي امتنع الرأسمال عن تدعيمه وللحيلولة دون الاستمرار في تهريب الاموال الى الخارج ومحاولة لتحقيق عملية التنمية الاقتصادية على أوسع نطاق ممكن ، عن طريق الاعتماد على التسيير الذاتي في ادارة المؤسسات المؤممة (١) .

وان جدولاً كالتالي يظهر لنا ان القطاع الخاص الرأسمالي قد أحجم عن تطوير الاقتصاد الوطني غير عابىء الا بمصلحته بعد ان استشم اتجاه الدولة نحو قوانين تحديد الملكية وهذا الجدول يشير بوضوح الى احجام ما يدعى بالقطاع الخاص عن كل تنمية صناعية بعد صدور مثل هذه القوانين مما أجبر القطاع العام على تحمل كامل مسؤولياته في التنمية احقاقاً لحق الجماهير ولتأكده من صعوبة تحقيق أي تعايش بين القطاعين الخاص والعام في فترة التحويل الاشتراكي .

---

(١) وقد أخذت الجزائر ايضاً بمبدأ التسيير الذاتي .

جدول بالاستثمارات الصناعية
بملايين الليرات السورية بين عام ١٩٥٥ - ١٩٦١

السنة	القطاع الخاص	القطاع العام
١٩٥٥	٢٨٥	٩٥
١٩٥٦	٣٠٥	٦٠
١٩٥٧	٢٠٦	٦١
١٩٥٨	٢٣٥	٨٤
١٩٥٩	٢٢٣	١٢٠
١٩٦٠	١٥٤	٢٦٥
١٩٦١	٢٠٠	٣٢٣

٣ - الاشتراكية والاشتراكية العربية :

مفهوم الاشتراكية :

يهدف النظام الاشتراكي الى تحقيق العدالة الاجتماعية من جميع وجوهها وهو كنظام يتحدد عادة بحدود تميزه عن غيره من الانظمة الاقتصادية والاجتماعية ، ويختص بخصائص متعددة تبدو فيما يلي :

آ - الملكية الجماعية لوسائل الانتاج - الارض ورأس المال -

ولقد نادى أول من نادى الى هذا النوع من الملكية اتباع سان سيمون على ضوء مبادىء استاذهم (١) ، الذي كان يرى ان الملكية الفردية

(١) انظر كتاب الاشتراكية العربية والاشتراكية العالمية للدكتور محمد طلعت عيسى القاهرة عام ١٩٦٥ .

قد اضحت اداة استغلال وظلم اجتماعي لذلك « كان لا بدّ من اخراجها من يد المستغلين الذين لا يعملون الى يد العمال انفسهم ، وذلك يكون عن طريق ترك العمال لحياتهم التقليدي والمبادرة الى استلام زمام أمورهم بأنفسهم » أي أنهم كانوا من دعاة تمليك وسائل الانتاج للمجتمع لا للفرد أو الافراد .

ثم زاد من تلاهم توضيحاً لهذا المفهوم الاشتراكي ، والذي لم يدعه صاحبه سان سيمون ابداً بالاشتراكية بل دعاه « بتنظيم المجتمع » وانما دعاه أحد تلاميذه من بعده بهذا الاسم ، فأجازوا في بعض الاحيان تملك الافراد للارض ورأس المال الضروريين لبعض الاعمال على أن لا يؤدي ذلك الى أي نوع من أنواع الاستغلال ، كجواز تملك الفرد لسكنه أو لعدد صغير من الدواجن أو لمصنع صغير يعمل به واولاده دون استغلال لجهود الآخرين :

ب ـ اشراف الدولة على الانتاج وتخطيطه :

ومعنى هذا ان تقوم الدولة بادارة شؤون الصناعة ، لتضع جميع المصادر الانتاجية في خدمة وجوه النشاط المختلفة وذلك من أجل تحقيق اكبر قسم ممكن من مطالب المستهلك وحاجاته ، وبهذا ايضاً تتمكن الدوله من الاشراف على عملية توزيع الدخل والارباح بموجب المبدأ القائل « لكل حسب عمله » .

الاشتراكية العربية (١):

على الرغم من تشابه طرق الاصلاح التي أخذت بها الاقطار

(١) سنبحث هذا البحث بشكل مطول عندما نحدد اهداف الامة العربية في الباب الرابع من هذا الكتاب .

العربيـــة المنادية بالاشتراكية ، الا انه لم يضع أحد بعد حدوداً واضحة معينة لنظرية اشتراكية عربيـــة ، وان كان جميع دُعاة الاشتراكيـة العربية يتفقون على ان هذه الاشتراكية يجب الا تكون تلك الـــتي طبقت في بلد معين اجنبي بل يودون تطوير اشتراكيـة عربية خاصة بالاستناد الى المفاهيم الاشتراكية عموماً مع الدعوة الى تعديلها وفـــق الظروف المكانية والزمانية للأمة العربية . وكذلك يميز دعاتها بينها وبين الاشتراكية المادية ، اذ انهم يلحون على ان المـادة ليست كل شيء في الوجود ، كما أنه لا ضرورة لالغـاء الملكية الخاصـــة الغاءً تاماً وانما يرون ان تحديدها (١) أمر ضروري ولمصلحة المجموع ، وان كانوا جميعاً يؤكدون ضرورة سيطرة الشعب على جميع وسائل الانتاج الكبـير عدا الارض الزراعية ، مع الحاحهم على اذابة الفروق بين الطبقات بالوسائل السلمية وذلك عن طريق توزيـع قاعدة الثروة القومية بشكل يؤمن الحاجات الأساسية للافراد وفقاً لمبدأ تكافؤ الفرص .

أما وسائل تحقيق ما ترمي اليه فيكون :

آ ـ بتجميع المدخرات القومية .

ب ـ باستثمار هـــذه المدخرات بأفضل الوسائل العلمية الحديثة التي تكفل أوفر انتاج .

حـ ـ باتباع تخطيط علمي شامل لعمليـة الانتاج بحيث لا تـــترك السياسة الاقتصادية للارتجال والفردية هذا وان دعاة الاشتراكية العربيـة

---

(١) صدرت قوانين التأميم في سوريا ومصر منذ عام ١٩٦١ وفي سوريا في مطلع ١٩٦٥ غايتها تحديد الملكية الصناعية .

جميعهم يلحون على ضرورة العناية بالعنصر الانساني لكي لا يبقى بمعزل عن جميع التطورات وان يسايرها ويتطور معها وذلك عن طريق التوعية اللازمة للوصول الى الاصلاح الانساني .

ويكون ذلك باصلاح الفرد العربي في شتى المجالات ليصبح مواطناً صالحاً واعياً لمصالحه القومية قادراً على تحميل مسؤولياته ، مدركاً لحقوقه وواجباته رافضاً ونابذاً لفكرة الاستغلال مهما يكن ، مؤمناً بأن الكفاءة وحدها هي المرجع الاول والوحيد في أسس تقييم الأفراد لا الحسب أو النسب أو قيمة ما يملك لأن معايير كهذه قد انقضى عهدها .



الباب الرابع

القومية العربية

ويتضمن :

تمهيد

عرض النظريات الكبرى في فهم القومية (١)

١ - نظرية العرق :

ان من أوائل القائلين بالعرق كأساس لتحديد هوية الامة هو الفرنسي غوبينو في كتابه « دراسة على الفروق بين الاعراق الانسانية »(١٨٥٣-١٨٥٥). وخلاصة هذا الكتاب هي التالية : ان العرق هو مفتاح التاريخ وموجهه . وان عدم المساواة بين الاعراق هو الاساس الدائم الثابت ، وان هناك اعراقاً ممتازة ومختارة وأمماً قائدة ، كما ان هناك اعراقا منحطة وأمماً مقودة . وان العرق الابيض هو العرق الممتاز السيد ، وفي داخل هذا العرق هناك شعب متفاوتة ، والشعبة الآرية (من أبناء يافث) هي أعلى الشعب وأرقاها ، وان الفرع الجرمني من هذه الشعبة الآرية هو الأرقى والأعلى ، لانه حافظ على صفائه بينما امتزج الفرعان الآخران السلتي والسلافي بالعرق الاصفر فخسرا صفاء دمهما . وان انحطاط الامم ومبدأ انحلالها يكون بامتزاج دمائها بغيرها وباختلاط الاعراق وتصالبها. وان هذا الاختلاط ليعم ويستشرى ، وان الانسانية لتسير للانحلال والتدني بسبب نفاد الدم الآري باختلاطه بغيره ...

---

(١) عن كتاب المجتمع العربي بتصرف ـ الجزء الثاني ـ للدكتور محسن الشيشكلي ص ٩٨ ـ منشورات مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية بحلب .

إن غوبينو هو فرنسي الجنسية ولكنه يدعي أنه جرمني الاصل ، ولم تستطيع نظريته ان تلاقي في فرنسا رواجاً لانها تحطم مفهوم الامة الفرنسي . ولكنها حققت نبوءة الكسي ده توكفيل عندما قال ذات يوم لغوبينو : « ان هذه النظرية ستعود الى فرنسا بعد ان يتبناها الجرمن » .

وعلى أثر غوبينو نشر فاشيه ده لابوج (١٨٩٩) مؤلفة عن « الآري ودوره الاجتماعي » ، ولقد كان كتابه بمثابة تبرير شبه علمي (مستند لبعض علوم الانسان) لآراء غوبينو .

وفي ذات العام (١٨٩٩) نشر الانكليزي هوستون شامبرلان كتابه « أسس القرن التاسع عشر » . والكتاب يعتبر العرق أساس التاريخ ومفتاح فهمه ، ولكنه لا يكتفي بالعلائم الجسدية الخارجية (لون البشرة والعيون ، شكل الجمجمة ..) كأساس للعرق ، ويتطلب شعوراً بتملك المزايا العرقية . ولا يحمل كتابه روحا تشاؤمية كالتي تسود افكار غوبينو ، بل هو يعرض خططاً قوامها الامل والتفاؤل بانتصار فكرة العرق .

ولقد أنضجت هذه الافكار في المانيا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وتجلت صريحة عارية فعالة في البناء النازي للريخ الثالث على يد هتلر ورفاقه . ففي كتاب هتلر « كفاحي » ، وفي الباب الحادي عشر من الجزء الاول من هذا الكتاب ، وتحت عنوان الشعب والعرق (Volk und Rasse) ، يشرح هتلر افكاره عن العرق بصراحة غريبة . يقول هتلر : « لا تتزاوج الحيوانات إلا مع جنسها . واذا حصلت ظروف شاذة أدت الى بعض الاستثناءات ، فان الطبيعة سرعان ما تضع كل وسائلها لمقاومة هذا الاستثناء (الشذوذ) . وان احتجاج الطبيعة ليبدو واضحاً صريحاً سواءً بمنع

الجنس الهجين من امكان التناسل ، أو بتحديد النسل وتجريد النموذج الشاذ من امكان مقاومة الامراض والاعداء . وهذا طبيعي ، لان التزاوج بين سويتين مختلفتين تؤدي الى انتاج سوية متوسطة . وهذا التزاوج هو ضد إرادة الطبيعة التي تحرص على رفع سوية المخلوقات . ان دور الاقوى هو ان يحكم غيره (الاضعف) ويسيطر عليه ، لا ان يمتزج فيه ويضيع ميزانه واصالته في الاختلاط معه » .

هناك إذاً حسب مفهوم هتلر نوع من الانسانية عال يمثله العرق الآري. وهو عرق موجود ، حسب قوله ، ولا حاجة للنقاش والاختلاف حول وجوده . وان تفوقه ليبرهن عليه كيان هذا العرق ذاته ، فهو مستودع التطور الحضاري وحامل مشعل الحضارة .

وهناك أعراق دنيا موجودة أيضاً . ولا يجوز ان تتصالب الاعراق المتفاوتة ، لان التهجين هو ضد ارادة الله وارادة الطبيعة ، ولانه لا يتم إلا على حساب التفوق . ويرى هتلر ان كل الرجال من دم واحد يجب ان تجمعهم دولة واحدة ، وان الدولة ما هي إلا جهاز اقيم للدفاع عن مصالح العرق . ولهذا فان اولى مهام الدولة هي : منع المجانة والاختلاط ، والسهر على تحسين النسل ، وحفظ العرق . ويرى هتلر ان الشعوب التي لا تسهر على نقاء دمها تخسر وحدتها الروحية وتنحل . والخلاصة : ان هتلر يعيد حتى الالفاظ الواردة في كتب غوبينو وده لابوج ، ولكنه بدل الاخذ بتشاؤم غوبينو يستعير تفاؤل شمبرلن .

وفي عام ١٩٣٠ صدر كتاب روزنبرغ (فيلسوف النازية) وعنوانه : « اسطورة القرن العشرين » ، وهو اشمل محاولة لفلسفة نظرية العرق .

٢- نظرية المشيئة او الارادة :

وهي تقول بالوجود النفسي للامة مقابل الوجود الفيزيولوجي المادي الذي يقول به العرقيون . وهي نظرية فرنسية تعكس بنيان الامة الفرنسية الخاص . ففي فرنسا تقوم الحياة السياسية على مبدأ التمثل والتبني ، وفرنسا نفسها محصلة عوامل تاريخية ترجع بالنشأة الى روما التي حصل تكوينها من انصهار شعوب مختلفة في بوتقة ثقافية واحدة .

ويمثل هذه النظرية من اعلام الفرنسيين ادوار كينيه ، وميشيليه ، ورينـان وفوستيل ده كولانج وأميل أوليفيه .. ففى صفحات شهيرة (بعد عام ١٨٧٠) أجاب المؤرخ الفرنسي فوستيل ده كولانج (مخاطباً المؤرخ الالماني مومسن) عن السؤال ما هي الأمة بما يلي :

« يشعر الناس بانهم من شعب واحد ، واذا كانت لهم افكار مشتركة ، ومصالـح مشتركة ، وعواطف وذكريات وآمال مشتركة . وهذا هو ما يصنع الأمة . . فالأمة هي ما نحبه . وقد تكون الالزاس المانية في العرق واللغة ، ولكنها قومياً ووطنياً فرنسية وان الذي جعلها فرنسية ليس الملك لويس الرابع عشر ولكن الثورة الفرنسية . بعـــد الثورة شاركت الالزاس في مصائرنا ، وعاشت حياتنا ، وقاسمتنا المصائب والانتصارات ، والامجاد والاخطاء ، وكل افراحنا وآلامنا » .

وفي محاضرة شهيرة (في السوربون) عام ١٧٨٢ عنوانهـا ما هي الأمة ؟ اعاد أرنست رينان ذات المعنى ، فبعد ان استبعد نظرية العرق موضحاً أنها اسطورة ضاره ، استبعد اللغة كأداة ملزمة بانشاء الامة معتبراً إياها عامـــلا داعياً مساعداً ، وبعد ان عرج على الدين مستبعداً تأثيره القومي في العصور الحديثة ، أوضح أن المصلحة الاقتصادية لا تكفي لانشاء الامة ، وكذلك

العوامل الجغرافية .) وخلص رينان الى القول التالي : «إن الامة هي نفس، هي مبدأ روحي . وهناك في الحقيقة عاملان هما بمثابة عامل واحد ينشئان روح الامة . الاول في الماضي ، والثاني في الحاضر . الاول هو الملك المشترك لتراث ثمين من الذكريات ، والثاني هو الرغبة الحالية بالعيش المشترك ، وارادة انماء التراث المشترك . فالانسان لا يرتجل ، وكذلك الامم . إنها بنت ماض طويل من الجهود والتضحيات .. على الماضي البطولي ، والرجال الكبار ، والامجاد ، على هذا الرأسمال الاجتماعي تقوم الامم ، وان فرنسا قد حققت هذا النموذج منذ القديم تحقيقاً كاملاً » .

ونظرية المشيئة هي بنت الثورة ومبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها ، ولهذا أسموها بمذهب القومية الانتخابية . وخلاصة هذا المذهب حق كل مجموعة بشرية في تقرير مصيرها ، واختيار قوميتها بالانفصال عن قومية أو الانضمام اليها . فالقومية لا تفرض على المجموعات باسم الحق التاريخي (الشبيه بالحق الالهي للملوك) ، بل يترك لهذه المجموعات حق التعبير عن المشيئة . والقومية ليست العرق المشترك أو اللغة المشتركة أو الدين او غير ذلك من العوامل .. ولكنها الرغبة في الارتباط بأمة معينة وتنمية التراث المشترك . والامة آمال وآلام وذكريات ، وليست وجوداً فيزيولوجياً مادياً .

والحقيقة لقد تكونت هذه النظرية بعد الازمة السياسية الكبرى التي حصلت من انفصال الالزاس واللورين عن فرنسا بعد عام ١٨٧٠. فالالزاس المانية في اللغة والاصل ، ولكنها قد ترغب في مشاركة فرنسا مصيرها فيما اذا سمح لها بالتصويت والتعبير عن ذلك . ولهذا لجأ الفرنسيون للتأكيد على نظرية المشيئة والتعبير عنها بالتصويت كأساس للقومية . ولكن التصويت يخرج الامة من عداد « الجماعات الطبيعية » ويجعل قضيتها حزبية مصطنعة .

فالارادة قابلة للتعديل والتبديل ، وهي خاضعة لاراجيف كثيرة ، ولا يمكن تعليق وجود الامه على مثل هذه الظاهرة الرجراجة . ولقد شعر انصار النظرية بهذا الضعف فأضافوا أنهم يريدون بالمشيئة « المشيئة التي تظهر بصورة فعلية وتستمر مدة طويلة » . ولا تبدل أمثال هذه الاضافات شيئاً من الحقيقة ، وهو ان الامة حقيقة عميقة ، وان المشيئة ظاهرة سطحية . وان الامم لا تصنعها الارادات ولا تدمرها الارادات . وان المشيئة أو الارادة هي في العادة نتيجة لأسباب عميقة وان عمل المفكر هو التحري عن هذه الاسباب ، وان هذه الاسباب التي تملى المشيئة هي في الحقيقة العناصر التي تتكون منها الامة (اللغة ، القرابة ، المصلحة ..)

٣ ـ اللغة :

إن هذه النظرية ترى في اللغة الاساس الحقيقي لتكوين الامـــة ، والعامل الاول في توليد الشعور القومي . والقرابة المعنوية التي تنشئها اللغة توحى بالاعتقاد بوجود القرابة المادية التي تنشأ عن وحدة الاصل . وان هذا الاعتقاد وان كان غير مبرر في الواقع ، إلا انه مؤثر وفعال وذو قوة دافعة كبيرة ..

وأول من دعا الى تحديد الامم باللغات في العصور الحديثةهوالالماني هيردر (١٧٧٤ - ١٧٩١) . فهو يقول . إن الطبيعة فرقت الشعوب بواسطة اللغات (لا بالحدود والغابات والانهر ..) ، وان لغة الشعب هى روح الشعب وقلبه ، وان الجماعة التى تتكلم لغة واحدة ، تحمل روحاً واحدة ، وتكون أمة واحدة ، وهي بالتالي يجب ان تجتمع في دولة واحدة .

ولم يكن تأثير هيردر كبيراً في المانيا ، لان المانيا كانت في عهده موحدة

اللغة والثقافة ، ولكن آراءه نفذت في سلاف الجنوب والشمال وأيقظت الاهتمام باللغات كشرط لليقظات القومية .

وبين عامي ١٨٠٧ – ١٨٠٨ القى الالماني فيخته j-G Fichte خطبة الى الامة الالمانية ، فعرض في الخطب الثلاث الاولى لمذهب في التربية . وفي الخطبة الرابعة اعلن ان هذه السياسة التربوية لا تليق الا بالشعب الالماني المتصف بخاصة أساسية مستمدة من كيانه ذاته ، هذه الخاصة هي بقاء الالماني مقيماً في مواطن القبائل الجرمنية التي اجتاحت أوربا محتفظاً بلغته ، واللغة شيء بديء ينبع من الحياة المشتركة .. فالالمان هم على العكس من القبائل الجرمنية الاخرى التي أقامت في فرنسا واسبانيا وأيطاليا وامتزجت بأهلها ، وتبنت لغات جديدة اجنبية ذات أصول لاتينية معدلة . فهذه الشعوب التي تتكلم اللاتينية المعدلة لا تملك (لغة الأم) وإن مجموعة لغاتها المستعارة هي مجموعة ميتة لا تعيش إلا على السطح ، وهي في الحقيقة ميتة لانها منتزعة من جذورها الحية ، ولم ينشئها الشعب الذي يتبناها ، وان المقارنة بين اللغة الالمانية وباقي اللغات الاوربية هي مقارنة بين الموت والحياة .

ففي اللغات الحية تدخل الثقافة في كافة مظاهر الحياة وتنفتح على الشعب ، وفي اللغات الميتة تنفصل الثقافة عن الحياة وتصبح وسيلة تسلية رفيعة للفئات المتعلمة فحسب . وان الشعب الالماني الذي بقي محافظاً على أرومته البدائية محتفظاً بطابعه البديء له الحق بان يعلن أنه وحده الشعب ، عندما نقابله بالجرمن المهاجرين ، وهو أساساً الشعب الوحيد الذي ظل مرتبطاً بوطنه الاصلي .

وفي الخطاب الخامس يوضح فيخته آراءه فيقول : « ان من ينطق بلغة واحدة هو كل وحدته الطبيعة الصادقة المحضة ، وأوجدت بين أجزائه روابط

عديدة غير منظورة . ومثل هذا الكل لا يمكن ان يتقبل بين ظهرانيه شعباً آخر ، من أصل آخر ، يختلف عنه باللغة ، ويحاول الاختلاط والاندماج فيه. واللغة في أفضل صفاتها ، وأسمى درجاتها، وانما هي اللغة الام التي تتحد في جوهرها مع الجنس . انها اللغة الالمانية ، غير المستعارة أو المشتقة من غيرها ، كما هي حال الفرنسية المشتقة عن اللاتينية . وان شعوب اللاتين عندما فقدوا لغتهم ، فقدوا روحهم القومية ومعناهم الاصيل » .

وهكذا فان فيخته يرى ان اللغة والامة متلازمان ، وان الذين يتكلمون لغة واحدة يكوّنون كلاً واحداً ربطته الطبيعة بروابط متينة غير مرئية . وان الحدود الاساسية التي تستحق التسمية باسم « الحدود الطبيعية » هي الحدود الداخلية التي ترسمها اللغات ، وأخيراً أن اللغة هي أساس القومية .

ولقد مات فيخته مغموراً ، لكنه بعد وحدة المانيا عام ١٨٧١ ، أعطته أمته المكان اللائق به ، فجعلته من عداد أنبيائها في العصور الحديثة ، اذ أيقظ شعبه على هويته وخاصته الاساسية .

واللغة هي التي تميز الانسان عن الحيوان . فالانسان حيوان ناطق يتمتع عن طريق قابلية الكلام والنطق بالقدرة على التجريد والتعميم ، وبهذه القدرة يمتاز العقل الانساني عن عقل سائر الحيوانات . واللغة تدعم « الصفة الاجتماعية » في الانسان بتقوية الاتصال الاجتماعي ، وعن طريق اللغة تمتاز المجتمعات البشرية عن المجتمعات الحيوانية . واللغة التي تميز الانسان عن الحيوان تميزه عن أخيه الانسان أيضاً ، فلكل أمة لغة . واللغة تكوّن الامة لأنها واسطة التفاهم ، وآلة التفكير ، والطريق الى نقل التراث والمكتسبات بين الاجيال .

ولقد علمتنا التجارب التاريخية ان الانسان عندما يفقد لغته فانه يفقد

قوميته وهويته . وما دام الشعب عاكفاً على تطوير لغة الام فانه يستطيع إذا واتته الظروف والاحداث ، أن يرقى الى مستوى القومية ، فالدولة . فاللغة هي أولى الخصائص التي تتميز بها أمة من أمة وأوضحها واكثرها فعلا وتأثيراً . وان الطابع القومي ليكمن في اللغة التي تحمل في موكبها آداب الامة ، واغانيها الشعبة وقصصها وملاحمها ..

ولقد اظهر التاريخ أهمية اللغة في اليقظات القومية الحديثة ، فان النهضات القومية بين الشعوب السلافية وأمم البلقان بدأت على أساس نهضات لغوية ، والنهضة القومية العربية ، والتركية ، كما رأينا ، سبقتها نهضة لغوية بشرت بها ، وكانت الداعي والنفير .

ولقد أدرك المستعمرون خطورة اللغة في اليقظات القومية فاصروا على الغاء اللغة القومية واحلال لغاتهم مكانها ، وليس عبثاً أن قال بعض الفرنسيين يوماً : ان إيالة الجزائر لن تصبح حقيقة ممتلكة فرنسية الا عندما تصبح لغتنا هناك لغة قومية » . وان نزاع البقاء بين القوميات الذي لمحناه في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في أوربا الشرقية والجنوبية الشرقية ، لم يأخذ الا صورة النزاع على اللغة . والجرمنة ، والترويس ، والفرنسة ... ما هي الا محاولة لتعميم لغة الفاتحين أو الطامعين ، وبالتالي ادماج الشعب وتمثلها عن طريق تبنيها لغة غير لغتها الاصلية .

وقد لاحظ المؤرخون ان الحكم المشترك (الذي يذكره بعضهم كعنصر مستقل من عناصر تكوين الامة) ليس سوى أداة مؤثرة في اللغة . فالحكم المشترك يؤثر في القومية عن طريق نشر لغة الحاكم ومحاربة لغة المحكوم . والدين (الذي يعده بعضهم اساساً في القومية) يراه بعضهم مجرد عامل مساعد أو عائق لليقظة القومية باعاقته انتشار بعض اللغات ، ومساعدته في انتشار

بعضها الآخر .

ولقد قام مفكرون يردون على المبالغة في أهمية اللغة في تشكيل القومية. وجاء هؤلاء بأمثلة على قيام دول متعددة اللغات ، وانفصال دول موحدة اللغات . ويعطي هؤلاء عادة مثالي سويسرا وبلجيكا وامريكا الشمالية والجنوبية . ولقد فات هؤلاء ان سويسرا وبلجيكا ليست أمماً ولكنها دول متعددة القوميات،أملت وجودها وحفظت بقاءها متطلبات التوازن الدولي الاوربي . وان التجربة الانفصالية الامريكية عن انكلترا واسبانيا هي تجربة من نوع خاص ، وهي محاطة بظروف جغرافية (فاصل المحيطات) وانسانية (تكوين السكان وتنوع اصولهم) فريدة لا يصح القياس عليها ..

٤ ـ النظرية الماركية عن الامة :

لقد صاغ هـــذه النظرية بشكلها الحاضر ستالين في رسالته : الماركسية والمسألة القومية (١٩١٣ (والمسألة اللينينية القوميـــة (١٩٢٩) ويمكن تلخيصها بالمبادىء التالية :

أولا : إن نضال الطبقات هو القوة المحركة الاولى للتطور التاريخي ، وليس نضال الاعراق والامم . وان انقسام الامم الى طبقات متناحرة متصارعة هو أعمق من انقسام الناس الى امم . وان في داخل كل أمة بورجوازية أمتين (البورجوازية ، والبروليتاريا) .

ثانياً : إن المصالح الطبقية لبروليتاريا مختلف الامم واحدة ، وهي متضادة مع المصالح البورجوازية الوطنية والاجنبية معاً . ولذا نشأت الاممية البروليتارية إحدى خصائص المفهوم الشيوعي عن العالم ، ولذا كان شعاره ياعمال العالم اتحدوا » .

ثالثاً : إن القومية البورجوازية هي نتاج عهد تاريخي معين ، فهي بنت

الرأسمالية الصاعدة ، وهي احدى الميزات الرئيسية للمفهوم البورجوازي عن العالم . وهي عقلية العدو الذي يحاول ان يجتذب البروليتاريا (تحت ستار القومية) الى صف البورجوازية الوطنية ضد البورجوازية الاجنبية المنافسة ، والذي يحاول اخفاء التناقض الطبقي تحت ستار التناقض القومي .

رابعاً : هناك أمم بورجوازية وقوميات بورجوازية ، كما ان هناك أمماً اشتراكية وقوميات اشتراكية ، وان الامم البورجوازية لتختلف عن الامم الاشتراكية في الطابع الروحي والسياسي والاجتماعي اختلافات جذرية عميقة . وان مصير الامم البورجوازية هو الى التفكك والانحلال في الصراع الطبقي، كما ان مصير الامم الاشتراكية هو الى تقوية اللحمة الداخلية لهذه الامم بسبب زوال التناقضات الطبقية ووحدة المجتمع المعنوية والسياسية .

خامساً : رغم كل المبادىء المبينة أعلاه فان النظرية البولشفية الروسية لم تستطع انكار واقع الامة من حيث أنها « جماعة ثابتة من الناس ، تألفت تاريخياً ونشأت على أسس أربع علائم اساسية مجتمعة ، هي : اللغة ، والارض ، والحياة الاقتصادية ، والتكوين النفسي الذي يتجلى في خصائص الثقافة القومية » .

والملاحظ ان المقومات المجتمعة التي تقترحها البولشفية الروسية للامة ليست جديدة ولا طريفة . ولكن الجديد الطريف فيها هو اعتبار الامة مفهوماً تاريخياً لم يظهر إلا في عهد الرأسمالية ، وربط مبدأ القومية بمصالح طبقة معينة (البورجوازية) وبحاجتها الى السوق الداخلي الواسع . ولقد أحسن الذين ردوا على هذه النظرية عندما أوضحوا أن الحياة الاقتصادية المشتركة (التي تعطيها الشيوعية الاهمية الكبرى) لا تنشأ إلا بعد تكوين الدول القومية ، فهي نتيجة لمبدأ القوميات لا إحدى عوامله وأركانه .

كذلك فان المبدأ القومي لا يأخذ بالضرورة شكل تجميع الامة الممزقة في دولة ، بل قد يأخذ شكل حل الدوله المتعددة للقوميات وانفصال القوميات فيها عن بعضها . فالمبدأ القومي ليس دوماً أو بالضرورة جامعاً ولكنه قد يكون فاصلا ، وهو عندما يكون فاصلا يضرب فكرة السوق الداخلية من أساسها وكذلك فكرة المصلحة الاقتصادية المشتركة .

ولا يستطاع على أي حال ربط مبدأ القوميات بأي مبدأ اقتصادي بمفرده ، لان القومية انما تقوم على مصالح مادية وروحية في آن واحد ، كما قد تقدم أحياناً على تضحية بعض المصالح المادية في سبيل المثل الروحية .

الفصل الأول

فكرة القومية ومدلولها

القومية لغة مصدر صناعي مشتق من كلمة قوم التي تدل على الجماعة وهي تشبه من هذه الناحية العائلية المشتقة من العائلة والانسانية المشتقة من الانسان ، وكما أن العائلية تعبير عن وجود العائلة والعمل على أساس هذا الوجود ، وكما أن الانسانية تعبير عن وجود البشر والعمل بمقتضى هذا الوجود فكذلك تعبر القومية عن وجود الامة ، وتعني التصرف بمقتضى طبيعة الامة وغايتها وخصائصها ، ولا يستحسن العرب أن ينسبوا الاشياء مباشرة الى كلمة الأمة لأن النسبة الى الامة هي الامي ومصدرها الصناعي الامية التي تختلط بمعنى الجهل ، كما يمكن أن يختلط الامي المنسوب الى الامة ، بالأمي المنسوب الى الام ، فهذه الاشتباكات اللغوية جعلت العرب يؤثرون البحث عن كلمة أخرى غير الامة تدل على معناها ولا تختلط مشتقاتها بسواها لينسبوا اليها شؤون الامة ، فكانت كلمة القوم هي الراجحة في هذا الميدان .

والقومية ذات معنيين مرتبطين ببعضها ، فهي تعني أولاً ، وجود أمة من الامم وهي تدل ثانياً على مبدأ محرك في الحياة السياسية والاقتصادية

والاجتماعية عموماً ابتداء من خصائص الامة وأهدافها ، أي يدل أول هـذين المعنيين على القومية كوجود وثانيهما على القومية كمحتوى .

والقومية كوجود قائمة منذ الازمنة القديمة ، فالبشر لم يكونوا في عصر من العصور أفراداً متباعدين ، بل تكتلوا في جماعات كانت أحياناً عائلية وكانت أحياناً أوسع من حدود العائلة وأ كثرها تنوعاً في وجوه النشاط فغدت هذه التكتلات امماً كاليونان والرومان والعرب والفرس .

ومن يتتبع تاريخ الشعوب القديمـة يلاحظ ما بينها من تفاوت ويدرك أن العادات والتقاليد والاذواق مختلفة عن بعضها مما يدل على وجـود أمم متعددة ، فالقومية ليست حديثة النشأة بل هي شكل أساسي عريق من اشكال الحياة البشرية ومظهر جوهري قديم من مظاهرها .

وقد حسب البعض أن نشأة القومية تمت في القرون الاخيرة ، التي تميزت بقيام الدول القومية ابتـداء من انكلترا وفرنسا ثم المانيا وايطاليا والدول البلقانية وبقية الدول القومية في آسيا وأمريكا ، والحق أن القومية في العصور الاخيرة لم تنشأ بعد أن كانت معدومة ولم تولد بعد أن كانت مفقودة وانما هي قائمة منذ العصور الأولى ولكن الطارىء الناشىء هو تطور محتواهـا أي ان شكلاً جديداً من الوعي القومي قد ظهر في القرون الاخيرة ومهد ظهوره أوروبا الـتي سبقت غيرها الى النهضة الحديثة ثم انتشر هذا الوعي الجديد وسرى سريان النار في الهشيم في سائر بقاع العالم فغير من طبيعة المجموعات السياسية .

وهذا المحتوى الجديد للقومية أعلن عن نفسه بالدعوة الى قيـام الدولة على أساس قومي ، فعلى الرغم من وجود القوميات قديماً لم تكن الدول قائمة على أساسها ولم يشترط الاوائل أن تستقل كل قومية بدولة

خاصة وانما قبلوا وجود الدول الامبراطورية التي تحكم عدة قوميات كامبراطورية الاسكندر والرومان والعرب ، كانت كل أمة في الزمن القديم تدرك ولو بغموض تميزها عن بقية الامم وتفردها بخصائص ثقافية وحضارية معينة ولكنها لم تكن ترى مانعاً من بقائها مع امم أخرى تحت تاج ملك واحد ، غير أن العصور الحديثة غيرت هذا المفهوم ، إذ لاحظ البشر ما تنطوي عليه الدول الامبراطورية من بذور الشقاق والخلاف والفتنة وأدركوا أن الجو الطبيعي لانطلاق الانسان وتعاونه مع أخيه هو الجو القومي الذي يضم أفراداً يتفقون في التركيب الاساسي لذوقهم وفكرهم ونظرتهم للحياة وتساعدهم اللغة الواحدة على التفاهم السريع ، ويساعدهم التاريخ الواحد على التجمع والانصهار ، وهكذا عرفت القرون الاخيرة تحطم الامبراطورية الجرمانية المقدسة والامبراطورية النمساوية والعثمانية ، وسعى كل شعب الى استقلاله والى تفرده بدولته وحكم نفسه ونيل سيادته القومية ، ووقعت من جراء ذلك حروب وسالت دماء ، واصبح المحتوى الجديد للقومية حقيقة واقعة لا يستطيع تجاهلها أحد .

الا أن قيام الدول القومية لم يكف المفكرين القوميين بل عادوا الى تأمل الموضوع من جديد ، فوجد بعضهم أن القومية لا تكتفي باقامة الدول المستقلة وإنما تدفعنا نحو غايات جديدة فهي ثورة في عالم الانسان غيرت وجه تاريخه وبروزها الصارخ في العصور الحديثة دليل على احترام الكيان الانساني فبعد ان كانت المجموعات البشرية تخضع في الزمن القديم لحامل السيف البتار أو لابن العائلة المسيطرة اصبحوا لا يرضون الآن ان يحكموا الا من قبل أناس منهم ويميزون بين مجتمعهم وسائر المجتمعات ، وهذا الطريق له بقية فما دامت القومية دعوة الى الكرامة الانسانية فالكرامة لا تعني فقط الاستقلال السياسي وانما تعني أشياء أخرى عديدة ،

فهي تريد مثلاً أن يحيا الفرد حياة عزيزة لا يشوهها استبداد أو طغيان ولا يشقيها فقر أو حرمان ، وهكذا اغتنى مفهوم القومية واتسع محتواها حتى شمل الحرية الداخلية والنظام الاقتصادي الأمثل الى جانب الاستقلال والوحدة السياسيين .

وتدل الشواهد على ان الحركة القومية لم تبلغ بعد غاية مداها ، فما زال أمامها طريق طويل وفي كل يوم يقف تحت لوائها شعب جديد يطالب بوحدته القومية وحريته السياسية كما يطالب بتحسين ظروف العيش لابنائه ، وقد آمنت بها غالبية الحركات الاستقلالية التي قامت في القرنين التاسع عشر والعشرين وهي ككل شيء عظيم لها خصوم يحاربونها الى جانب أنصارها المدافعين عنها والموضحين لمفهومها ، وأهم ما يدعيه خصومها انها مرحلة عابرة مؤقتة ستزول اذا اكتمل الوعي البشري وتترك محلها للدولة العالمية ، كما أن من خصومها من يرى أنها ليست شرطاً لقيام الدول بل يمكن أن تقوم الدولة على الطراز القديم الذي يجمع عدة قوميات .

اولاً ـ أما الذين يرونها مرحلة عابرة فهم الامميون الشيوعيون من ناحية والمفكرون العالميون من ناحية ثانية ، فالقومية عند الماركسيين الاوائل أمر عارض نتج عن تجمع القوى البرجوازية في كل منطقة من المناطق ، وسعت هذه القوى الى ابقاء نفوذها على الطبقات العاملة باستثارة الحماس القومي وإلهاء الكادحين عن مشكلاتهم الحيوية بشن الحروب العدوانية تحت اللواء القومي وباشغال الناس بالأزمات السياسية وجر الجماهير الى التضامن مع المستغلين باسم المصلحة القومية العليا ، كما أن قسماً من دعاة الانسانية تصوروا القومية تصوراً متناقضاً مع انسانيتهم فرأوا في القوميـة تعصباً

وانغلاقاً يمنع بني الانسان من التعاون فيما بينهم ومن السير في ركب واحد نحو تحقيق الاهداف البشرية الواحدة واعتقدوا أن النظام الأمثل لبني الانسان هو قيام الدولة العالمية الموحدة ، التي تذوب فيها القوميات ، ولا يبقى فرق في الطابع بين مجتمع وآخر ، واتجه قسم من اصحاب النزعات الدينية الى ما يشبه هذا الرأي فأعلنوا بأن الفروق بين البشر مصطنعة ونادوا بالدولة الدينية الواحدة التي يعتبر رعاياها أمة قائمة بذاتها ولو كانوا في الاصل من قوميات مختلفة ، بل اعتبر بعضهم الحركات القومية مضرة بالوحدة الدينية وممزقة لابناء الدين الواحد .

ويرد انصار القومية على هذه الاتجاهات بردود متعددة ، منها أن القومية لم تنشأ مع ظهور الرأسمالية وانما هي قديمة قدم التكتلات البشرية وان تغير محتواها على مر الازمان ، ومنها أن ارتباط القومية بالرأسمالية ليس ضرورياً على الرغم من ان الرأسمالية حاولت استغلالها في بعض الفترات لمحاربة عدوها الاقطاع من جهة ، ولاشغال الكادحين من جهة أخرى ، ولا نكون منصفين اذا حكمنا على القومية من جهة نظر مستغليها ومشوهيها ، ومن المعلوم أن الرأسمالية في اوروبا لم تستغل القومية وحدها بل استغلت الدين والعلم والادب والفن ايضاً وحولتها في كثير من البلدان الى وسائل تخدم اغراضها ومطامعها الداخلية والخارجية فهل ننبذ الدين والعلم والادب والفن لأن بعض أصحاب الاهواء سعوا الى الاستفادة منها بشكل غير مشروع ؟ ومن ردود انصار القومية ايضاً ان الحركة القومية ليست وقفاً على اوروبا وحدها واذا ارتبطت هذه الحركة عند دول الاستعمار الاوروبي بالتعصب والعدوان وامتصاص دماء الشعوب الاخرى فان القومية ارتبطت عند العرب والشرقيين عموماً بالعمل على التحرر واستنكار الاستعمار والعدوان ، ومن العجيب أن نسمع دُعاة من اوروبا وصلت امهم الى وحدتها

ونحررها يحاولون اقناع الشعوب الاخرى بألا فائدة من العمل على أساس قومي ولا يستطيع العاقل المتبصر الا أن يحكم على هؤلاء بسوء النية وتعمد ضرب الحركات التحررية في الامم المهضومة الحقوق .

ومما يدافع به القوميون ، أن القومية لا تتعارض مع الانسانية اذا فهمتا على شكل سليم فالانسانية لا تشترط ذوبان الخصائص الجوهرية لكل مجتمع ، بل من الافضل لها أن تضم مجتمعات متمايزة ذات شخصيات متنوعة ليستطيع كل منها ان يخدم الانسانية من ناحية وأن يغني تراثها الذوقي والعملي باسلوب جديد ، وليس من صالح الانسانية أن يصبح البشر كلهم نسخاً متماثلة تتكرر بآلية عمياء فتجمد الحركة الفكرية ، وكل ما تشترطه الانسانية هو أن يتعاون البشر بدلاً من أن يتقاتلوا ، ويمدوا ايديهم لدفع الركب الانساني الصاعد عوضاً عن أن يمد كل منهم يده لنهب خيرات اخوته وسلبهم ارضهم وأرواحهم ، وهذا الهدف يتحقق عن طريق بقاء القوميات التي تعتمد على قيم وفضائل انسانية وتدرك أنها وجدت في سبيل خير ابنائها وخير البشر اجمعين ، بل تفقد الانسانية وجودها اذا انسلخ الافراد عن قومياتهم وضاعوا في خضم العالم من غير أن يرتبطوا بجماعة تفهمهم ويفهمونها ويستطيعون العمل والانتاج في جوها .

وليس صحيحاً ان البشرية تنتقل من دائرة ضيقة الى دائرة أوسع أي من العائلة الى المدينة الى القومية الى الانسانية ، إذ أن هذه الدوائر موجودة الى جانب بعضها فنشوء المدينة لم يلغ وجود العائلة وظهور القوميات لم يقض على المدن والانسانية موجودة كنوع بشري وكأهداف تعاونية سامية مع وجود القوميات ، أما الانتقال الى العالمية فهو أمر

متناقض مع طبيعة التطور التاريخي لان هذا التطور يتم بين حالات ووجوه متعددة لنظام واحد، ونشوء العالمية شيء جديد غاية الجدة يختلف عن تطور القوميات ، إذ يمكن أن تكتسب القومية خـــلال التطور صفات جديدة وتستطيع أن تظهر بأشكال متعددة ولكنها لا تقدر على اعدام ذاتها لأنها حقيقية انسانية جوهرية . لا يستغني الكائن البشري عنها كما لا يستغني عن العائلة ، وهي تقف في الوسط بـــين الاسرة والمدينة الضيقتين اللتين تحدان بضيقهما انتشار النشاط الانساني وبين العالمية المائعة التي يضيع الفرد فيها ويعجز في بحرانها عن تركيز نشاطه .

ثانياً ـ والفئة الثانية هي التي تعترف بوجـــود القوميات ولكنها لا تشترط قيام الدول على أساسها وانما تحد الفعالية القومية بالمظاهر الثقافية لها والفنون الشعبية والحياة المشتركة ، ولا ترى مانعاً من انشاء الدول على الاساس الامبراطوري القديم الذي يضم عدة قوميات ، وقد اتجهت الشيوعية بعد صدور كتاب ستالين (مسألة القوميات) هذا الاتجاه ، إذ لم تستطع ان تقف في وجه التيار القومي وقفة حاسمة وخشيت على نفسها اذا هي انكرت وجود القوميات ، فما كان منها إلا أن أقرت لها بالوجود ودعتها الى التجمع في دولة واحدة مع احتفاظ كل منها بلغتها وثقافتها وفنونها الشعبية وثيابها التقليدية ، وحفلاتها واعيادها ، ومن المعلوم ان الدولة الروسية القيصرية كانت تتألف من عدة قوميات اكبرها القومية الروسية والى جانبها قوميات أخرى قامت بثورات دموية على القياصرة ، فأراد الحزب الشيوعي الروسي ان يصل الى حـــل وسط يبقي للدولة الروسية حدودها المترامية الاطراف ويرضي القوميات الداخلة تحت سلطانها لئلا تثير المتاعب ، فخرج على الناس بفكرة الاتحاد السوفياتي الذي يضم عدداً كبيراً من المقاطعات تتبع حكومة واحدة على شكل لا مركزي

وترك للقوميات امورها الجزئية الداخلية وسمح لها أن تتحدث بلغاتها وتعتز بتراثها الخاص ضمن البوتقة الشيوعية .

ومن الامثلة على الدول غير القومية سويسرا وبلجيكا حيث تضم بلجيكا قوميتين وتضم سويسرا عدة قوميات .

ولا يعجب انصار القومية بهذا الاتجاه ويسعون الى تفنيده فهم حين يناقشون الشيوعيين يربطون بين الفكرة الماركسية التي تنادي بزوال القوميات بعد القضاء على الرأسماليين وبين التظاهر باقرار وجود القوميات مع اندماجها في حكومة واحدة ، بل ان كتابات الشيوعيين حتى اليوم تدل على أنهم ما يزالون ينظرون الى القومية كمرحلة عابره وان تساهلوا معها مؤقتاً ، فمن يطالع كتابي الطبقة والامة وأمم رأسمالية وأمم اشتراكية الشيوعيين يلمس ان الطبقة هي محور التجمع البشري عند الشيوعيين ويدرك انهم يطلعون الى مرحلة عالية تذوب فيها القوميات وان لم يظهروا استعجالهم للوصول الى هذه المرحلة الآن ، ويعلن القوميون ان الحكم على تجربة الاتحاد السوفياتي ومقدار نجاحها في تجميع القوميات صعب نظراً للحكم الشديد الذي يأخذ به الشيوعيون مواطنيهم بل يرون ان الامور في الاتحاد السوفياتي تسير لمصلحة القومية الروسية ما دامت لغتها تفرض على سائر المقاطعات الى جانب اللغات القومية الأخرى ، وما دامت هي الغالبة في شؤون الحكم والسلطان والثقافة والتوجيه ، ولا يصدق القوميون ما ينسبه الشيوعيون للاتحاد السوفياتي من حكم لا مركزي واستقلال داخلي لكل مقاطعة بل يؤكدون ان المركز المتمثل في قيادة الحزب الشيوعي والجهاز الحكومي التابع لها الدور الاكبر في تسيير دفة الامور في سائر

المقاطعات ، وهم لا يترددون في التنبؤ لدولة السوفييت بمتاعب قومية خطيرة في المستقبل .

أما سويسرا وبلجيكا فيرى القوميون أن وجودهما كدولتين مرتبط باتفاق الدول الكبرى المحيطة بهما ، فسويسرا ضمنتها سائر الدول الاوروبية وابقتها بعيداً عن المنازعات لا لصلابة بنيانها وانما درءاً للمشكلات التي ستقع بين هذه الدول حين التعرض لها ، وكذلك الحال في بلجيكا فان فرنسا وانكلترا تعتبران من قواعد سياستها الخارجية ان تبقى بلجيكا على على حالها لا تنقسم ولا تتوزع بين الدول المجاورة .

ومجمل آراء القوميين ان الدولة المستقرة المنيعة البعيدة عن التفكك والقلاقل والمذابح هي الدولة التي تضم قومية واحدة ففي امكان ابناء هذه الدولة أن يتفاهموا ويتعاونوا بل ويتطوروا ويغيروا من أنظمتهم الاجتماعية من غير من ان يخشوا استبداد منطقة أو قومية بقومية ومتى وجدت عدة قوميات في الدولة الواحدة فلا بد من أن تستغل اكبرها الاخريات وينقلب الامر الى استعمار ، ويبدو أن التاريخ يسير في هذا الاتجاه فنحن نسمع في كل سنة بقيام دولة قومية جديدة ، وحين يكون أبناء الدولة متجانسين يصعب على الاجنبي التدخل فيما بينهم واثارتهم على بعضهم ، وقد انطلقت القوميات الاوروبية بعد استقلالها عن الامبراطوريات انطلاقاً هائلاً فاستطاعت فرنسا والمانيا وايطاليا وسواها ان تصل مراتب عالية من القوة والتقدم منذ ان توحدت كل منها في دولة قومية قائمة بذاتها .

ونلاحظ الآن ان الدعوة القومية الى العربية تشكل دافعاً كبيراً نحو التحرر وتحفز على بذل التضحيات في سبيل الرفعة والعزة والعيش

الكريم ، ويستنكر القوميون الواعون أن تصبح الدولة أو الامة اداة في يد المتعصبين يوجهونها نحو العدوان واستغلال الآخرين . فالدولة القومية المثلى في نظرهم هي التي تقوم على أمة موحدة متحررة تبذل جهدها للاستفادة من كنوز وطنها الطبيعية وتبني مجتمعها بناءً سليماً خالياً من الاستغلال وتمد يدها للمساهمة في خير الانسانية بأجمعها وفق امكانياتها وطبيعتها الخاصة .



الفصل الثاني

الاصول التاريخية للقومية العربية

القومية العربية من اعرق القوميات الموجودة على سطح الارض لأن أمة العرب قديمة ومعروفة منذ بداية التاريخ وقد كان وعي العرب لقوميتهم يشتد أو يضعف ويكتسب ملامح عديدة خلال العصور ، غير أن الحقيقة الاولى تظل ثابتة وهي أنهم أمة عربية قائمة بذاتها لها ما يميزها عن الامم الأخرى ، وسندرس الشواهد على وجود القومية العربية ونمو وعيها قبل الاسلام وبعده .

القومية العربية قبل الاسلام :

عرفت وثائق الاقدمين ونقوشهم اسم العرب وذكروا في التوراة وأسسوا قبل ميلاد المسيح بآلاف السنين دولاً واسعة غنية قوية في جنوب الجزيرة العربية وشمالها كدولة معين وسبأ وحمير والانباط وعاد وثمود بل أنهم دخلوا في الاساطير الشعبية لسكان هذه المنطقة ، وتصور الناس لبعض قبائلهم بدايات ونهايات لا تقل غرابة وجلالاً عن الاساطير التي تتناول التاريخ الاولي للقبائل اليونانية ، وكانت مدينتهم تزدهر في احدى بقاع الجزيرة العربية خلال عدة مئات من السنين ثم تتسلم لواءها بقعة

أخرى ، ولم يعرف التاريخ القديم سنة لم تكن فيها للعرب دولة قائمة في احدى مناطقهم وجيش واقتصاد وتأثير على مجرى الاحداث .

وفي الفترة التي سبقت الاسلام كانت للعرب دولة في اليمن كافحت الاحباش والفرس ودولة في الشام وأخرى في العراق ، وعرفت الجزيرة العربية في تلك الفترة القريبة من الاسلام ازدهاراً للشعر وفنون الكلام والخطابة ، ويبدو أن نجداً والحجاز كانتا متحللتين من روابط الدول ، أي تتبعان الانظمة العشائرية في حياتها ولا يدل هذا على أن هاتين المنطقتين لم تعرفا النظام المستقر قبل ذلك ، بل تشير دلائل عديدة الى انها عرفتا الدول والنظم الحضارية ثم ألمت بهما الكوارث فشتتت القبائل وخربت المظاهر الحضارية ، وليس من المعقول ان يكون امرؤ القيس والنابغة وعنترة وطرفة من سلالة شعب لم يعرف الحضارة وينطقون أروع الشعر فخامة وتنظيما وفكرة ، وتبين الادلة أيضاً أن العرب قبل الاسلام في جوف جزيرتهم وفي يمنهم وشامهم وعراقهم ملوا الفرقة والفوضى وتعدد الدول والنفوذ الاجنبي والضياع السياسي والديني ، فتطلعوا الى وثبة تعيد لهم وحدتهم وتتيح لهم ابراز مكنوناتهم ، وتجلى هذا الوعي في قصائد زهير بن ابي سلمى التي دعا فيها الى نبذ الخصومات واطراح الحروب اهلية بين العشائر ، كما يتجلى في ظهور اسواق العرب التي يقصدونها من كل حدب وصوب للمناظرة والمنافسة في الخطب والاشعار ، ويتضح هذا الوعي في الاشهر الحرم والحج فقد حرمت العرب على نفسها الغزو والقتال في أشهر معينة من السنة يتلاقى فيها أبناء القبائل على ما بينهم من ثار أحياناً فلا يختصمون بل يتفرغون للمصالح المشتركة كما أن الحج كان مؤتمر العرب في تلك الازمنة ، وان اتجاههم الى إقامة مندوبين عن آلهة القبائل في الكعبة يعبر عن شعورهم بوحدتهم ، ويتضح

لنا قلق العرب الديني من خطب قس بن ساعدة ومن تساؤلات عـــدد كبير من بلغاء العرب قبل الاسلام ، كما انهم بدأوا يميلون الى الوحـدة الاقتصادية فأصبحت قريش قبيلتهم التجارية الاولى والوسيطة بـين شمالهم وجنوبهم ، وازداد تفاعلهم ولقاؤهم مـع بعضهم وظهروا كقوة عسكرية منافسة للاجانب من جديد حين غلبوا الفرس في معركة ذي قار ، ويعبر فخر شعرائهم واندفاعهم عن عودة الحياة الى نفوسهم بشـكل قوي ، وقد سميت الفترة السابقة للاسلام والقريبة منه زمنيـاً بالجاهليـــة مشتقة على الارجـح لا من الجهل ضد العلم ، بل من الجهل ضد الحلم ، أي اعتبرت مرحـلة فتوة الامة العربية والفتوة فيها اندفاع وحيوية وقلق وتلمس وطيش وشجاعة وسعي الى التطور ، وقد اشتهر العرب منذ القدم باخلاق مجيدة اعترف لهم بها الرحالة اليونان الاولون ، فهم عفوياً يمتازون بالكرم والشجاعة والمروءة والتضحية والنخوة وحماية المستجير واكرام الضيف وكره الطغيان وتقدير الحرية والاشتراك في المغانم والمغارم ، كما اثر عنهم حـين يقيمون الدول حبهـــم الشديد للعمران واشادة المدن والسدود والقصور كسد مأرب وبيوت ملوك اليمن الشاهقة ومنازل البتراء المنحوتة في الجبل وتدمر والحـــيرة وبصرى الشام ...

وقد ذكرنا هذه الامثلة لنبين أن العرب حقيقـــة واقعـة بشرياً وحضارياً منذ آلاف السنين وانهم كسائر الامـــم مروا بفترات نهوض ومراحل تخلف وكانوا اثر انقضاء احدى دولهم يبحثون من جديد عن النهضة ويسعون اليها ، وحتى في الايام التي اندمجوا فيها مـع غيرهم سياسياً ظلوا أمة متميزة وقدموا لشركائهم في الدولة نتاج عبقريتهم ، فقـد عرف عرش روما مثلاً اباطرة عرباً حكموا الدولة الرومانية في أوج قـوتها ، ولكن اندماجهم مـــع الآخرين لم يكن بطول إذ سرعان ما يثورون

ويسمون الى الاستقلال على الرغم من أن الاستقلال القومي لم يكن قوي النداء في العصور القديمة وثورة تدمر ومحاولات المناذرة وتمرد قبائل الجزيرة العربية على الرومان اوضح دليل على ذلك ، وقد أدى بهم الشعور بالعزة القومية في أيام جاهليتهم الى مفاخرة الامم القوية في ذلك الوقت كالفرس والروم فكثيراً ما وقف على طنافس ايوان كسرى عربي فقير يعلن ان العرب خير من الفرس بل وأشرف من جميع الامم ، وكانوا يعتبرون زواج بناتهم من الاجانب ولو كانوا اكاسرة أو قياصرة عاراً وأي عار .

القومية العربية والاسلام :

استجاب الله لدعوات العرب فبعث لهم محمداً (ص) مبشراً بدين جديد وداعياً الى اصلاح اجتماعي وسياسي واسع ، فقد كان العرب قبله يحاولون تلمس طريقهم ويتساءلون عن الوسيلة التي تنظمهم وتعيد اليهم قوتهم الموحدة وتنقذهم من الخلافات القبلية وتسمح لهم بالانطلاق نحو المثل العليا التي يمجدونها ، وقد كان محمد (ص) عربياً وظهر في المكان المؤهل لانجاب القادة فمكة مجمع العرب ومثار حديثهم ومحل مناظراتهم والمطلعة على آلامهم وحاجاتهم والواعية اكثر من سواها حقيقتهم ، لم تكن مكة مدينة عادية منعزلة بل كانت عاصمة العرب اليها يحجون ومعها يتاجرون وفيها قريش التي بدأت لهجتها تنتشر بين القبائل العربية وكانت سائر الدول العربية في ذلك الحين تقدر مكة وتحترم الكعبة لذا لا نكون بعيدين عن الصواب اذا اعتقدنا بأن الوعي العربي في مكة بلغ في أواخر العصر الجاهلي ذروته ، وقد تجاوب العرب الوثنيون مع الاسلام منذ ظهوره ولم

يتوفى الله محمداً (ص) الا بعد ان اسلمت الجزيرة العربية الوثنية كلها تقريباً ، أما القبائل المسيحية فقد رأت في الدين الجديد شقيقاً لدينها فأحترمته ولم تقف منه موقف العداء ، وقاوم اليهود الدعوة الجديدة وتآمروا عليها لتعصبهم المعروف دائماً ولرغبتهم في بقاء العرب متفرقين ضعفاء فقراء ، فيثري اليهود على حسابهم ، وقد قاوم الاسلام في أول الامر وجهاء مكة وزعماء العشائر وعمداء الاسر الكبرى والاغنياء والمتنفذون من بين القبائل الوثنية وذلك لخوفهم من جماهيرية الاسلام ولومه المترفين والمستغلين ودعوته الى المساواة والصدقات واشتراك الناس في الاموال عن طريق الزكاة ، وعدم تفريقه بين سيد ومسود ووضعه سلماً جديداً للقيم لا يقيس الافراد بأنسابهم بل بتقواهم واعمالهم ، غير أن هذه المقاومة لم تطل فقد انتشر الاسلام بسرعة بين العرب الذين رأوا فيه حركة منقذة من الفوضى والتجزئة ، كما أنهم كانوا قد ملوا عبادة الاصنام واحتقروها ، وقد جاء الاسلام في وقته اذ فهم العرب آيات القرآن الكريم مباشرة من غير شراح ومفسرين وتأثروا بحكمتها وتوجيهها وروعة صياغتها مما يدل على مقدار وعيهم في ذلك الحين وقوة ادراكهم . ولم يخيب الاسلام رجاء العرب فيه ، فقد حرر نفوسهم من سلطان العشيرة واطلقها للعمل على مستوى الامة وانشأوا به دولة عربية موحدة غدت المدينة المنورة عاصمتها واصبحت المواصم الاخرى تابعة لها ، ونظم العرب حياتهم الاقتصادية عن طريق الاسلام ، فجبيت الزكاة والصدقات ووزعت الغنائم على المجاهدين ، ولم يكادوا ينتهون من توحيد أنفسهم في الجزيرة حتى انطلقوا لضم الاجزاء العربية الاخرى في الشام والعراق ومصر والشمال الافريقي ، بل انهم على سنة العصور القديمة حملوا دينهم الجديد وافتتحوا من أجل نشره بلاد الفرس والهند وجزءاً من الصين وقسماً من

البلاد البزنطية والاندلس وجزر البحر الابيض المتوسط ، وكانت القبائل المسيحية تحارب الى جانب المسلمين في أيام الفتوحات وأوصى الاسلام بألا يبقى عربي وثنياً أو مجوسياً والا كان السيف بينه وبين المسلمين ، وانتشر الاسلام أيضاً في البقاع غير العربية ، وأثر في تدعيم اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن ولكننا نلاحظ أن الاسلام شمل شعوباً قبلته كدين ولم تتعرب والى جانبها نجد أن العروبة سادت مع الاسلام في بعض البقاع وظلت عربية حتى بعد انحسار القوة الحربية للعرب المسلمين ، فقد شملت العروبة الجزيرة العربية والشام والعراق ومصر والشمال الافريقي ولكنها لم تشمل بلاد الفرس والهند والافغان والترك والاندلس وجزر المتوسط ، مما يدل على أن موجة الفتوح الاسلامية ثبتت دعائم العروبة في الوطن العربي الذي كانت بقاعه تشكو من حكم الاجنبي الرومي أو الفارسي ولم تسلب الناس أوطانهم ولم تجعل اناساً أو شعوباً لم تكن عربية سابقاً تترك قوميتها وتذوب في القومية العربية ، ولولا أن الشام والعراق ومصر وشمالي افريقيا بلاد عربية في الاصل لما استقبل ابناؤها المد العربي الجديد بحفاوة ولما ساعدوه ، ولما تركوا لهجاتهم المحلية بسرعة وأخذوا لهجة قريش يستعملونها في كتاباتهم واحاديثهم اليومية بينما قبل الفرس اللغة العربية كلغة ثقافية وظلوا يستعملون لغتهم الاصلية في حياتهم العادية .

ويعلل بعض المؤلفين قوة اللغة العربية وسرعة انتشارها ونفوذها الى المدن والقرى الشامية والعراقية مع العادات والتقاليد العربية المتحددة بالقرابة الجنسية والاجتماعية بين العرب الفاتحين وبين سكان هذه البقاع الساميين ، وبعضهم يرى أن هذة القرابة تكفي لجعل السامي يفهم العربي ويسرع الى الاندماج معه وخاصة بعد ان انهارت الحضارات السامية الاولى من بابلية وكلدانية وآرامية وفينيقية وشعر الساميون بأن العرب أقرب اليهم فكراً وطبعاً ولغة من البزنطيين الغرباء عنهم تماماً ، أما البعض الآخر فيرى أن العلاقة بين العرب وبقية

الساميين ليست قرابة خارجية بين شعبين مختلفين بل ان الساميين من العرب والعرب منهم ، والجزيرة العربية هي مصنع الساميين تصدرهم عن طريق الهجرات والفتوحات من حين الى حين وتحت هذا اللواء أو ذاك ، وما المد العربي الاسلامي الا مظهر من مظاهر الحركات السامية . ومهما يكن من أمر فان العروبة وجدت نفسها غير غريبة عن البقاع التي تسمي اليوم بالوطن العربي ، بينما ظل الفتى العربي في بلاد الفرس غريب الوجه واليد واللسان . وقد تعرض هذا الوطن لهزات وكوارث عديدة كانت كافية لانحسار ظل العروبة عنه لو أنها طارئة عليه وعابرة ولكن المصائب والكوارث كانت تزيد العرب تمسكاً بوطنهم وتضحية في سبيل المحافظة على حدوده مما يدل على عمق جذور العروبة فيه ، ولا شك أن القبائل العربية كانت منتشرة خارج الجزيرة العربية وحول المدن السورية والعراقية.. بشكل واسع النطاق وهي قبائل لا يتناولها النقاش الذي أثير حول الساميين .

وقد عرف العرب بعد ظهور الاسلام عدة دول اولها الخلفاء الراشدون ثم الامويون والعباسيون وكان الوطن العربي موحداً في عصر الراشدين والامويين وأول العهد العباسي وفي أواخره استقل الفاطميون بمصر بعد أن سبقهم الى ذلك بعض ولاتها كما انهم عزلوا شمالي افريقية عن بقية بقاع الوطن العربي سياسياً الى جانب مصر وعرف وطننا دويلات فرعية هنا وهناك منها دولة الحمدانيين في حلب والموصل ومنها دول المرابطين والموحدين في الشمال الافريقي ، ولا نريد هنا ان نتعرض لملوك الطوائف والدول المستقلة التي نشأت في الامبراطورية العربية الاسلامية خارج حدود الوطن العربي كدولة الامويين في الاندلس وملوك بعض المقاطعات الفارسية .

وبعد توسيع الفتوح وعلى الرغم من شعور العرب بقوميتهم الا انهم لم يجدوا مانعاً من إنشاء الدول الامبراطورية التي تضم عدة قوميات واغلب الدول الاساسية التي ذكرناها منذ قليل كانت امبراطورية شملت العرب والفرس

والترك ... الا ان العرب ظلوا في عصر الراشدين والامويين والحكام الرسميين والفعليين لهذه الامبراطورية ، وعلى أثر استنجاد العباسيين بالفرس للقضاء على الامويين بدأ النفوذ الاعجمي يتسرب الى الحكم واستطاع الخلفاء العباسيون الأوائل ان يصمدوا في وجهه ويحدوا من انتشاره باللين طوراً وبالتشديد أحياناً وكلنا يعلم بمصرع ابي مسلم وتصفية البرامكة ، غير ان النفوذ الاعجمي تابع سيره وتوسعه رغم العراقيل فازداد نفوذ الفرس في زمن المأمون ثم تدخل الاتراك في الحكم ابتداء من عهد المعتصم الذي لم يستطع التخلص منهم ولو أنه قتل الافشين أحد زعمائهم العسكريين ، ومنذ مصرع المتوكل أخذ أمراء الجند من ترك وفرس ، بويهيين وسلاجقة ، يتلاعبون بمقدرات الدولة العباسية كما يريدون واصبح الخليفة العربي رمزاً اسمياً للسلطة الروحية لا يتمتع بأية صلاحية فعلية زمنية ويخلع أو يقتل متى أراد الاعاجم ذلك .

وقد رافقت الحركات الاعجمية السياسية تيارات فكرية اعجمية الاصل دعيت بالشعوبية وقاعدتها الاساسية ازدراء العرب والغض من تاريخهم والتقليل من شأن أمجادهم وتعييرهم ببداوتهم والافتخار عليهم بتراث الفرس وآثارهم وتمجيد الشعوب الاخرى على حسابهم ، وقد ارتبطت الشعوبية بالزندقة وتشويه الدين الاسلامي ووضع الاحاديث المغلوطة على لسان الرسول العربي ، ومن أشهر ممثلي الشعوبية الشاعر الفارسي الاصل بشّار بن بُرد .

واذا كان حكام العرب قد عجزوا عن ايقاف الموجة الشعبية سياسياً وعسكرياً فان الشعب العربي صمد لها فكرياً واجتماعياً ، فهب الكتاب المؤمنون بشرف العرب يدافعون عن امجادهم وهاجم الجاحظ مثلاً الشعوبية هجوماً عنيفاً في كتاب البيان والتبين وسمى هو واضرابه الى جمع التراث العربي التاريخي والادبي واظهار محاسن أقوال العرب وعمق

حكمتهم وروعة شعرهم بل إن الجاهلية التي سخر منها الشعوبيون كثيراً ليبرهنوا على أن العرب ليسوا في الاصل جديرين بالحضارة اصبحت عند كثير من المفكرين دليلاً على فتوة الامة العربية ومنبعاً ثراً لخطبهم واشعارهم ومظهراً لشخصيتهم الاصلية ونظرتهم العفوية للوجود.

وحين امتلك الاعاجم دور الحكومة وثكنات الجيش راح الشعب العربي يحمي نفسه بانشاء منظمات غير حكومية هي منظمات الفتوة التي دخلها الشباب العربي ليحموا بلدانهم وشخصيتهم من المد الاعجمي، وقد كان لأهل الفتوة على بساطتهم أثر كبير في حفظ الطباع العربية وتشجيع الفضائل العربية الأساسية كالمروءة والشجاعة والكرم، وحين كان العرب يتسامعون بأمير عربي متحرر من سلطان الاعاجم يمجدونه ويشعرون بدماء العروبة تتدفق في عروقهم، وقد مدح ابو فراس ابن عمه سيف الدولة بقصيدة مجد فيها صراحة أصله العربي حين أورد أن الفتيات كن يدعين الى الله ألا يقطع نسل العرب:

يناديـن بـين خـلال البيو ت لا يقطع الله نسل العرب

وقد عير المتنبي قومه بحكم الاعاجم لهم واكد ان العرب لا تصلح اذا كانت ملوكها من الاعاجم.

وحين اشتدت غزوات التتار وقوي سلطان الاتراك السلاجقة وتمهم الغزو المغولي على يد تيمورلنك ثم سيطرة الاتراك العثمانيين، تقوقع الشعب العربي وخاصة في الريف على نفسه وكأنه أراد من انطوائه على ذاته ان يحمي طبيعته وفضائله وشخصيته الخاصة.

ويعتبر العثمانيون أول من تجرأ فنقل الخلافة رسمياً الى ايد غير

عربية فقد جرت عادة المسلمين من قبلهم ان يتركوا منصب الخلافة لاحد العرب القرشيين وهذا ما فعله المماليك في مصر اذ نصبوا عليهم خليفة عباسياً وان لم يكن له من الامر شيء ، اما السلطان سليم العثماني فقد الغى خلافة العرب ونصب نفسه اميراً للمؤمنين ، وقد كان للعثمانيين منذ بداية دولتهم نصيب في محاربة اللغة العربية اذ أقدموا على جعل ديوان حكومتهم وكتابة رسائلهم الرسمية باللغة التركية مع ان اللغة الرسمية للمسلمين كانت العربية من قبلهم ، وقد أثرت طبيعتهم العسكرية وخوفهم من العلم والتنور فجعلتهم زاهدين في الكتب العلمية وحتى الدينية لأن اكثرها مكتوب باللغة العربية ، ويروي بعض الباحثين ان استامبول مر عليها وقت لم يكن فيها من يعرف قراءة القرآن بشكل صحيح[1] ، وقد بذلوا جهودهم لتدعيم نفوذهم على العرب باسم الدين وحماية الثغور الاسلامية ، غير ان حركة القومية العربية أخذت تستيقظ في أواخر أيامهم وفي هذه المرة لم ترض الامة العربية بالبقاء في دولة امبراطورية مع أمم أخرى وانما تبلورت الحركة العربية خلال الحرب العالمية الاولى واتجهت في نهاية الامر اتجاهاً استقلاليا ينادي بدولة تجمع أمة العرب الواحدة المتحررة وتترك للشعوب الاخرى ان تقيم دولها كما تشاء .

والآن توجد بعض المدارس الفكرية التي تحاول أن تنظم علاقة القومية العربية بالاسلام ، وكل منها تمثل اتجاهاً معيناً في فهم القومية والدين ، ومن أهم هذه الاتجاهات :

أولاً ـ توجد فئة من المفكرين الدينيين تعتقد ان القومية بلاء تشتت ابناء الدين الواحد الذين يجب ان يكونوا متحدين لا يفرقهم جنس ولا لغة ولا تمتد بينهم حدود ، ويرون ان نشوء الدول القومية والمناداة

---

(١) كتاب سلافة العصر .

بالعزة القومية تثير الضغائن والعداوات وتفرق المسلمين وتتركهم لقمة سائغة في يد المستعمرين الذين يُستحسن ان نسميهم بالكفار من وجهة نظر هذه الفئة ويدللون على رأيهم ببراهين منها ان العرب لم يكونوا شيئاً مذكوراً قبل الاسلام فهم في جاهليتهم الجهلاء وضلالتهم العمياء حفاة عراة يغزون بعضهم ويئدون بناتهم ويخضعون لنفوذ الفرس والروم والاحباش وتتنازع قبائلهم على التافه من الامور .

ومن براهينهم أيضاً أن الاسلام قوة أعظم من العروبة ومن الافضل لنا أن نشكل دولة تضم مئات الملايين من أن نقتصر على دولة الثمانين مليوناً وهم يرون أن الاعاجم قد ساهموا مساهمة جدية في الحضارة العربية السالفة ، فقد كان منهم الكتاب والفلاسفة والفقهاء والعلماء والشعراء ... كما انهم دافعوا عن بلاد العرب ببسالة ضد الصليبيين وبقية الغزوات ، ولا ينسى أصحاب هذا الرأي ما للدولة العثمانية من فضل على العرب فلولاها لا كتسحنا المستعمرون الاوروبيون منذ قرون عدة ، وقد اعزت الاسلام بأن دوخت أوروبا وكانت قوة رهيبة خضع لها ملوك فرنسا وروسيا والنمسا واحتلت بلاد البلقان .

ويقول انصار هذا الرأي ان الاستعمار ليس هدفه تحطيم العروبة بل هو يستهدف الاسلام ويريد القضاء عليه لأنه يربط بين هزائمه السابقة وبين الدين الاسلامي ، ثم يتقدمون خطوة أخرى فيعلنون ان الاسلام قدم خير نظام للدولة اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً ويمكن ان تحل الاخوة الدينية محل الرابطة القومية وتغني عنها بل هي أشرف منها لأن الدين شيء فكري سام بينما تظل الرابطة القومية مادية الى حد كبير .

ولا ينفرد بعض المفكرين العرب بحمل هذا الرأي بل يشاركهم فيه مفكرون اسلاميون من أبناء الشعوب الاخرى ، كالاستاذ ابي الاعلى المودودي امير الجماعة الاسلامية في باكستان والذي نُشر له منذ مدة مقال في احدى المجلات يعلن فيه ان القوميات كالقومية العربية والتركية خطر

على الوحدة الاسلامية ، ولا يزالون الاوروبيون يصرون على تسمية بعض الحركات الوطنية العربية باسم اسلامي فتقول اذاعاتهم مثلاً قتل في الجزائر كذامن الفرنسيين وكذا من المسلمين ولا تقول من العرب .

ثانياً - وهنالك رأي آخر يتساهل مع القومية ، فيعلن موافقته على قيام دولة عربية موحدة في أول الامر على أن تكون خطوة في سبيل الوحدة الاسلامية الكبرى وقد بدأ كثير من المفكرين الدينيين يتجمعون في السنوات الاخيرة حول هذه الفكرة ويجدونها أفضل من الفكرة السابقة التي تحارب القومية اصلاً ، وبرهانهم الرئيسي قائم على الاعتراف بأن القومية تقرب بين المنتسبين اليها وتجعلهم اقدر على التعاون فيما بينهم نظراً لوجود اللغة المشتركة والتاريخ الذي يوحد نفسياتهم ومن الخير ان نبدأ بتجميع الدائرة القريبة منا وهي الدائرة القومية لننتهي بعد ذلك الى تجميع الدائرة الواسعة التي تضم اتباع الدين كله ، وهؤلاء لا يجحدون القومية ولا يتنازلون عن أملهم في الدولة الاسلامية الشاملة ، ويأخذون أكثر ادلة الاتجاه السابق مع شيء من الاعتدال ، وبعضهم يتحمس لقوميته فيعلن ان الوحدة الاسلامية المنشودة يجب ان يتزعمها العرب لأنهم اقدر من غيرهم على فهم الاسلام وهم حملة لوائه الاولون ، ومنهم رسوله وخلفاؤه الراشدون ، وفي أول عهد اليقظة العربية تبنى هذا الرأي عدد لا بأس به ممن شعروا بأهمية القومية العربية وفي نفس الوقت ظلوا متأثرين بالامبراطورية الاسلامية التي كان يمثلها العثمانيون فأرادوا ابقاء هذه الامبراطورية مع وضع قيادتها في يد العرب .

ثالثاً - وهنالك رأي ثالث يرى ان الدولة القومية لا بد منها وان نظام الامبراطوريات التي تجمع عدة قوميات قد انتهى اوانه ، وكل دولة تجمع بين رعاياها قوميات متعددة لا بد لها من الانشقاق وقيام الفتن

الناجمة عن شعور هذه القومية أو تلك باستقلال القوميات الاخرى لها ، ولا توجد امبراطورية الا وتسير الامور فيها لمصلحة احدى القوميات فالحكم العثماني كان يفيد الاتراك على حساب سواهم والامبراطورية العربية الاولى جرت الامور فيها لمصلحة العرب أول الامر وخاصة في زمن الامويين ثم راح الاتراك والفرس والديلم يستخدمونها لاغراضهم وليس من المعقول ان يتم التفاهم بين مجموعات من الناس ذات لغات مختلفة وطبائع وتقاليد متباينة ، ولا شك ان العصبية القومية ستزداد في الدولة الامبراطورية وستحتدم المفاخرة ويسود التناحر بين القوميات، ولن تستطيع الرابطة الدينية أن توقف التناحر والتنازع اذ ان القومية تمس حياة الانسان العميقة وتطبع شخصيته بطابعها ، فالفرنسي والالماني مسيحيان ولكنهما مختلفان كل الاختلاف والعربي غير التركي والايراني والباكستاني وان اتفقوا في الدين .

غير أن أصحاب هذا الرأي حين يدعون الى دولة قومية يريدون لها نظاماً اسلامياً في شؤون الحكم والاقتصاد ومثلهم الأعلى دولة عربية تسير على الشريعة الاسلامية وتتعاون مع سواها من الدول الاسلامية ضمن حدود المصلحة المشتركة على ألا تندمج الدول ولا تذوب القوميات ولا تعتدي دولة على دولة وهم يربطون بين العروبة والاسلام فيرون عز العروبة في الاسلام وخميرة الاسلام في العرب ، ويحاولون ان يظهروا أنفسهم بمظهر المعتدلين فيرضون دعاه القومية بالموافقة على الدولة العربية الموحدة التي تعتبر غاية في ذاتها ولا تندمج في وحدة أوسع منها ويرضون دعاة النظام الاسلامي بالموافقة على جعل الشريعة الاسلامية أساساً لحكم الدولة العربية المنشودة ، وهم يعتقدون أن ابناء الديانات الأخرى في الوطن العربي يمكن أن يعيشوا كمواطنين محترمين ولهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين لأن النظام الاسلامي يمكن أن يسمح بذلك ، ويدعوننا على كل حال أن نحترم ديانة الاكثرية التي هي الاسلام بل يعتبرون هـــذا الدين المعبر الاول والاخير

عن طبيعة العرب وخصائصهم وفضائلهم وكما صلح به أولهم سيصلح به آخرهم .

رابعاً — وهناك انصار القومية العربية البحتة الذين يدعون الى تحرر العرب وتوحدهم في دولة قومية لا تكون خطوة في سبيل وحدة اسلامية ولا يشترط لها أن تتبع النظام الاسلامي فى حكمها وتشريعها ، بل لها ملء الحرية بأن تختار حسب حاجاتها ومشكلاتها العصرية التنظيمات القانونيـــة والاقتصادية والسياسية التي تلائم الزمن الذي تعيش فيه .

وأنصار هذا الرأي يتكاثرون اليوم بين العرب ويعلنون احترامهم لسائر الديانات ويريدون أن يكون الفرد تقياً في دينه من غير أن يدخله في الشؤون السياسية ، ويقدرون الدور الذي قام به الاسلام في رفع مستوى العرب كما يقدرون تضحية العرب في سبيـــل الاسلام ولا يوافقون على أن العرب لم يكونوا شيئاً مذكوراً قبل ظهور الدين الاسلامي بل يذكروننا بالحضارة العربية اليمنية والحضرمية والسبئية وبدول الانباط والغساسنة والمناذرة والتدمريين ، ويرون ان الفترة التي سبقت الاسلام مباشرة ودعيت بالجاهلية لم تكن شراً كلها بل تجلت فيها فضائل عديدة من شجاعة وكرم ومروءة ووفاء ، وكانت في قلق تتوجه نحو النهضة وتتلمسها وليس عجيباً على الامم أن تمر بفترات قلق واضطراب لترتكز نفسها من جديد .

ويعتقد أنصار هذا الرأي ان الدين له ميدان والقومية لها ميدان آخر ، الدين يسد حاجة المرء الى الارتباط بخالق الكون ويرسم له منهجه في العبادة ويشجعه على مكارم الاخلاق ، أما القومية فهي التي تدفعـــه الى انشاء المنظمات السياسية وتشعره بالوحدة الحيوية بينه وبين أبناء امته ، وليست القوميـة قشرة سطحية تغشى النفس الانسانية وانما هي ذات جذور عميقة في النفس تخالط طبع

الفرد وتكسبه شخصية متميزة وتكويناً نفسياً واجتماعيـــاً وفكرياً خاصاً ، القوميـة نتشربها في كل شيء ، نستقيهـا من الـكلام ومن التصرفات ومن اسلوب الضيافات والقصص والاساطير والاغاني والتاريـخ والمصير المشترك ، القوميـــة تحيط بنا أنى ذهبنا فتصهرنا وتجعلنا اجزاء عضوية منها ، والقوميـة العربيـة ليست تعصبية ولا تطلب إلا أن يكفيها الآخرون شرهم وتكفيهم شرها بل تبذل جهدها لتقدم لهم الخير وتمد لهم يد المعونة على شرط ألا تذوب فيهم وألا يطغوا عليها ويستغلوها ، وحين تقوم الدولة على أساس قومي تستريـح نفوس الافراد ولا يتوجسون خيفة من أي شريك لهم في الدولة بل يشعرون بأنهـم أعضاء من شجرة واحدة يجتمع التركي والعربي في دولة واحدة فلا يمكن إلا أن يكون الاتراك أكثر تفاهماً فما بينهم وأكثر تعلقاً بمصالحهـــم الخاصة من المصلحة المشتركة ، بينما لو ظلت كل قومية في دولتها لعرفت حدودها ولاستطاعـت أن تفكر بوعي وهدوء بكيفية التعاون مع الآخرين ، وكيف نطالب نطالب الاتراك باعادة كليكيا والاسكندرون وكيف نطالب الايرانيين باعادة عربستان ونقف في وجه اطماعهم بالبحرين اذا لم نفكر على أساس قومي محض؟

والقومية العربية ليست مادية بل هي مستودع للقيم وذات اتجاه انساني وتسعى لا الى المكاسب والمغانم على حساب الآخرين بل الى سعادة الانسان وتهيئه الجو الصالح لعيشه الرغيد وانتاجه في سائر الميادين الدينية والعلمية والادبيـــة والفنية .. انها لا تدعو الى قيام عصابة ولا الى قيام شركة وإنما الى بزوغ فجر مجموعة مترابطة من البشر المنسجمين المتعاونين في سبيل وخير الناس أجمعين .

وترى هذه الفئة ان الزمان يتطور والحياة تتعقد ومن الخطأ أن نقيـد العرب بالنظـام الاسلامي في سائر الشؤون وخاصة ان هذا النظام اذا أخذ من الناحيتين السياسية والاقتصادية له تفسيرات عديدة لا ندري أيها نتبـع ، وروح

الاسلام ذاتها تشجع على التطور ولا ترضى بالجمود فيجب أن يبقى الفرد محافظاً على دينه أياً كان مع فخره بالمواقف البطولية التي اجتمع فيها الاسلام والعروبة ، وأما التنظيمات التفصيلية للمجتمع فيجب ان تنبع من الدراسات العلمية ،وتتلائم في نفس الوقت مع روح الاسلام وروح سائر الديانات السامية التي تحض على العدل والصدق والتضحية والايثار ...

فالعدل مثلاً يحض عليه الاسلام ويجب أن ندعو الى العدل ولكن مفهوم العدل يتطور حسب المراحل التاريخية ، ففي بعض الازمنة يكون المرء عادلاً اذا اعتق امته التي جاءته بولد وأبقى الاماء الاخرى ملكاً له ، وفي زمن ثان يصبح الاحتفاظ بأية أمة بعيداً عن العدل ، وفي ظروف تاريخية معينة يعتبر محسناً من قدم قسماً من أمواله للفقراء حسب اختياره ، وفي ظروف أخرى يطلب من الفرد أن يدفع ضريبة تصاعدية على أمواله ثم يعتبر مع ذلك مواطناً عادياً لأنه يؤدي واجباً تفرضه الدولة ولا يمجد كرمه وسخاؤه .

ثم يقول القوميون من الخير للاسلام ولكل دين أن يبقى بعيداً عن حمى المناقشات السياسية والاقتصادية ، فالخلاف على أشده بين اتباع مختلف المذاهب ويصل الامر في المجادلات الى التشهير أحياناً والى التفنيد الصارخ والنقد اللاذع والدين يجب ان يبقى محترماً مصوناً من عبث العابثين وهجوم المنددين ونقاش المجادلين .

أما التعاون مع الدول الاسلامية فيرى انصار هذا الرأي أن دولاً كثيرة في العالم يمكن أن نتعاون معها ولو لم تكن مسلمة وقد دلت التجارب على امكانية ذلك كما ان دولاً مسلمة من الممكن ان تعادينا وقد برهنت الاحداث على امكانية ذلك أيضاً ، ولكنهم يرون ان الدول المسلمة يوجد بيننا وبينها نقطة اتفاق لا تتوفر مع الدول الأخرى وهي الاسلام الذي يساعدنا كثيراً على فهم

بعض خصائصها ويستطيع أن يقربنا اليها ويشجعها لمساعدتنا اذا كان الجو الدولي طبيعياً واذا تركت الشعوب الاسلامية تتصرف بحرية من غير تدخل أجنبي أو انحراف حاكم ، ومهما كانت أنظمتها السياسية والاقتصادية فاحترامها للدين المشترك لا بد وان يوجهها نحونا ، ومن الحمق ان نضيع هذه الثروة في الوقت الذي تبحث فيه الامم عن روابط تقرب بينها وتتبادل المساعدة على أساسها ويستطيع الاسلام أن يقيم بين الدول المسلمة صداقات تقليدية تفيدها في إغناء العلاقات الثقافية والتجارية مع بعضها وتهبها أساساً متيناً للتعاون ضد الاخطار المشتركة ، وهم ينبهوننا دائماً الى الحذر من الاجنبي الذي يقف وراء بعض الحكومات الاسلامية ويريدون أن يقوم التعاون على أساس العدل والاحتفاظ بالاستقلال ورد الاجزاء السليبة ..

الفصل الثالث

مقومات القومية العربية

لا تقوم القومية على الخيال ولا تبنى في الفراغ ، وانما هي حقيقة اجتماعية لها اسبابها التي تساعد على نشوئها وتغذي ديمومتها ، وتستمر القوميات على مر الأزمنة لأن مقوماتها قوية ونابعة من طبيعة النفس الانسانية ، ومقومات القومية عديدة ولكنها ليست متكافئة الاثر ، فقد تكون الارض عاملاً رئيسياً في نشوء احدى القوميات ، وقد تكون اللغة هي العامل الرئيسي في تدعيم قومية أخرى ولربما ساعد الدين امة على الوحدة وأدى لها أجل الخدمات في هذا الميدان ، وقد تؤدى الخلافات الدينية الى تمزيق الامم ، وسندرس في هذا البحث اهم مقومات القومية ونرى أثر كل منها على قوميتنا العربية ونعرض للمناقشات الدائرة حول كل عامل .

اولا ـ العنصر أو الجنس:

اهتم الباحثون القوميون خصوصاً في القرن التاسع عشر بالعنصر ، أي بالاصل الدموي للشعب ، واعتبر عدد وفير منهم بأن الأمة اسرة كبيرة تنتسب الى أصل واحد ، ويأتي تفاهم أفرادها وتشابهم النفسي من وحدة اصلهم الفيزيولوجي ، ويذكر هؤلاء الباحثون ان ابناء الامة الواحدة

يتميزون عن سواهم ، فهم قد يتشاجرون ويختصمون ولكنهم يشعرون مع ذلك بانهم قريبون الى بعضهم ويكرهون تدخل الغريب في شؤونهم ويضحي الواحد منهم في سبيل المصلحة المشتركة ، بل يرمي مصالحه الخاصة وراء ظهره ليندفع في سبيل اعلاء شأن امته وتحسين سمعتها وتدعيم قوتها وهذه التضحية من الفرد لا تنبثق الا من كونه منتسباً عرقياً الى امته التي ليست الا اسرة كبيرة ضمت عدداً ضخماً من الاعضاء ، وهم يرون ان الوراثة وان لم تكتشف كل قوانينها بعد تدل على ان المولود يحمل الصفات الجوهرية لآبائه واجداده وتلازمه هذه الصفات طول حياته فتبقيه منتسباً الى امته ، وقد يكون الانسان المانياً بالدم من غير ان يحس بألمانيته ، الا ان طباعه تبقى المانية وسلوكه يظل المانياً لأن انسجته تتغذى بالدم الالماني ، وقد اندفع بعض انصار هذه النظرية فصنفوا الناس الى عروق وميزوا بين عروق سامية واخرى منحطة ، بين قائدة ومقودة ، وقاسوا جماجم الناس ووزعوا خصائص العبقرية على بعضها دون البعض الآخر ، وبما ان هذه الأفكار نشأت في اوروبا التي تنسب عادة الى العرق الآري فقد اكد اكثر الباحثين سمو هذا العرق واختصاصه بقيادة العالم وحطوا من شأن الساميين والحاميين ، وضمن العرق الآري نشأ مفكرون يتعصبون لهذا الفرع منه او ذاك ، فرأى كثير من القوميين الالمان ان عنصرهم الجرماني اصفى العروق الآرية بل هو ممثل الآريين الأوائل ودعوا الشعب الالماني الى السيادة على العالم لأن الطبيعة وحتمية التاريخ والقوانين الاجتماعية تطالبه بذلك ، والمانيا يجب ان تكون فوق الجميع ، ولا تستطيع ان تتنصل من مسؤوليتها تلك فقد ارادها الله لتجلس على عرش العالم ، وحين يوجد مفكرون عرقيون

غير المان مثل لابوج وتشمبرلن فقد كانت نظرياتهم تلاقي احسن الصدى في المانيا ، وقد استفاد هتلر وفيلسوفه روزنبرغ من هـــذه النظـريات فصنفـا الناس ونفخا في الشعب الالمـاني روح الاستعلاء والاندفاع نحـو حكم البشر اجمعين .

أما اليوم فيزهد اغلب المفكرين القوميين في العرق والعنصر والجنس يجدون ان الدم الصافي مفقود على وجه الارض والامة التي تنتسب الى أصل واحد مستحيلة الوجود كالغول والعنقاء والخل الوفي ، وحتى المـانيا التي ازدهرت فيها الدعوات العنصرية ليست ذات نسب واحد وانما يرجـع أصل سكانها الى عشرات من الاجناس ، وحين ينتقلون الى سائر الامم يرون في كل منها عددا عديداً من الاصول المختلفة ، ففرنسا ينحـــدر ابناؤها من خمسين اصلاً أو اكثر ، ولا تقل عنها في ذلك انكلترا وايطاليا وأمم البلقان ، ثم ينبهنا اعداء العرق الى أن الانتساب الدموي لا يخلـق الامزجة والعادات والتقاليد وانما تخلقها اللغة والبيئة الاجتماعية والتربيـــة والحياة المشتركة ، وما احتفاظ الانكليزي بطبيعته اذا ابتعد عن وطنه الا نتيجة لاستمرار اثر العوامل الاجتماعية فيه ، ويحمـل معـارضوا العنصرية على فكرة العنصر المتفوق ويرونها اسطورة رهيبة تجعل البشرية في حروب مستمرة وتبرر العدوان والتسلط على الشعوب الاخرى ولا يرون لها أي سند من علم أو تجربة ، فهي قد بنيت على حماسة جاوزت حدها .

ويقف جماعة من دعاة القومية موقفاً وسطاً من مسألة العرق فهـم يعترفون بأن الناس جميعاً قد امتزجت دماؤهم خلال عمر البشرية الطويل ولكنهم لا ينسون ان اعتقاد الامة ولو وهماً بانتسابها الى اصل واحد يزيد من تماسكها ، ويمتن أواصر التعاون بين أفرادها ويجعلهم يعاملون بعضهم

كأبناء العائلة الواحدة ويمنعهم من الخروج على ارادتها والابتعاد عنها ، اذ تصبح القومية المبنية على الاصل المشترك قدراً لا بـد منه لا يستطيع الفرد التخلص من عقاله مهما ابتعد عن وطنه كما لا يستطيع ان ينفصل من انتسابه الى ابيه مهما اختلف معه أو عاش بعيداً عنه ، وهم يرون الى جانب ذلك ان الامم وان انتسب ابناؤها الى اصول مختلفة الا انها تبقى خاضعة في صفاتها الغالبة لأحد العناصر التي مرت عليها خلال تاريخها ، ففرنسا رغم تعدد اصولها تغلب عليها وراثة الاصل الغالي والمانيـا مع اختلاف عناصرها يسودها العنصر البروسي الجرماني ، وأمة العرب مهما اختلفت اصولها الجنسية يغلب عليها طابع الانتساب الى المهاجرين الساميين من الجزيرة العربية وبشكل خاص آولئك الذين انتشروا مع الفتح الاسلامي ، وهم يضيفون الى ذلك ان الاستهتار بقضية العرق وعدم الاهـتمام به يعرض الامة لقبول المهاجرين من ابناء المجتمعات الاخرى ، وتضطر الامة الى قبولهم ما دامت لا تقيم وزناً الى اصول المواطنين الدموية ، وبعد حين من الزمن ستجد هذه الامة نفسها مزقاً واشلاء وستضيع وحدتها وتماسكها وينقسم وطنها الى مجموعات قومية متباعدة متنافرة ، وقـد تنبهت بعض الحكومات الى هذا الخطر ، فبعد ان كانت الولايات المتحدة (١) تسمح بهجرة ابناء الشعوب جميعـاً اليها عادت فسنت تشريعاً في أواخر القرن التاسع عشر ، يجعل اغلبية المهاجرين من الانكلو ساكسون ويحـد من هجرة الشعوب الاخرى ويقيدها ضمن نسب معينة ، لـكي لا تجد الولايات المتحدة نفسها في براثن التمزق الجنسي ، ولكي تحتفظ بأكثرية متماسكة .

ويقول المؤرخ الانكليزي توينبي في كتاب « الحضارة في الميزان » : « العرق والبيئة هما المفتاحان اللذان اعتـبرهما مؤرخو القرن التـاسع عشر

(١) اندريه سيغفريد ــ الولايات المتحدة اليوم .

صالحين لتعليل التفاوت بين الحضارات ، ولكنهما لم يستطيعا ، بعد التجربة ان يفتحا الباب المغلق باحكام . واذا اخذنا نظرية العرق مثلاً فأي برهان لدينا يدلنا على الاختلاف العرقي الفيزيائي بين مختلف اعضاء الجنس البشري له علاقة بالتفاوت الروحي الذي يقدمه لنا التاريخ . واذا قبلنا مبدأ وجود هذه العلاقة ، على سبيل الفرض ، فكيف نستطيع تعليل رؤيتنا لممثلين لمختلف الاعراق تقريباً بين آباء حضارة واحدة أو عدة حضارات .

ان العرق الاسود لوحده لم يأت حتى الآن بمشاركة كبيرة في ابداع الحضارات ، ولكن المدة الوجيزة التي تشكلت خلالها الحضارة الانسانية لا يسمح في اعتبار ذلك برهاناً نهائياً على عدم وحدة هذا العرق على الابداع ، وقد يعود هذا التقصير الى فقدان الظرف الملائم أو انعدام الحافز » .

ونحن ممن يعتقدون بأن الاصل الدموي لا اهمية له في تكوين الامم اليوم ، فقد ضاع هذا الاصل بالنسبة الى جميع الشعوب واصبحت الامور الاجتماعية والثقافية أهم من الوراثة الجسمية ولكننا نرى مع ذلك أن الامة العربية تعتبر اصفى من غيرها نسبياً من حيث الأصل ، فأكثرية سكان الوطن العربي ينحدرون في الحقيقة من اجداد ولدوا في الجزيرة العربية ، وحين نقارن عدد اصولنا العنصرية بعدد الاصول العنصرية لفرنسا والمانيا نلاحظ اننا أقرب الى الصفاء من هاتين الامتين ، ومن طبيعة الحياة البدوية التي عاشها اجداد اكثريتنا ان تحافظ على النقاوة الجنسية الى حد كبير ، كما ان الجزيرة العربية وخاصة المناطق الداخلية منها كانت منعزلة اكثر من سواها خلال عصور تاريخية مديدة مما ساعد

على استمرار نقائها العنصري ، وقد أوردنا هذه الفكرة لا تبنياً للعنصرية والعرقية وانما رداً على المحاولات الاستعمارية التي تستهدف التفرقة بين ابناء الامة العربية اعتماداً منها على ادعائها بأن سكان وطننا مختلفو الاصول ، ومن المستغرب حقاً ان يلجأ المستعمرون الاوروبيون الى هذه الحجة لتمزيق امتنا مع انهم يدركون ان اممهم لا تنتسب الى أصل واحد .

ونحن ممن يرون ايضاً الا يصبح وطننا ملجأ للايتام وموئلاً لشذاذ الآفاق، يهاجر اليه الاجانب ويستوطنون فيه حين يريدون ، فمجيء الاجانب الى الوطن يشكل حقاً ازمة خطيرة ويضعف من تماسك الامة وينشيء فيها القواقع المنعزلة (١) ودعوتنا هذه لا تعتمد على العرق ولا تقوم على الادعاء بأن الاجانب ما داموا ينحدرون عن اصول غريبة عنا فهم سيبقون اغراباً في بلادنا ومرتبطين بأممهم الاصلية ، بل تقوم على أساس اجتماعي فحواه ان الاجنبي قد اكتسب ذوق بلاده الاصلية ولغتها ورضع حبها وهو لن يتخلى عن عاداته واعتزازه بأمته الاولى حين يهاجر الى بلادنا وخصوصاً اذا وجد الى جانبه عدداً كافياً من الاجانب امثاله ، وان قدرة الامم على تمثل المهاجرين اليها محدودة ومتى زاد عدد الوافدين الى بقاعها عن امكانياتها تهلهلت واضاعت تماسكها ، ونحن اليوم نجتاز مرحلة دقيقة تتطلب استنفاذ شتى الوسائل لتقوية اواصرنا القومية واستبعاد كل ما من شأنه ان يضعف بنياننا القومي ولو الى حين ، ومن اوضح الامثلة على الاثر السيء الذي يخلفه وفود الغرباء الى وطننا ما تعانيه امتنا اليوم على يد الصهيونيين والمستوطنين الفرنسيين في الجزائر .

ثانياً ـ الدين :

ان اثر الدين على القومية بين أخذ ورد ، والباحثون القوميون

---

(١) راجع عوامل الوحدة البشرية الذي سبق ذكره .

مختلفون حول اهميته في نشوء الامم ، والتاريخ نفسه يقدم لنا امثلة متضاربة حول قيمة الدين الايجابية والسلبية في بروز القوميات ووصولها الى حقوقها ، فقد لعب العامل الديني دوراً كبيراً في الوعي القومي لدى البلغاريين بل ان قسماً من جهادهم انصب على استبعاد الائمة اليونانية من الطقوس الكنسية في بلغاريا ، وكان رجال الدين البلغاريون من جملة لواء القومية ضد الاتراك المختلفين عنهم دينياً وضد أي نفوذ اجنبي ، كما كان للدين أثره على اليونانيين ، فشعورهم بتمايزهم الديني عن العثمانيين شجعهم على طلب الاستقلال ، وقد عملت اللوثرية والبروتستانتية عموماً على اظهار تميز الالمان عن جيرانهم ، كما أن الكثلكة اصبحت من طبيعة فرنسا ودخلت في ذوقها وتقاليدها وعاداتها ، وساعد الاستقلال الديني المبكر لانكلترا عن البابوية على تدعيم قوميتها وقيامها بذاتها والتفافها حول اهدافها المشتركة ، والانجيليكانية اليوم تعتبر من العلامات المميزة للانكليز .

وفي المقابل نجد ان الدين ساعد على انشاء الامبراطوريات التي تضم الواحدة منها عدة قوميات ، كالامبراطورية العربية الاسلامية والامبراطورية الجرمانية المقدسة التي لم تستطع القوميات الاوروبية التخلص منها الا بعد تضحيات جمة وكفاح مرير ، وقد عمل الاتفاق الديني بين العرب والاتراك على تأخر استقلال العرب عن الامبراطورية العثمانية ، فهم والحق يقال اخر قومية انفصلت عن جسم هذه الامبراطورية ، اذ لم تنسلخ الولايات العربية عن الحكم العثماني الا بعد الحرب العالمية الاولى على حين استقل اليونان منذ اوائل القرن التاسع عشر وتبعهم الرومانيون والبلغاريون ، وليس من المعقول ان تتأخر الحركة الاستقلالية العربية لوهن في هزيمة العرب او استكانة منهم وانما ابقاهم تحت التاج العثماني خوفهم من تمزق المسلمين ، وقد لعب بعض السلاطين العثمانيين كعبد الحميد

الثاني دوراً مهماً في الاحتفاظ بالولايات العربية تحت اسم الدين ، كما أن اعطاء الامور الدينية اهمية سياسية جعل الامة الواحدة تختصم فيما بينها ويريق ابناؤها دماء بعضهم كما حدث في فرنسا اثنـــاء معارك الاصلاح الديني ومذبحة سان بارتلمي ليست بعيدة عن اذهان الفرنسيين ، وكثيرا ما تلجأ الدول الاستعمارية الى الاستفادة من التعصب الديني وتستفز المشاعر الدينية حتى تتجاوز حدودها مما يبث التفرقة بين المواطنين وقد تقع الخلافات الدموية بينهم كما حدث عام ١٨٦٠ في لبنان وسورية ...

ويعتقد بعض الباحثـــين ان الاساس الروحي للقوميــــة هو الدين وبدونه تضيع القومية وحدتها وتتباعد نفوس أبنائها ، وينشغلون بمصالحهم الضيقــة ، وقـــد ألح وايزمن على أن تكون فلسطين لا البرازيل ولا تنجانيقا وطناً قومياً لليهـــود لأنه كما يروي في مذكراته يريد للصهيونيين قومية روحيـة قائمة على الاعتزاز بالديانة الاسرائيليـــة وأماكنها المقدسة .

ويرى مفكرون كثيرون ان الدين ليس عنصراً أساسياً في تكوين القومية ، وهم يرجعون ما لاحظناه من مساعدته اليونان والبلغار والالمان على تدعيم قومياتهم لا الى الدين نفسه بل الى يقظة هذه الشعوب ومحاولتها ان تستقل في شؤونها من سائر النواحي ، وأصل كفاح البلغار حـــول التراتيل الكنسية ليس كفاحاً دينياً ، فالدين لا يفرق بين صلوات تتلى بهذه اللغة أو تلك وإنما كان كفاحهم لغوياً ناتجاً عن تقديرهم للغتهم القومية ، فأحبوا ان يستمعوا الى لغتهم في الكنيسة كما يستمعون اليها في البيت والشارع وجاهدوا ايضاً ليقرأها أبناؤهم في الكتب المدرسية ومثقفوهم في الجرائد والمجلات وسائر المطبوعات .

ولو أن القومية ترتبط بالدين جوهرياً فلماذا تستقل البرتغال الكاثوليكية عن اسبانيا الكاثوليكية ، ولماذا لا تنضم ايطاليا الى النمسا أو النمسا الى ايطاليا ما دامتا كاثوليكيتين ، هذا اذا نظرنا الى المذاهب ضمن الدين الواحد ، أما اذا اعتبرنا الديانات الكبرى كالمسيحية والاسلام فجدير بأوروبا وأمريكا أن تتحدا لانهما مسيحيتان وجدير بروسيا أن تدخل في دولة واحدة مع المانيا وفرنسا فالجميع مسيحيون ولماذا لا تصبح عندئذ للعرب والاتراك والفرس والافغان والباكستانيين والاندونيسيين قومية واحدة ، ان عهد الجماعات الدينية القائمة على أساس رابطة الدين المشترك كان عهد الامبراطوريات لا عهد القوميات ولم يستطع التجمع الديني للعرب والفرس والترك ... ان يذهب هذه القوميات وينشىء منها قومية واحدة بل ظلت كل منها متمايزة عن الاخرى رغم ارتباطها بالدين الواحد منذ العصور الاسلامية الاولى ، ولو ان الجماعات القومية تنبثق عن الدين لما جاهد الاوروبيون للتخلص من الامبراطوريات الواسعة التي كانت تحكمهم تحت لواء الديانة المسيحية ولما قدموا في سبيل ذلك الضحايا وتعرضوا لغضب رجال الاكليروس .

وحين يريد المفكرون القوميون من العرب ان يكونوا صريحين لا يستطيعون ان ينكروا ان حركة القومية العربية استهدفت الاستقلال عن الدولة الدينية العثمانية ، ويضعون في اعتبارهم ان الالحاح على عنصر الدين في القومية يعني بالنسبة الى العرب اقامة القومية العربية على الدين الاسلامي مما يسهل على اصحاب الاغراض السيئة ان يصوروا المسيحيين في الوطن العربي كمواطنين من الدرجة الثانية ، ويسعى البعض الى حل هذه المشكلة أما عن طريق ابقاء الدين عنصراً أساسياً في تكوين القومية والاعتراف الى جانبه بقيمة بعض العناصر الاخرى كاللغة والتاريخ والارادة

المشتركة والمصالح ، فمن لم ينطبق عليه شرط الدين انطبق عليـــه شرط اللغة والتاريخ والمصلحة والارادة المشتركة ، ويحل البعض الآخر هـذه المشكلة بأن يجعلوا الدين في منأى عن القومية ويتركوا له ميدانه الخاص ويقيمون القوميه العربية على المقومات الاخرى وحدها ، مع انهم لا ينكرون ما قدمه الدين الاسلامي للعرب من خدمات ويفتخرون بالامجاد المشتركة للعروبة والاسلام ويعتقدون ان فهم الاسلام شرط ضروري لفهم التاريخ العربي .

ثالثاً ـ الارض :

عانت الادمغة القومية بلاء شديداً من قضية الارض ، فمنذ أن طرحت مسألة القوميات على بساط البحث انقسم المفكرون بين عدة مذاهب حول أهمية الارض بالنسبة الى تكون القومية وقد اعلنت المدرسة الجغرافية الالمانية التي يتزعمها راتزل ان الارض هي التي تشكل الأمة وتتحـــكم بمستقبلها ، وكما قسم بعض مواطنيه العروق وصنفوها الى ممتازة ومنحطـة كذلك اعتقد هو بأن الوطن اما أن يؤهل الامة للسيـادة والقيادة واما أن يبقيها ضعيفة وتابعة لسواها ، وقد أعطى مونتسكيـو من قبله أهميـة كبيرة للبيئة في تكون الناس وظهور طباعهم ونحل معاشهم وسبقه الى ذلك ابن خلدون بعدة قرون .

والذين يعطون للارض اهمية كبيرة لهم اداتهم فهم يذكروننا ان الارض القومية تسمي الوطن والوطن شيء عزيز ، هو محط الآمال ومثار العواطف ، اليه يكون حنين المغتربين وفيه يتغزل الشعراء وعن حـدوده يدافع الجنود ولحمايته تبذل الارواح والاموال ، وهم يرون ان البيئة تؤثر على امزجة الناس فأبناء المناطق الحارة ميالون الى الدعة والخمول والتسلية

وسكان المناطق الباردة اميل الى الجدية والنشـــاط والابتكار ، وتربة الارض ومياهها تنعكس على اقتصاد سـكانها فتخلق منهم رعاة للاغنام أو زراعاً للمحاصيل البعلية أو فلاحين يعتمدون على الري . ومعادن الوطن اما ان تشجـع الصناعة الثقيلة أو تثبطهـا وتساعد على قيام معامل معينة في كل بقعة ، وموقـع الارض القومية له أثر واضح فثمة اراض تؤهـل قاطنيها ليكونوا وسطاء بين الامم لوقوعها على الممرات القـــارية ، وثمة اراض أخرى تساعد على الانعزال والانطواء على الذات كالجزر والبقاع الداخلية في القارات ، وقد يكون الوطن منيعاً بما يحيط به من جبـال أو بحار أو أنهـار غزيرة ، وقد يكون سهل المأخذ اذا كان بلا حواجز طبيعية ترد عنه الغارات ، وهم يستشهدون بأمثلة تاريخيـــة فيذكرون أن فرنسا ساعدتها أرضها الواحدة ذات الحدود الواضحة على استقرار قوميتها وكذلك انكلترا التي استفادت قوميتها من وحدة جزيرتها ، وهم يرون أن القومية التي لا تعرف لها أرضاً محددة المعالم تبقى معلقة في الهواء .

وفي مقابل هؤلاء نجد عدداً غفيراً من المفكرين القوميين لا يعطون للارض كل هذه الاهمية ، ففي رأيهم ان القوميات التي تتمتع بأرض واضحة المعالم قليلة ، أما أغلب القوميات فاراضيها متداخلة مع جيرانها ولا تفصلها عنها إلا الحدود الرسمية التي اقتضتها الظروف التـاريخية واللغوية والارادة المشتركة . فحدود اليونان ليست واضحة ، وكـذلك سائر القوميـــات البلقانية ، ولا فرق بين جنوبي الولايات المتحـدة وشمـالي المكسيك من حيث البيئة ولا تنفصل هاتان الدولتان عن بعضها بحدود طبيعيـة كما أن كندا لا تتمتـع بمثل هذه الحدود مع الولايات المتحدة وأغلب دول امريكا الجنوبية ينطبق عليها هذا الواقـع ، واسبانيا والبرتغـــال امتان في أرض واحدة ، أما اختلاف البيئة فهو موجود ضمن الوطن الواحد ولم نعثر حتى

الآن على وطن قومي يقع على درجة طول واحدة أو عرض واحدة أو يتكون من سهول بلا جبال ولا وديان ففي كل وطن توجد مناطق أكثر حرارة وارتفاعاً من سواها ، وفي كل وطن توجد بقاع تكثر فيها المعادن وبقاع أخرى لا يحتوي جوفها على أي معدن ، وفي كل وطن توجد تربة تصلح لنوع من الزراعة وتربة تصلح لنوع آخر ، ولم تعد قضية الحدود الطبيعية ذات اثر بالغ في الحماية ، فالوسائل الحديثة للحرب تستطيع تجاوز التضاريس وتخطي العقبات في أغلب الاحيان والدفاع عن الاوطان أصبح مرهوناً بتقدم ابنائها وارتفاع روحهم المعنوية وحسن تسلحهم ، كما أن الوسائل الحديثة للمواصلات تسمح اليوم لأبناء القومية الواحدة بلقاء بعضهم والاكثار من التعاون والتفاعل ولو وقفت في وجههم بعض الانهار أو الصحارى أو الجبال ، فقد شق البشر الطرق ورفعوا الجسور وفتحوا الانفاق وركبوا متن الفضاء .

ونحن العرب مطمئنون الى قوميتنا مهما كانت نتائج المناقشات الدائرة حول أهمية الارض لأن أرضنا واحدة جغرافياً ووطننا واضح الحدود ترتفع في شماله وشرقه جبال طوروس وزاغروس ويفصله البحر والخليج العربيان عن الاوطان المجاورة من الجنوب وبقية القسم الشرقي ويفصله البحر الابيض المتوسط عن اوروبا ويمتد في غربه المحيط الاطلسي ، بينما تفصله الصحراء الكبرى عن بقية القارة الافريقية في الجنوب ، واذا كنا لا نملك حدوداً طبيعية واضحه من جهة السودان فليس هذا بالامر الجلل لأن هذا القسم غير الواضح الحدود لا يشكل إلا جزءاً يسيراً من حدود وطننا المترامية الاطراف والمتميزة تميزاً واضحاً عن المناطق المجاورة ، وقلما نجد أمة تتمتع بمثل حدودنا الواضحة ، ونحن على كل حال أميل الى تقدير العنصر البشري في قضية القومية وتفضيله على الارض والبيئة الجغرافية ،

مما يصطنعه أبناء القومية الواحدة من لغة وما يحملونه من تراث تاريخي أهم لدينا من أثر الارض عليهم وقد يخرج الانسان من ارضه ويجلى عنها ويبقى محتفظاً بطابعه القومي.

رابعاً _ نظم الحكم :

ساعدت العائلة المالكة الفرنسية (آل بوربون) على توحيد فرنسا وعملت على اظهار خصائصها القومية ، واجتهدت في قيادة الفرنسيين الى الاستقلال ، ولا ينكر الالمان فضل عائلة الهوهنزلرن التي كانت تحكم بروسيا في القرن التاسع عشر وبذل ملوكها واتباعها اكبر الجهود للوصول الى الوحدة الالمانية ، وكان لملوك بيدمونت اثر فعال في انقاذ ايطاليا من التجزئة والاحتلال النمساوي ، وقد دعت هذه الوقائع واشباهها الى اعتقاد بعض الباحثين ان الحكومات تستطيع ان تظهر القومية أو تقضي عليها ، وهم لا يجدون مانعاً من القول بأن فرنسا لو لم تحكمها عائلة واحدة نشيطة خلال زمن طويل لتجزئت وضاعت بين الامم المجاورة أو ضمرت أو انقسمت الى عدة أوطان ، وقد غالى بعضهم فرأى أن القومية لا تستغني عن عائلة مالكة تحيط نفسها بهالة من القدسية وتشجع الشعراء والمفكرين القوميين ويتابع أبناؤها ما بدأه آباؤهم ، ويضيف بعضهم أثر الشخصيات الفذة الى جانب العائلات المالكة فيرى ان فرنسا هي هبة جان دارك ، تلك الريفية المحاربة التي أوصلت وطنها الى طرد الانكليز ويذكرون الايادي البيضاء لمازيني وغاريبالدي على القومية الايطالية وفضل بسمارك على الامة الالمانية وصلاح الدين الايوبي على الامة العربية .

ولكن المفكرين المعاصرين يعتقدون ان القومية حقيقة اعمق من الحكومات والعائلات المالكة والرجال العظام .

فالقومية تسبق الحكومة وتبقى بعدها وهي متى تيقظت سمت الى اهدافها وهي التي تنتج الحكام الذين يقودونها نحو الوصول الى غاياتها ، ولم تبتدع الحكومات القوميات ولم تسع الى خدمتها بمحض الصدفة أو بسبب من الطموح الشخصي بل ان الامة هي التي تدفع حكامها الى العمل في سبيلها وتوصل الى مسامعهم آلامها وآمالها وتحضهم على العمل من أجلها وتطيح بهم عندما يخونون أمانيها أو يقصرون في سعيهم ، والفرد مهما كان عبقرياً ابن مرحلته وظرفه ، فالذي جعل بسمارك يهتم بالوحدة الالمانية هو وجود القومية الالمانية كحقيقة واقعة واتجاهها نحو وحدتها ولو نشأ بسمارك في عهد الامبراطوريات لم يكن في وسعه الا ان يعمل من أجل إقامة امبراطورية تضرب بالقوميات عرض الحائط ، وقد مرت على سائر القوميات حكومات لم تكن تامة الايمان بقومية رعاياها ، او متخاذلة عن تحقيق أهدافها ، فلماذا لم تمت القوميات نتيجة لذلك ؟ ولماذا تابعت سيرها واستفادت من سائر الظروف حتى وصلت الى مبتغاها ؟

واذا كانت طبيعة القرون الخوالي تسمح للناس ان ينضووا تحت لواء عائلة مالكة يمجدونها ويقدسونها ، ويقبلون ان يكون حاكمهم الاعلى من بين ابنائها فقط ، فان الوعي الانساني في الوقت الحاضر اصبح ينظر الى العائلات المالكة كشيء عتيق مخالف للعقل والمنطق السياسي ، ولم تعد الشعوب تهتم كثيراً بحفلات القصور الملكية ، أو تقبل تفرد عائلة واحدة بالحكم أو تصدق ما ينسب الى ابناء الملوك من عبقرية وعظمة وجلال ، واذا استفادت بعض القوميات من ملوكها فان قوميات أخرى اضر بها الملوك ، فأتاتورك لم يستطع ان يسير بتركيا نحو التقدم الا بعد ان الغى السلطنة العثمانية ، والعائلات المالكة العربية وقفت حجر عثرة في طريق وحدة العرب وتعاونت في كثير من الاحيان مع الاجنبي

لحماية عروش التجزئة أو عزلت اقطاراً كاملة عن مجرى الحياة العربية للاحتفاظ بسلطانها .

ونحن ممن يعتقدون ان القومية لا تبنيها الحكومات وانما هي حقيقة جوهرية ليست الحكومة الا تفرعاً سطحياً عنها ، ولا ننكر مع ذلك ان الامة التي تحظى بحكام مخلصين واعين مؤمنين بقوميتهم وعزتها واستقلالها ووحدتها تكون سعيدة الحظ حقاً ، اذ تقود الحكومة الشعب حينئذ نحو تحقيق الاهداف القومية بدلاً من أن تتآمر عليها وتختصر الزمن وتساعد على الوصول بسرعة الى الاماني المرتجاه .

خامساً ـ اللغة :

منذ ان ظهرت الحركات القومية وضعت اللغة بين العوامل الاساسية لتكون الامم وحتى الدول التي اعتمدت على عناصر قومية متعددة اعترفت بأهمية اللغة كانكلترا وايطاليا واما المانيا فقد مجدت هذا العامل ورأت في تقديس لغتها واظهار خصائصها والعناية بها بعثاً للقومية الالمانية ، وقد رافق استقلال فرنسا السياسي وشعورها بقوميتها ظهور لغتها المستقلة عن اللاتينية ، وتسعى الولايات المتحدة جاهدة الى ايجاد لغة مشتركة بين ابنائها لانها دولة قومية ناشئة ادرك ساستها الا مستقبل لها بغير اللغة الواحدة .

ومن الادلة على اهمية اللغة ان المستعمرين متى احتلوا بلداً حاولوا نشر لغتهم وطمس لغته ، وتذرعوا بشتى الوسائل لجعله ينصرف عن الكتابة والحديث بلغته القومية ولربما ضعفت الأمة وتجزأت بلادها واضاعت عظمتها ونسيت امجادها وانحلت اخلاقها فتبقى اللغة وحدها حية بين ركام تراثها القومي تحاول ان تعيد اليها الازدهار والنشاط مرة أخرى .

وأول ما تبدأ النهضات القومية باللغة فأمم البلقان اهتمت بلغاتها عند بداية تحركها القومي ، والمانيا شجعت الشعر والكتابة الالمانيين عندما اتجهت الى وحدتها وتحررها وكذلك ايطاليا ، ويلعب الشعراء والخطباء في ذلك دوراً بالغ الاهمية ، فللحركة القومية الايطالية شعراؤها وتعتبر خطب فيخته نواة حية للوثبة القومية الالمانية ، وأول ما استفاق العرب المحدثون فكروا في لغتهم ، فسبق النشاط اللغوي سائر أنواع النشاط القومي ، فنشرت الكتب القديمة واحيا الكتاب والشعراء الاساليب العربية العريقة ونظمت القصائد ودبجت المقالات في بيان محاسن اللغة العربية واهليتها للتلاؤم مع التقدم العلمي الحديث وروعة تعبيراتها وحسن نغمتها .

واسباب اهمية اللغة عديدة فهي وسيلة التفاهم بين المتعاصرين من ابناء الامة وهي الجسر الذي يصل الاحفاد بالاجداد إذ يطلع عن طريقها كل جيل على ما خلفته الاجيال السابقة له من ابناء امته ، ومنها ان اللغة ثوب الافكار بل ان التفكير ولو كان داخلياً يتم مع الاستعانة بالكلمات وبذلك ينطبع عقل كل انسان بطابع فكري خاص آتٍ من لغته ، ومنها ان اللغة تصاغ بها الاغاني والاهازيج والشعر والنثر الفني الذي يعجب به الناس فيكتسبون ذوقاً واحداً أو متقارباً بتأثير لغتهم ، ولا تكاد المعارك القومية تنفصل عن المعارك اللغوية فحين هب العرب يدافعون عن قوميتهم ضد اتهامات الشعوبيين اتجهوا أول ما اتجهوا الى ابراز عبقريه اللغة العربية ، وكذلك الحال في اكثر الامم ، واللغة هي مستودع الثقافة القومية عموماً وهي بالتالي حاملة روح القومية وطابعها وشخصيتها ، وقد اعتنى العلماء اللغويون بتبيان الانسجام التام بين شخصية الشعب ولغته فأظهروا دلالة اللغة الالمانية على واقعية الالمان وميلهم الى

النظام الشديد ودلالة اللغة الانكليزية على صبر الانكليز ودأبهم ومثابرتهم ودلالة اللغة السلوفانية على عفوية السلافيين وحيويتهم وقلة تنظيمهم ...

وقد حاول بعض المفكرين وخصوصاً من الفرنسيين الا يضعوا اللغة في طليعة العوامل المكونة للقومية ، وهم في ذلك متأثرون بوضع فرنسا الخاص التي تعتبر الالزاسيين قسماً من شعبها مع ان اللغة السائدة بينهم هي اللغة الالمانية ، ولكن مسألة الالزاس واللورين مسألة دولية ولم يبث في أمر هاتين المقاطعتين حتى اليوم حسب خصائصها القومية وانما تضمها القوة تارة الى فرنسا وطوراً الى المانيا .

ونحن العرب حفظت لنا لغتنا وساهم القرآن الكريم الى جانب المساجد والاديرة وتمسك الشعب العربي بخصائصه في حفظها ، ومن حسن طالع امتنا أن لغتها بقيت في جوهرها واكثر تفاصيلها كما كانت منذ أيام قريش مما سهل على العربي العادي الاتصال بتراثه الشعري والنثري ومكن لوحدة الامة العربية خلال التاريخ ، واللغة العربية وسيلة التفاهم للغالبية الساحقة من سكان الوطن العربي إذ تبلغ نسبة من يستعملونها في حياتهم اليومية من سكان هذا الوطن ٩٣٪ على أقل تقدير ولا ننسى ان الباقين لا يعتبر اكثرهم من أبناء هذا الوطن فهم اما ان يكونوا يهوداً أو فرنسيين أو ايطاليين أو يونانيين ...

وأما القلة القليلة من مواطني بلادنا الشرعيين والتي تستعمل في حديثها لغات غير عربية فهي ضئيلة العدد اولاً وتقدر لغة العروبة ثانياً ، بل ان اكثر ابنائها الجدد تعلموا اللغة العربية واصبحت جزءاً من حياتهم ولو أننا قارنا وحدتنا اللغوية ونحن ما نزال في مطلع وثبتنا القومية الحديثة بالوحدة اللغوية

لبقية الامم وحتى التي اكتمل نضجها ووصلت الى غاياتها لوجدنا اننا اكثر تماسكاً منها ، ولرأينا أن وحدتنا اللغوية تفوقها بكثير .

سادساً ـ التاريخ :

التاريخ هو ذاكرة الامة كما يقول الحصري ، والشخصية لا تقوم إلا بذاكرة تربط بين ماضيها وحاضرها وتسبك ما مر بها من احداث في بوتقة واحدة ، ولا توجد أمة على وجه الارض تستهتر بالتاريخ القومي أو تقلل من شأنه إلا اذا كان اولو الامر فيها مجانبين لطريق الصواب ، وتهتم الامم كلها بتعليم تاريخها في المدارس وعن طريق شتى أنواع النشر والاذاعة ، ويشكل القسم التاريخي فرعاً كبيراً مما يكتبه القصاص والروائيون ، وتحاول الامم ان تستفيد من المسرح والسينما لاظهار عظمة تاريخها .

عن طريق التاريخ تتوحد نفوس المواطنين لأنه يقدم لهم مفاخر مشتركة ويثير عواطفهم حول حوادث واحدة ، وان أمة يفتخر أبناؤها جميعاً باليرموك والقادسية وقصر الحمراء ومناظرات العلماء في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة ... لهي أمة واحدة متماسكة ، وما دمنا نعتبر القرابة بين أفراد الامة قرابة اجتماعية لا دموية فلا مندوحة لنا من اعتبار التاريخ هو الاصل المشترك الذي ينتسب أبناء القومية الواحدة اليه ، ليس الفرنسيون ابناء جان دارك دموياً ولكنهم يعتبرون انفسهم من سلالة المعارك التي خاضها أبناء وطنهم مع جان دارك ، ولا يوجد من العرب من يرجع نسبه العرقي صراحة الى جيش عقبة بن نافع الذي حرر شمالي أفريقيا ، ولكن العرب جميعاً ورثة أمجاد ذلك الجيش وخلفاؤه التاريخيون ، ومنذ الطفولة الاولى يكتسب الانسان قوميته عن طريق ما يسمعه عن بلاده

من أحداث وما أنجبت من ابطال وما قدمت من شهداء ويحس بأنه ليس بعيداً عن أسلافه القوميين ولو انفصل عنهم بآلاف السنين بل يشعر بقربه منهم ، وبأنه يعيش بينهم وعن طريق التاريخ تدرك الامة امكانياتها وتتصور عظم طاقاتها فتتشجع على المضي في الطريق الصاعد الى عزتها وازدهارها مهما كانت ضعيفة متخلفة وحجتها التي لا تفارقها هي انها انتجت في الماضي ولذلك تستطيع الانتاج الآن وفي المستقبل .

وحين تكون الامة بلا تاريخ خاص كالولايات المتحدة الامريكية فانها تبذل جهدها لتتلافى هذا النقص بأن تعتبر أبناءها ورثة أمجاد بلادهم الاصلية وبالالحاح على الحوادث التاريخية القليلة خلال عمرها القصير نسبياً ومن أجل ذلك غالت الولايات المتحدة في تمجيد أبطال ثورتها الاستقلالية كواشنطن وجفرسن وعظمت شأن لنكولن وعدداً آخر من عظمائها قد تعتبرهم بقية الامم عاديين .

وللآثار المكتوبة والمنقوشة والمنحوتة والمبنية أثر كبير في حفظ التاريخ القومي وفي اشعار المواطنين بعظمة امتهم وتسعى القوميات الى ابراز آثارها وعرضها بمظاهر الابهة والجلال وتسهيل رؤية المواطنين لها .

وللتاريخ أثر فعال في اغناء تجربة الامة ، فمن ضياع الوقت أن يبدأ كل جيل من نقطة الصفر ولا يستفيد من تجارب أسلافه ومن المفيد ان تدرس الامة نكساتها وهزائمها الى جانب دراسة انتصاراتها حتى تتبين الاخطاء فلا تقع فيها من جديد او تحذر الحكام من الوقوع فيها وحتى تعرف اسباب النصر ومفاتيح طاقاتها الخاصة فتماشيها . وقد جرت العادة على أن يعلم الطفل الصغير أحسن معالم تاريخ أمته حتى ينشأ على الاعتزاز بها ومع تقدم وعيه يتوسع في التدقيق التاريخي ويعلم مظاهر الضعف والقوة في ماضي امته .

ويخشى بعض المفكرين أن يؤدي تعظيم التاريخ القومي الى الجمود وحب المحافظة على القديم الذي مضى أوانه ولكن تلافي هذا المحذور سهل على الواعين المخلصين فما عليهم إلا ان يربطوا الحوادث الماضية بزمانها ومرحلتها ويلفتوا النظر الى ان الامة تسير في تقدم في كل جيل محصولاً جديداً متلائماً مع المستوى العلمي الذي وصل اليه العصر .

والتاريخ يلفت النظر الى بعض آلام الامة وبالتالي يوجهها الى قسم من آمالها ، فهو الذي يدل المواطنين على اعدائهم ومغتصبي خيراتهم ومحتلي أراضيهم ويدفعهم بالتالى الى استرجاع الحقوق القومية ووضعها في طليعة الآمال التي يتجهون الى تحقيقها .

ويخشى البعض أن تستغل هذه الناحية فينشأ أبنـــاء القومية على كراهية بعض الامم الاخرى ويغرقون في الحقد عليها وقد يندفع المواطنون بتأثير العاطفة القوية التي تخلقها فيهم الامجاد التاريخية فيتكبرون على بقية الامم ويحسبون انفسهم متفوقين عليها ويبررون لأنفسهم العدوان واحتلال بلاد الآخرين ، أما عن كراهية الغاصبين والمحتلين فلا يأملن مستعمر أن يحتل بلداً وينال محبة أهله في نفس الوقت ، ولا بد من غليان الدماء في العروق غيظاً من المعتدي حتى يهب الشعب لردعه ولكن الغاية يجب ألا تكون الحقد الاعمى فليس هدف القوميات الواعيـــة ان تبطش بالآخرين وان تتمتع بايلامهم بل غايتها استرداد حقوقها ، وأما التكبر على الامـــم الاخرى بتأثير الاسراف في تمجيد القومية وتاريخها فلا تلجأ اليه إلا بعض الطبقات الحاكمة في الامم الاوروبية والتي ترى من صالحها أن تدفع جماهير شعبها للانشغال بالاستيلاء على أرض الآخرين لئلا تحاسبهم هذه الجماهـــير وتطالبهم بحقوقها .

وقد ظهر هذا التعصب لا في المانيا النازية وايطاليا الفاشية وحسب بل في كل دولة مارست الاستعمار ولو لم تعلن عن تعصبها صراحة ولا يوجد إلا هذا التعليل لادعاء الانكليز احقيتهم في حكم امبراطورية استعمارية شاسعة تضم شعوباً غريبة عنهم ، وكذلك بقية المستعمرين .

ونحن العرب لنا تاريخنا الغني والذي يعطينا نماذج حية توحد مفاخرنا وتحثنا على العمل في سائر الميادين السياسية منها والعسكرية والعلمية والادبية والفنية ، فلنا حضارتنا التي ازدهرت قبل الميلاد بآلاف السنين وبعده حتى اليوم ولنا ابطالنا العديدون وشهداؤنا الوفيرون ، وحصيلتنا التاريخية غنية بالتجارب التي نستطيع الاستفادة منها ، فقد جربنا خلال تاريخنا الطويل أنظمة شتى للحكم فعرفنا البيعة والانتخاب والملكية الوراثية والحكم العسكري والديني ... وجربنا وجوهاً شتى للقوانين والانظمة والعلوم والفنون وتحت كل هذه التجارب المتنوعة كانت تكمن قاعدة عربية واحدة متينة تطبع احداث تاريخنا بطابعها وتهبها صبغة خاصة .

واذا خشى البعض أن يؤدي تمجيد التاريخ القومي الى العدوان فيجب ان يوجه هذا الخوف الى الاوروبيين ، الى الامم الاستعمارية لا الينا فنحن اليوم في وضع لا يمكننا من الاعتداء على الآخرين ولو اردنا ذلك ، اننا لم نصل الى ابسط مطالبنا الطبيعية كأمة واحدة من وحدة وتحرر ، ناهيك عن أننا لا نرغب في العدوان واستغلال الآخرين بعد أن عانينا من الظلم فمقتناه فأصبحنا نقدر آلام المظلومين .

سادساً ـ المصالح والآمال والآلام :

تساعد المصالح المشتركة على تكتل مجموعة من البشر في قومية

واحدة ، وللاقتصاد المتكامل أثر فعال في هذا الميدان فاذا كانت طبيعة البلاد لا تسمح بقيام اقتصاد مستقل في بعض المناطق واذا شعر أبناء كل بقعة بأنهم محتاجون الى البقاع الاخرى بشراء محاصيلها وبيعهـــا محاصيلهم ساعد ذلك على تجمعهم وتكوينهم قومية واحدة ، وكذلك تؤثر الآلام المشتركة فتقرب بين من يعانون ألما واحداً فحين تعاني الجزائر وفلسطين وعمان من الاستعمار كما لا تزال تعاني منه بقية الاقطار العربية بشكل مباشر أو غير مباشر يندفع أبناء البلاد العربية الى التعاون مع بعضهـــم لأخذ ثاراتهم واجلاء المعتدين عنهم ، أما الآمال فهي بنت الآلام الى حد كبير وأول ما يرغب فيه الانسان وما يرجوه هو أن يزيل ما يؤلمه وما يضايقه ، والذين يعانون العذاب المشترك يتجهون نحو آمال مشتركة ويتقاربون ويتمازجون بتأثير ذلك ، والآمال ايضاً تبنى على المصالح إذ يلاحظ السكان أنهم يصلون الى الرخاء والقوة اذا نمت علاقاتهم فيسعون الى انمائها ويرجون زيادة التعاون فيما بينهم .

ويعتقد كثير من المفكرين ان المصالح نتيجة للقومية وليست سبباً لها ، فالقومية الالمانية هي التي تجعل سكان هذه المقاطعة الالمانية أو تلك يشعرون بالمصلحة المشتركة بينهم وبين بقية المقاطعات ، ولولا القوميـــة لاتجهت بعض المدن البرتغالية في مصالحها نحو اسبانيا وبعض المدن الاسبانية نحو البرتغال ، فالانسان يبدأ بادراك الشخصية القومية المشتركة ويبني عليها بعد ذلك المصالح ، وكذلك يرون ان الآمال والآلام هي من نتاج القومية ولولا القومية الواحدة لما شعر العرب بالألم الممض لما يعانيه شعبهم في الجزائر ولا كتفوا بالعطف على الثورة الجزائرية من بعيد كما يفعلون حـــين يعطفون على كوبا أو زنوج افريقيا الجنوبية أو الكونغو .

والقومية هي التي تجعل كل عربي يحس بجرح عميق نتيجة لقضيـة

فلسطين ويتألم لها أكثر من ألمه لما يجري من مظالم لدى الشعوب الاخرى، ويرون ان الآمال هي بنت التاريخ المشترك وآلامه ومفاخره أي هي أيضاً نتيجة لا سبب للقومية .

والعرب بحكم وطنهم الواحد واقتصادهم المتكامل (١) مقدر لهم بأن تكون مصالحهم واحدة ، كما أن دماءهم تنزف من الجروح المشتركة التي اصابتهم خلال تاريخهم ، وكل ألم يصيب بقعة عربية يعتبره العرب فوراً ألماً مشتركاً بينهم جميعاً ، وآمالهم الكبرى واحدة ، فهم يعملون لوحدة وطنهم وتحرره ورفع مستواه ، وهم اليوم ثائرون ثورة واحدة على الاحتلال والتجزئة والنفوذ الاجنبي والتخلف والظلم ، ويتطلعون نحو مستقبل زاهر لهم جميعاً ، ان العرب مصيرهم واحد ومتى احتل قطر عربي هددت بقية الاقطار بالاحتلال ومتى تحرر قطر عربي انطلقت صيحة التحرر في الاقطار الاخرى .

ثامناً ـ الارادة المشتركة :

لاحظنا خلال دراسة المقومات السابقة أن عاملاً واحداً منها لا يستطيع وحده ان ينشيء القومية ، كما بينت لنا الامثلة التي أوردناها أن الامم تختلف في تقديرها لمقومات القومية ، فمنها أمة تعتمد على اللغة والتاريخ ومنها أمة تقوم على الارض والدين وثمة قوميات تقوم على المصالح ووحدة الآلام والآمال مع الاستعانة بالتاريخ وبعض المقومات الأخرى ، والمهم ان القوميات موجودة وان اختلفت العوامل السابقة في تأثيرها على نشوئها ، والذي يدفع بالقومية الى الامام هو ارادة الحياة

---

(١) راجع بحثنا في الأوضاع الاقتصادية .

المشتركة أو ارادة الحياة القومية ، فالارادة المشتركة هي محصلة مقومات الامة وهي الثمرة التي توصل اليها العوامل في تفاعلها وتمازجها ، والارادة المشتركة إما ان تكون عفوية تظهر في أنس أبناء القومية ببعضهم وميلهم الى التعاون وايثارهم انشاء العلاقات الاجتماعية فيما بينهم والشعور الضمني بتميزهم عن الاجانب ، واما ان تظهر بشكل واضح منظم اي تتخذ صورة الوعي القومي الذي هو شعور واضح المعالم بوحدة ابناء الامة ومطالبها وبحث عن الوسائل المؤدية الى نيل آمالها .

والارادة المشتركة تذلل الصعاب وتزيل العراقيل ، وتسمح للقومية بأن تتدعم عملياً مهما طالت المناقشات النظرية حولها ، فعلى حين كان الايطاليون ما يزالون يختلفين على مقومات قوميتهم وما العامل الذي يجب ان يضعوه في أعلى القائمة سارت القومية الايطالية في طريقها ولسان حالها يقول : القومية وجود ولا يهم الوجود ان يختلف الناس على اسبابه .

وفي الوقت الذي اشتد النقاش بين المفكرين الالمان حول افضلية العرق أو اللغة أو التاريخ ظلت القومية الالمانية راسخة وبقيت حقيقة معترفاً بها وتابعت طريقها نحو اهدافها . واذا انتظمت الارادة المشتركة واتضحت وانقلبت الى وعي قومي دفعت بالأمة اشواطاً بعيدة الى الامام وانقذتها من براثن الحيره والتردد والبطء في العمل ، فحين يشتد الوعي القومي لا يدع الامور للزمن وحده ، وانما يدفعه دفعاً ويختصره بالحاحه على فكرة القومية وتمجيدها وبيان اهدافها ، والوعي القومي هو الذي يثير حماسة الناس ليقوموا بالثورات أو يخوضوا الحروب ضد المعتدين وهو الذي يدفع بالمؤرخين الى اظهار معالم التاريخ القومي وامجاده وعرض تجاربه وهو الذي يحرك الشعراء للتغني باوطانهم وامجهم وبعث ذوقها وسليقتها وهو الذي ينبه الى الاخطار المحدقة بالأمة ويمكن الشعب من وضع

مقاييس واضحة لمحاسبة الحكام ، وفترات الوعي القومي فترات ذهبية ينشط فيها العالم ليكتشف ويخترع فيغني تراث وطنه ويرفع سمعته بين الامم وينشط فيها السياسي ليسجل لقوميته خدمات تتكافىء مع حماستها وينشط فيها المفكر ليتعمق مشكلات امته والانسانية جمعاء ويقدم لها الحلول ، الطالب يندفع بتأثير الوعي القومي والعامل والفلاح وكل ذي كفاءة ومهنة ، فأيام الوعي القومي أيام عمل وكفاح ونضال لا يبالي فيها الفرد بنفسه بمقدار ما يهتم بشؤون امته وانقاذها واعلاء شأنها ، انها ايام تفجير الطاقة القومية وسيرها كالسيل الجارف يجرف الامراض والاقذار والعراقيل في طريقه ، وتظل الامم عادة متمشية على مهلها مترددة في اعمالها الى أن ينبثق وعيها القومي فتحزم امرها وتنطلق بسرعة عاصفة نحو تحقيق آمالها .

الفصل الرابع

أهداف القومية العربية

ان تجمع الناس بتأثير الروابط القومية يخلق أهدافاً مشتركة فيما بينهم يسعون الى تحقيقها جميعاً ، وهذه الاهداف قد تتغير من عصر الى عصر وقد تختلف من مرحلة تاريخية الى أخرى ولكنها تبقى في جوهرها نابعة من الحاجات الملحة للقومية ويتمثلها الشعب على انها مطاليبه الاولى التي تستحق ان يبذل كل مرتخص وغال في سبيلها .

ولا نريد ان نستعرض تطور الاهداف القومية عند جميع الشعوب بل لن نستطيع ان نتابع هذا التطور عند الامة العربية نفسها نظراً لضيق صفحات هذا الكتاب ، وانما سنكتفي بالحديث عن أهداف القومية العربية اليوم أي في هذه المرحلة التاريخية بالذات وأهم هذه الاهداف هي :

اولاً - التحرر :

ونقصد به التخلص من استعمار الاجنبي ونفوذه والنجاة من شراكه التي ينصبها للشعوب ليستغل خيراتها ويمتص دماءها ، ولا يوجد قطر عربي واحد لم يعان من الاستعمار حتى اليمن فقد عانت من

من الاستعمار العثماني واذا كانت جيوش الاستعمار الاوروبي لم تستطع اقتحامها فقد فرض المستعمرون عليها نوعاً من الحصار السياسي والاجتماعي والاقتصادي وهم في كل يوم يسببون لها بلاء جديداً ، كما انهم اقتطعوا بعض اطرافها ، وان الاستعمار الذي عرفناه على أنواع منه الاستعمار الاستيطاني أو الاستعمار البحت وهو أن يبعث المستعمرون بعدد من الاجانب السكنى بعض الاقطار ومن أوضح الامثلة على الاستعمار الاستيطاني ما جرى لنا في فلسطين اذ شجعت وحميت هجرة الصهاينة اليها على نطاق واسع وما جرى ايضاً في الجزائر حين منحت الحكومة الفرنسية امتيازات للفرنسيين وسائر الاوروبيين الذين يقطنون الجزائر فشجعت هجرتهم اليها وساعدتهم على اقتطاع اخصب الاراضي واكتناز اضخم الثروات .

كما اننا عرفنا الاستعمار الذي يحكم البلد ولا يرسل له من يسكنونه وحكم البلد من قبل الاستعمار إما ان يكون مباشراً حين تعين الحكومة الاستعمارية حاكم الدولة من ابناء المستعمرين وهو الذي يمثلها ويديرها كما يشاء ، وهذا النوع من الاستعمار موجود في مستعمرة عدن العربية حتى اليوم ، وتبذل بريطانيا جهدها لكي تقذف الى عدن بمن يستوطنها من غير العرب لتضييع عروبتها وتسلخها نهائياً عن جسم الوطن العربي ، وربما حكم الاستعمار البلد عن طريق حكومات ملكية أو جمهورية يكون اعضاؤها من ابناء القطر المحكوم ذاته ويضم الى جانبهم مندوباً سامياً أو مقيماً عاماً يعاونه جهاز من المستشارين الاستعماريين فيهيمن هذا المندوب وجهازه على أهم مرافق الدولة ويوجهون السياسة العسكرية والاقتصادية والثقافية في القطر لمصلحة الاستعمار ، وقد عرفت سورية ولبنان أيام الانتداب الفرنسي هذا النوع من الحكم الاستعماري وعرفته الاردن والعراق

في ايام الانتداب البريطاني ، كما رزحت تحت وطأتـه مصر زمن الحماية الانكليزية وظل الفرنسيون يحكمون تونس والمغرب العربي على هـــذا الاسلوب حتى عهد قريب ولا تزال الكويت والبحرين وقطـر والساحل المعاهد تدار عن هذا الطريق ، وفي اغلب الاحيان يضع المستعمر قسماً من جيشه الى جانب المندوب السامي أو المقيم العام ليدعمه في ضغطه على الشعب ويساعده في قمع الحركات التحررية .

وثمة نوع آخر من الادارة الاستعمارية للاقطار العربية وهذا النوع يعطي القطر استقلالاً رسمياً غير أنه يبقيه اسمياً أو يبذل جهده ليظـل في هذا المستوى فيعلن رحيل المندوبين الساميـــين من ناحية ولكنه يجعـل للسفارات الاستعمارية أهمية كبرى ويبقى قسماً من جيشه في قواعـــد عسكرية بحجة الاحلاف والدفاع عن أحد المعسكرات الدولية ويظـل الضباط الاجانب مهيمنين على الجيش المحلي ، وقد عرف الاردن هذا النوع من الادارة الاستعمارية بعد نيله الاستقلال الظاهري اذ ظل غلوب وخلفاؤه من الضباط الانكليز مهيمنين على الشؤون العسكرية الاردنيـــة وبقيت السفارة البريطانية ذات سلطان واسع في حكم الاردن ، كما عرفه العراق بعد أن ظفر بالاستقلال الرسمي عام ١٩٣٠ اذ بقيت القـوات البريطـانية متمركزة في قواعـــد عسكرية حساسة وكانت تتدخل صراحة عندما تقضي السياسة الاستعمارية بذلك كما فعلت خلال ثورة عام ١٩٤٢ ، كما ان حلف بغداد حل المعاهدة الاستعمارية السابقة له وابقى للبريطانيين قواعدهم العسكرية وحفظ لهم نفوذهم السياسي والاقتصادي في العراق ، كما مرت مصر بهذا الدور بعد معاهدة عام ١٩٣٦ ، قد بقيت القوات الانكليزيـة متمركزة في قواعـــد عسكرية رئيسية على ارض مصر وبقيت السفارة البريطـانية مشاركـة في شؤون الحكم والتوجيـه وكانت تسقط وزارة

وترفــع أخرى حسب ما تقتضيه المصلحة الاستعمارية ، ولا تزال بعض الاقطار العربية تخضع لهذا النوع من التحكم الاستعماري كتونس والمغرب العربي اللتين اصبحتا دولتين مستقلتين مع بقاء القــوات الفرنسية في بعض القواعد على ارضهما ، ومتى وجدت القوات الاجنبية اصبح للاستعمار نفوذ كبير على السياسة في الدولة .

ويوجد نوع اخير من التحـكم الاستعماري في الاقطار العربيــة مقنــع وخفي ولكنه ذو أصابــع طويلة يستطيــع ان يحركها فيحرك القطر التابــع له ، وهذا النوع يعطي للقطر استقلاله ويسحب منه الجيوش الاجنبية وتسير الامور وكأن الشعب العربي في ذلك القطــــر يحكم نفسه بنفسه ولكن الحقيقة العميقة تدل على غير ذلك ، فقد يكون الاستعمار مؤمنــاً لمصالحه عن طريق شركاته الاستعمارية الضخمة التي تتدخـل باسم حمـاية ارباحها وامتيازاتها فتوجه سياسة البلد ، وبمـا أنها مركز اجنبي تصبــح نقطة استقطـاب للعملاء ووسيلة لشراء الضمائر وصرف الامــوال للتخلص من الحركات القوميـــة الشعبية ، وكل انسان يعلم أن شركة الارامكو لا تتربــع على الارض السعودية بهــدوء وفضيلة فــــلا شك أنها تحث السير دائماً لتضمن المصالــح الاستعمارية الامريكية ، وتاريــخ شركـة النفط الانكليزية العراقية محشو بالمؤامرات والتدخل في شؤون العراق الداخليـــة ، واذا كان القطر العراقي قـد تخلص من حلف بغــداد واخرجت منه القوات البريطـانية فما يزال للانكليز فيه محط قدم عن طريق الشركات البترولية الاجنبية ، وقد ظل استقلال مصر مقلقلاً بعد خروج القوات البريطانية ، وأسباب قلقلتـه بقاء شركة قنــــاة السويس الاستعمارية التي اطاح بها الشعب العربي منقذاً مصر من مؤامراتها ، وقد يمارس

الاستعمار هذا النوع من النفوذ ولو لم توجد له شركة كبيرة تمثله صراحة على أرض القطر ، فلديه وسائل اخرى منها ان يربط مصالح البلاد الاقتصادية به ، فقد جرت العادة ان تبقى البلاد المتحررة حديثاً من الحكم الاستعماري المباشر متاجرة مع مستعمرها السابق ، اذ تصبح هذه التجارة معه تقليداً ويساعد الاستعمار على بقاء هذا التقليد بدعايته الواسعة وتمتين علاقاته ببعض رجال الاقتصاد وتشجيعهم على اقتسام الغنائم معه وحين يتصارع نفوذان استعماريان على القطر الواحد يسعى كل منهما الى اجتذاب عدد من الاقتصاديين الى جانبه ، وان ربط اقتصاد القطر بعجلة الدول الاستعمارية خطير جداً اذ تستطيع هذه الدول ان تبيعه عندئذٍ بضائعها بالاسعار التي تريدها وتشتري منه المواد الخام بأبخس الاثمان. وحين يخرج على ارادتها ويشق عصا طاعتها ، تحاصره اقتصادياً أي لا تبايعه ولا تشاريه فيقع في البلبلة لأنه يحتاج الى مدة من الزمن ريثما يستطيع ان يتحول بتجارته نحو دول أخرى ، خاصة اذا كان نقده مرتبطاً بالكتلة النقدية التي تنتسب اليها تلك الدولة الاستعمارية ، وان اغلب الدول العربية المستقلة والتي لا توجد قوات اجنبية على اراضيها يؤمن الاستعمار فيها مصالحه عن هذا السبيل .

واذا اعتبر القطر العربي نفسه متحرراً تماماً من الاستعمار وسلك في سياسته واقتصاده وثقافته مسلكاً نابعاً من ضمير الشعب العربي واصر على ذلك حاك الاستعمار عليه المؤامرات الداخلية اولاً وحرك انصاره الموجودين فيه وبذل لهم الاموال ليعوض عن قلتهم العددية بكثرتهم المالية ، فان لم تفلح المؤامرة في ضرب الاتجاه التحرري حوصر القطر اقتصادياً وحركت ضده احدى الدول الاجنبية المجاورة اللاحقة للاستعمار لتحشد قواتها على حدوده وتتحرش به ، وقد يوعز الى حكومة عربية

مجارية سائرة في ركاب الاستعمار ان تتحرش به ايضاً فان لم تفلح كل هذه المحاولات لا يجد الاستعمار رادعاً يمنعه من ارتكاب العدوان السافر على ذلك القطر .

نلاحظ مما ذكرناه أننا حتى اليوم نعاني من النفوذ الاستعماري علينا واذا كنا قد استطعنا زحزحة الاستعمار عن بعض المواقع فنحن لم نطرده من وطننا بعد ، وان نمو قوتنا الشعبية هي التي اجبرت الاستعمار على نبذ الوسائل السافرة في حكمنا واتباع الوسائل الخفية المقنعة ، ولكن الاستعمار يظل استعماراً سواءً آثر السفور أو الحجاب وعلينا ان ننتبه الى أن كثيراً من الويلات التي تصيبنا ونحسبها وقعت بمحض الصدفة او نتيجة لسوء التدبير ليست هي في الحقيقة الا من صنع الاستعمار وتنظيمه .

وان أهم وسيلتين تساعداننا على التحرر هما الثورة والحياد .

آ ـ الثورة :

للثورة معنيين يرتبطان بعضهما البعض ـ اولهما الثورة ضد الاستعمار أو بمعنى آخر الثورة من أجل التحرر الخارجي وثانيهما الثورة الرامية الى التغيير الداخلي وبمعنى آخر الثورة على الجمود من أجل التقدم .

أما من أجل التحرر الخارجي فيخطيء من يظن ان الاستعمار يطرد بالمفاوضات ويتقيد بالمعاهدات ومهما جرى في القطر المُستعمَر من انتخابات فالاستعمار قادر على تزويرها وحين تفلت الاكثرية من يده وتطالبه البرلمانات بالخروج يستهزيء بها ويحلها ، ولو ان الاستعمار يحترم آراء الناس لما أقدم على استعمارهم .

ويروج المستعمرون للفكرة القائلة بأن المفاوضات هي سبيل الخلاص من حكم الاجنبي ويستشهدون على ذلك بما يعرفه الجميع من أن معاهدة الاستقلال المصرية تمت عقب مفاوضات ، وجلاء قواتهـــم عن مصر سبقته مفـاوضات وكذلك نالت تونس والمغرب العربي والعراق والاردن استقلالهـا نتيجه للمباحثات .

غير ان هذه الامثلة ترد على المستعمرين ، فالمفاوضات التي جلا على أثرها الانكليز عن مصر سبقتها حركات شعبية دامية اضطرت الانكليز الى قبول التفاوض وهم يشعرون الا" بقاء لهم على أرض مصر العربية بعد ان انهكت قواهم حملات الفدائيين ، وقبل ان تجري مفـاوضات الاستقلال في تونس والمغرب العربي والعراق والاردن هب الشعب العربي فأثبت قوته وما زالت ذكريات جيش التحرير التونسي والمغربي ماثلة في الاذهان ، وقد عرف العراق ثورات عديدة كما أن الشعب العربي في الاردن قام بحركات دامية قبل المفاوضات ، واذا نالت سورية ولبنان استقلالها وجلت الجيوش الاجنبية عنها بقرار من مجلس الامن ، فان هذين البلدين عرفتا قبل ذلك ثورات دامية ، فالمفاوضات نتيجة للثورة وليست سبباً في الاستقلال بـــل سبب الاستقلال تلك الثورات الدامية التي كانت وما تزال تشعر المستعمرين باقتراب نهايتهم وتجبرهم على قبول بعض مطالب الشعب ، بل لا نذيع سراً اذا أكدنا ان المفاوضات تنقص الثمار التي يمكن ان يحصل عليهـا الشعب عن طريق ثورته ، إذ برع الاستعماريون في أساليب اللف والدوران واضاعة الوقت وصياغة النصوص الغامضة التي يفسرونها حسب هواهم ، فعلى حين يكون الشعب في عنفوانه وذروة حماسته لا يرضى عن الاستقلال التام بديلاً تأتي المفاوضات فيحاول المستعمرون ان يبقوا على نفـوذهم عن طريقها ويضمنون مصالحهم بنصوصها ، والمثل الواضـح عنـــدنا اليوم لاهمية

الثورة على الاجنبي هو الجزائر ، فقد ظلت فرنسا متمادية في غيها أيام كان الزعماء الجزائريون يطالبون بالاستقلال عن طريق التفاهم والاحاديث البرلمانية ، ولكنها حنت هامتها بعد ان دمرتها الثورة الجزائرية تقريباً واستنفذت طاقتها العسكرية والمالية وكادت توقعها في الحرب الاهلية ، ومأساة فلسطين تقدم لنا اكبر دليل على خطأ الاعتماد على المباحثات مع المستعمرين والوثوق بوعودهم ، فاليهود في فلسطين كانوا قلة بعد الحرب العالمية الاولى وتستطيع الثورة الشعبية المستمرة ان تقذف بهم الى البحر رغم مناصرة البريطانيين والغربيين عموماً لهم ، بل لقد مرت على الصهيونيين في فلسطين أيام سوداء راودهم فيها شبح العجز عن اغتصاب هذا القطر العربي بتأثير الايدي العربية الثورية ولكن ما تكاد الثورات العربية في فلسطين تقترب من تحقيق غايتها حتى يلجأ الاستعمار الى اقناع حكام الاقطار العربية بمناشدة الثوار ان يوقفوا حركتهم ويعد هؤلاء الحكام بحل المشكلة بالتفاهم والتفاوض ، ويصدق الحكام الاستعمار أو يتظاهرون بتصديقه ويطلبون من المجاهدين الاخلاد الى السكينة وتأتي المباحثات وتطبع الكتب البيضاء والسوداء وتبذل الوعود وتسير الامور لمصلحة الصهيونيين ، وفي آخر عراك حول فلسطين كانت الجيوش العربية على ضعفها وقلة تدريبها أقوى من القوات الصهيونية فتقدمت في الميدان واخذت تحرر المدينة تلو المدينة وهددت الصهيونيين تهديداً جدياً فطلع الاستعمار بنغمة الهدنة الاولى وكان له بين حكام العرب انصار تفاهم معهم سلفاً ، فدعوا الشعب العربي الى ايقاف الحرب وجمدت الجيوش العربية في امكنتها وبدأت مفاوضات بهلوانية مزيفة لم يكن الغرض منها إلا اتاحة الوقت الكافي للصهيونيين كي يتموا تسليحهم ويستوردوا الجنود المدربين من اقطار اوروبا ، ولما عادت الحرب من جديد رجحت كفتهم لأن الدول الاستعمارية قطعت الاسلحة عن الجيوش العربية بينما بذلت لهم السلاح والمال والخبرة بسخاء ، وهكذا انتهى فصل دام من مأساة فلسطين لغير مصلحة العرب وكان للاعتماد على المفاوضات

والمباحثات دور فعال فيه .

ومصيبتنا في لواء الاسكندرون السليب آتية الى حد كبير عن الاعتماد على المفاوضات ، ففي ذلك اللواء هب الشعب العربي بثورة كاسحة امتازت بالاخلاص والوعي والتضحية ولكن الحكام قلموا أظفارها وهشموا أسلحتها بقبولهم التفاوض مع المستعمرين وهم عليمون بأن المستعمرين يريدون اعطاء اللواء لتركيا وجرت المباحثات وتدخلت عصبة الامم هنا كما تدخلت هيئة الامم المتحدة في فلسطين بعد ذلك وكانت النتيجة واحدة وهي سلب العرب قسماً من أرضهم وتهجيرهم وتقوية عدوهم عليهم .

الثورة قوية والاستعمار قائم على القوة فلا تردعه إلا القوة والثورة حاسمة لا ترضى بالحلول الوسط وهي على حق في ذلك فمتى بقي بين الاستعمار وبين أحد الاقطار خيط واه من النفوذ والاعتراف بمصلحة المستعمرين استطاع الاستعمار أن يقوي نفسه من جديد في ذلك القطر وان يعيد سلطانه الى سابق عهده .

أما الثورة من أجل التغيير الداخلي فلا تعني مجرد انقلاب عنيف تقوم به عناصر عسكرية ترمي الى تغيير في اشخاص الحاكمين ونوع الحكومات بل هي حركة شاملة وجماهيرية لها فلسفتها وأهدافها البينة ، ترمي الى تغيير جذري في فلسفة الحكم وطرق العيش واساليب الحياة ، فاذا اقتصرت على مجرد تغيير الاشخاص وعلى الاهتمام بالنواحي السياسية فحسب كانت انقلاباً وليست ثورة .

وحين لا يجدي الاصلاح الجزئي في بلد من البلدان ولا تؤمن وسائل الحكم المتبعة فيه تحقيق اهداف المجموع ، نجد أنه لا بدّ من

الثورة . الا ان هذا لا يعني بشكل من الاشكال تحطيم كافة الاسس التي يقوم عليها المجتمع ، لأن الثورة لا تعني الفوضى بل هي ليست منها في شيء ولكنها ايضاً لا تقبل الجمود ، لأن الجمود الذي يصيب الثورات غالباً ما يودي بالاهداف الكبرى التي قامت من أجلها الثورة وقد يحرفها الى تسلط الفرد أو الجماعة أو يقولبها في قالب جامد محدد يقضي عليها .

والثورة حادث لا بدّ منه في كثير من الاحايين لتغيير الاوضاع الفاسدة في المجتمع ، الا ان استمرارها واعني هنا الثورية ضرورة حتمية لبلوغ الثورة غاياتها وضمانة لاستمرار الثورة ، علماً بأنه يجب علينا ان نميز بين مفهوم الثورة الذي يتضمن معنى التغيير السريع في الاوضاع الاجتماعية وبين التطور الذي هو سنة المجتمعات فيما يتعلق بالتبدل البطيء لكل مؤسساتها .

وبما ان مجتمعنا العربي قد اصيب بالجمود خلال اربعة قرون طويلة رزح فيها تحت نير الاستعمار العثماني الذي جمدّ الفكر وقضى على الحرية ونشر الظلم والطغيان وكذلك الاستعمار الغربي الذي ادى الى تمزيق الوطن العربي الى دويلات لذلك كان لا بدّ لهذا المجتمع من قبول مبدأ الثورة لكونه ضرورة اساسية للحاق بركب المجتمع الانساني المتطور ومن هنا كان الاخذ بمبدأ الثورة أمر حتمي تقتضيه طبيعة الظروف والاوضاع .

ولاستمرار الثورة لا بدّ من وجود طلائع ثورية متجددة مفتوحة على الاهداف ساعية لتحقيقها ، مؤمنة بالنقد الذاتي في سبيل الاصلاح ، غير راضية عن أي وضع ولو سمي ثورياً لا يبلغ تحقيق الاهداف بصورة كاملة وصحيحة ، علماً انه ليس هناك ابداً من ثبات للاهداف ، لأن اهداف مجتمع من المجتمعات انما هي اهداف مرحلية تحتاج الى التغيير عند بلوغها

وهذا ما تعنيه كلمة الثورية أو الاستمرار بالثورة من أجل الاصلح والا كان معنى ذلك الجمود والتراجع وقضاء الثورة على نفسها بنفسها .

ب ـ الحياد :

في العالم اليوم معسكران كبيران تتزعم كلاً منها دول عظمى وهما المعسكر الغربي الذي تقف في طليعتــــه الولايات المتحدة وانكلترا وفرنسا ، والمعسكر الشرقي الذي يتصدره الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية(١)،ويضم المعسكر الغربي دول حلف الاطلسي وحلف جنوبي وشرقي آسيا وحلف المعاهدة المركزية (حلف بغداد سابقاً) وتخضع لنفوذه أكثر دول امريكا اللاتينية وسائر الدول الخاضعة لنفوذ الغربيين الكبار ، ويضم المعسكر الشرقي دول اوروبا الشرقية التي يضمها حلف وارسو وكوريا وفيتنام الشماليتين ، أما دول حلف البلقان فالمفروض أن تكون ضمن المعسكر الغربي ولكن تركيا واليونان من بين دول هذا الحلف ظلت غربية بينما اعتبرت يوغسلافيا نفسها محايدة .

وتعتبر الدولة منضمة الى أحد المعسكرين اذا دخلت في حلف تابع له أو سارت في سياستها الدولية وفق آرائه واعتبرت نفسها مرتبطة به وآمنت بأن المعسكر الآخر خطر عليها وعدو لها .

وقد لاحظ بعض المفكرين بعد الحرب العالمية الثانية تكون هذين المعسكرين وادركوا انهما لا يباليان بشيء كما يباليان بمصالحهما الخاصة ، ونظروا الى المعسكر الغربي فوجدوه مؤلفاً من دول استعماريـــة بل هي اعرق الناس في استعباد الشعوب وادركوا ان هذه الدول الاستعمارية الكبرى ستستخدم المعسكر الغربي لكبح حركات الشعوب التحررية ولن

(١) لقد قسمنا العالم الى معسكرين كبيرين متطاحنين دون ان نغفل الخلاف الواقع بين فرنسا والولايات المتحدة وكذلك الخلاف العقائدي بين الاتحاد السوفياتي والصين .

تكون الاحلاف الغربية الا مستودعاً للاسلحة كتلك الاسلحة استخدمتها فرنسا في الجزائر كما ارادت وانكلترا في عُمان وروديسيا ، كما ان الاحلاف الغربية اعطت للمستعمرين قوة عسكرية وسياسية ومالية كبرى استعملتها في عرقلة تقدم الشعوب المتطلعة الى حريتها ، وثبتت اقـــدام المستعمرين في الدول التابعة لها ، كالعراق مثلاً ايام حلـف بغداد وتركيـا وايران وباكستان اليوم ، وليس من المعقول ان تنفق الولايات المتحدة وفرنسـا وانكلـترا الاموال على المعسكر الغربي لوجـه الله ومن غير ان تستهدف تأمين مصالحهـا الاستعمارية ، وقد حاول هذا المعسكر ان يغرر بالشعوب فيخضعها له باسم مكافحة الشيوعية وانذر الناس اذا لم يصبحوا غربيـين بشر مستطير هو الخطر الاحمر مع أن الغرب يحارب الحركات التحررية تحت اسم مـكافحة الشيوعية ، وهل كان الشعب العربي في الجزائر شيوعياً حتى استنفرت عليه قوات حلف الاطلسي ؟ وهـل شعب عُمـان شيوعي أيضاً ؟ وهل كنا شيوعيين حين إرتكب الغربيون قواد حلف الاطلسي عدوانهم على مصر أثر تأميم قناة السويس ؟ وقد سهل على الغربيـــين ان يتهموا الحركات الوطنية بالشيوعية ليتخذوا من هذه التهمـــة ذريعة للبطش بالشعب كما حدث في الكونغو وكوبا حتى كادوا يرفعون اسهم الشيوعيـة في أعين الناس واوشكوا ان يقرنوا اسمها بقضايا الحرية الكبرى فأفادوها بدلاً من ان يضروها ، واذا اتينا فناقشنا حصيلة الاحلاف وما تستفيـد منها الدول الصغرى او الناشئة وجدنا أن الحلف يوجـــه اقتصاد الدولة وسياستها لمصلحة الاقطاب الغربيين ويقدم لها بعض المساعدات المالية ولكنه يأخذ باليسار اضعاف ما يعطيه باليمين وهـذه تركيا استنفذت مواردهـا لانشاء جيش يستخدمه الغربيون عند الطلب وما زالت اقتصادياتها تتعثر ونقدها في انخفاض مستمر وهذه ايران ظلت على تأخرها ولم يقدم لها الحلف الذي انتسبت اليه الا مزيداً من النفوذ الاستعماري ومزيداً من التخلـف والبقاء

على الانظمة البالية في الحكم والاقتصاد ، وهي اليوم سوق مفتوح للبضائع عاجزة عن التقدم ويستخدمها الاستعمار في سبيل مصالحه .

وأما المعسكر الشرقي فيستفيد من صراع الشعوب مع الغربيين ليظهر بمظاهر المدافع عن الحرية والاستقلال ولكنه في الحقيقة يضع مصالح دولتيه الكبيرتين فوق كل اعتبار ، ويوجه الشيوعيين المنبثين في سائر انحاء العالم لخدمة اغراضه وآرائه ، وعلى الرغم من حل الكومنفورم ، فان لاحزاب الشيوعية وخاصة في الدول الضعيفة ما زالت مرتبطة بالاتحاد السوفياتي عملياً ، وكثيراً ما انشغل الشيوعيون بتمجيد الاتحاد السوفياتي اكثر من انشغالهم بتمجيد امتهم ورفعة شأنها ، وكثيراً ما يتعاون هذا المعسكر مع عدوه المعسكر الغربي ضد اماني الشعوب ، فقد اتفق المعسكران على الاعتراف بدولة الصهيونيين في فلسطين ، كما أن أثر المعسكر الشرقي لا يقل عن اثر المعسكر الغربي في بقاء المانيا مقسمة حتى اليوم وكذلك كوريا ، وحين تخرج احدى الدول التابعة له على طاعته يقسو عليها كما يقسو الغربيون على الشعوب الثائرة ضدهم ، وليست أيام المجر ببعيدة ولا نناقش هنا الاسباب التي أدت الى ثورة المجر ودور الغربيين في حوادثها بل نهتم بلفت النظر الى أن السوفييت استعملوا وسائل عنيفة لايقاف الثورة وادخلوا جيوشهم وهي اجنبية بالنسبة الى المجر الى داخل البلاد المجرية وساعدوا على قمع الثورة فيها ، وحين آثرت يوغسلافيا ان تتحرر من قيود المعسكر الشرقي صب عليها هذا المعسكر جام غضبه وكاد أن يطيح بها .

ورأى المفكرون الاحرار الا مصلحة لبلادهم في التزام احد المعسكرين بل من الافضل ان يلتزموا مصلحة بلادهم ويسيروا بها وفق نهج مستقل ويساهموا في خدمة المصلحة الانسانية المشتركة ودعم الحركات

التحررية في العالم اجمع ، وقد يتفقون في احد المواقف مع المعسكر الغربي، وقد يتفقون في مواقف أخرى مع المعسكر الشرقي ، وقد لا يتفقون مع المعسكرين جميعاً في موقف ثالث وبذلك نشأت نظرية الحياد الايجابي التي تميز نفسها عن الحياد السلبي المعروف عن سويسرا ، فالحياد السلبي يعني ابتعاد الدولة عن الخوض في المشكلات العالمية وتخفيف مساهمتها في الشؤون الدولية الى أدنى حد ممكن لكي لا تتعرض لغضب حكومة من الحكومات ، أما الحياد الايجابي فقوامه سياسة مستقلة تنبع من صميم الشعب وتساهم في الشؤون الدولية لخدمة المثل العليا ولدعم اماني الشعوب وتقول كلمة الحق ولو اغضبت احد المعسكرين أو اغاظت الدول الكبرى بأجمعها ، وقد انتشرت فكرة الحياد الايجابي وعقدت لها المؤتمرات واصبحت الدول الحيادية أو غير المنحازة كما تسمى احياناً قوة دولية كبرى .

والحياد الايجابي في بلادنا هو الفكرة السائدة الا ان له خصوماً ، منهم من يريد ان تنضم البلاد العربية الى المعسكر الغربي ومنهم من يؤثر لها المعسكر الشرقي ، ومناهضوا الحياد عموماً يرون الا فائدة منه وخير للامة ان تحدد موقفها صراحة بين القوتين الدوليتين المتصارعتين لأن نصر احدى هاتين القوتين سيؤدي الى ظفر الأمة بما تريد .

ويرى انصار الانحياز الى الغرب ان بلادنا واقعة في المنطقة الغربية يفصلها عن المعسكر الشرقي حاجز كبير مؤلف من ايران وتركيا من ناحية والهند من ناحية ثانية ، ونحن في متناول يد الغربيين كلما ارادوا فالبحر الابيض المتوسط ملعب لاساطيلهم وارضنا ممر لتجارتهم وخير لنا ان نشعرهم بانضمامنا اليهم فيغدو ظفرنا بمطاليبنا منهم اسهل اذ يطمئنون الى عدائنا للشيوعية والمعسكر الشرقي ، ويقول انصار هذا الرأي اننا

اذا لم نكن شيوعيين فنحن اقرب الى الغربيين في نظمنا ، فالغربيون يقدرون اديانهم وقومياتهم ، ونحن نقدر الدين وننطلق من القومية على حين ان الشيوعيين ينطلقون من صراع الطبقات فاذا صدفنا عن آراء الشيوعيين لا بد لنا من أن نكون قريبين من الغرب فلماذا لا نتحالف معه ، وقد يتحمس بعض انصار هذا الرأي فيرون في ابتعادنا عن الغربيين جريمة نكراء لأن العالم أخذ يدافع عن المثل العليا ضد الشيوعية الهدامة ، وجدير بنا ان نساهم جدياً في هذا الكفاح ، ثم يدغدون الاماني العربية فيعلنون ان الغربيين يتجهون من تلقاء أنفسهم الى ترك الاستعمار ونبذه وتلقي الافكار الحرة في بلادهم اشياعاً متزايدين في كل يوم وان هي الا سنوات حتى تنتهي مطامع الاستعماريين وتدحرهم شعوبهم ذاتها فننال مطالبنا ، ويتخوف انصار الانحياز الغربي من الحياد فيعتبرونه جسراً مؤدياً لانحياز جديد مع المعسكر الشرقي .

وهنالك فئة تنادي بالانحياز الى المعسكر الشرقي ، وتقول هذه الفئة بأن ثاراتنا كلها لن نأخذها الا من المعسكر الغربي فهو الذي استعمر بلادنا وهو الذي نخوض المعارك الدموية ضده في عمان والجنوب العربي الى اليوم وهو الذي اتى باليهود وحماهم وناصرهم ولم يزل يناصرهم حتى الآن وهو الذي يمارس في هذه الايام نفوذه وضغطه علينا ، اذا ذكرنا الجيوش المحتلة لبلادنا فهي جيوش غربية واذا ذكرنا الشركات الاستعمارية وجدناها شركات غربية واذا فحصنا وثائق المؤامرات الفيناها مؤامرات غربية ، فالغرب هو عدونا الذي كلفتنا امتنا بمناهضته لتحصل على حريتها ووحدتها والمعسكر الشرقي عدو الغرب فيجب ان نلتقي معه لأننا عدوان لطرف واحد ، ولم يسجل المعسكر الشرقي الى اليوم أي عدوان علينا وهو لا يحتل قطعة من أرضنا واذا كان قد اعترف بدولة

الصهيونيين في فلسطين فهو على الاقل لم يساعدها كما ساعدها الغرب ، بل ان هذا المعسكر ناصرنا في كثير من قضايانا ونحن لم نقدم اية شكوى ضده ، بل شكوانا من الغربيين وحدهم ، وقد ايدنا حينما استطاع فناصر استقلال سورية ولبنان حين عرض قضيتهما على مجلس الامن واحرج الغربيين حتى رضوا بذلك ووقف الى جانبنا يوم قطع عنا الغربيون السلاح فباعنا اياه ، وحين حاصر الغربيون بعض الاقطار العربية اقتصادياً مد يده اليها وحين اعتدى الغربيون على مصر عام ١٩٥٦ وقف الى جانب العرب وكان لموقفه اثر حاسم ، وقد اعترف رأساً بحكومة الجزائر المؤقتة حين اعلانها ، مع ان الدول الغربية الكبرى بل والصغرى لم تعترف بها ، فلماذا لا نلتزم طريقه في السياسة الخارجية ، ولا خوف علينا من الشيوعية اذا حافظنا على استقلالنا وعرفنا كيف نبعد نفوذه عن امورنا الداخلية ، وكما ان للغربيين انصاراً يتصورون النظام الامثل في بلادنا على شكل غربي فللشرقيين انصارهم الذين يرون ان خير نظام لنا هو النظام السائد في المعسكر الشرقي وبقية الانظمة المخالفة له ليست الا رجعية رأسمالية ، وما دمنا نطمح الى التشبه به فلماذا لا نتعاون معه .

ويرى انصار المعسكر الشرقي ان الحياد الايجابي ان هو الا تبعية للغرب بشكل مقنع ومن يراجع اسماء الدول التي اشتركت في مؤتمر عدم الانحياز المنعقد في يوغسلافيا خلال صيف عام ١٩٦١ يجد من بينها عدداً لا بأس به يميل الى الغرب في سياسته الفعلية ، فقد شهدته مثلاً الحكومة التونسية وهي معروفة بالتزامها الرصيف الغربي ، ويوغل الشرقيون في اتهام المحايدين حتى لا يبرئون واحداً منهم من التبعية للغرب بل يرونهم رصيداً غربياً متستراً يظهر اثره عند الحاجة .

ونحن نرى ان الحياد الايجابي هو السبيل الملائم لنا في السياسة

الدولية وبه نستطيع ان نطرد النفوذ الاجنبي من غير أن نأتي بنفوذ اجنبي جديد ، وقد عانينا من وعود الآخرين ما كفانا ، فحين انتصر الحلفاء الغربيون في الحرب العالمية الاولى لم يجدوا وسيلة لمكافئتنا على مساعدتهم والالتزام بهم الا اقتسام بلادنا واستعمارها ، وقد استغلونا خلال الحرب العالمية الثانية ولم يعطونا بعض حقوقنا الا بعد ثورات داميات ، والحيادي في المعترك الدولي متحرر يستطيع ان يناصر الحق انى وجده ويهاجم الباطل حيثما ثقفه ، ومتى اشتركت دول ضعيفة ناشئة مع دول كبرى في اي التزام سارت الامور لمصلحة الدول الكبرى ، ونحن أقرب الى تلك الامم الافريقية والاسيوية التي تعاني مما نعانيه وتشكو نفس شكوانا فنستطيع ان نمد يدنا اليها ونتعاون معها متخلصين من نفوذ مصالح الكبار وخاصة ان آمالنا لا يفهمها كلاً من المعسكرين القويين فالأمة هي التي تفهم نفسها وانها تجرم في حق ذاتها حين تسلم زمامها الى ايد اجنبية عنها بشكل مباشر أو غير مباشر ، على اننا نرغب في الحياد الحقيقي الصادق لا الحياد الذي يضمر وراءه انحيازاً ونعترف ان بعض الدول التي تدعي الحياد ليست في الحقيقة الا تابعة لأحد المعسكرين ومنفذة لخططه .

ثانياً ـ الوحدة :

الوحدة اساسية بالنسبة للقوميات واصبح التفكير القومي لا يؤمن بأن الأمة نالت ما تريد او وصلت الى ابسط حقوقها الا اذا توحدت في دولة حرة ، وقد كان الوطن العربي موحداً خلال العهد الاموي والفترة الاولى من العهد العباسي كما انه عاد الى الوحدة تقريباً في الامبراطورية العثمانية التي انضوت تحت لوائها سائر الاقطار العربية عدا المغرب العربي واليمن في بعض الاحيان ومن الطريف ما يروي التاريخ من أن الجزائريين

بمجرد أن سمعوا بدخول سورية ومصر في الامبراطورية العثمانيـــة اعلنوا انضمامهم اليها ايضاً وكذلك ارسل شريف مكة مفاتيـح الحرمين للسلطان العثماني مما يدل على شعور العرب بوحدة مصيرهم وان كان الزمن الذي جرت فيه هذه الحادثة لا يمنع من دخول القوميات في الامبراطوريات ، وقد بدأت تجزئة الوطن العربي الجديد في القرن التاسع عشر حينما عزلت انكلترا مستعمرة عدن والمحميات على الخليـج وفي الجنـــوب العربيين ثم احتلت مصر واقتطعت فرنسا الجزائر وتونس واضافت اليها المغرب العربي في القرن العشرين كما أن ايطاليا بدأت بغزو ليبيا قبل الحرب العالمية الاولى ولم يبذل العثمانيون جهداً للدفاع عنها كما لم يبذلوا في الحقيقة اي جهـــد للدفاع عن مصر والجزائر بل تآمروا مع الانكليز والفرنسيين الغزاة ضد الشعب العربي المدافـع عن حريته وهم معرفون بتخليهم عن العـرب على كل حال ، فقد امتنعوا عن مساعدة عرب الاندلس حين استنجدوا بهـم يوم ان كانت جيوش الترك تقرع أبواب فينا ، وبعد الحرب العالمية الاولى زادت التجزئة فنشأت دولة في سورية وأخرى في لبنان تحت الانتداب الفرنسي وظهرت حكومة فلسطين ودولة الاردن ودولة العراق تحت النفوذ الانكليزي وبعد معارك عديدة اصبحت الحجاز ونجد والعسير والاحساء دولة جديدة يحكمها السعوديون .

ويكاد أمل الوحدة يحتل اكبر حيز من اهـتمام الشعب العـربي اليوم ، فهو يتألم حين يرى نفسه ممزقاً بين دول عـديدة مصطنعة ويشعر بأن اسباب القوة والتقدم لا تكتمل له الا اذا توحـد رسميـاً الى جانب توحده الطبيعي ، والحق ان التجزئة حرمت العرب من الظهـور كقوة دولية حتى اليوم واضاعت طاقاتهم ولو أن القوى العربيـــة انصهرت في دولة واحدة لأصبـح اقتصادهـا متيناً تنصب فيه كل مواردهـــا وتتسق

ولأزدهرت زراعتها وصناعتها وتجارتها ولامتلكت جيشاً هائلاً تخيف به المستعمرين وترجع على يده فلسطين وبقية الاجزاء السليبة ، ان القوى العربية تعبث بها التجزئة وتشتتها وتمنعها من التركز وتضيعها في دوامات التفاهات والسفاسف .

والناس على مذاهب في أمر الوحدة العربية طريقاً واسلوباً ، بعضهم لا يرى مانعاً من أن تقوم الوحدة ولو تحت النفوذ الاجنبي وتمثل مشاريع سورية الكبرى والهلال الخصيب هذا الاتجاه ، وانصار هـذه الفكرة يؤكدون ان العرب اذا كانوا تحت نير الاستعمار وهم متحدون خير لهم من أن يكونوا تحت نيره وهم مجزؤون فالاتحاد هو الذي يعطي القوة ويساعد على طرد المستعمرين وقد يندفع اتباع هذا الاتجاه فلا يرون مانعاً من ان تنضم دولة مستقلة كسورية الى دولة أقل استقلالاً كالعراق أيام التاج الهاشمي وحجتهم ان ما تهيئه الوحدة من سبل القوة والخير اثمن من استقلال رسمي تعبث به المؤامرات الاستعمارية في كل يوم ، وقد كانت الحكومة الملكية في مصر تنادي بضم السودان اليها رغم وجودهما تحت النفوذ الانكليزي .

ويبدو ان انصار هذه الفكرة في تناقص مستمر فالناس لا يرضون بأن توضع الاقطار العربية المتحررة تحت نير الاستعمار مرة أخرى باسم الوحدة وهم مقتنعون بأن الوحدة اذا كان من ورائها أي نفوذ استعماري فستتجه الى خدمة المصالح الاستعمارية وحين يشعر المستعمرون بأنها توشك على الافلات منهم والتحرر من قبضتهم فانهم يلجأون الى حلها بمؤامراتهم ويعود العرب من جديد الى نقطة البدء ، ولأمر ما نرى المستعمرين يعلنون عن مشاريع الوحدة تحت نفوذهم وعن طريق اتباعهم ، فلولا تأكدهم من

هيمنتهم على هذه الاتحادات وقدرتهم على فصلها متى أرادوا لما شجموها .
وبعض العرب يرون ان الوحدة اذا لم يكن وراءها نفوذ استعماري صريح لا مانع من ان تقوم على اي يد ولا فرق عندهم بين أن يتزعمها ملك سعودي او هاشمي او رئيس للجمهورية عسكري أو مدني ، فالمهم في نظرهم هي الوحدة وما دمنا عرباً مع بعضنا فلنقبل من اجل وحدتنا بعض نظم الحكم التي نرفضها نظرياً ثم نحاول ضمن الوحدة ان نصحح الاخطاء ونغير الدساتير فنكون بذلك متمشين مع السنن الطبيعية التي جرت عليها الامم السابقة ، ففرنسا اتحدت ثم غيرت نظامها الملكي الى نظام جمهوري والمانيا اتحدت ثم اخذت تجرب انظمة للحكم كما تشاء ، وكذلك انكلترا اتحدت ثم اصبحت جمهورية ثم عادت ملكية ، وفي نظر هؤلاء أن هذه الايام ليست ايام الخلاف على الشرائع والدساتير وانما ايام الوحدة والعمل من أجلها وبعد الوحدة نستطيع ان ندعو الى ما نريد .

وآخرون يرون ان الوحدة اذا لم تقم على انظمة تقدمية تلائم العصر الحديث والوعي الذي وصلت اليه الجماهير العربية فانها ستكون عرضة للخلافات والفتن وقد تلجأ الطبقة الرجعية والعائلة المالكة الى التعاون مع الاستعمار مرة أخرى حين تجد الشعب في الدولة الموحدة موشك على تصفيتها وتغيير نظام الحكم في دولته ، وليس من المعقول أن نضحي بتقدم وصلت اليه بعض الاقطار وغدا كسباً للعرب جميعهم باسم الوحدة فان هذا يجعل كل تقدمنا هباء ويلقي الى العدم بكل تلك المجهودات والتضحيات التي بذلتها الاقطار المختلفة للوصول الى الديموقراطية والعدالة الاجتماعية والتفكير العلمي ، ثم يضيفون الى ذلك ان الرجعيين والعائلات المالكة لا يرغبون في الوحدة ، فلماذا نضيع وقتنا في نقاش امرهم وتصديق اشاعاتهم ، فهم يخشون على مصالحهم اذا تجمعت قوة الشعب العربي

تحت أي حكم كان ، ومتى اعلنوا عن مشروع وحدوي فهم اما ان يقصدوا به دغدغة آمال الشعب ومماطلته واما ان يكون وراءهم نفوذ اجنبي يريد ان نتحد تحت لوائه ومن أجل مصلحته ليفصلنا متى اراد ما دامت السيطرة بيده ورؤوس الدولة تحت تصرفه .

وثمة خلافات بين القائلين بالتدرج نحو الوحدة من غير طفرة ، وبين المنادين بالوحدة التامة المباشرة ، أما انصار التدرج فيلاحظون ان الاقطار العربية قد اكتسبت خلال تطورها المجزأ بعض الصفات الجزئية الخاصة بكل منها ولم يعد في الامكان ان تتوحد هذه الاقطار مباشرة لأن مصالح قطرية عديدة قد نشأت واعتاد ابناء كل قطر على التعاون مع بعضهم اكثر من التعاون مع الاقطار العربية الباقية ويخشى اذا انقلب العرب من التجزئة الواسعة رأساً الى الوحدة الصارمة أن تثور بين صفوفهم النزعات الاقليمية وتقوى المصالح القطرية بدلاً من أن تضعف ويسود الحذر بين ابناء كل اقليم تجاه ابناء الاقاليم الاخرى ، وقد يصبح الشعب مرتعاً للاشاعات والمبالغات فيصدق السوريون ان العراقيين يكسبون على حسابهم ويصدق العراقيون ان المصريين يعملون لمصلحتهم الضيقة وحسب وبدلاً من ان تسود المحبة ويعم الوفاق تنتشر البغضاء ويصبح الجو مرتعاً خصباً للمؤامرات ، ولذلك يصر اصحاب هذا الرأي على ان نسير نحو الوحدة خطوة فخطوة ويعتبرون الجامعة العربية أول مرحلة في طريق الوحدة ، فهذه الجامعة ابقت لكل دولة استقلالها وكيانها الخاص وجعلت قراراتها غير ملزمة الا للدولة التي توافق عليها ، كما ان لجانها العسكرية والاقتصادية والثقافية ادت الى معاهدة التضامن العسكري والى مشاريع الوحدة الثقافية والاقتصادية ، ويقترحون ان نتجه الى الوحدة من تطوير الجامعة العربية فتتقدم مثلاً خطوة الى الامام بأن نجعل قراراتها ملزمة

لسائر الدول العربية من غير أن تمس استقلالها ثم ننشىء جيشاً عربياً مشتركاً يقف الى جانب الجيوش القطرية الخاصة ويمكن أن تعقد معاهدة وحدة جمركية ثم اقتصادية بين دول الجامعة العربية كما نستطيع عن طريق الجامعة ان نصل الى الوحدة الثقافية ، ومتى ترابط العرب عسكرياً واقتصادياً وثقافياً امكن التقدم خطوة اخرى فينشأ اتحاد طوعي بين الدول العربية يشترك فيه العرب على قدم المساواة في بحث مسائل السياسة الخارجية والاقتصادية والعسكرية العامة ثم يتطور هذا الارتباط فتتخلى كل دولة عن كيانها الخاص لتندمج الاقطار العربية في دولة اتحادية واحدة تحكم كل مقاطعة منها ذاتها وتدير شؤونها الداخلية كما تريد ، وهكذا نتقدم الى الوحدة بهدوء ووعي ولا نقع في النكسات .

ويستخف انصار الوحدة التامة المباشرة بهذه الآراء والبراهين ويؤكدون أننا لو سرنا على الطريق التدريجي لما وصلنا الى الوحدة أبداً أو لكي لا نكون متعسفين قد نصل اليها بعد مئات السنين ، وهذه الجامعة العربية لم تستطع رغم ان عمرها لم يعد بالقصير ان تتقدم نحو الوحدة تقدماً جدياً ، فالاقتصاد العربي ما زال مجزءاً كنظم الدراسة العربية والمؤسسات الثقافية العربية وقد فشلت تجمعات الجيوش العربية أثناء معركة فلسطين لأن حكام كل قطر كانوا يتصرفون بجيشهم كما يريدون ، وأما ما تم بين بعض الاقطار العربية من معاهدات ثقافية واقتصادية واتفاقات عسكرية جدية فلم يقم باشراف الجامعة العربية وانما تم عن طريق الالقاء المباشر بين بعض الاقطار ، وهم يعتقدون ان الطريق التدريجي يعتمد على الحكومات ، والقطر قد تكون فيه اليوم حكومة صالحة وقد تمسك بزمامه بعد حين حكومة فاسدة فتبقى قضية الوحدة العربية بين مد وجزر ولا تكاد تتقدم الى الأمام خطوة حتى ترجع الى الوراء خطوات ،

وخير سبيل للوحدة العربية ان يهب الشعب العربي هبة الرجل الواحد فيضغط على الحكومات لتعلن انضمامها في دولة واحدة ثم يسير التطور على أساس الوحدة لأن كل سنة تمضي علينا ونحن مجزأون تمد في عمر التجزئة سنوات، فالتطور القائم على التجزئة يساعد على بقاء التجزئة ويدعمها .

وقد يذهب بعض أنصار هذا الرأي الى أن خير سبيل للوحدة العربية هو أن تتبنى قضيتها دولة عربية تمتلك قدراً لا بأس به من الامكانيات البشرية والاقتصادية فتستقطب لها انصاراً في كل قطر كما فعلت بروسيا وبيدمونت أثناء الوحدة الالمانية والايطالية ، وقد تزحف هذه الدولة تارة عن طريق المعاهدات وطوراً عن طريق الاستفتاءات مرة بالتحالف مع الحكومات وآناً بالاتفاق مع الشعب مباشرة ولو لم ترض الحكومات وحين تستدعي الظروف استخدام القوة العسكرية ويلائم الجو الدولي لذلك فلا مانع من أن تستخدمها هذه الدولة الطليعة في سبيل هدف العرب الأسمى ، وقد سمعنا بعض المهتمين بالامور القومية يرشحون سورية لقيادة العرب نحو الوحدة وبعضهم الآخر يرشحون العراق ويزكونها للقيادة وفئة ثالثة ترشح مصر على اعتبارها أكثر الدول العربية سكاناً وامكانيات وآخرون يعقدون الآمال على الثورة الجزائرية ويرجون أن تكمل طريقها بعد ان حررت الجزائر لتوحيد العرب أجمعين ...

وتتوسط فئة بين الداعين الى الوحدة المباشرة وبين الداعين الى الوحدة التدريجية فترى ان يقدم العرب بسرعة على اعلان دولة اتحادية لا مركزية ترمي التجزئة ظهرياً لأنها قضت على دول العديدة ، وتساير مصالح كل قطر وميزاته الفرعية بأن تترك لابنائه حكم انفسهم فيما يتعلق بالامور الداخلية لأن الوطن العربي الواسع لا يلائمه اسلوب الدولة المركزية

بل يستدعي حكم كل منطقة بشكل لا مركزي ، وهم يرون ان هذا العصر عصر الشعوب ويجب ان يتحرك الشعب فتظهر في كل قطر منظمات تدعو الى الوحدة العربية بالحاح وتلتقي هذه المنظمات الشعبية فتؤلف قوة ذات وزن تستطيع أن تمارس الضغط على الحكومات لكي تتجه جدياً الى الوحدة وهم لا يفرقون بين قطر وقطر ولا يرون من الضروري ان يتزعم أحد الاقاليم العربية دون غيره حركة الوحدة بل يجب ان يلتقي القوميون العرب على اختلاف اقطارهم ، وتقاس الهيئات والافراد بمقدار الاخلاص والانتاج والبذل دون النظر الى الاقطار لانها شيء مصطنع ، وربما فكر بعضهم في العمل للوحدة العربية على اسلوب التكتلات الفرعية التي تذيب بعض الاقطار وتخفف من عدد الدول في سبيل الوصول الى الدولة الواحدة وهم لذلك يؤيدون قيام أي اتحاد بين قطرين عربيين اذا كان متخلصاً من النفوذ الاجنبي ، وقد تخطط بعض الرؤوس مستقبل العرب فتقول باتحاد بين سورية ولبنان والعراق والاردن ، واتحاد ثان بين دول الجزيرة العربية واتحاد ثالث بين الدول العربية الافريقية ثم تتقارب هذه الاتحادات الثلاث وتتعاون في سبيل الوصول الى الوحدة العربية الشاملة .

ولعل القارىء يلاحظ كثرة التيارات التي تتجاذب العرب حول قضية وحدتهم وليس هذا بعجيب فان الاستعمار يخشى الوحدة العربية ويرتجف من قيام دولة عربية كبرى تتوسط القارات ، فهو يسعى دائماً الى تشكيك العرب في وحدتهم عن طريق بلبلة افكارهم حولها وطرح المشاريع الملائمة له وضرب المشاريع القائمة على الاخلاص للقضية العربية . ونحن نعتقد ان الوحدة يجب ان تقوم بين عرب متحررين من الاستعمار والا مانع من قيام الوحدات المتحررة بين أي قطرين عربيين أو أكثر ، وان أول خطوة جدية في سبيل الوحدة حسب اعتقادنا هو ظهور منظمات

شعبية ثورية تنتشر في سائر الاقطار العربية لا تعمل الا على أساس الوطن العربي ولا تفكر إلا انطلاقاً من مصلحة الامة العربية ، تعتبر المصالح القطرية جزءاً من المصلحة القومية العامة وحسب ، أي لا تضيع في زحمة المصالح الاقليمية الضيقة ، ومتى سمعنا ان الجميات والاحزاب والشركات أصبحت تعمل وتتفرع كلاً منها في الوطن العربي كله ولا تقتصر على اقليم بالذات ، متى سمعنا بذلك فلنتفاءل بالخير فان ساعة الوحدة تكون قد دقت .

وختاماً لما تقدم وعلى الرغم من الجدل الدائر حول شكل الوحدة ، وشعور العرب أنهم أمة واحدة ، وأنهم أصحاب حق في ان تضمهم دولة ، الا أنَّ الشعور الاقليمي الذي كان سبباً في نكسة الانفصال بين القطرين السوري والمصري هذا الشعور الذي يشجعه الاستعمار وما يزال يفعل ، ما يزال يقف في وجه اية وحدة كانت ، تماماً كما تقف بوجهها القوى الاستعمارية السافرة والمصالح الفردية والعرشية والطبقية .

ويمكننا ان نجزم وبكل اسف ، ان ما يتطلبه العرب في كافة اقطارهم هو اكبر بكثير مما يحصلون عليه ، وان الجهود المبذولة في سبيل وحدة أمتهم هي أقل بكثير من الامكانات المتوفرة كما أن الشوط المقطوع في سبيل الوحدة حتى الآن هو شوط تافه وقصير .

ولقد اثار هذا الوضع دهش كثير من المفكرين الاجانب ناهيك بالمفكرين العرب الذين يتحرقون لتحقيق وحدة أمتهم ، واليكم رأي المؤرخ الانكليزي توينبي في وضع العرب الحالي من الوحدة الذي يقول :

على النقيض من الاتجاه القائم اليوم في اوروبا نحو الوحدة ، فان

عرب افريقيـــا واسيا يكونون ظاهرة شاذة بالنسبة لهذا الاتجاه العام ، إذ نراهم مندفعين بتأثير الضغط الخارجي نحو الاقليمية بدلاً من الاندفاع نحو الوحدة ، خاصة بعد أن بلغوا الاستقلال ...

ان تاريخ هذا التفسخ القائم اليوم في البلاد العربية الاسيوية بدأ بعد إنتهاء الحكم العثماني عام ١٩١٨ ، فالحدود القائمة اليوم بين العراق وسوريا ولبنان والاردن لم تقمها الشعوب العربيـــة نفسها ، بل اقامتها بريطـانيا وفرنسا بصورة مصطنعـــة لتصبح متفقة ومصالحهـا هي ، لا تلبية لحاجات سكان المنطقة العرب .

ولكن الغريب ان تقوم الشعوب العربية (١) نفسها اليوم وبعد ان استردت استقلالهـا بالتمسك بهذه الحدود التي خطط لها الاجانب المحتلين بعد عام ١٩١٨ .

لقد كان من البديهي ان يتوقع الانسان من العرب بعـــد نيلهم استقلالهم ان يلغوا هذه الحدود ، ويعيدوا الوحدة التي كانوا يتمتعون بها أثناء الحكم العثماني ، لذا فانه ممـا يثير الدهشة ان هذه الوحدة لم تـتم فحسب بل على العكس فقد نمت ضمن هذه الحدود المصطنعة مصالح محلية مكتسبة اصبحت على درجة من القوة بحيث انها ابقت العالم العربي في اسيا متفسخاً في الوقت الذي كان باستطاعته لو شاء ان يتحد والعالم العربي في افريقيا .

ومما يدهشني انا كمراقب اجنبي نمو وعي اقليمي انفصالي في بحـر فترة قصيرة من الزمن وفي اطار حدود لم يخططها العرب انفسهم بل فرضت عليهم فرضاً . »

---

(١) نحن لا نوافق السيد توينبي على رأيه لان الذي يتمسك بالاستقلال القطري هم الحكام ذوي المصالح لا الشعب العربي الذي يعرف ان مصلحته تكمن في وحدته وحسب .

ثالثاً ـ الاشتراكية أو النظام الاجتماعي العادل(1) :

القومية الواعية لا تعبد الدولة ولا تستهتر بالفرد وتحتقره وإنما تعتبر امجادها في سبيل ابنائها كما يعتبرون هم انفسهم فداء لها ، والحركات القومية السليمة التي برئت من تشويه الطامعين والمستعمرين ترى انها طريق لرفع مستوى الافراد وتهيئة الجو الصالح وإيصالهم الى مستوى انساني لائق سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ، فالقومية اليوم كما تطلب الوحدة والتحرر تنادي أيضاً باحترام الافراد وتحسين أحوالهم والعمل على رفع مستواهم ، وهي ترى ان الذين يمتنعون عن مساعدة مواطنيهم ضد الفقر والجهل والمرض ليسوا قوميين ولو أنهم مخلصون لقوميتهم لما قست قلوبهم ولما تمسكوا بمصالحهم الضيقة وغضوا النظر عن آلام مواطنيهم .

والقومية العربية متجهة الى اعزاز أبنائها وانقاذهم من براثن التخلف ولا تحتمل ان ترى المنتسبين اليها حفاة جياعاً اميين اذلاء ، بل تريد لهم

---

(1) يذكر الاستاذ عبدالرحمن البزاز في كتابه ابحاث في القومية العربية طبع مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٠ ـ ١٩٦١ ، ص ١٧٢ ، ان « الاشتراكية خاصية من خصائص قوميتنا ... بل : ان الاشتراكية هي القومية العربية حين ينظر الى القومية من ناحيتها الاجتماعية » . ونحن لا نقره على ذلك لان القومية فى رأينا ذات معنيين مرتبطين ببعضهما اولهما يدل عليها كوجود وثانيهما كمحتوى ، وقد اختلف هذا المحتوى حسب المكان والزمان وما زال كذلك ، وبالتالي فلا يمكن اقران الوجود بنظام اقتصادي معين قد يكون اليوم شيئاً ليتبدل الى سواه غداً بينما يبقى الوجود وجوداً للامة مهما اختلفت النظم الاقتصادية الاخذة بها . والعودة الى التاريخ توضح ان اليقظات القومية في العالم لم ترتبط بالضرورة بنظام اقتصادي معين ولو أن محتوى القومية العربية في هذه المرحلة بالذات هو محتوى اشتراكي غايته العدالة الاجتماعية .

المجتمع الزاهر السعيد الذي يروي حاجاتهم الاساسية الى الغذاء والعلم والكرامة والصحة الجسمية والعقلية .

ولن نناقش هنا الآراء التي تنكر على القومية هذا المضمون (١) الاجتماعي فقد أصبحت من آثار العصور البائدة وإنما سنبحث النظريات التي تنطلق أو تزعم أنها تنطلق من مصلحة الانسان العربي وتتصور النظام الأمثل له .

آ ـ ففيما يتعلق بالاقتصاد ينقسم العرب اليوم الى اتجاهين كبيرين تدور المجادلات بينهما حول حق الملكية الفردية ، فأولهما يرى بقاء الثروات الكبيرة بيد الافراد ونستطيع ان نسميه بالاتجاه اليميني وثانيهما يرى ان المالك الاول للثروة في المجتمع هو الشعب والدولة التي تمثله ونستطيع ان نسميه بالاتجاه اليساري .

فأما اصحاب الاتجاه اليميني (٢) فيعتقدون بأن الافراد اذا سمح لهم بالوصول الى الثروة التي يريدونها يقدمون على العمل والانتاج ويجتهدون من أجل

---

(١) من هؤلاء الذين ينكرون على القومية ان يكون لها مضمون اجتماعي واقتصادي اللواء أ ـ ح محمد فوزي والاستاذ محمود حافظ في كتابيهما دراسات في القومية العربية (الطبعة الثانية) إذ ينظران الى القومية فقط ضمن اطار سياسي ضيق ، غايته « وضع الحدود الخارجية للوحدة السياسية وتقف عند بناء سور او اطار واحد يضم جميع ابناء الامة في هذه الوحدة » ويقولا «ان الاشتراكية ليست دعامة حتمية للقومية » ... وهذا ولا شك مفهوم ضيق للقومية ساد في القرنين الثامن عشر وأول التاسع عشر .

(٢) ونعني بهم اصحاب المبادىء الفردية او المؤمنين بما يسمى بالمبادهة الفردية ، (كالفيزوقراطين) أو الطبيعيين في الاقتصاد ، ودعاة التجارة الحرة ، ودعاة مبادىء التسبب الذين يعتمدون شعار Laissez faire , Laissez passer

تضخيم ثرواتهم وخلال اجتهادهم يستفيد المجتمع كله ، فصاحب العمل يقدم أكبر خدمة للمجتمع حين يوسع معمله فيزيد من ثروته وفي نفس الوقت يشغل عدداً أكبر من العمال ويضاعف الانتاج القومـي ، ومن أعطـي حرية العمل وتجميع المال يستطيع ان يقلب الارض التي يملكهـا أو يستأجرها الى مزرعة حديثة تدر عليه الارباح الطائلة وتسهم في رفع مستوى الفلاحين وتزيد أجورهم وتقدم للمواطنين وللتصدير كميات ضخمة من المنتوجات النباتية والحيوانية ، وهم يرون أيضاً أن بلادنا لم تصل بعد الى مرحلة التصنيع الثقيل التي تسمح بتغيير الاقتصاد تغييراً جـذرياً من غير ان يتعرض المجتمع للهزات والمتاعب ، ويذكروننا بأن ابنـاء بلادنا قد اعتاد احدهم ان يخدم مصالحه الخاصة ولم نصل الى درجة من الوعي تساعدنا على ادارة المؤسسات والمعامل التي تمتلكها الدولة بحماس وتفان كأنها ملك لكل واحد منا ، فنقل ملكية الثروات الى الشعب والدولة معناه اضاعتها في نظرهم ، ويضيفون الى ذلك ان نهضتنا الاقتصادية اعتمدت حتى اليوم على المبادرة الفردية ، فالافراد هم الذين انشأوا المعامل وادخلوا الصناعة الحديثة الى بلادنا وراحوا يستغنون بها عن الحرف اليدوية ، فتأميم الاقتصاد يعني قتل مواهب الافراد واطفاء المعيتهم واشعارهم بأن وطنهم كافأهم على جهودهم بجزاء سنمار .

واتباع هذا الرأي قد يختلفون فيما بينهم فمنهم من يغالي في تطرفـه اليميني حتى يوافق على بقاء الاقطاع أو الملكية الواسعة للارض وبعضهـم يرى ان الارض يجب ان تكون موزعـة بين ملاكين صغار أي يسمح بالقضاء على الاقطاع بشرط المحافظة على ملكية الثروة الصناعية والنقديـة ويفصل بين موضوع الارض والصناعة ، وبعضهم لا يمانع في أن تأخذ الدولة من الاغنياء الضرائب التصاعدية وآخرون يرون في هذه الضرائب اضعافاً لرأس المال القومي وعرقلة للنهضة الاقتصادية العربية ويؤكدون ان

اصحاب رؤوس الاموال أقدر من الحكومة على التصرف بأموالهم ومن الخير لنا ان نشعرهم بالاطمئنان وان نترك الاموال بين ايديهم ، فيكثرون من المشاريع والشركات ويزيدون في الدخل القومي مما ينعكس اثره عفوياً على العمال والفلاحين ، وهم يؤكدون أن المعامل اذا ازدادت ارتفعت اجور العمال لكثرة الطلب عليهم وتحسنت أحوالهم وأمنت حياتهم ويرون استحالة وجود تأمينات اجتماعية جدية اذا لم تزدهر الثروات بين ايدي الرأسماليين ، ومن الملاحظ ان اليمينين وان اختلفوا بين بعضهم في أيام السعة الا انهم يعودون الى الاتفاق عندما تتهدد مصالحهم المشتركة فيوحدون صفوفهم ضد اليساريين .

وأما فئة اليساريين فترى ان الثروة ملك للشعب كله ساهم في انتاجها جميع المواطنين على حدسواء فالعمل لا يعمل فيه الرأسمالي وحده وانما يبذل العمال الجهود الدائبة لازدهاره وصنع منتجاته والارض لا يفلحها المالك الكبير وانما يتحمل الفلاحون عبء حراثتها وبذرها وحصادها ثم يقاسمهم المالك في غلتها ، وكل رأسمال انما هو نتيجة للعمل ومتى تضخم رأس المال في يد أحد الأفراد كان معنى ذلك انه يستفيد من عمل الآخرين ولو اقتصر الانسان على كده وعمله الخاصين لما جمع ثروة وانما يستطيع جمع الثروة من يشغل عنده عمالاً عديدين فيدفع لهم قسماً من الربح كأجور ويبقى لنفسه قسماً آخر من الربح يكدسه كثروة خاصة به ، فالذي يقيم مصنعاً يشتغل فيه مائة عامل ينتج له مصنعه في اليوم مثلاً بضاعة تقدر بخمسة الاف ليرة ، لنفرض ان ثلاثة منها يجب ان تحسب بدل انهاك الآلات وقيمة المواد الخام ، أما ما يتبقى فهو الفان يدفع اجوراً للعمال المائة الفاً على الاكثر فتبقى له الف ربحاً صافياً ومعنى ذلك في رأي اليساريين أنه لا يعطي العمال كل ما يستحقونه وانما هو يربح على حسابهم ، وربحه فاحش فهو فرد واحد

يحصل ما يعادل اجورهم جميعاً ، ويعتقد اليساريون ان الرأسمالي يضيف ارباحاً الى ارباح فيزيد من رأس ماله على حساب جهود العمال ، ومن العدل ان تذهب هذه الارباح الى العمال انفسهم أو الى الدولة التي تمثلهم بدلاً من ان يحتكرها فرد أو عدد محدود من الافراد ، ومن رأي اليساريين ان نهضتنا الاقتصادية تحتاج الى تركيز في الجهود وتخطيط دقيق لا يمكن توفرهما مع بقاء النظام الرأسمالي ، فقد لا ينفذ اصحاب الثروات المخطط العلمي الذي وضعته الدولة وانما يؤثرون الربح العاجل وقد تتضارب المجهودات الاقتصادية على يدهم وربما تدخلوا في وضع البرامج التخطيطية فحولوها لمصالحهم الضيقة واذا أردنا الاسراع في بناء الاقتصادي واختصار الزمن فعلينا ان نضع رأس المال الاكبر في يد واحدة هي يد الدولة التي تستطيع حينئذٍ ان توجه الى المشاريع الجديدة الملحة الفعالة بدلاً من ان يضيع على وسائل الترف والحاجات الشخصية الكمالية ، ويعتقد اليساريون أن مستوى العمال والفلاحين لن يرتفع طالما بقي النظام الرأسمالي في بلادنا ، فستعمد الرأسمالية دائما الى التقليل من شأن التأمينات الاجتماعية وتخفيض وارداتها والقاء اكثر عبئها على العمال لا على أصحاب الثروات ، كما ان الضرائب التصاعدية لن تفيد كثيراً في نظرهم لان الاثرياء يستطيعون بألف وسيلة ووسيلة ان يتنصلوا منها ، ومن آرائهم ان الرأسمالية في البلاد الاستعمارية قد تستطيع لضخامة ارباحها السماح برفع مستوى العمال ولا تمانع في الضرائب التصاعدية اذا شعرت ان الجو الشعبي يتطلب ذلك ، ولكن الرأسمالية في بلادنا ستبقى ضنينة بالمال على الشعب لانها لا تستعمر بلاداً أخرى ولا تمتص خيراتها ولن تستطيع ذلك في المستقبل فخير حل لبلادنا عدالة وتقدماً هو الاشتراكية ولا مانع من تشجيع الافراد بالمكافآت لكي يندفعوا الى

العمل في المجتمع الاشتراكي .

ثم يختلف اليساريون بين بعضهم ، فمنهم من يرى البدء بالارض وتوزيعها على الفلاحين او تمليكها للدولة التي تؤجرها للفلاحين وابقاء المعامل فترة من الزمن في يد الرأسماليين ريثما يتم وعي الشعب ويربى تربية اشتراكية ، ومنهم من يعتقد بالتدرج فيدعو الى تأميم جزئي يتبعه تأميم كلي ومنهم من يدعو الى التأميم الكلي دفعة واحدة (١) .

ويختلف اليساريون أيضاً حول طريق تحقيق اهدافهم ، فقسم منهم برلماني يؤمن بأن الانتخابات والمجالس النيابية المنبثقة عنها هي المكلفة بتطوير المجتمع ، والشعب يقرر في المعارك الانتخابية الانضمام الى الرأسماليين أو الاشتراكيين ومتى شعر الشعب بضرورة الاشتراكية فانه سينتخب اكثرية منهم تسير به نحو اهدافها ، ومنهم الثوريون الذين يجدون في الانتخابات والمجالس النيابية مضيعة للوقت ويرون ان البرلمانات قد تسن بعض القوانين الاصلاحية ولكنها لا تستطيع قلب النظام الاجتماعي رأساً على عقب فلا بد في نظرهم من الثورة ، وبعد الثورة يمكن ان تجري الانتخابات .

ويختلف اليساريون أيضاً بين شيوعيين يؤمنون بافكار ماركس ولينين ويتبعون الطريق التي سارت عليها دول المعسكر الشرقي وبين

---

(١) يقول الاستاذ ميشيل عفلق « في كتاب دراسات في الاشتراكية العربية عام ١٩٦٠ » « ان الاشتراكية تعني تأميم المرافق العامة والصناعات الحيوية الكبرى ... وتوزيع عادل للارض واشراف الدولة أو وضع يدها على التجارتين الخارجية والداخلية » .

اشتراكيين قوميين[1] ينادون بالعمل على وضع اسس اشتراكية عربية ملائمة لشعبنا وتنبع من حاجاته من غير ان تتقيد بالمذهب الماركسي او سواه[2]،

---

(١) ومن هؤلاء الدكتور الياس فرح إذ يذكر في كتاب « دراسات في الاشتراكية العربية - عام ١٩٦٠ » (ص ٢٠٣) « انه لمن الخطأ ان تنظر الى الاشتراكية العربية من خلال الاشتراكية الاوروبية ... » ثم يعدد الفروق بين الاشتراكيتين ونحن مع اقرارنا بضرورة ما يقول الا اننا نريد ان نؤكد بأننا نؤمن بأن اشتراكيتنا هي اشتراكية انسانية لا تقبل الفصل بين الانسان وبيئته وتاريخه وتحترم الفرد وتعمل لمصلحه المجموع، ومع ذلك فان المبادىء الاساسية التي يمكن استلهامها لوضع اسس اشتراكية عربية هي الاخذ بنظرية طبقت واقعياً، ووضع الحدود الجديدة لها على اساس التطبيق الفعلي في الارض العربية.

(٢) ومن هؤلاء الاستاذ عبدالرحمن البزاز في كتابه « ابحاث في القومية العربية » يقول في الصفحة / ١٧٦ / « واشتراكيتنا لا تعني الاشتراكية العلمية او الشيوعية بمفردها ولا تعني الاشتراكية الديموقراطية التي تؤمن بالماركسية كفكرة وتختلف عنها بالوسيلة ولا تعني مذهب تدخل الدولة او اشتراكية الدولة، او الاشتراكية النقابية او التعاونية... الخ» ثم يقول ونحن حين نرى الاشتراكية الديموقراطية سليمة في جوهرها، لا نلتزم حرفياً بالمدى الذي يقرره حزب العمال البريطاني (وهو حزب اشتراكي) في تفسيره للاشتراكية الديموقراطية، كما لا نتقيد حرفياً بتفسيرات « الفبائيين Fabianism »... انا دون شك، سننتفع من هذه المذاهب كل انتفاع وسنستعين بالاشتراكية النقابية واشتراكية الدولة والاشتراكية القومية والاشتراكية الدينية والاشتراكية التعاونية، بل سننتفع بآراء كثير من الاشتراكيين (الطوبائيين) ... دونما التزام لمذهب واحد على وجه الحصر ودونما جمود على نظرية واحدة على وجه التخصيص » انتهى ...

ونحن لا نقر الاستاذ على رأيه ابداً لان الاشتراكية في رأينا مهما تنوعت صفاتها واختلفت اتجاهاتها لها حدود واحدة واضحة تفرقها عن النظام الرأسمالي، وان دعاة الاشتراكية التلفيقية Eclectic مهما حاولوا فان النظام الذى ينجم عن محاولاتهم لن يكون خيراً من بعض النظم التي اثبتت التجربة والواقع عدم صلاحها، وابرزت احزاباً تدعي الاشتراكية وهي ليست باشتراكية، كحزب العمال البريطاني ... والحزب الاشتراكي الفرنسي بنيتيهما الامبريالية ..

وهذه المحاولات هي في جملتها محاولات لترقيع النظام الرأسمالي الذي اخذ ينهار بسبب تناقضاته المعروفة وليست محاولات لايجاد اشتراكية قومية.

ولن يساعدنا هذا الكتاب على التوسع في بقية خلافات اليساريين ، ومن حسن حظ اليمينين العرب ان الخلافات بين اليساريين كثيرة وقد لا يتفقون ولو انذروا بالخطر المشترك .

وبين اليمين واليسار العربيين يقف اصحاب الحلول الوسط ينادون بالمحافظة على الملكية الفردية مع اقامة اقتصاد موجه تشرف عليه الدولة ويسعون الى المطالبة بالاكثار من الخدمات العامة للشعب كالمدارس والمستشفيات ومؤسسات التأمينات الاجتماعية ويهدفون الى اصلاح نظام الضرائب لكي يتحمل الاغنياء العبء الاكبر من نفقات الدولة ولا يرهق الفقراء ، وقد يوافقون على تحديد الاسعار وتأمين الدولة لبعض الحاجات الضرورية اذا عجز الرأسماليون عن تأمينها أو تلاعبوا بها ، واساس فكرتهم انهم يريدون رفع مستوى الشعب من غير ان يضيعوا وقتهم في مناقشة المذاهب ، ويتهمهم اليساريون بأنهم من أنصار الرأسمالية المتطورة نوعاً ما كما يتهمهم اليمينيون المتطرفون بأنهم اشتراكيون مقنعون .

ب ـ **أما فيما يتعلق بالحرية** ، فهناك مفاهيم عديدة حول معنى الحرية ، لأن كل أمة أو فئة من الناس تنظر اليها من زاوية خاصة بها .

فقد فهمتها الشعوب المستعبدة بأنها التخلص من ربقة الاستعمار ، وهذا في رأينا تحرر وليس حرية ، وما التحرر الا بعض اوليات الحرية ومستلزماتها .

كما فهمها البعض بأنها صنو للديموقراطية، الا أن تصريف الشعب لاموره وحكم نفسه بنفسه ليس الا مظهراً من مظاهر الحرية ، هذا اذا كان اسهام الشعب في تصريفه لاموره اسهاماً كاملاً وحقيقياً .

ويشترك مع الغرب بالاخذ بهذا المفهوم دعاة الكتلة الشرقية ، ولعل هذا الرأي الخاطيء هـــو الذي يفسر لنا جنوح الكتلتين الى الاستهانة بحرية الافراد والمجتمعات والشعوب الاخرى ، ويؤكدون ان لا حرية هناك للفرد الا حرية تنبثق عن حرية الجماعة .

وفسر آخرون الحرية بأنها تحرر من ربقة الاقطاع والرأسمالية وهم في هذا يكافحون نوعاً معيناً من العبودية ولكنهم لا يحققون في الواقع المعنى الكامل للحرية ، لان التحرر الاقتصادي هو من مستلزمات الحرية وحسب .

بينما اعتقد آخرون بأنها التحرر الكامل من كل القيـــود والاعراف ، ومثل هذا لا يمكن تسميته بالحرية لنيله من حريات الآخرين وهو اقرب الى الفوضى منه الى اية تسمية اخرى .

وآخرون قدسوا الحرية الى حد منح الافراد كل الحقوق واعتبروا المواطن غاية مثلى لا يخضع اولا يجوز ان يخضع لاي قيد من القيـود ، الا انهم في انحيازهم الى الفرد وتقديسهم له يهملون المجتمع ويتجاهلون واجبات الفرد نحوه .

وفي رأينا أن للحرية معنيين مرتبطين ببعضها — اولهما الحرية المتعلقة بالفرد كفرد ، والحرية المتعلقـــة بالمجتمعات والمؤسسات التي تهم الفرد ، أي أن هناك مظهران متكاملان للحرية لا يكتمل احدهما ولا يكون حقيقياً دون الآخر .

والحرية الفردية قد تكون سياسية او اجتماعية ، وهي على هـــذا تتميز لا في محتواها فحسب بل بشكلها التعبيري — عن الحرية في الجماعات التي تحكم نفسها ذاتياً ، وعلى هذا فلا يمكن للحرية الاجتماعية أن

تكون ابداً بديلاً منطقياً وصحيحاً عن الحرية الفردية ، كما انه لا يمكن للحرية الفردية ان تكون بديلاً عن الحرية الاجتماعية (١) .

والحرية الى هذا لا تعني الفوضى ابداً(٢) كما أن الفرد قد لا يكون بالضرورة حرا حتى في مجتمعات قد تملك نظاماً كاملاً من التجمعات « الحرة » التي تحكم نفسها ذاتياً ، إذ أن هذه التجمعات قد تمرقل حريته بحيث لا تترك له مجالاً للخيار في التعبير عن ذاته .

وبعبارة أخري ، ان ما يدعى بالمؤسسات « الحرة » قد لا تحمل في طياتها الحرية الفردية بالضرورة وكذلك فان « الانفلات » الشخصي لا يؤمن الحرية الشخصية الحقيقية بل قد يكون في اكثر الاحيان سبباً في الاضرار بها .

والحرية في رأينا مهما تنوعت مظاهرها لن يكون لها معنى اذا لم يكن المقصود منها حرية الفرد « الانسان » ولا نقصد بهذا ان « يترك الانسان وشأنه » لان هذا المعنى للحرية يعتبر تجريداً لا وجود له ، وعلى هذا فالحرية لا تكون حرية اذا لم تنسب الى المجتمع الذي تتمثل فيه

---

(١) لجأنا الى تعبير الحرية الاجتماعية تجاوزاً وتمشياً مع الخطأ الدارج مع ايماننا المطلق بأن الحرية لا تتجزأ ، لذلك لا يجوز استخدام تعابير الحرية السياسية والاقتصادية او الاجتماعية حتى ولا الفردية والجماعية .

(٢) يؤكد البعض وجهة النظر الغربية بقولهم « الديموقراطية وقرينتها الحرية ليست مطلقة الى الحد الذي يؤدي بالمجتمع كله ولا بد وان تكون مقيدة بالصالح العام وسلامة المجتمع » وهذا القول جميل فعلاً ولكن هل لنا بأن نتساءل من ذا الذي سيضع الحدود ومن هو الذي سيحدد المدى الذي تقتضيه سلامة المجتمع ؟

لان المجتمع الحر لا بدّ وان يقدس الحرية في كل مكان ، وان يخلق المواطنين الاحرار ، وان يكون مع الحرية - دون شروط — فيستنكر العبودية انى كانت والاستعمار مهما كان شكله ولونه والضغط والاكراه واذلال الذات الانسانية .

والحرية الشخصية تكون عادة بسيطة وخارجية ، بينما تكون الحرية الاجتماعية مزدوجة ، خارجية وداخلية .

والحرية الداخلية للتجمعات تتكون من طابعها الديموقراطي الذي سنبحثه بعد قليل ، ومن طابعها التمثيلي الحق في اشكال الحكم والادارة ، أما حريتها الخارجية فتتكون من تحررها من التدخل الخارجي الذي يمنعها من أداء وظائفها .

أما الحرية الشخصية فهي ببساطة ، حرية الفرد في التعبير — دون تدخل خارجي — عن شخصيته ، عما يحب أو يكره ، ما يرغب وما لا يرغب ، عن آماله ومخاوفه ، عن حسه بالصواب والخطأ ، عن الجمال والقبح وما الى ذلك ...

ولكن مما لا شك فيه أن المساواة الاقتصادية قد اضحت شعاراً اليوم لرواد الحرية ، لانه لا يمكن قطعاً ايجاد ضمانة للحرية الفردية اذا لم يتحرر الفرد من مساوىء الطبقية والاستغلال . . . فتحرر الملايين من ربقة الرأسمالية والاقطاع معناه ولا شك تحرير ارادتهم ، هذه الارادة التي تنبثق عنها حريتهم الشخصية .

وان افضل الضمانات للحرية الشخصية هي - كما يقول البعض - وجود

الديموقراطية اليقظة (١) التي تسمح في كل اشكال التجمعات بالنقد البناء ، هذا النقد الذي يضعف ولا شك احتمال بروز الطغيان من جهة ، كذلك يضعف من امكانية سحق الحرية الشخصية تحت شعار التنظيم الاجتماعي من جهة أخرى. الا ان الكثيرين من الناس يخافون ان تضيع الحرية الشخصية في الاطر الديموقراطية الزائفة .

والديموقراطية تعني لدى العديدين من الناس تمثيل الانسان غيره أو عدداً من الآخرين . . . الا انه يجب أن نقر سلفاً بأنه ما من انسان يستطيع ان يمثل انساناً آخر ، كما انه لا يمكن اعتبار اية ارادة انسانية كبديل أو ممثلة للارادات الاخرى .

ان الديموقراطية الصحيحة تكون ابداً محدودة ووظائفية لا عامة وشاملة ، ومنبعها هو الفرد (٢) الذي يعتبر مركز الوعي والتعقل وارادة تملك قوة تحديد المصير الذاتي ... فكيف يمكن لانسان ما ان يكون نفسه

---

(١) عبدالرحمن البزاز ــ ابحاث في القومية العربية ص ١٧١ يقول « ان الديموقراطية التي ندعو اليها ليست شكلاً من الاشكال أو مظهراً من المظاهر ، انما هي ، بالدرجة الاولى فكرة وفلسفة حياة ، انها الايمان بالامة ككل، دون محاولة تأليه شخص أو فئة صغيرة ... ثم انها تقدير ورعاية لارادة الامة الصادقة .

(٢) ج.د.هـ. كول في كتابه ــ النظرية الاجتماعية ص ٧٤ وما يليها .

ويخالف الاستاذ عبدالرحمن البزاز هذا الرأي إذ يذكر في الصفحة ١٧٠ من كتابه ابحاث في القومية العربية ــ « ان الديموقراطية العربية اليوم تجد معينها الثر ... في مبدأي الشورى والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ... ويؤيد كلامه بتعداد الناس الذين قالوا بمثل هذا الرأي .

ويكون في الوقت ذاته عدداً من الآخرين ؟ ولو استطاع انسانا ما ذلك لاعتبر من صانعي العجائب ، لذلك كان من الخطر ان يبني نظام اجتماعي على عجيبة فرضية .

وطبيعي ان نذكر هنا ان تحرير الفرد إقتصاديا وسيلة اساسية لتحرير ارادته وجعله يمتلك قوة تحديد المصير الذاتي ، ولهذا فان الديموقراطية في اعلا مراتبها وأحسن اشكالها ليست الا جزءاً طفيفاً مما تعنيه الحرية ، وهي ليست ابداً صنواً لها .

ان الديموقراطية تعني اكثر من الموافقة السلبية للشعب على حكومته ، انها تعني المواطنية الايجابيه الواعية ، كما انها تعني اتاحة الفرصة للجميع في المشاركة الفعالية ، لا على صعيد الدولة فحسب ، بل وخلال كل التجمعات التي تهم المواطن شخصياً بحكم ظروف .

وان جميع اشكال الديموقراطية تفقد مضمونها اذا لم تكن المشاركة الجماهيرية فيها مشاركة فعلية في شؤون الحكم ، هذه المشاركة التي يجب ان تكون غاية للذين يديرون دفة التنظيم الاجتماعي ، ولا يعني هذا بحال من الاحوال ان يتسع عدد الناخبين غير الواعين ، بل ان معناه ان تزداد الفرص أمام الناس ليعبروا عن انفسهم بالشكل الذي يرغبون ، والا كان معنى الديموقراطية التي ندعو اليها اطاراً خارجياً بغير صورة ولنقل الحق ، ان بروز الشكل واختفاء المضمون هو مظهر الديموقراطية السائدة في كل مكان حتى اليوم .

ونحن إذ عرضنا الخطوط العامة في معنى الحرية واحد مظاهرها الديموقراطية لا بدّ لنا من ان نتبين آراء الناس في وطننا حول هذا الموضوع .

فمن الناس من يؤمن في بلادنا بضرورة اعطاء الحرية لسائر الافراد كيما يعبروا عن آرائهم وينتقدوا الحكومات ويدلوا بدلوهم في الشؤون العامة وينتخبوا المجالس النيابية التي يريدون ، واعتقادهم قائم على أن الفرد العربي عانى كثيراً من كبت حريته حتى كادت تنطفىء مواهبه وتضيع اصالته ، ومن الخير ان نشجعه على الانطلاق والاستفادة من تجاربه ولا مانع من ان يتعثر ويخطىء فان الشعوب لا تستفيد الا من اخطائها وان اية حكومة تريد ان تقيد الحريات ليست خيراً من الناس الذين تقيد حريتهم ، فلماذا تعطي نفسها هذا الحق ؟

ومن الناس من يرى ان الحرية الواسعة لا تـــلائم شعبنا ، والنظم البرلمانية اوجدتها اوروبا وقد تتفق مع مزاجها وربما نسجمنا في المستقبل مع الانظمة الديموقراطيـــة ، أما اليوم ونظراً لضمور الوعي في بلادنا ولانتشار الجهل فيها فقد تؤدي الحرية الواسعة الى الفتن ، وقد ينساق الشعب وراء الدعايات والاشاعات فيتخبط وينتخب من لا يعملون جدياً من من أجل مصلحته ، ولذلك فخير نظام في نظرهم هـــو النظام القائم على الحزم ، وقد يصل بعضهم الى تمجيـــد الديكتاتورية ويدعمـون نظرية المستبد العادل أو الفرد ذي الصلاحيـــات الواسعة والذي يتمتع بصفات تؤهله للحـكم والقيادة ، وقد يريد البعض ديكتاتورية فئة من الناس لا فرد واحد ، ثم يختلفون حول هذه الفئة فمنهم من يريدها حزباً يمينياً أو يسارياً ومنهم من يريدها من العسكريين ومنهم من يريدها من المثقفين .

وبين اولئك وهؤلاء يتأرجح انصار الحل الوسط او الديموقراطية الموجهة،الذين يريدون اعطاء الحرية في الكلام والصحافة والعمل السياسي للناس ولكن تحت اشراف الحكومة ، وحين تجري انتخابات فلا بدّ من توجيه الشعب

الذي لم يـع مصلحته بعد ، ولا بدّ من ابعاد اعداء الشعب في نظرهم عن كل معركة انتخابية ثم يسمحون للسلطة التنفيذية بأن يكـون لها بعض الصلاحيات الواسعة مع بقاء السلطة التشريعية التي ينتخبها الشعب الموجه ، وكسائر انصار الحلول الوسط بتهم اتباع الديموقراطية الموجهـة من قبل انصار الديكتاتورية بأنهم ممهدون للفوضى وضياع المصلحة العليا للوطن ، كما انهم يتهمون من قبل انصار الحرية الواسعة بأنهم يمهدون للديكتاتورية .

وفي رأينا أن النظام الذي يمكن ان يحقق ضمانة الحريتين الفردية والجماعية الناجمة عن مجموع حريات الافراد ؛ لن يكون شبيهـاً بالنظام الديموقراطي البرلماني الذي اخذت به دول عدة ، بل انما هو شكل من اشكال الحكم المحلي الذي يجعل الممثلين الشخصيين للناخبين على مقربة من ناخبيهم حيث تناقش المشاكل التي قد تنجم عبر تمثيلهم لهم ، مما يؤدي الى تحقيق ديموقراطية على مستوى فعّال .

وان الاخذ بمثل هذا النظام المقترح ، عدا عن انه سيحقق الحرية المرغوبة من كل المواطنين ، فانه سيؤدي بلا شك الى تقدم اجتماعي ، عن طريق ممارسة الحرية ، ويساعد على تحقيق ذاتية الافراد في بوتقة ديموقراطية حقيقية .

رابعاً ـ الانسانية :

لم يقتصر العرب على خدمة مصالحهم فحسب منذ وجدوا فقد اشتهر هذا الشعب بميله القوي الى المساهمـة في شؤون الانسانية كلها ودعم الحق كما يتصوره انى وجده .

والاتجاه الانساني الذي ينطلق على أساس القومية العربية لا يعني

اذابتها في دولة عالمية أو اعتبارهـا مرحلة في طريق تحقيق هذه الدولة ، فالمفكرون الذين يعتبرون القومية قاعدتهم ينظرون اليهـا كحقيقة اجتماعية جوهرية ستبقى موجودة الى الابد لأن تكوين النفس الانسانيـــة تجعل الافراد يتعاونون كمجموعات ينسجم أعضاؤهـا فيما بينهم (١) وهم يعتقدون ان الاتجاه الانساني للقومية معنـــاه دعمها للحركات التحررية في العـــالم ومساعدتهـا للمظلومين في كل صقـع واتجاههـا الى بناء الحضـارة البشرية المشتركة على قدم المسـاواة مع بقية القوميات ، وتكون القومية انسانية اذا ابتعدت عن التعصب فلم تضخم انانيتهـا ولم تنظر الى مصالحها وكأنها هي المصالح الوحيدة في العالم بل هي تحترم حقوق الآخرين وحـدودهم وتعاملهم على أساس المساواة ولا تحاول ان تمتص خيراتهم أو تستغل جهودهم من أجل الاكثار من ثروتها أو زيادة سلطانها .

القوميـــة الانسانية معـادية للاستعمار فهي تحاربه اذا وجد على ارضهـا (٢) ، وتطرده من وطنها ، وهي أيضاً تحاربه كلما استطاعت وحيثما حـــل لأن الاستعمار عدو الشعوب وقاتل مواهبهـا ومذل انسانيتها وهي تنأى بنفسهـا عن أن تستعمر غيرها لان المستعمر لا يسيء الى المستعمرين فحسب وإنمـا يسيء الى نفسه أيضاً إذ يضيـع فضائله الاخلاقية وينقلب الى بهيمة منحطة بدلاً من ان يكون انساناً سوياً ، لننظر الى المستعمرين من أبناء الدول الاوروبية انهم في سبيـــل المحافظة على استعمارهم يريقون الدماء ويدمرون البيوت ويحرقون المزارع ويتآمرون ويكذبون وينهبون أموال الناس ، وأية فضيلة للانسان تبقى بعد ان يمـارس كل هذه الرذائل ،

---

(١) راجـع بحثنا في فكرة القومية ومدلولها

(٢) القومية والانسانية ــ الدكتور عبدالله عبدالدائم .

ان علمه لن يفيده بل سيصبح أشبه بالمجرم المتمرن المستفيد في جرائمه من نتاج العلم ونظرياته.

واذا كانت القومية العربية مضطهدة في هذه الايام ولم تصل بعد الى حقوقها الكاملة فهذا لا يمنعها من أن تسهم في الركب الانساني اليوم ، لانها اعتادت على هذا الاسهام وأنارت قروناً عديدة من التاريخ الانساني وهي اذا تابعت العمل في سبيل الانسانية رسخت في نفوس أبنائها محبة الخير للجميع ونشأوا عليها مما يجمل مساعدة اخوانهم البشر من صلب تقاليدهم وعاداتهم ، وقد نسمع دعوات تنادي بأن العرب عليهم ان ينشغلوا بأنفسهم فقط وان الوقت الذي يستطيعون فيه المشاركة في الامور العالمية لم يحن بعد ، وترى هذه الدعوات ان الاقدام على العمل الدولي ومناصرة هذا الشعب أو ذاك سيهدر طاقاتنا ويبعثر جهودنا ويضيع كثيراً من الوقت الذي يجب أن نصرفه كله من أجل الوصول الى أهدافنا ، ويرى أنصار هذه الدعوات ان الاشتراك في ميدان المعارك الدولية سوف يكسبنا عداوات نحن في غنى عنها الآن وسيؤخر تحقيق مطالبنا وربما هوجمنا فلم يساعدنا أحد ممن نقدم في سبيلهم التضحيات فالافضل لنا أن نترك البشر على الاقل في هذه الايام يتفقون ويختلفون كما يشاؤون ويتعاونون ويتصالحون كما يريدون ويعتدي بعضهم على بعض أو يتفاهمون ريثما نصل الى تمام وحدتنا وتحررنا وحينئذٍ نستطيع أن نتقدم الى معترك الحياة الدولية ونحن واثقون من أنفسنا معتمدون على قاعدة متينة من القوة المتحررة المتماسكة ، وقد لا يجد أنصار هذه الدعوات مانعاً من أن نساوم على حرية الآخرين وحقوقهم اذا أدت هذه المساومة الى نيلنا بعض مطالبنا ، فالمهم هو أن نستفيد ، وقد يعتدل بعضهم فيكتفون بدعوتنا الى البقاء بعيد عن المشكلات الدولية المعقدة

والانشغال بامورنا الخاصة .

واغلب المفكرين القوميين يعارضون هذه الدعوات ويؤمنون بضرورة نصر الحق والعدالة في العالم كله منذ الآن ، لان الدول الاستعمارية متفقة فيما بينها على الشعوب وما لم تتناصر هذه الشعوب بعضها فان الاستعمار يستطيع أن يفترسها واحداً بعد الآخر ولا نعتقد اننا نستطيع الوصول الى تمام حريتنا طالما بقي الاستعمار قوياً في العالم إذ أنه يستفيد من استغلاله لخيرات البلاد المستعمرة ويقدر عن طريق القوة المتجمعة بين يديه أن يضرب الحركات التحررية في بلادنا ، ويجب أن نقر بأن استقلال سورية ولبنان لم يضعف الاستعمار في الوطن العربي وحده بل أضعفه في سائر انحاء العالم ، وكان لاستقلال الهند أثر كبير في تقوية الاتجاه التحرري لدى سائر الامم ويعتبر انتصارنا على المعتدين في معركة السويس انتصاراً على الاستعمار في كل بقاع الارض ، إذ وهنت من بعده عزيمة انكلترا وفرنسا كثيراً وتراخت ولو الى أمد محدود قبضتاهما على بقية الشعوب وكان من اثره الاسراع في تحرير الجزائر .

ولقد أكد انتصار الثورة الجزائرية نهاية الاستعمار الفرنسي ، كما ان ثورة كوبا كان لها دور كبير في تاريخ التحرر الانساني ، فالشعوب يجب ان تتعاون والضعفاء اولى بالتعاون من سواهم لانهم بحاجة الى مزيد من السواعد المتكاتفة حتى يتابعوا طريقهم ويحصلوا على حقوقهم ، واذا نسيت بعض الحكومات مساهمتنا في دعم شعوبها فان الشعوب لا تنسى وكلما قدمنا لامة من الامم معونة دخلنا في تاريخ تلك الامة كاصدقاء محببين الى ابنائها وكأنصار لحرية الانسان .

وكما ان واجبنا الانساني يطالبنا بمساعدة الآخرين فان تعاوننا معهم

يفيد مصالحنا ايضاً ، وقد افادنا مؤتمر باندونغ والمؤتمرات التي تلته فدعمتنا كثير من دوله ايام العدوان الثلاثي على مصر .

ويجب ان ننبه الى ان هذا التعاون قائم بين قوميات لن تذوب في بعضها وانما تبقى كل واحدة مختصة بميزاتها متمتعة باستقلالها ويخطىء الذين يضيعون الشخصية العربية في شخصية افريقية أو اسيوية أو شرقية ، ان الشخصية العربية قائمة بذاتها وتمد يدها لبقية الشخصيات القومية في القارتين الافريقية والاسيوية خصوصاً وفي سائر انحاء العالم للتعاون من اجل بناء سلم عالمي مبني على الحرية والمساواة .



ثبت بأهم المراجـع

الطاقة العربية	انور العقاد ـ سهيل عثمان حلب ١٩٦١
بعث الامة العربية ورسالتها الى العالم	زكي الارسوزي
زعماء الاصلاح في العصر الحديث	القاهرة ١٩٤٨
يقظـــة العرب	جورج انطونيوس ـ مترجم ـ
مختصر دراسة التاريخ	ارنولد توينبي
الحضارة في الميزان	〃 〃
الجذور التاريخية للشعوبية	الدكتور عبدالعزيز الدوري
القومية والانسانية	الدكتور عبدالله عبدالدائم
التربية القومية	الدكتور عبدالله عبد الدائم
القومية العربية امام تصارع الاضداد	الدكتور محمد مجذوب
دراسات في الاشتراكية العربية	الاستاذ ميشيل عفلق ورفاقه
الاشتراكية العربية والاشتراكيات العالمية	الدكتور محمد طلعت عيسى
الحريـة	الدكتور منيف الرزاز
دفاع عن القومية	ساطع الحصري
ما هي القوميـــة ؟	ساطع الحصري
آراء واحاديث في الوطنية والقومية	ساطع الحصري ١٩٤٤
محاضرات في نشوء الفكرة القومية	ساطع الحصري

الحولية الثقافية	ساطع الحصري السنة الثالثة ١٩٥٣
حول الوحدة الثقافية العربية	ساطع الحصري
الولايات المتحدة اليوم	اندريه سغفريد
الماركسية والمسألة القوميــــة	ستالين
المسألة الدينيـــة والقوميـــة	ستالين
سلافـــة العصر	طبع استامبول لمؤلف مجهول
ابحاث في القومية العربية	عبدالرحمن البزاز
الكامل في التاريـخ	الجزء الاول ابن الاثير
مذاكرات وايزمان	حاييم وايزمان
هذا العالم العربي	نبيه امين فارس
في علم السكان	الدكتور عبدالكريم اليافي
مطالعات في المجتمع الريفي	مغربل وعقاد ـ جامعة حلب ١٩٦٤
المجتمع الريفي	الدكتور امام سليم ـ القاهرة
احوال السكان في العالم العربي	الدكتور عزة النص
سكان المجتمع العربي	الدكتور احمد الخشاب
معالم الحياة العربية الجديدة	الدكتور منيف رزاز
المجتمع ومشكلاته وخدمة البيئة	جوزيف كبه ورفاقه
شمس العرب تسطع على الغرب	زغفريد هونكه ـ مترجم/١٩٦٤/
الامارات السبع على الساحل الاخضر	زين الدين السقاف
مقدمة ابن خلدون	ابن خلدون
المطول في تاريخ العرب	فيليب حتي
البيئة والمجتمع	الدكتور محمد السيد غلاب
العلائق الاجتماعية في الشرق الاوسط	ستيوارد دود ١٩٤١
مشكلة السكان في العالم (من مالتوس الى ماوتسي تونغ)	الفريد سوفي

النظرية الاجتماعية ج. د. ه. كول
وجها لوجه مع القومية العربيه جاك بولان
وضع التنمية الاقتصادية هارتشورن ـ نيويورك ١٩٥٩

Geopolitique de la fin – José di Castro
Le Grand Espoir XX Siècle Jean Forastier .

محتويات الكتاب

الصفحـة

الصفحـة

تنبيه : وقعت سهوا بعض الاخطاء المطبعية فنرجو المعذرة

129

